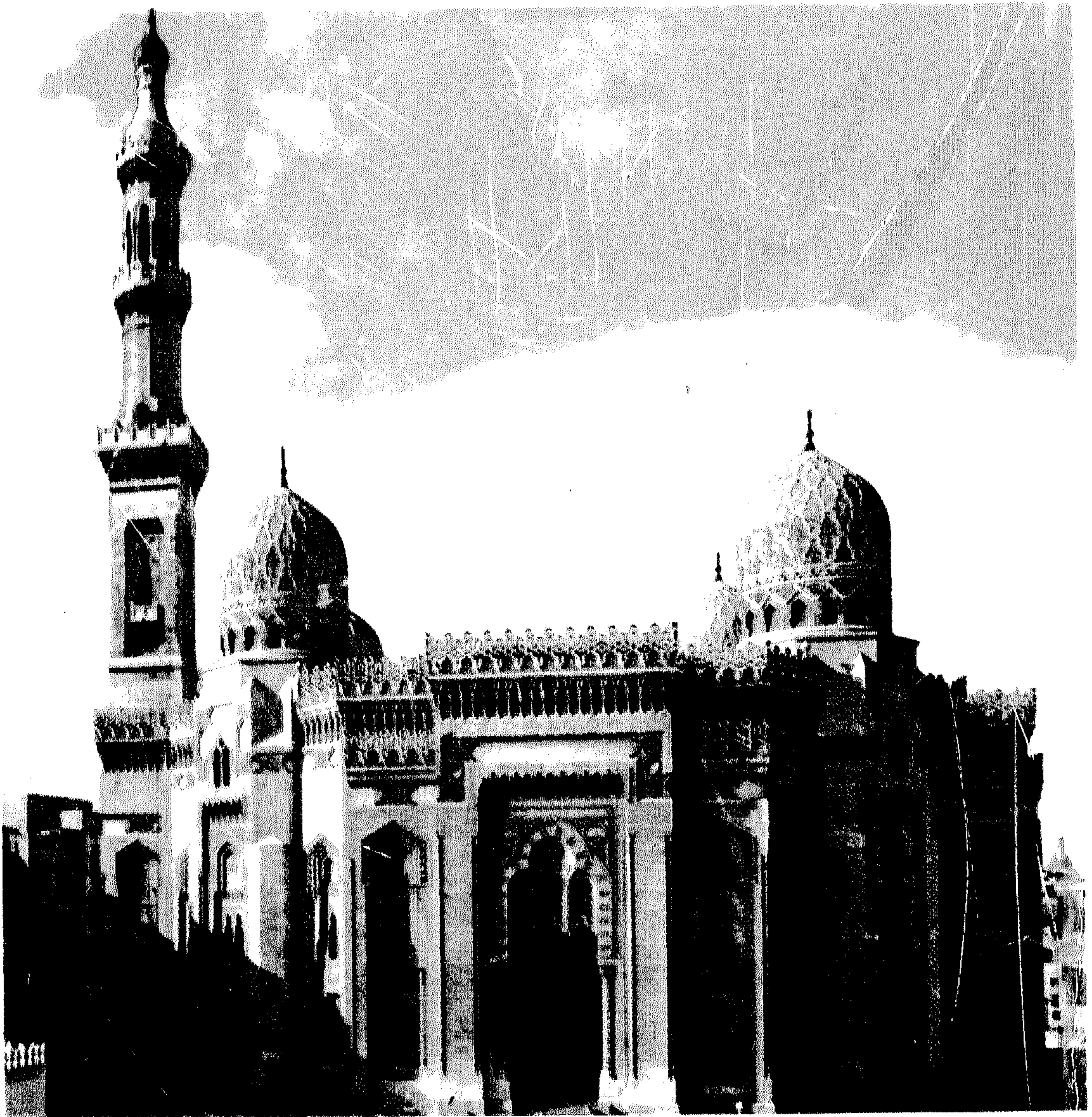


تاريخ الإسكندرية وحضارتها

في العصر الإسلامي



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ الإسكندرية

١٩٨٢

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د. رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد الغفر بن سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

١٩٨٢

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

حضيت الإسكندرية العاصمة القديمة لمصر البطلمية والرومانية بعناية المؤرخين والجغرافيين القدامى منهم والمسلمين ، فزارها عدد كبير منهم في العصور المختلفة وجرهم تخطيطها ونظام شوارعها ، فامتدحوا مبانيها وعبروا عن إعجابهم بروائعها ، ووصفوا عمرانها الزاهر وآثارها العظيمة التي احتفظت بها الإسكندرية في العصور اليونانية والرومانية والعصور الوسطى . وكان ممن زارها ووصفها المؤرخ بوليبيوس في العصر اليوناني ، والجغرافي سترابون في بداية العصر الروماني . أما في العصر الإسلامي فقد كانت مركزاً من مراكز الرحلة لما احتوته من عجائب وغرائب ، فزارها في هذا العصر جمهور من الرحالة المسلمين والمسيحيين على السواء ، سحرهم بياض أبينتها (١) ، ونظافة شوارعها ، واستقامتها ، وكثرة آثارها ، وسجلوا إعجابهم بهذه الآثار في كل ما كتبوه من توالييف ، وزعموا أنها « إرم ذات العماد التي لم يخلق

(١) يقول ياقوت الحموي : « أما صفة بياضها فهو إلى الآن موجود ، فإن ظاهر حيطانهم تناهدناها سبيضة جميعها إلا اليسير النادر لقوم من الصعاليك » انظر ياقوت ، معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٦ . وقال ابن عبد الحكم في ذكر بياض مبانيها : « أن ذا القرنين لما بنى الاسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرانها وأرضها ، وكان لباسهم فيها السواد والحمر ، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوغ بياض الرخام ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام » . (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عاصر ، القاهرة ١٩٦١ ص ٦١ — المقرئ ، المخطوط ج ١ ص ١٤٨ ، ١٥٠ — السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧ . راجع أيضاً النويري السكندري ، الامام بالاعلام بما جرت به الأحكام صورة شمسية بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، رقم ٧٣٧ م ورقة ٢٧٢ عن النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة

مثلها في البلاد « (١) ، ولذلك لا يخاو كتاب من كتبهم من وصف آثارها البطلمية والرومانية مثل المنار ومسلتي كليوباتره وعمود السوارى والشوارع المقنطرة (٢) المرصوفة بالبازلت والمفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون . ومن زارها من الرحالة في العصور الوسطى : ياقوت الحموى ، وابن رشيد السبتي ، وابن سعيد المغربي ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وناصر خسرو ، والعبدى ، وبنيامين التطيلي . . . إلى آخره .

(١) ذكر ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة أن الذى بنى الاسكندرية شداد بن عاد ، وقال ابن لهيعة : بلغنى أنه وجد حجر بالاسكندرية مكتوب فيه ، « أنا شداد بن عاد وأنا الذى نصب العماد ، وحيد الأحياد وسد بذراعه الواد » (ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عاصر ص ٦٠ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧) ويذكر المقرئى أن الاسكندرية اصاب فى الاسكندرية « اثر بنيان وعمد كثيرة من الرخام وفى وسطها عمود عظيم عاياه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الأول من حمير وملوك عاد : أنا شداد بن عاد ، شددت بساعدى الواد ، وقطعت عظيم العماد وشمواخ الجبال والأوطاد وبنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . (الخطوط ج ١ ص ١٤٩) .

(٢) ذكر المقرئى أن « أسواقها وشوارعها وأزقتها كانت مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر » (المرجع السابق ص ١٥٠) . ولقد أعجب الرحالة المسلمون بشوارع الاسكندرية ، فقد ذكر ياقوت الحموى عن الأزهري بن سعيد أنه قال : « قال لى عمر بن عبد العزيز أين تسكن من مصر ، قلت أسكن الفسطاط ، فقال أف أم تن ، أين أنت عن الطيبة . قلت أيتها هي ، قال الاسكندرية . » (أنظر معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٢٥٨) وذكر ابن حوقل النصيبى : أن للاسكندرية « طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون » (ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥١) ووصف ابن جبير الأندلسى شوارعها فقال : « ما شاهدنا بلدا أوسع ، سالك منه ولا أعلى ، بنى ولا أحفل منه » (الرحلة ص ٤) . كذلك شاهدها صاحب كتاب « الاستبصار فى عجائب الأسفار » فى القرن السادس الهجرى ، وعبر عن إعجابه بعمرائها واتساع شوارعها بقوله : « والاسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها ، واتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها » (الاستبصار فى =

وهكذا اهتم المؤرخون القدامى والمحدثون بدراسة تاريخ هذه المدينة في العصرين اليوناني والروماني ، وذكر آثارها القديمة ، في حين لم يلق تاريخها الإسلامى منهم إلا عناية شاحبة هزيلة لا تشبع هوى الباحث أو الدارس لتاريخها هذا . كذلك لم تلق الإسكندرية في العصر الإسلامى العناية والاهتمام اللذين لاقتهما مدينة القاهرة مثلا ، ولعل ذلك يرجع إلى الطابع اليوناني الذي كانت تتميز به الإسكندرية رغم تعريبها ، أو إلى ضياع الجزء الأعظم من معالمها الإسلامية بسبب تطور عمرانها وتجدد هذه المعالم . وهكذا ظل جانب هام من تاريخ هذه المدينة العظيمة مهملا حتى ظهرت الأبحاث القيمة التي نشرها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال والأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة والأستاذ حسن عبد الوهاب ، فكشفت هذه الأبحاث القيمة عما خفى من هذا التاريخ . ومع ذلك فإزال تاريخ هذه المدينة في العصر الإسلامى في حاجة إلى المزيد من الأبحاث العلمية ، خاصة بعد أن أسفرت الأبحاث الأثرية في أرض الإسكندرية عن كشف أجزاء من سورها الإسلامى مما قد يساعد على إعادة تخطيط المدينة كما كانت في هذا العصر .

ولقد تنبّهت جامعة الإسكندرية إلى أهمية دراسة تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامى ، وحرصت على تدريسه بكلية الآداب منذ العام الماضى لإتصاله اتصالا مباشرا بالتاريخ العام لمصر الإسلامية ، ولعلاقته الوثيقة بتاريخ الدول الأوروبية المطللة على البحر المتوسط ، وللدور الرائع الذي لعبته مدينة الإسكندرية في المجال العلمى والسياسى والاقتصادى في مصر منذ الفتح العربى حتى العصر الحاضر .

== عجائب الأسفار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ، ١٩٥٨

ولقد كان لى الفخر فى تدريس هذه المادة لأول مرة فى العام الدراسى
١٩٥٩ — ١٩٦٠ فرأيت أن أجمع هذه المحاضرات وأنشرها فى هذا الكتيب
حتى يتيسر لطلاب الجامعة الاستفادة منها على أكمل وجه.

والله أسأله التوفيق .

السعيد عبد العزيز سالم

الإسكندرية فى فبراير سنة ١٩٦١ .

مقدمة الطبعة الثانية

منذ أن صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، بدأ اهتمام الباحثين في التاريخ الإسلامى والوسيط يتزايد بتاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، وبدأت أضواء البحث والدراسة تتركز عليها ، فظهرت بحوث جديدة فى تاريخها الإسلامى ، أهمها : مقالان وردا فى الكتاب الذى أصدرته محافظة الإسكندرية فى سنة ١٩٦٣ : الأول للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الإسكندرية ، بعنوان « الإسكندرية من الفتح الإسلامى إلى بداية العصر الفاطمى » ، والثانى لى بعنوان « تاريخ الإسكندرية وحضارتها من العصر الفاطمى إلى الفتح العثمانى » ، ثم كتاب لى أيضاً بعنوان : « تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى » وهو بحث قصير حرصت فيه على الإحاطة بالتخطيط والعمران السكندرى فى هذا العصر ، حتى يتيسر للباحث فى تاريخها الإلمام بالتطورات التى طرأت على نظامها التخطيطى والعمرانى منذ تأسيسها ، وقد صدر هذا الكتاب فى بيروت فى سنة ١٩٦٣ ، ثم كتاب ثالث بعنوان : « أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى » لأستاذنا الراحل المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال المؤرخ العالم الذى فقدناه.

وكان من الطبيعى أمام هذه البحوث الجديدة أن أهتم فى طبعى الثانية بأجراء بعض التعديلات فى الطبعة الأولى ، فقامت بإضافة فصول فى تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى يمكن أن تملئ اللثام عما خفى من هذا التاريخ والدور الحضارى الهام الذى لعبته الإسكندرية أعظم ثغور مصر الإسلامية فى العصر الوسيط ، ويكشف فى آن واحد عن عظمة تاريخ الإسكندرية الحافل بالأحداث ، وروعة التراث الإسلامى الذى يتمثل فيما

تبقى من آثارها . وقد حاولت في هذه الطبعة الجديدة أن ألقى مزيداً من الضوء على طبوغرافية المدينة في العصر المملوكي ، وعن معالم جديدة أمدتنا بها المصادر العربية ، فإني في الطبعة الأولى ، كما فات غيري ممن كتب عن هذا العصر تسجيلها وتحديد مواضعها على خريطة المدينة . ويرجع الفضل الأكبر في تحديد هذه المعالم إلى ما زودنا به النويري السكندري في « صنفه العظيم » الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية » ، والذي لا يزال بعد مخطوطاً لم يشهد أضواء النشر والتحقيق ، وقد استقيت قسماً كبيراً من هذه المادة من الصورة الشمسية لمخطوطة الهند التي قام بنسخها السيد درويش النخيلي المعيد بقسم التاريخ وتفضل مشكوراً بإطلاعى عليها ، كما استقيت قسماً منها من الصورة الشمسية لمخطوطة النويري المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٤٩ ت والنسخة المصورة منها المحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ٧٣٧ م . أسأل الله أن يوفقنى فيما أنا بسبيله والله الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الإسكندرية في ٧ أغسطس ١٩٦٨ .

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي

كان الاسكندر الأكبر يؤمن كل الإيمان بتفوق الحضارة الإغريقية على غيرها من الحضارات المعاصرة لها ، فعمد لذلك إلى نشر هذه الحضارة في البلاد التي تغلب عليها ، ودخلت في فلك الإمبراطورية اليونانية . وكان لابد له أن يؤسس لهذا العالم المتأغرق مركزاً حضرياً يحقق له غايته من نشر وإشعاع الحضارة الهلينية في بلاد الشرق القديم (١) . فلما افتتح صور في يوليو سنة ٣٣٢ ق.م. بعد حصار دام سبعة شهور ، زحف إلى مصر ودخلها ، ولم تستطع قوات مازاكيس الوالي الفارسي على مصر أن تقف أمام جيوشه ، فاستسلمت لها دون قتال (٢) ، ورحب به المصريون وتوجوه ملكاً على مصر في معبد الإله بتاح بممفيس (٣) . ولم يكن الإسكندر يهدف من وراء فتحه لمصر

(١) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٣ — زكي على : الاسكندرية في عهد البطالمة والرومان : مقال في الكتاب الذي قدمته الغرفة التجارية بالاسكندرية بالمعرض الزراعي الصناعي سنة ١٩٤٩ ص ٣٥

(٢) آيديرس بل ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين والدكتور عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٦٠ — محمد عواد حسين ، مقدمة لتاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، كتاب محافظة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ص ١١

(٣) Breccia, Alexandria ad Ægyptum, p. 24 — زكي على : المرجع

تمكن فتوحاته في آسيا الصغرى والساحل السوري فحسب ، بل كان يرمى إلى تأسيس مركز للحضارة الهلينية فيها ، يحقق له غايته من إشعاع هذه الحضارة في بلاد الشرق القديم ، وقاعدة بحرية تهيب له السيطرة الفعلية للساحل الشرقى للبحر المتوسط خاصة بعد أن تهدمت ميناء صور (١) ، وتكون في ذات الوقت ثغراً مقدونياً يخالف صور في العالم التجارى . وقضى لاسكندر فصل الشتاء في منفيس ثم ركب فرع النيل الغربى المعروف بالفرع الكانوبى (٢) متجهاً إلى واحة آمون المعروفة اليوم بسيوة ، فوصل مصب هذا الفرع الكانوبى في كانوب ، ورحل بعد ذلك إلى بحيرة مريوط ، ومنها أدرك قرية ساحلية تقع على بعد أربعين ميلاً شمال نقراطيس لا يسكنها إلا نفر من صيادى الأسماك ، وكانت هذه القرية تعرف باسم راكوتيس Rhakotis (٣) (راقودة عند العرب) . ويذكر آريان أنه اختار هذه البقعة لتأسيس المدينة التى سماها باسمه قبل أن يرحل لزيارة معبد آمون . وقدر لهذه المدينة الخالدة أن تصبح من أعظم مدن العالم كما قدر لها أن تراث مدينة صور فيما بلغته من ازدهار اقتصادى .

وذكروا في تبرير اختيار الاسكندر لهذا الموقع بالذات أن هذا الميناء لا يتعرض للتيارات البحرية في شرق حوض البحر المتوسط التى كانت تدفع الرواسب النهرية التى يحملها النيل إلى مصبه نحو الشرق ، وأن هذه

(١) محمد عواد حسين ، مقال عن تخطيط المدينة في كتاب محافظة الاسكندرية

(٢) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ، ١٩٤٢ ص ٥

(٣) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر

البطالة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد الثانى ١٩٤٤ ص ١٢١ —

١٢٢ ، الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ، ص ٣٤

الرواسب كانت تهدد بسد الموانى ، الواقعة على البحر شرقى الدلتا ، ولعل الاسكندر فطن إلى الفائدة الكبرى من وجود جزيرة فاروس على مقربة من شاطئ عراقودة ، ولعله كان ينوى أن يتخذها حاجزا طبيعياً يحمى الإسكندرية من أنواء البحر وعواصفه (١) . كذلك أدرك الاسكندر أهمية وجود بحيرة مريوط إلى الجنوب ، وهى بحيرة عذبة كانت تصل إليها مياه النيل عن طريق قنوات تتفرع من ترعة شيديا ، وكانت تحتشد فيها السفن القادمة من جنوب مصر . وبالإضافة إلى كل ذلك كانت مياه النيل تصل إلى المدينة عن طريق ترعة شيديا التى تتفرع من الفرع الكانوبى عند شيديا (٢) ، كل هذه الأسباب دفعت الإسكندر إلى اختيار هذه القرية موضعاً للمدينة الاسكندرية (٣) . ويرى الأستاذ زكى على أن هناك عوامل مختلفة أدت إلى اختياره هذا بعضها عوامل ذات طابع اقتصادى وأخرى ذات صبغة حربية وسياسية ، فقد كان موقع الإسكندرية شبيهاً بميناء صور الحصينة ، وأن الشبه استلقت نظر الاسكندر الذى كان ينشد تأسيس ميناء حصين يسيطر من حيث موقعه الاستراتيجى على شرق حوض البحر المتوسط ، ويتحكم فى الطرق التجارية العالمية فى آن واحد ، باعتباره مركزاً للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقى (٤) . ويأتى الأستاذ زكى على

(١) السيد عهد العزيز سالم ، تخطيط الاسكندرية ، ص ٣٩

(٢) تتفرع هذه التربة إلى فرعين عند حجر النواتية يسير أحدهما فى محاذاة الشاطئ إلى كانوب (أبى قير) بينما يتجه الآخر إلى الاسكندرية ويدور جنوب المدينة ثم يصب فى الميناء الغربى المعروف بالصندوق وإن كان برشياً يعتقد أن هذا الفرع كان يصب فى الميناء الشرقى (ص ٧٨)

(٣) زكى على ، الاسكندرية : تأسيسها ... ص ١٣٥ ، فؤاد فرج : الاسكندرية ،

١٩٤٢ ، ص ٥

(٤) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها ص ١٣٨ — ١٤٥ ، الاسكندرية فى عهد

البطالة والرومان ، ص ٣٥

برأى آخر في مقاله عن « الإسكندرية في عهد البطالمة والرومان » ، فيذكر أن راقودة كانت تؤلف المنفذ الرئيسي بين مصر وممالك البحر المتوسط ، والمركز التجاري الهام مع بلاد الإغريق في عصر الأسرات السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين ، وأنها كانت أسهل للاتصال بالأمم الإغريقية من الفرما مما دفع الإسكندر إلى إختياره لموقعها حتى يقيم عليها مدينته الجديدة (١) ، ويرجح بريشيا أن اختيار الإسكندر لهذا الموقع جاء نتيجة لقربها من نقراطيس المركز التجاري الهام ، ولمواجهتها لجزيرة فاروس (٢) . ويرى الدكتور إبراهيم نصحي أن الاسكندر ، فيما يظهر ، قد هدف من إنشاء الإسكندرية في هذا الموقع أن يجعلها ثغراً مقدونياً يخلف صور في العالم التجاري ، خاصة وأن مصر لم تكن لها موانئ جديدة بها على شواطئ البحر المتوسط (٣) . على أن الدكتور إبراهيم جمعة يرى أن فكرة بناء الإسكندرية جاءت عفواً خاطره ، لأنه حين استولى على صور لم يكن قد فكر بعد في تأسيس مدينة الإسكندرية ، وأن بناء الإسكندرية لا علاقة له بأغراض تجارية (٤) . إلا أنه مما لا شك فيه أن الإسكندر ضمن لمدينته أن تكون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب وهو ما كان يسعى جاهداً إلى تحقيقه بعد أن اتسعت امبراطوريته وأصبحت تضم آسيا الصغرى وفينيقية وفارس ومصر ، وقد تحقق ذلك بالفعل في العصر البطلمي عندما أصبحت مصر مرفقاً ومركزاً للصادرات والواردات (٥)

(١) زكي على : الاسكندرية في عهد البطالمة والرومان ص ٣٤ ، ٣٥

(٢) Breccia, Alexandria Ad Ægyptum p. 25

(٣) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ج ١ ص ١٣

(٤) إبراهيم جمعة : جامعة الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٢٣

(٥) لطفي عبد الوهاب ، المرجع السابق ص ٣٥٣ - ٣١٠

وملتقى طرق التجارة العالمية ، ويدل اختيار الإسكندر لهذا الموقع على بعد نظره وحسن تقديره ، فكانت راكوتيس التى اختارها لهذا الغرض لا تعدو أن تكون شريطا ساحليا ضيقاً يقع بين البحر شمالا وبحيرة مريوط جنوباً ، وتشرف عليه جزيرة فاروس الصخرية من الشمال ، وتقوم بمثابة حاجز طبيعى لحماية الميناء من طغيان البحر وأنوائه . ويذكر جاستون جوندتيه Jondet أن بقايا الأرصفة التى كشف عنها فى قاع البحر بالقرب من جزيرة فاروس تدل على أن جزيرة فاروس كانت تستخدم كميناء قديم منذ عهد رمسيس الثانى وظيفته حماية مصر من طغيان سكان البحار ، ويستند جوندتيه إلى ضخامة الأحجار وتشابهها بأحجار الأبنية الفرعونية (١) . والواقع أننا لا يمكن أن نقطع برأى فى هذا الموضوع ما دمنالم نفحص هذه الآثار ، على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الأحجار من بقايا معبد السيرابيوم ، فقد ذكر المقريزى فى الخطط . « أنه كان حول (عمود السوارى) نحو أربعمئة عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورمها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا » (٢) ، أو من بقايا الأهرامات الصغيرة التى هدمها صلاح الدين واستخدم أحجارها فى بناء الأسوار والقلعة. (٣) وعهد الإسكندر إلى المهندس دينوقراطيس Denokrates

(١) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos,

M.I.E. vol. IX, le Caire 1916.

زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٤

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٩

(٣) شاهد ابن جبير سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) « المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق وبها موضع السجن الذى كان فيه وهو الآن ينقض وينقل أحجاره إلى القلعة المبتناة الآن على القاهرة » ص ٥٧ . وشاهد أيضاً موضعاً فى سنية ابن الخصيب =

بتخطيط الإسكندرية وتولى كليونمينس النقراطيسى Cleomenes الإشراف على أعمال البناء ، إذ كان يقوم بإدارة الشؤون المالية في عهد الاسكندر (١) . وقام دينوقراطيس بتطبيق نظام التخطيط الإغريقى الذى ابتدعه هيبوداموس الميليطى Hippodamus في القرن الخامس قبل الميلاد وطبقه في رودس وهاليكارناسوس (٢) ، ويتميز هذا النظام بتقسيم المدينة إلى شوارع مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة بحيث يتألف من ذلك ما يشبه رقعة الشطرنج (٣) . على أن تخطيط الإسكندرية لم يتم في حياة الإسكندر ، إذ توفي في ١٣ يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. بمدينة بابل وهو بعد شاب في سن الثالثة والثلاثين . وبموته يبدأ عصر

تسميه أنصنا « كان لها سور تتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفه من حمل صخره إلى القاهرة فنقل بأسره إليها » ص ٥٨
وذكر الشيخ عبد اللطيف البغدادى المتوفى عام ٦٦٨ هـ أنه كان بالجيزة عدد كثير من أهرامات حجرية صغيرة « فهدست في زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب على يدى قراقوش أحد الأسراء ، وكان خصياً رومياً ساسى المهمة ، وكان يتولى عمائر مصر ، وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطة بالنسطاط والقاهرة وما بينها وبالقلعة التى على المقطم وأخذ حجارة هذه الأهرامات الصغار » أنظر عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار في الأسور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٨٧٠ ، ص ٢٣ .

(١) Breccia, Alexandria ad Ægyptum, p. 26.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨

(٣) إبراهيم نصبحى : تاريخ مصر في عصر البطلمة ج ١ ص ٣٢٤ — زكى على : الاسكندرية في عهد البطلمة والرومان ص ٤٢ . ولقد لاحظ مؤرخو وجغرافيو العرب هذا النظام فأشار إليه ياقوت صاحب المعجم فقال « وهى شطرنجية ثمانية شوارع في ثمانية » المجلد الأول ص ٢٦٠ . وظل هذا النظام قائماً حتى أيام المماليك فقد وصفه ابن شاهين الظاهرى بقوله « وهى مدينة مركبة على عمد ، وشبهها بعضهم برقعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض » أنظر كتاب زبدة كشف الممالك ، ص ٤ .

جديد هو العصر الهلينستي (٣٢٣ - ق.م. ٣١ ق.م.) نغنى به عصر الحضارة المتأغركة أو الحضارة الإغريقية التي اكتسبت كثيراً من الصفات المحلية أو العناصر المشرقية ، فابتعدت بعض الشيء عن صفاتها الأصلية وهي الصفة الهلينية . وانتشر هذا النوع من الحضارة في النواحي الشرقية للإمبراطورية الإغريقية ، ولكن مصر امتازت عن غيرها من البلاد المتأغركة وأصبحت تحتل المركز الأول لهذه الحضارة من جميع الوجوه (١) .

حاول قواد الإسكندر أن يتفوقوا في بابل على تنصيب خلف للإسكندر ، ولكن اتفاقهم لم يكن إلا ظاهرياً ، إذ أجمعوا أخيراً على تنصيب أخ غير شرعى للإسكندر كان مصاباً بالصرع والبله اسمه أرهيداىوس الذى لقب بفيليب ، والاعتراف بحق روكسانا الفارسية زوجة الإسكندر في إشرافها - إذا جاء ذكراً - مع فيليب في شؤون الملك ، وتعيين برديكاس الوصاية عليهما (٢) . وقام برديكاس الذى كان يسعى جاهداً إلى السيطرة على عرش الامبراطورية بمهمة توزيع حكم ولايات الامبراطورية بين القواد ، ففتح حكومة مصر لبطليموس بن لاجوس الذى عرف باسم سوتر أو المنقذ ، وكان يطمع في الظفر بها ، نظير اعترافه بمركز برديكاس كوصى على الملكين ، كما عين صديقه كليومينس النقراطيسى مساعداً لبطليموس في مصر . وشرع بطليموس حكمه في منف بالتخلص من كليومينس

(١) ابراهيم نصيحى : تاريخ مصر في عصر البطالة ج ١ ص ٢٠ - لطفى عبد الوهاب : مقدمة الحضارة الاسكندرية ص ٤ ، ١٧ - زكى على : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٩٤

(٢) لطفى عبد الوهاب ، يمينى ، دراسات في تاريخ مصر، ج ١ ، عصر البطالة، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١١٠

حتى لا يكون رقيباً عليه ، خاصة وأنه كان يهدف إلى الإستقلال بمصر عن الإمبراطورية ، فأمر بقتله ومصادرة أمواله . وازداد نفوذ بطليموس بعد ذلك عندما استولى على برقة سنة ٣٢٢ ق.م. وضمها إلى أملاكه ، وأثار بذلك غيرة زملائه وعلى الأخص برديكاس الذى غضب لقتل كليومينس . وكانت الفتن قد اشتعلت في سائر أنحاء الإمبراطورية ، ودبت الانقسامات بين أفراد الأسرة المالكة ، وازدادت مطامع الولاة في الإستقلال ، وقامت بينهم الحروب ، وقنع بطليموس بتتبع هذه الأحداث من بعيد ، فانتهاز فرصة انشغال برديكاس في آسيا وانفق مع أرهابايوس سرّاً على الفوز بجثة الإسكندر التى قرر اجتماع بابل في يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. دفنها في مقدونية . ويبدو أنه كان يهدف من وراء ذلك إلى تدعيم مركزه السياسى والروحى في مصر إذ كان المقدونيون والإغريق ينظرون إلى الإسكندر نظرة أقرب ما تكون إلى التأليه . وكان قواد الإسكندر قد عهدوا إلى أرهابايوس بمهمة إعداد التابوت الذى توضع فيه الجثة ، وتنظيم احتفال كبير لدفنها في إيجى Aeges (١) . وفى أواخر عام ٣٢٢ ق.م. وصلت جثة الإسكندر إلى سوريا ، تمهيداً لإرسالها إلى مقدونية ، فانتقل بطليموس إلى هناك ، ونجح بمساعدة قائد الحامية في نقل جثة الإسكندر (٢) إلى مصر ، حيث دفنها بادیء ذى بدء في منف ، ريثما يتم بناء مقبرة لها في الإسكندرية فيدفنها هناك . وكان ظفر بطليموس بجثة الإسكندر كسباً سياسياً له وطد مركزه ، ودعم منصبه كوريث للإسكندر في مصر ، كما كان صفقة لبرديكاس وتحدياً له . وكان لابد لبرديكاس من كسر شوكة بطليموس والقضاء عليه باعتباره أشد خصومه وألد أعدائه ، فأعد الحملات

(١) ابراهيم نصيحى : تاريخ مصر في عصر البطالمة ج ١ ص ٣٤

(٢) لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ١٢٢

إلى مصر، وحاصرت قواته بيلوز في سنة ٣٢١ ق.م.، ولكنه فشل في اقتحامها، وثار عليه جنده وقتلوه. وهكذا أخفق في سياسته، وراح ضحية أطماعه. وبموت برديكاس ثبت بطليموس على عرش مصر، وأخذ يعمل على تقوية دعائم استقلاله، والاتجاه بسياسة مصر نحو البحر المتوسط الذي أخذ يؤلف مركز الحضارة، بعد أن كانت تتجه فيما مضى إلى آسيا، فعقد أحلافاً مع جزر شرق البحر المتوسط، وأعد نفسه لاختيار الإسكندرية عاصمة له في مصر باعتبارها أصلح المدن المصرية لتوجيه سياسته وسياسة خلفائه الدفاعية. وفي سنة ٣١٩ ق.م. هاجم جنوب سوريا واستولى عليه؛ إذ كان يطمع في غاباته الغنية لاستخدام أخشابها في بناء أسطوله، تمهيداً لاصطناع سياسة بحرية.

وتألفت الحياة الإقتصادية في مصر في عهده ونمت موارد الدولة، فاستغل ما لديه من أموال في تجميل الاسكندرية، واستكمال عمرانها، وإعدادها لتكون جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد، وبويرة للحضارة الإغريقية، فأقام بها الأبنية العظيمة، وسار على نهج الإسكندر في مصادقة المصريين دينياً، إذ كان قد أسس في الإسكندرية معبداً للإلهة إيزيس المصرية حتى يوفق بينه وبين المصريين. وفي نفس الوقت أقام معابد أخرى للآلهة اليونانية، فحرص بطليموس على إيجاد دين مشترك يربط بين الشعب اليوناني والشعب المصري ويقرب بينهما. فجعل للبلاد معبوداً جديداً اسمه سيرابيس Serapis، وأقام له معبداً عظيماً جنوبى الإسكندرية في الحى الوطنى الذى كان يعرف براكوتيس (١).

(١) زكى على، الاسكندرية: تأسيسها ص ١٥٥ — الاسكندرية في عهد البطالة

ازدهرت الإسكندرية في عصر البطلمة ، واتسعت مرافقها ، ونمت عمائرها ، وأقيمت فيها المنشآت الحليفة الرائعة وأصبحت تفوق غيرها من المدن اليونانية الرومانية ، خاصة بعد أن نقل إليها بطليموس جثة الإسكندر ودفنها في السينا . لقد حرص بطليموس سوتر على تزويد الإسكندرية بكل ما كانت تحتاج إليه من تزيين وتنميق ، لاستكمال عظمته ، فربط بين جزيرة فاروس وبين المدينة برصيف أو جسر طوله نحو ١٢٥٠ متراً وعرضه نحو ٣٠ متراً سمي بالهبتاستاديوم Heptastadium ، وقد قدر لهذا الرصيف أن يتسع بمضى الزمن ويصبح حياً هاماً من أحياء المدينة ، وبذلك قسم ميناء الإسكندرية إلى ميناءين : أحدهما شرقي ويعرف بالميناء الكبير Megas Limen ، والآخر غربي يسمى ايونوستوس أي العود الحميد Eunostos (١) ، ويعرف بميناء السلام (٢) ، وهو الميناء الحالي ، وكانت تصب فيه قناة متصلة ببحيرة مريوط . وكان هذان الميناءان يتصلان بعضهما ببعض عن طريق ممرين محصنين ، فتحا بالحسر عند طرفيه الجنوبي والشمالي . ومد بطليموس من الطرف الشمالي لرأس لوكياس Cape Lochias شريطاً صخرياً ينحني نحو الغرب ، وظيفته حماية الميناء الشرقي من عواصف البحر . واتخذ بطليموس لنفسه ميناء داخل الميناء الشرقي ، جنوبي جزيرة أنتيرودوس (٣) ، سماه الميناء الملكي أو ميناء الملوك ، وبذلك أصبح ميناء الاسكندرية يفوق سائر موانئ البحر المتوسط .

(١) هنري رياض وآخرون ، دليل آثار الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٥

ص ١٢ .

(٢) زكي علي ، الاسكندرية : تأسيسها ص ١٦٠ — الاسكندرية في عهد

البطلمة والرومان ص ٤٩ . Breccia : Alexandria Ad Ægyptum, p. 68, 78.

(٣) سميت هذه الجزيرة كذلك نسبة إلى جزيرة رودس التي كانت حكومتها

ترتبط وجزيرة ديلوس بصلات من الود والصداقة مع حكومة بطليموس سوتر ، إذ كان =

وكانت ترعة شيديا تزود الإسكندرية بمياه النيل ، وكانت تتفرع من الفرع الكانوبى إلى ترعتين : شرقية وغربية ، فالشرقية كانت تسير بحذاء الشاطئ إلى كانوب بينما كانت الأخرى تدور جنوبى راكوتيس ثم تصب في الميناء الغربى ، وكانت تتفرع من هذه الترع قنوات أخرى صغيرة ردمت فيما بعد عند بناء الإسكندرية (١) وأقيمت بدلا منها شبكة من الصهاريج لحفظ المياه من التسرب في جوف الأرض .

وكانت المدينة في عصر البطالمة تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء الساحل ، بحيث تولى شكلا مستطيلا طوله يفوق عرضه ، وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة المرصوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر (٢) تتقاطع فيما بينها : سبعة ممتدة طولاً بحذاء الساحل ، واثنى عشر تقطعها عرضاً من الشمال إلى الجنوب . وقد ذكرنا أن الفضل في هذا التخطيط الشطرنجى يرجع إلى دينوقراطيس الذى اتبع نظام التخطيط الاغريقى الذى ابتدعه هيوداموس الميلىطى وطبق في تخطيط المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق.م . ، مثل هاليكارناسوس وبيرايوس وروودس . وكان يخترق المدينة بطولها من الشرق إلى الغرب ، وبعرضها من الجنوب إلى الشمال شارعان رئيسيان ، لا يقل اتساع الواحد منهما عن ثلاثين مترا ، الأول يسمى الشارع الكانوبى Canopus ، لأنه يمتد من الباب الشرقى حتى ضاحية كانوب (أبى قير حالياً) ، متتبعا

= القائمون بالحكم فيهما جماعة من التجار الذين كان يحرسون على تأمين طرق التجارة البحرية والبقاء على الصلات الاقتصادية مع مصر (لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالمة ، ص ٣١٢)

(١) محمد عواد حسين ، تخطيط الاسكندرية ، ص ١٨

(٢) يرى الأستاذ نوك Noak أن البازلت الملون الذى رصفت به شوارع المدينة من العصر الرومانى (Breccia, op. cit. p.72.)

طريق الحرية في الوقت الحاضر (١)، ثم يمتد من الباب الغربي حتى شاطئ البحر ، وكان يزدان على جانبيه بالأعمدة والتماثيل ، كما كانت تتخلله أقواس النصر . أما الطريق الثاني فكان يقطع الطريق الكانوبي في وسطه ، ويتفق في تخطيطه مع خط شارع النبي دانيال في الوقت الحاضر . وكان لهذا الطريق العمودى على البحر نفس اتساع الطريق الكانوبي وكان يزدان كذلك بالتماثيل والأقواس والأعمدة .

وقد أطلق على هذا الشارع اسم السوما تحريفاً من كلمة سوما Soma ، وهى كلمة إغريقية معناها الجسد الحى (٢) ، وقد سمي كذلك بسبب وقوع ضريح الإسكندر في نقطة التقاء هذا الشارع مع الشارع الكانوبي في الميدان المسمى باسم Meson pedion (٣) . وكان يقوم على جانبي كل من هذين الشارعين بائقان ممتدان بطولهما بحيث تؤلفان ممران على جانبي الطريق يحتوى تحتها المارة من سقوط المطر أو حرارة الشمس . ولقد أطلق بطليموس فيلادلفوس على شوارع المدينة اسم زوجته اريسينوى يضاف إليها ألقاب آلهة الإغريق التي شتهت بها : مثل أرسينوى بازيليا ، وأرسينوى تليا ، وأرسينوى الألوسية ، وأرسينوى خالكويكس (٤) .

(١) فند بريشيا الآراء المعارضة لنظرية اتفاق الطريق الكانوبي القديم مع طريق أبي قير وانتهى إلى تأييد فكرة مطابقة تخطيط الشارع القديم مع الشارع الحالى . (أنظر بريشيا ص ٧٤) .

(٢) لطفى عبد الوهاب ، عصر البطلمة ، ص ١٢٢

(٣) ابراهيم نصيحى ، مصر في عهد البطلمة ج ١ ص ٣٢٥

(٤) ابراهيم نصيحى ، تاريخ مصر في عهد البطلمة ج ١ ص ٣٢٥ — زكى على ،

الاسكندرية : تأسيسها ص ١٦١



(شكل ١) جانب من البرج الروماني بالشلالات

وقد وضع بطليموس لتزويد المدينة بمياه الشرب والسقاية نظاماً دقيقاً ،
فهدت في جوف الأرض قنوات لتوصيل هذه المياه من ترعة شيدى إلى صهاريج
وخزانات جوفية ، ما زال بعضها قائماً حتى اليوم . وقد لاحظ مؤرخو العرب
وجغرافيوهم هذا التنظيم ، فذكر المسعودى أن تحت ميناء الإسكندرية
« قناطر مقنطرة عاينها دور المدينة ، يسير تحتها الفارس وبيده رميح لا يضيق به
حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة » (١) ، كما شاهدها ابن جبير
في رحلته فذكر أن « الماء يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل
الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً » (٢) .

وكان يحيط بالإسكندرية سور حجري عظيم مزود بالأبراج الضخمة ،
يفوق في امتداده أسوار المدن الإغريقية الأخرى باستثناء أسوار سيراكوصة
وأثينا (٣) . ويبدو أن هذه الأسوار كانت من بناء بطليموس سوتر وفقاً
لما ذكره تاكيتوس ، وكانت الأسوار من الجهة الشمالية الشرقية تمتد بحذاء
الشاطئ حتى رأس لو كياس ثم تتجه نحو القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى (٤)
ويعتقد بوتى Botti أن الجزء الشمالى من المدينة المطل على الساحل لم تكن به
أسوار ، وأن أسوار الجانبين الشرقى والغربى كانت ثلاثية أى تتألف من ثلاثة
أسوار ، وذكر ابن الحكم نقلاً عن هانئ بن المتوكل أنه كان على الإسكندرية

(١) المسعودى ، سروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٧٣

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤١

(٣) Breccia, Alex. Ad. Ægyptum. p. 69. يذكر محمود باشا الفلكى
أن محيط الأسوار كان يبلغ نحو ١٥٨٠٠ متراً وأن طولها كان يبلغ ٥٠٩٠ م وعرضها
يتراوح ما بين ١١٥٠ ، ٢٢٥٠ م . (الإسكندرية القديمة ، ص ٦٧)

(٤) Breccia, op. cit. p. 71. .

سبعة حصون منيعة وسبعة خنادق (١) . وذكر كل من المقریزی والسيوطی هذه العبارة نقلاً عن ابن الحكم عن عبد الله بن طريف الهمداني (٢) . أما ابن رسته فقد أشار إلى أسوار الإسكندرية إشارة عابرة عند حديثه عن الطريق المائي [الواصل بين الفسطاط والإسكندرية ، فيذكر أنه يخرج من الفسطاط في سفينة ، ثم ينحدر في النهر فيسير مسافة ثلاثين فرسخاً (أى ما يقرب من مائة وستين كيلو متراً) لا يرى عن يمينه وعن يساره سوى النخيل والبساتين والضياع حتى ينتهى إلى سور الإسكندرية (٣) . وكان يفتتح في سور الإسكندرية أربعة أبواب كان يطلق على الشرقي منها اسم باب الشمس ، وعلى الباب الغربي باب القمر (٤) ، ولقد تعرضت هذه الأسوار للتجديد في العصر الروماني أيام هادريان وأنطونيوس . وتبقى من هذا السور آثار برج نصف دائري بجداري الشلالات متصل بستارة السور الأساسية ، وتتميز الأحجار الرومانية في أدنى هذا البرج بكبر أحجامها ، وبتسنيها وبروزها على النحو الشائع في العمارة الرومانية .

وكانت المدينة في العصر البطلمي تنقسم إلى خمسة أحياء متجاورة ، رمز لكل منها بأحد حروف الهجاء اليونانية وهي ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦١

(٢) المقریزی ، ج ١ ص ١٤٨ — السيوطی ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٣٧

(٣) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ١١٨

(٤) زكى على ، الاسكندرية، تأسيسها ص ١٦٠ ، الاسكندرية في عهد البطالمة والرومان ، ص ٤٩ — جمال الشيال ، الاسكندرية: طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، ص ١٩٦

ابسيالون (١) . وقـــد ذكر ابن عبـــد الحـــكم ومن تقـــبل عنه أنه كانت بالإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جانب بعض هي : (١) منسة ، وهي موضع المنارة وما والاها (ب) والاسكندرية وهي موضع قصبة الإسكندرية في عهده (ج) ولقيطة أو نقيطة ، وأنه كان يحيط بكل من هذه المدن سور ، ويضم المدن الثلاثة جميعاً سور جامع (٢) . هذا وقد اختلف المؤرخون في تحديد موقع هذه الأحياء على وجه الدقة . وأهم هذه الأحياء الخمسة ثلاثة هي : الحى الملكى والحى اليهودى والحى الوطنى .

فالحي الملكى يشغل الجزء الشمالى الشرقى من المدينة وهو الحى المعروف باليونانية بيتـــا ، وكان يضم القصور الملكية والبساتين الممتدة حتى داخل رأس لو كياس ، وأهم آثاره دار العلم ، والمكتبة ، ودار العدل ، والحمنازيوم والبانيوم ، والسيما ، وكان يسكن هذا الحى جماعات الإغريق . أما الحى اليهودى أو حى الدلتـــا ، فكان يقع خلف الميناء الشرقى الكبير فى الجوف ، عند بداية الطريق الكانوبى وإلى الجنوب الشرقى من الحى الملكى ، وكان يسكنه طائفة اليهود . أما الحى الوطنى أو الحى الشعبى فيقع إلى الجنوب الغربى من المدينة فى الموضع الذى كانت تشغله قرية راكوتيس القديمة ، وهو حى الأهالى والعمال ، وكان يقوم فيه معبد السيرابيوم الذى أقامه بطليموس لعبادة سيرابيس ، وألحقت به مكتبة صغيرة ومعبد خصص للإله أنوبيس ، كما أقيم فيه ميدان للألعاب يعرف باسم ستاديوم (٣) .

(١) ابراهيم نصيحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، ص ٣٣٠ — Breccia, op. cit. p. 68.

(٢) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٦١ — السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٣٧ —

المقريزى ، ج ١ ص ١٤٨

(٣) Breccia, op. cit. p. ١٥٤

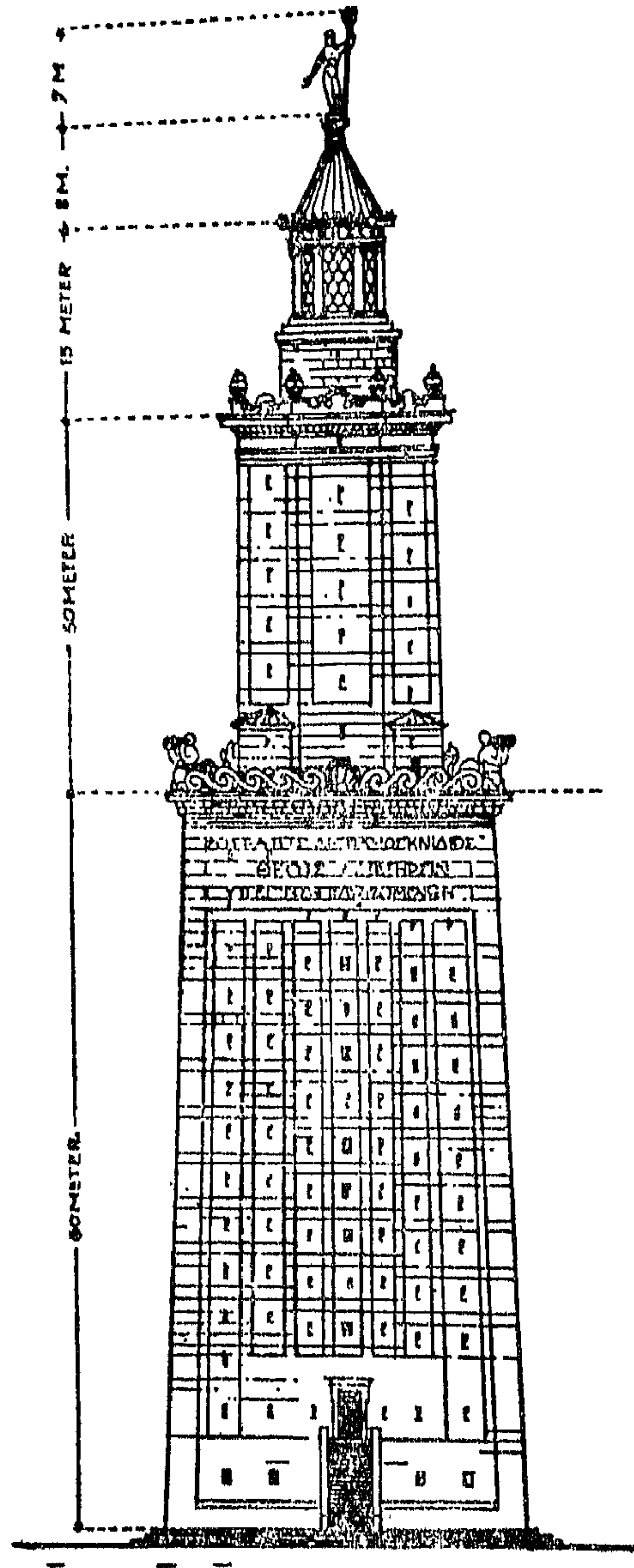
وكانت المقابر تقع في ظاهر المدينة ، في شرقها وغربها ، وكان اليونان والأجانب يدفنون بالمقابر الشرقية في العصر البطلمي ، أما المقابر الغربية فكان يدفن بها المصريون وعدد قليل من اليونان ، وأغلب المقابر البطلمية كانت في جوف الأرض ، وتتألف عادة من ممرات وغرف وجوفات منحوتة في الصخر في تخطيط معقد كما هو الحال في مقابر كوم الشقافة والشاطبي (١) .

وفيما يلي أهم المؤسسات والمنشآت العامة التي أقامها البطالمة في الإسكندرية وكانت سبب عظمتها وشهرتها : —

أولا — المنار :

كان لابد لبطليموس سوتر أن يعنى بميناء الإسكندرية حتى تتحقق له السيادة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد رأينا أنه بنى الرصيف الحجري الذي يقسم ميناء الإسكندرية إلى ميناءين ، ويصل في نفس الوقت بين المدينة نفسها وبين جزيرة فاروس الواقعة أمامها . ولما كان يتعذر على السفن التجارية والحربية الدخول في الفراغ الضيق الواقع بين الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة فاروس والطرف الشمالي الغربي من الشريط الصخري المتصل برأس لو كياس ، فقد رأى بطليموس أن ينشئ عند مدخل هذا الميناء مناراً ضخماً لهداية السفن عن طريق إشعال النار في قمته . وعهد لبطليموس باقامة هذا المنار في الموضع المذكور من جزيرة فاروس إلى المهندس سوستراتوس دى كيندوس ابن ديكسيفانس الذي شرع في تأسيسه في أواخر أيام سوتر ، وأتم بناءه في أوائل عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ — ٢٧٩ ق.م.) وجاء

(١) كانت مقبرة كوم الشقافة تعرف باسم نكروبوليس



(شكل ٣) منار الاسكندرية وفقاً لوصف المؤرخين

بناؤه أعجوبة من أعاجيب الدنيا السبعة (١). وظلت منارة الإسكندرية من أعاجيب الدنيا السبع في العصر الوسيط حتى طليعة القرن السابع الهجري، ولكنها أخذت تفقد مكانتها تدريجياً بعد أن أقيم على مثلها منائر أخرى في مناطق مختلفة من العالم آنذاك، بحيث لم تعد منارة الإسكندرية في زمن الهروي من العجائب بل أصبحت مثلها مثل أى برج للمراقبة على الساحل خاصة بعد أن أطاحت الزلازل بطابقتها العلوى (٢). ولقد ضاعت معالم هذا المنار الذى ذاعت شهرته في الآفاق، ولم يتبق منه إلا أساسه الذى أقيمت عليه قلعة قايتباي سنة ٨٨٢ هـ. فلقد تهدم طابقه العلوى في سنة ١٨٠ هـ بسبب زلزال شديد سبب سقوط رأس المنار (٣)، وظل المنار كذلك حتى قام أحمد بن طولون بترميمه فجعل في أعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بفعل الرياح (٤)، ثم تهدم جزء من زاوية المنار الغربية مما يلي البحر في عهد أبي الحيش خمارويه، فبناها (٥). ويذكر المسعودي أن ما يقرب من ثلاثين ذراعاً من أعلى المنار تهدم بتأثير الزلزال العنيف الذى حدث في أيامه في شهر رمضان سنة ٣٤٤ هـ (٦). وفي عهد

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨. ويذكر المقرئ في الخطط أنه كان « في المنارة قوم سرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد، فإذا رأى أهل المنار ما يريهم أشعلوا النار من جهة المدينة، فإذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو ». المقرئ، الخطط، ج ١

ص ١٥٧

(٢) الهروي، كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات، دمشق ١٩٥٣ ص ٤٩

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢ ص ١٦٥

(٤) المقرئ، الخطط، ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ — السيوطي، حسن المحاضرة،

ص ٢ ج ١٤٧

(٥) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٤٨

(٦) نفس المصدر

الظاهر ببيرس قام ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته للإسكندرية في سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) ، وأنشأ في أعلى المنار مسجداً في الموضع الذي كانت تشغله قبة ابن طولون . إلا أن هذا المسجد لم يلبث أن تعرض بدوره للهدم عقب زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) الذي سبب طغيان مياه البحر على عمران الإسكندرية ، (١) فرممه الأمير ركن الدين ببيرس الجاشنكير في سنة ٧٠٣ هـ . وعبثت يد الإهمال بهذا الأثر الجليل ، فلم يحاول سلاطين المماليك بعد ببيرس تعميره أو ترميمه ، وتهدم جانب منه ، ويرجح تهدم المنار كله فيما بين عامي ١٣٢٦ ، ١٣٤٩ (٢) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فلقد شاهده الرحالة ابن بطوطة مرتين : مرة في رحلته الأولى إلى مصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وكان أحد جوانبه مهتماً ، ومرة في رحلته الثانية سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) فوصفه قائلاً : « . . . فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر — رحمه الله — شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن إتمامه » (٣) . ولم يبق من المنارة في سنة ٧٧٥ في زمن النويري السكندري إلا البقعة التي كانت تقوم عليها فحسب (٤) . فلما كانت أيام الأشرف قايتباي أمر بأن يبنى على أنقاض منار الإسكندرية برج جديد سمي ببرج قايتباي ، فتم البناء في عامين . ولقد وصلتنا أوصاف عديدة لهذا المنار في

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٨

(٢) Omar Tousoun Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe du XIIe siècle, dans B.S.R.A. fasc. 30, 1936, pp. 49-53.

(٣) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ص ٤

(٤) النويري السكندري ، اللامع ، صورة شمسية بدار الكتب المصرية ، ص

العصور الوسطى (١). وقد استخدم بتلر Butler بعض هذه الأوصاف في تصوير منار الإسكندرية وتخيله كما كان قبل دثوره ، ومنه نستنتج أن المنار كان يتألف من « قاعدة مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمانية الأضلاع وتندق في حجمها ، ثم تندق بعد ذلك ، ويستدير شكلها ثم يعالوها عند القمة مصباح » (٢). ثم تبعه تيرش Thiersch الذى استخدم لوصف المنار كل ما أمكنه العثور عليه من مصادر تاريخية يونانية ولاتينية وعربية ، كما استعان بنقوش من العملات ورسوم الفسيفساء بكنيسة سان ماركو بالبندقية ، وتتلخص كل دراسته لهذا الموضوع في رسم أظهر فيه المنار كبرج حجري ارتفاعه الكلى ١٢٤ متراً ، يتألف من طابق أدنى مربع الشكل ارتفاعه نحو ٦٠ متراً كان يضم عدداً من الغرف يصل إلى ٤٠٠ غرفة ، ويعالو هذا الطابق جسم مثمان الشكل ارتفاعه نحو ٣٠ متراً ، وينتهى بشرفة ، ثم يعالوه جسم أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ متراً ، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت تعلوها قبة بداخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران في أعلى

(١) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص ٣٣٨ — ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ج ٥ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٥ ص ٨٢ — ابن رسته ، الأعلام النفيسة ، ج ٧ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٩١ — المسعودى ، مروج الذهب ، طبعة محمى الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٣٧٥ — ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، تحقيق كراسرز ، ليدن ١٩٣٢ ، ص ١٥١ . — ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ طبعة بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٨٣ — ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤١ — رحلة بنياسين التطيلي ، سدريد ١٩١٨ ، ص ١١٣ الهروى ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورديل ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٤٨ ، ٤٩ — الاستبصار في عجائب الأنصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٩٦ — المقرئى الخطط ، ج ١ ص ١٥٥

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ ،

ص ٣٤٥

(٣)

المنار لهذا السفن ، ويعلمو القبة تمثل ضخم من البرونز ارتفاعه سبعة أمتار
يمثل إله البحر بوسيديون (١) .

ثانياً - دار الحكمة والمكتبة :

عهد بطليموس سوتر إلى الخطيب الأثيني ديمتريوس فاليريوس
Demetrius Phalerius بتأسيس دار الحكمة (ميرزيوم) والمكتبة في الحى
الملكى بالاسكندرية ، لتؤدى وظيفة الجامعة العالمة التى يتوافد إليها العلماء
والمفكرون من كافة أنحاء العالم الهلينستى ، حتى تنافس أثينا ، مركز الثقافة
الهينية ، فى المركز الأول للاشعاع الثقافى والعلمى فى هذا العالم ، وأقام بهذه
الدار عدد من العلماء برزوا فى الجغرافية والفلك والعلوم الرياضية والطب
والتاريخ والأدب والفلسفة ، وكانت الدولة تمنحهم مرتبات ضخمة لتشجيعهم
على أعمال البحث والتنقيب (٢) . فنبغ اراتوستينس Eratosthenes فى
الجغرافيا (أول من قاس قطر الأرض) ، واريستارخوس الفلكى Aristarchus
فى الفلك (أول من اكتشف المجموعة الشمسية) ، واقليدس فى الهندسة (كتب
كتابه المسمى العناصر والأصول فى الرياضيات) الذى تتلمذ عليه ارشميدس ،
كما نبغ تيوفرستوس فى علم النبوءات ، وأراسيستراتوس فى الجراحة ،

(١) Breccia, Alexandria Ad A'gyptum, p. 108 , 109. — دليل

آثار الاسكندرية ، ص ١٧ — عبدالعزیز سالم ، المآذن المصرية ، لفرة عامة عن تطورها

ص ٧

دائرة معارف الشعب ، عدد ٨٥ ص ٣٢٨

فؤاد فرج ، الاسكندرية ص ٢٠ — جمال الشيال ، الاسكندرية طبوغرافية المدينة

وتطورها ص ١٩٨

(٢) زكى على ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، ص ٥٤ .

وهيروفيلوس في الطب والتشريح، وكاليماكوس Callimachus، وتيوكريتس وأبولونيوس الرودى في الشعر، وازدهرت العلوم الفلسفية والأدبية في أواخر أيام البطالمة (١). أما المكتبة فكانت تضم عدداً هائلاً من الكتب العلمية والأدبية، فقيل إنها بلغت في أيام بطليموس فيلادلفوس نحو أربعمائة ألف مجلد، أضيف إليها ألوف من المجلدات في العصر البطلمي، منها مائتا ألف كتاب أهداها انطونيوس إلى كليوباتره، هذا باستثناء ما كان موجوداً في القصور الملكية وفي مكتبة معبد السيرابيوم التي كانت تعتبر فرعاً من المكتبة الكبرى، وقد ارتفع عدد كتب مكتبة السيرابيوم على حد قول ماركيلينيوس إلى ما يقرب من ٧٠٠ ألف مجلد في آخر أيام كليوباترة. وهكذا كانت مكتبة الإسكندرية أعظم مكتبات العالم، وقد بلغ من شهرتها في المجال العلمي ما ذكره المؤرخ أميانوس ماركيلينيوس إذ أشار إلى أنه كان يكفي لتزكية أى طبيب أن يكون قد تعلم الطب في الإسكندرية (٢). ويبدو أن ذلك لا يعدو أن يكون اتجاهها سلكه البطالمة نحو الدعاية السياسية عن طريق تركيز الأضواء على عاصمتهم كمرکز للثقافة العالمية والعلوم، فزودوا مكتبة الإسكندرية بالنسخ الأصلية من الرسائل التي وجدت في عصرهم، وتوسل بعضهم بطرق ملتوية لشراء الكتب (٣).

ولقد ظلت دار الحكمة ومكتبة الإسكندرية تحملان مشعل الحضارة

(١) لطفى عبد الوهاب، مقدمة في حضارة الاسكندرية، ص ٢٥ - ابراهيم جمعه،

جامعة الاسكندرية، ص ٣٤ - ٧٦، ١٩٤، ١٩٥

(٢) اميانوس ماركيلينيوس في مصر، ترجمة الدكتور وهيب كامل، ص ٩١

(٣) لطفى عبد الوهاب، ص ٢٦

الإسكندرية حتى احترق قسم كبير منها في عام ٤٨ ق.م. عندما أشعل يوليوس قيصر النيران في سفن المصريين ، فامتدت ألسنتها إلى الأرصفة القريبة ، وأحرقت المخازن الجمركية ، واتصفت بعدها بمخازن الكتب التابعة للمكتبة (١) في الحى الملكى . ثم قضى الاضطراب السياسى والدينى فى الإسكندرية فى عصر انتشار المسيحية على العدد الأعظم مما تبقى من هذه الكتب . ومن المرح أن مكتبة المتحف بددت فى سنة ٢٧٢ م ، عندما أحمده الإمبراطور أوريليانوس الثورة التى أشعلها فيرموس ، وحاصر الثوار فى الحى الملكى وقضى على ثورتهم . أما مكتبة السيرابيوم فقد تبددت فى سنة ٣٩١ م عندما هاجمها الجيش الإمبراطورى يساعده المسيحيون بزعمارة ثيوفيلوس بطريرك الإسكندرية (٢) . ومع ذلك فقد ظلت بقايا دار الحكمة فى العصر الإسلامى ، فوصفها الرحالة المسلمون وغيرهم (٣) ، وسماها بنيامين التيطلى باسم أكاديمية أرسطو ، أستاذ الإسكندرية (٤)

١١١ - المعابد

أقام بطليموس معبد السيرابيوم لعبادة سراپيس Serapis الإله الشرقى ذى المظهر اليونانى ، وهى عبادة طورها بطليموس من عبادة مصرية تشكّل نوعاً من الاتحاد بين أوزيريس وأبيس ، ليعطيها شكل رجل فى عنقوان قوته ، له صورة الإله زيوس ، وبذلك نجح بطليموس فى التوفيق بين العنصرين المصرى

(١) كانت المكتبة تقع بين الملعب ورأس لوكياس .

(٢) اسيانوس ماركيلينوس ، ص ٨٦ ، حاشية ٢

(٣) أنظر كتاب الأعلام النفيسة ، ص ١١٨ (. . .) فتدخل باب الشرقى من الإسكندرية فهناك قبة خضراء على ستة عشر عموداً من رخام وهى وسط المدينة ، بناها الاسكندر . . .)

(٤) Viaje de Benjamin de Tudela, p. 113.

والإغريق عن طريق الدين (١). شيد هذا المعبد فوق مرتفع من الأرض في غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى ، وكان يؤدى إليه درج مؤلف من مائة درجته ، كما كان يضم أروقة تطل بواسطة بوائك على بهو مكشوف . وأضيف إلى هذا المعبد إضافات في عهد بطليموس فيلادفوس (٢). وفي عصر دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥ م) أقام بوسيتيموس ، حاكم الإسكندرية ، في معبد السرابيوم عموداً ضخماً من الجرانيت تكريماً لزيارة الإمبراطور للإسكندرية ، وقد عرف هذا العمود باسم عمود السوارى ، ويبلغ ارتفاعه بما في ذلك قاعدته ورأسه نحو ٢٦,٨٥ متراً ، قطره من أسفل ٢,٧٠ ، وقطره من أعلى ٢,٣٠ م ، وقد أعجب به كل من زار الإسكندرية من الرحالة المسلمين ووصفوه وصفاً رائعاً (٣).

ثم تعرض هذا المعبد للتدمير ، مرة في أثناء ثورة يهود الإسكندرية في عهد الإمبراطور تراجان ، والمرة الثانية في سنة ٣٩١ م ، حين أمر بهدمه البطريك ثيوفيلوس ، وكسر تمثال سراييس (٤) ، وأقام على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان التي ظلت قائمة حتى القرن العاشر الميلادى (٥).

كذلك أقامت كليوباترة معبد القيصريوم احتفالاً بقدم أنطونيوس ،

(١) لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالة ، ص ١٨٤ — دليل آثار الاسكندرية ،

ص ٤٤

(٢) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها . . . ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٣) ابن رسته ، ص ١١٧ — ياقوت الحموى ، المجلد الأول ، ص ٢٦٢ — ابن حوقل

ص ١٥٠ ؛ ابن جبير ، ص ٤١ — المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٩ — ١٦١

(٤) Breccia, op. cit. p. 113.

(٥) دليل الاسكندرية ص ٤٧

ويمكن تحديد موقع هذا المعبد اليوم في الموضع الذى تقوم عليه الكنيسة المرقسية وكنيس اليهود ، ونصبت كليوباترة أنام المعبد مسلتين نقلتهما من معبد عين شمس ، وكانتا تحملان أسماء تحتشمس الثالث و .يتى الثانى ورمسيس الثانى ، وهما المسلتان اللتان نقلتا إلى لندن ونيويورك . ولقد نُقل هذا المعبد إلى كنيسة فى عام ٣٥٤ م ، ثم أحرق فى عام ٩١٢ م .

رابعا — السوما او ضريح الاسكندر :

يذكر استرابون أن بطليموس سوتر نقل جثة الإسكندر (سوما أو الجثة الحية) من منف إلى الإسكندرية ، ووضعها داخل تابوت من الذهب الخالص . ولقد جنت الإسكندرية من وراء ضريح الإسكندر مكاسب كبيرة وأصبحت مركزاً دينياً له قدسيته ، كما أصبح الضريح مزاراً لأفواج متتابة من الزوار الوافدين من بلاد اليونان (١) . غير أن رفات الإسكندر لم تلبث أن نقلت إلى تابوت من الرخام الشفاف ، بعد أن استولى بطليموس الحادى عشر على التابوت الذهبى (٨٠ ق.م. — ٥٨ ق.م) (٢) .

ويبدو أن ضريح الإسكندر كان مقاماً فى قلب المدينة فى شارع السوما ، ويرى جمهور من رجال الآثار احتمال وقوعه بجوار الكنيسة المرقسية بينما يرجح عدد آخر أنه مطمور تحت جامع النبی دانيال . وأقام البطالمة مقبرتهم حول قبر الإسكندر فى تل البانيوم (كوم الدكة أو كوم الديماس) (٣) .

(١) لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٣١٥

(٢) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها ، ص ١٦٤ — Breccia, op. cit. p. 98.

(٣) محمود الفلكى ، الاسكندرية القديمة ، ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ،

الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٢٦

وذكر استرابون أن هذه المنطقة كانت تلاً صخرياً يمكن الوصول إلى أعلاه عن طريق أحدور لولبي (١) ، ويشرف هذا التل على المدينة كلها .

* * *

ثم أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الرومانية منذ انتصر أغسطس قيصر على كليوباترة في موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ، وأقام الرومان حامية رومانية في معسكر كبير أقاموه في شرق المدينة ، هي ضاحية نيكويوليس أى مدينة النصر ، تيمناً بانتصار أغسطس على أنطونيوس وكليوباترة ، وفقدت الإسكندرية كثيراً من عظمتها السياسية في العصر الروماني لأنها أصبحت تابعة لروما التي فرضت سيادتها على العالم الروماني بقوة ساعديها ، ومع ذلك فقد كان الرومان ينظرون إلى مصر نظرة خاصة ، فعندما قسمت الولايات الرومانية عام ٢٧ ق.م. إلى ولايات تابعة للسنااتوتسمى الولايات السناتورية ، وأخرى تابعة للإمبراطور ، تعرف بالولايات الإمبراطورية ، كانت مصر في عداد الولايات الأخيرة ، فكان الوالي ورؤساء الإدارة الرومانية في مصر يعينون من قبل الإمبراطور ويمثلونه مباشرة ، ولكن مصر كان لها وضع خاص باعتبارها المصدر الرئيسي لتزويد روما بالغلال (٢) ، ولذلك أقيم عليها حاكم رفيع الرتبة يدعى Praefectus (٣) .

ولعبت الإسكندرية دوراً هاماً في التاريخ الروماني ، فقد عمل الأباطرة

(١) زكى على ، الاسكندرية تأسيسها ، ص ١٦٧

(٢) مصطفى العبادي ، الاسكندرية في العصر الروماني ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٦٦

(٣) إبراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالة والرومان (مقال في المجمل في التاريخ المصري ص ٩٦) .

الرومان على إخضاعها لأن في ذلك ضمان لخضوع مصر كلها، وتوسلوا في سبيل ذلك بوسائل مختلفة، منها أنهم أقاموا ما يتجاوز نصف الحامية الرومانية في مصر في الضاحية الجديدة التي أسسها أغسطس وسماها نيكوبوليد (١)، وبالإضافة إلى ذلك فقد جرد الإمبراطور أغسطس المدينة من مجلسها التشريعي إمعاناً في سلب سيادتها. كذلك سعى الأباطرة الرومان إلى الاعتماد على البنية اليهودية في الإسكندرية ضد الإغريق وعملوا على التفريق بينهما، ورحب اليهود بالسيطرة الرومانية لأنها قضت على سيادة العنصر اليوناني وساوت بينهم وبين الإغريق، وقد شجع عطف الرومان اليهود على المطالبة لأنفسهم بحق الوطنية الإسكندرية الكاملة التي كانت يتمتع بها الإغريق (٢). وهنا اشتد العداء بين الفريقين على الأخص في عهد كاليجولا Caligula (٣٧ - ٤١ م) عندما هاجم الإغريق بعد استمالتهم لوالى الإسكندرية اليهود (٣)، وطالب الإغريق في عهد كلوديوس Claudius (٤١ - ٤٥ م) بحقوقهم المدنية، غير أن الإمبراطور رفض منح الإسكندرية مجلساً للسناتو (٤)، واشتد النزاع بين اليهود والإغريق في عهد نيرون (٥٤ - ٦٨ م)، وقاموا في أيام الإمبراطور تراجان بثورات عديدة، ووثبوا على الإغريق وأعمالوا فيهم القتل، وقد أدت هذه الفتنة إلى تخريب كثير من المنشآت المعمارية في المدينة، فتهدم الحى اليهودى والكنيس

(١) مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٦٧

(٢) لطفى عبد الوهاب، عصر البطالة، ص ٣٧٢

M. El-Abbadi, The Alexandria citizenship, The Journal of Egyptian Archaeology, (pp. 106 — 123). vol. 48, 1962.

(٣) زكى على، الاسكندرية في العصر الرومانى، مجلة الغرفة التجارية ص ٧٤—

مصطفى العبادى، الاسكندرية في العصر الرومانى، ص ٦٨

(٤) زكى على، المرجع السابق، ص ٧٥

الأكبر ، وأحرق اليهود معبداً لليونان ، ودمروا بعض الأبنية (١) . وأُخمدت الثورة في عهد الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) الذي قدم إلى مصر مرتين ، جدد في المرة الأولى ما تخرب من أبنية المدينة ، واهتم خاصة بمعبد السيرابيوم ، وأقام فيه مدرسة على غرار الميوزيوم أو دار الحكمة ، وكانت لزيارته الثانية سنة ١٣٠ أثر طيب في تهدئة الأحوال .

ولمّا قدم الإمبراطور سبثميوس سفروس (١٩٣ — ٢١١ م) إلى الإسكندرية في سنة ٢٠٠ م ، منحها مجلساً للسنااتو ومنح سائر عواصم الأقاليم حق تكوين مجلس لكل منها (٢) ، كذلك منح خليفته كراكلا (٢١١ — ٢١٧ م) الإغريق الحقوق المدنية الرومانية . ولكن هذا الإجراء لم يسعد الإسكندريين لأن منح الإسكندرية مجلساً للسنااتو لم يكن إجراء قاصراً على مدينتهم ، وإنما طبق على عواصم الأقاليم .

وكان الدين المسيحي قد بدأ ينتشر في مصر لقربها من فلسطين مهد المسيحية وذلك منذ النصف الثاني من القرن الأول ، وازداد هذا الانتشار بوجه خاص في الإسكندرية إبان القرن الثاني للميلاد ، وأصبح لها كنيسة في هذه المدينة بينما كانت المسيحية تنتشر في الأقطار الأخرى في بطء شديد ، واعتنقها الناس خفية في هذه الأقطار . ويفسر الدكتور عزيز سوريال هذا الانتشار السريع في مصر دون غيرها باستعداد العقليّة المصرية لتقبلها منذ أن أعلن

(١) زكى على ، المرجع السابق ، ص ٧٥

(٢) مصطفى العبادي ، الاسكندرية في العصر الروماني ، « كتاب محافظة

الاسكندرية ، ص ٦١ ، ٧٣

إخناتون الوحداية المطلقة (١) .

وأثار انتشار المسيحية مخاوف الرومان، واعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين عنصراً خطيراً في المجتمع ، فعمدوا إلى اضطهاد دعاة المسيحية ومعتنقيها منذ النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي ، وعلى الأخص في عهد سبتيميوس سفروس . وبلغ هذا الاضطهاد ذروته في عهد دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) الذي اضطدعت رغبته في توحيد النظام الإداري في الإمبراطورية الرومانية عن طريق العقائد الوثنية التي رفض المسيحيون المشاركة فيها (٢) . إلى حد أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء منذ اعتلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية الرومانية في سنة ٢٨٤ م (٣) . وفي عهده اشتعلت نيران الثورة في الإسكندرية ضد الإمبراطور ، فاضطر هذا إلى القدوم إليها، وحاصرها مدة ثمانية أشهر حتى سقطت ، فتخرب كثير من أبنيتها . وأتت بعد ذلك فترة ازداد فيها اضطهاد الأباطرة لكنيسة الإسكندرية ، إلا أن هذا الاضطهاد لم يثن المصريين عن اعتناق الدين المسيحي فانتشر انتشاراً تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وكان اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣—٣٣٧) م بهذا الدين رسمياً في سنة ٣١٣ م كدين من أديان الدولة البيزنطية انتصاراً حاسماً للمسيحية ، وما لبث الإمبراطور تيودوسيوس

(١) عزيز سوريال عطية ، الاسكندرية المسيحية ، مقال في مجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ص ٧٨ ، ٧٩

(٢) محمد عواد حسين ، داود عبده ، الاسكندرية في العصر البيزنطي ، ص ١٠١

(٣) عزيز سوريال ، المرجع السابق ، ص ٨٠ — السيد عبد العزيز سالم الاسكندرية ، دائرة معارف الشعب ، حاشية رقم ١ ، ص ٣٢٨

(٣٧٩ — ٣٩٥ م) أن اعتنق المسيحية وفرضها قسراً على رعايا الإمبراطورية ،
وفي عهده قام البطريرك ثيوفياوس بهدم المعابد الوثنية في الإسكندرية وتدميرها .
وفي سنة ٣٨٩ هـ تهدم معبد سيرايبس ، بقرب كانوب ، شرقي الإسكندرية (١) .

وأقيمت في هذا العصر عدة كنائس ، منها كنيسة القديس مرقس البشير
على شاطئ الميناء الشرقية ، بالقرب من رأس لو كياس غير بعيد عن الكنيسة
المرقسية الحالية ، وكنيسة القديس أثناسيوس التي أسست في سنة ٣٧٠ في نفس
الموضع الذي أقيم عليه جامع العطارين فيما بعد ، إذ جاء في كتاب وصف مصر
Description de l'Égypte ذكر هذا الجامع باسم جامع كنيسة القديس
أثناسيوس ، كذلك تحول معبد القيصر يوم إلى كنيسة القديس ميخائيل في
عصر الإمبراطور قسطنطين ، كما أقيمت كنيسة العذراء مريم على يدى الأسقف
ثيودور (٢٨٢ — ٣٠٠ م) على شاطئ الميناء الغربى ، وتحولت هذه الكنيسة
بعد الفتح الإسلامى إلى مسجد جامع سمي بالجامع الغربى نظراً لقربه من الميناء ،
أو جامع الألف عمود الذى تهدم فيما بعد (٢) . وكانت معظم هذه الكنائس
تنحوى في تخطيطها نحو النظام البازيليكي الشائع في العصر البيزنطى والذى يقوم
أساساً على صفوف متوازية من الأعمدة تحمل سقفاً خشبياً (٣) .

(١) عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، ص ٨١ . ويذكر الأستاذ
الدكتور عزيز سوريال أن الرهبان بقيادة أثناسيوس استولوا على معبد القيصر يوم
٣٥٤ ، وحولوه إلى الكنيسة المرقسية .

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٣ — جال الدين الشيال ، الاسكندرية ، ص ٣٠٣ —
فؤاد فرج ، ص ٣٨ ، ٣٩

(٣) داود عبده ، فن الاسكندرية في العصر البيزنطى ، مقال بكتاب محافظة
الاسكندرية ، ص ٢١٠

وكان لانتصار المسيحية الأرثوذكسية الإسكندرية على الوثنية أثر كبير في ارتفاع مكانة هذه المدينة من الوجهة الروحية ، ولم تقبل بيزنطة هذا الوضع ، وهنا نشأ نزاع مذهبي كبير بين بيزنطة والإسكندرية من أجل الزعامة الدينية ، ويستتر هذا النزاع السياسي وراء الجدل المذهبي حول طبيعة المسيح . وينقسم المسيحيون إلى طائفتين : أتباع مذهب الوحدانية البهتية أو الطبيعة الواحدة الثائلة بطبيعة المسيح الإلهية البشرية في آن واحد (١) ، ويسمىون بالمونوفيزيت أو اليعاقبة ، وكان هؤلاء يتبعون كنيسة الإسكندرية ، ثم أصحاب مذهب الطبيعيين ويسمىون بالدوفايزيت أو الملكانيين ، وكانوا يتبعون كنيسة بيزنطة التي أنكرت اندماج طبيعة المسيح الإلهية في طبيعته البشرية (٢) . واحتدم النزاع بين الفريقين ، وتدخل الأباطرة في هذا النزاع ، وعقد الإمبراطور مارسيان مجمعا دينيا في خالقدونية عام ٤٥١ أقر فيه مذهب الملكانيين ، وقرر أن مذهب الوحدانية كفر والحساد وخروج عن الدين الصحيح ، وقرر طرد ديسقورس بطريرك الإسكندرية من الكنيسة ونفيه (٣) . ولم يقبل المصريون هذه القرارات ، وأعلنوا عصيانهم لها ، وتحول النزاع إلى تحد مجيئ من جانب المصريين ، وتسمى هؤلاء بالأرثوذكسيين أى أصحاب الدين الصحيح . وأمعن الأباطرة في سياستهم التعسفية ، فانتقل مركز الحركة الأرثوذكسية إلى خارج الإسكندرية ، وكان

(١) يخالف هذا المذهب ما دعا إليه آريوس الذي أنكر ألوهية المسيح (داود عبده ، الإسكندرية في العصر البيزنطي ، ص ١٠٣)

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٦

(٣) آيديرس بل ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة دكتور محمد عواد حسين ودكتور عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٢٧

من أكبر زعمائها الأنبا شنودة والبطريرك بنيامين . ولقد كان لإسراف البيزنطيين في اضطهاد المصريين أثر كبير في معاداة المصريين لهم وفي تمهيد السبيل لفتح العرب لمصر .

وفي سنة ٦٠٢ هـ سقط الإمبراطور موريس صريعاً إثر ثورة قام بها الجيش بزعامة فوكاس الذي اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن هذا الإمبراطور كان مولعاً بسفك الدماء وأعمال الإرهاب ، فسخط عليه أقرب الأقربين إليه ، وأخذوا يابرون المؤامرات لخلعه . وفي سنة ٦٠٨ هـ أعلن هرقل بطريق قرطاجنة وحاكم إفريقية الثورة على فوكاس ، غير أنه كان شيخاً طاعناً في السن لا يحتمل سنة القيام بأعباء الإمبراطورية البيزنطية ، فرشح لهذا المنصب ابنه الشاب هرقل ، فأعده جيشاً من البربر بقيادة نيكيثاس لغزو مصر بينما يزحف هرقل الصغير على سالونيك تمهيداً للاستيلاء على القسطنطينية (١) . وتمكن نيكيثاس من الاستيلاء على الإسكندرية فيما بين سنتي ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، وتم الانقلاب بفضل وزراء فوكاس أنفسهم الذين أسلموه إلى هرقل فأمر بقتله في ٥ أكتوبر سنة ٦١٠ م ، وانتهى الأمر باعتلاء هرقل الصغير العرش الإمبراطوري في هذا التاريخ (٢) .

وأرسل الإمبراطور هرقل إلى نيكيثاس يثبته في حكم الإسكندرية ويجعله نائباً عنه في حكم مصر منها . وكان الخطر الفارسي على أملاك الدولة البيزنطية

(١) Oman, The dark ages, London, 1958 - Cl. Diehl, Histoire du moyen âge, t. III, le monde oriental, Paris, 1936, p. 141.

آيدرس بل ، مصر من الاسكندرية الأكبر ، ٢٥٣ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٧٤

(٢) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣١

قد ازداد زيادة تهدد باقتطاع أجزاء كبيرة منها ، وساعد على ذلك النزاع المذهبي بين المونوفيزيين والملكانيين (١) ، وتفوق قواد الجيش الفارسي على قواد الروم ، وخالو خزائن الإمبراطورية الرومانية من المال (٢) . ونجح الفرس في الاستيلاء على انطاكية ودمشق وقيسارية ، وتجاوزوا زحفهم بفتح بيت المقدس وتخريب كنائسها وهدم أسوارها وأديرتها وذلك في شهر مايو سنة ٦١٥ .

وفي هذه الآونة تلبقت الإسكندرية مزیداً من اللاجئين الوافدين إليها من الشام ، ولم يمض عام واحد على فتح بيت المقدس حتى واصل الفرس بقيادة شاهين الزحف نحو الإسكندرية فسقطت العريش والفرما ثم منفيس ، وسار جيشهم بعد ذلك في البر يساعده أسطول كبير سار في النيل متجهاً نحو الإسكندرية ، وحاصر الفرس الإسكندرية في سنة ٦١٧ هـ وطال حصارهم لها ، وخربوا ما كان حولها من عمران ودمروا الأديرة والكنائس حولها وجعلوها أطلالا دارسة ، وفر نيكيتاس في إحدى السفن إلى القسطنطينية عندما اشتد حصار الفرس لها ، واضطر أهل المدينة إلى فتح أبوابها . فدخلتها حشود الفرس في سنة ٦١٧ ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم (٣) . ولم يطل العهد بالفرس في البلاد ثم يلبثوا أن خرجوا عنها بعد صلح في سنة ٦٢٨ الذي استردت بيزنطة مقتضاه جميع ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس (٤) .

عمد هرقل إلى تدعيم أركان دولته وإزالة أسباب النزاع والفتن فيها بعد

(١) عمر كمال توفيق ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧

ص ٦٦

(٢) بتلر ، ص ٤٤

(٣) نفسه ، ص ٥٣ — ٦٦

(٤) آيديرس بل ، ص ٢٥٥ — عمر كمال ، ص ٦٨

جلاء الفرس عن البلاد ، فعمل على التوفيق بين كنيسة القسطنطينية والإسكندرية ، وأيد مذهباً جديداً يقول بالإرادة الواحدة (المونوثلية) ، وتفسيره أن للمسيح طبيعتين ولكن له إرادة واحدة ، زعماً منه أن هذا المذهب قد يؤدي إلى التقريب بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وأصحاب مذهب الطبيعتين ، وأرسل لهذا الغرض حاكماً على مصر اختاره دون غيره في سنة ٦٣٤م لتعصبه للمذهب الإمبراطوري يسمى قيرس ، ولكن قيرس عجز عن استمالة المصريين إلى المذهب الجديد ، فلجأ معهم إلى سياسة الشدة والتعسف ، وأخذ يضطهد الأقباط اضطهاداً لم يشهد له المصريون نظيراً من قبل ، وأمام هذا الاضطهاد الرهيب اضطرب البطريرك القبطي بنيامين إلى الفرار من الإسكندرية من بابها الغربي إلى الصحراء ، ولأذ في نهاية الأمر بدير صغير لا يبعد كثيراً عن مدينة قوص (١). وحذا حذو بنيامين عدد كبير من المصريين ، فروا إلى أديرة وادي النطرون مثل دير البراموس ودير أنبا بشواي ودير أبي مقار ، وهجر كثير من الفلاحين مزارعهم وقراهم ، مما أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد واضطراب جميع مرافقها ، وتعرض من بقي من الأقباط في ديارهم لصنوف العذاب والتنكيل. وعلى مثل هذه الحالة السيئة من الفوضى والاضطهاد لقي العرب أهل هذه البلاد عند افتتاحهم لها .

(١) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ١٣٣

الفصل الثاني

الاسكندرية بعد الفتح العربي

- (١) فتح العرب للإسكندرية
- (٢) أسباب عدول العرب عن اتخاذ الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية .

الفصل الثاني

الإسكندرية بعد الفتح العربي

(١) فتح العرب للإسكندرية

لما افتتح عمرو بن العاص حصن بابليون سنة ١٩ هـ (٦٤١ م) انفتح أمامه الطريق إلى الإسكندرية ، عاصمة الديار المصرية . فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية ، وسار إليها في ربيع الأول سنة ٢٠ هـ بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم (١) ، واشتبك عمرو مع الروم في نقيوس الواقعة على الشاطئ الشرقي لفرع النيل الغربي ، بالقرب من منوف الحالية ، ثم في سبطيس (وصحتها سنطيس) الواقعة على بعد ستة أميال ، جنوبي دمنهور الحالية ، وانهمز الروم في كل من هذين الحصنين . ثم التقى عمرو بالروم في حصن الكريون ، وكان أهم معقل بيزنطي أمام الإسكندرية ، وكانت الكريون تشرف على ترعة الإسكندرية التي يعتمد عليها أهل الإسكندرية في السقيا ونقل المؤن ، وهناك قامت معركة حامية استمرت عدة أيام ، وانتهت بانتصار عمرو على تيودور انتصاراً حاسماً تراجع الروم على أثره بعد أن قتل منهم عدد كبير (٢) . وتحصن الروم في الإسكندرية ، وكان عليها

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٧

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٢ — محمود عكوش ، مصر في عهد

الإسلام ، ص ١٢٩

أسوار محكمة البناء ، ولها حصن منيع كان قد أقامه الفرس زمن احتلالهم للإسكندرية بشرق المدينة من جهة الميناء الشرقية (١) ، وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الإسكندرية لمناعتها فأثر أن يترك عليها فرقة للرباط ما بين حلوة ، وهو موقع بشرق الإسكندرية ، إلى قصر فارس ، ويسير هو على رأس جيشه لفتح بقية الوجه البحرى .

وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حاصرها مدة ثلاثة أشهر ، حتى صالحه المقوقس عن أهلها ، وأن هذا هو الفتح الأول (٢) ، وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص أقام على حصار الإسكندرية عدة أشهر ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : « ما أبطأوا بفتحها إلا لما أحدثوا » (٣) . وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص فتح الإسكندرية صباحاً في يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين ، وخلف بها ألف رجل من أصحابه ، ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البحر ، « فرجع من كان هرب من الروم في البحر إلى الإسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم ، وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعاً ، ففتحها وأقام بها (٤) . وذكر المقرئ أن عمرو ضرب الحصار على الإسكندرية مدة ١٤ شهراً ، منها تسعة أشهر بعد موت هرقل ،

(١) بشار ، فتح العرب لمصر ، ص ٦٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٦ (طبعة عبد المنعم عاصر) .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، طبعة ليدن ، ص ٧٨ (وطبعة عبد المنعم

عاصر ص ١١٤) .

(٤) السيوطى ، ج ١ ص ٥٢ . والنص مع بعض العبارات المحذوفة في ابن عبد

الحكم ، طبعة عبد المنعم عاصر ص ١١٨ — النويرى السكندرى ، الامام بما قضت به الأحكام ، مخطوطة الهند ص ٥٦ ب .

ونخمسة قبل ذلك ، وأن فتحها تم في أول محرم سنة ٢١ هـ (١) .

وساعد على فتح العرب للإسكندرية موت الإمبراطور هرقل ، وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته في ٢٣ صفر سنة ٢٠ هـ (١١ فبراير سنة ٦٤١ م) ، وقيام المنازعات في القسطنطينية من أجل العرش ، مما اضطر الروم إلى العمل على إنهاء الحرب وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية ؛ ونقل لين بول ما ذكره حنا النقيوسي إذ يقول : « إن البطريرك قيرس الذي عاد من القسطنطينية وبيده تفويض من الإمبراطور يخوله عقد الصلح مع عمرو ، ذهب إلى عمرو في بابلون ليفاوضه في الصلح . وقد تم الاتفاق بينهما على أن يدفع أهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية ، وأن يقدموا لعمرو ١٥٠ جنديا و ٥٠ مدنيا بمثابة رهائن ، وأن يتعهد المسلمون بعدم التدخل في شئون المسيحيين وكنائسهم ، والسماح لليهود بالبقاء في الإسكندرية ، وأن يبقى المسلمون مدة ١١ شهراً خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم . ووقعت المعاهدة بين الطرفين في طليعة نوفمبر سنة ٦٤١ ، وتم إبحار الروم في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م » (٢)

وما إن أتم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية حتى بعث معاوية بن حديج رسولا من قبله إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالفتح ، فقال له معاوية : « ألا تكتب معي كتاباً ؟ » قال عمرو : وما تصنع بالكتاب ؟ أأست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ؟ « فلما قدم معاوية على عمر بن الخطاب وبشره بالفتح خر عمر ساجداً ، وقال « الحمد لله » (٣) . وذكر

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٥

(٢) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٥

Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages. p. 11.

(٣) ابن عبد الحكم ، طبعة عبد المنعم عامر ، ص ١١٩

ابن عبد الحكم نقلاً عن عبد الله يزيد المقرئ عن موسى بن علي أن معاوية بن حديج قدم إلى المدينة في الظهيرة ، فأناخ راحلته بباب مسجدتها ، فبينما كان جالساً فيه إذ خرجت جارية من دار عمر بن الخطاب ، فرأته شاحب الوجه عليه ثياب السفر فسألته عن اسمه ، فأجابها بأنه رسول عمرو بن العاص ، فأنصرفت عنه ثم أقبلت عليه مسرعة بعد قليل حتى دنت منه ودعته إلى مقابلة الخليفة ، فتبعها . ويروي ابن حديج تفاصيل المقابلة بينه وبين خليفة المسلمين فيقول : « فلما دخلت فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه باحدى يديه ، ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين ، ففتح الله الإسكندرية . فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن في الناس ، الصلاة جماعة . فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك . فقمت فأخبرتهم . ثم صلى ، ودخل منزله ، واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ، ثم جلس ، فقال : يا جارية ، هل من طعام ؟ . فأنت بخبز وزيت . فقال : كل . فأكلت على حياء ، ثم قال : يا جارية ، هل من تمر ؟ . فأنت بتمر في طبق ، فقال : كل . فأكلت على حياء . ثم قال : ما ذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال : قلت أمير المؤمنين قائل . قال : بئس ما قلت أو بئس ما ظننت ، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟ » (١) . ثم أورد عمرو بن العاص رسوله برسول ثان يحمل كتاباً إلى الخليفة قال فيه : « أما بعد ، فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية ، بأربعة آلاف دينار ، وأربعين ألف يهودي عابثهم الجزية ، وأربعمئة مائة مائة لاسلوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل

الأخضر» (١). وذكروا أنه كان بها من الحمامات اثني عشر ديماسا ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، وكل مجلس منها يسع جماعة نفر (٢) . ويعتقد بتلر أن هذه الأعداد تتضمن شيئا من المبالغة ، ويرجح أن النساخ نقلوها نقلا فيه بعض التحريف (٣) ، ولكنها مع ذلك تعبر عن عظمة عمران الإسكندرية عند الفتح العربى ، وما أحدثه فتحها من آثار فى نفوس الفاتحين .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٢١ - المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٦ - ابن دقاق ، الانتصار بواسطة عقد الأتصار ، ج ٥ ، بولاق ١٣٠٩ هـ ، ص ١٢٥ - السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤ - النويرى السكندرى ، ص ٥٦ ب
(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٢١
(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٧٠

(٢)

أسباب عدول العرب عن اتخاذ الإسكندرية

عاصمة لمصر الإسلامية

وهكذا بهت العرب عند افتتاحهم للإسكندرية ، لما شاهدوه فيها من حسن العمارة ، وروعة التخطيط ، وجيل العمران ، وكثرة الدور التي هجرها أصحابها فأصبحت أنحاث للفاتحين (١) ، كما أعجبوا ببياض دورها المتخذة من الرخام الأبيض الناصع البياض ، وبحصانة أسوارها ، وروعة آثارها ، وكثرة مرافقها . وليس غريباً أن ينال فتح الإسكندرية هذه الأهمية ، وليس عجيباً أن يذهل العرب عند مشاهدة آثارها الجليلة ، فنار الإسكندرية كان يعد لإحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم ، بينما اعتبرها أحد مؤرخي العرب في عصر المماليك إحدى عجائب ثلاث : « منارة الإسكندرية وجامع بني أمية وحمام طبرية » (٢) ، ولذلك حظى هذا المنار بنصيب وافر من وصف المؤرخين ورحالة العرب والأعاجم على السواء ؛ وعمود دقلديانوس الذي عرف خطأ باسم عمود بومبي كان موضع إعجاب الرحالة العرب ، فأفاضوا في وصفه ، وأسبغوا عليه كثيراً من القصص ، وسموه عمود السوارى لضخامته ، وارتفاعه الهائل بين الأعمدة الأخرى التي كانت تحيط

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٧

(٢) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق

والمسالك ، نشره رافيس ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٤٥

به في معبد السيرابيوم أو القصر حسب تسمية الرحالة العرب (١) ، ثم أطلقوا على باب المدينة القبلى اسم باب العمود نسبة إلى هذا العمود ، وما زال اسم العمود يطلق في الوقت الحاضر على الجبانة الواقعة خارج باب العمود أو باب الشجرة أو باب السدرة أو باب البهار ، من أبواب الإسكندرية الإسلامية . ويضاف إلى هذين الأثرين آثار أخرى جليلة كانت تزدهر بها الإسكندرية كالمكتبة المشهورة التي زعموا افتراء وظلما أن العرب أحرقوا ما كان بها من كتب بأمر عمر بن العاص ، استنادا على رواية كتاب متأخرين ، منهم ابن العبري (من القرن السابع الهجري) وعبد اللطيف البغدادي الرحالة ومن هذا حذوهما (٢) ، وكالملاعب المعروف بالجيمنازيوم الذي يزعم مؤرخو العرب أن عمرو بن العاص نزل به مع صاحبه الشماس في الجاهلية لمشاهدة إحدى احتفالات القوم (٣) ، وكالمسنتين اللتين كانتا في صدر كنيسة القيصر يوم ، واللتين ظلتما قائمتين حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كذلك كان تخطيط الإسكندرية الرائع عاملا من العوامل التي أثارت إعجاب الفاتحين ، فشوارعها المستقيمة التي

(١) ابن رسته ، ص ١١٧ — ابن حوقل ، ص ١٥٠ — ابن جبير ، ص ٤١ —

ياقوت ، ص ٢٦٢

(٢) راجع الحديث عن مكتبة الاسكندرية وتفنيد الرواية القائلة بحرق العرب لها في كتاب فتح العرب لمصر ، ص ٢٩٤ — ٣١٢ . وفيما يختص بحريق مكتبة الاسكندرية المعروفة بمكتبة المتحف في حرب الاسكندرية ثم في سنة ٢٧٢ م ، عندما أخذ الاسبراطور أورليان الثورة التي تزعمها فيرسوس ، راجع : أسيانوس ساركيلينوس في مصر ، ص ٨٦ حاشية رقم ٢ — محمود باشا الفلكي ، الاسكندرية القديمة ، ص ١١٨ — دليل آثار الاسكندرية ، ص ٢ — السيد عبد العزيز سالم ، تخطيط مدينة الاسكندرية ، ص ٥٤

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٩ — السيوطي ، ج ١ ص ٤٦ — المقرئ ، الخطوط ،

مجلد ١ ، طبعة بيروت ص ٢٧٨

تتقاطع عمودياً فيما يشبه رقعة الشطرنج (١) ، وكانت مقنطرة أى تكتنفها البوائل من الجانبين ، وميادينها كانت واسعة تزدان بالتماثيل والأعمدة ، وصهاريجها الجوفية كانت فسيحة ، بحيث « يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة . وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ، ومتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء » (٢) . وأسوارها كانت منيعة مزودة بالحصون والأبراج (٣) .

وهكذا كان طبيعياً أن يقع اختيار عمرو بن العاص على هذه المدينة العظيمة لتكون عاصمة لمصر الإسلامية ، فبناها طيب من أى بقعة أخرى بأرض مصر (٤) ،

(١) لاحظ بعض مؤرخى العرب هذا النظام الشطرنجى ، فأشار إليه ياقوت فى معجمه (مجلد ١ ، ص ١٨٦) كما أشار إليه ابن شاهين الظاهري (زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠) .

(٢) المسعودى ، سراج الذهب ، مجلد ١ ، ص ٣٧٣ — الاستبصار ، ص ٩٣ — المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٣

(٣) كانت الاسكندرية مزودة بسبعة حصون وخنادق (ياقوت ، مجلد ١ ، ص ١٨٦ — المقرئى ، مجلد ١ ، ص ٢٦٠ وما يليها) وقد أشار ابن عبد الحكم إلى حصونها فقال : « حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم ، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام ، حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس » (فتوح مصر ، ص ١٠٩ ، ١١٠) . وأغلب الظن أن هذه الحصون كانت موزعة على الأركان البارزة السبعة لسور الاسكندرية القديم .

(٤) ذكر ياقوت عن الأزهر بن معبد أن عمر بن عبد العزيز سأل الأزهر بن معبد عن بلدته فى مصر ، فأجابته بأنه يعيش فى القسطنطينية ، فقال له عمر : « أف أم تن ، أين أنت عن الطيبة » فقال له الأزهر : « أيتها هى ؟ » قال : الاسكندرية (ياقوت ، مجلد ١ ، ص ١٨٤) . وذكر المقرئى فى الخطط نقلاً عن الحسن ابن صفوان أن قرب الاسكندرية من البحر ، وسكون الحرارة والبرد عندها ، وظهور ريح =

وأسوارها الحصينة تكفل للمسلمين مقاومة الغزاة والمغيرين (١) ، وبيوتها المهجورة تغني المسلمين عن بناء مساكن وخطط جديدة . ويذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص عندما رأى بيوتها خالية من أصحابها هم بسكانها واتخذها قاعدة لمصر ، إذ أن ذلك يكفي بناء مدينة جديدة لا يمكن مهاجمة العرب في بنائها من جهود ونفقات أن تصل في العظمة والإتساع العمراني والمظهر الجمالي إلى ما وصلت إليه الإسكندرية ، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك وكتب إليه يبرر ما رآه بقوله : « مساكن قد كفيناها » (٢) . ولا شك أن تفكير عمرو في اختيار الإسكندرية حاضرة له في مصر كان أمراً طبيعياً في الوقت الذي لم يكن العرب على استعداد لتأسيس مدينة جديدة ، ثم إن الإسكندرية كانت تعتبر المدينة الأولى في مصر منذ أسسها الإسكندر حتى افتتحها العرب ، وكانت من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة حصينة عامرة بالأسواق ، كثيرة الخيرات ، بهرت الفاتحين العرب بآثارها العظيمة وبطبيب هوائها وبموقعها الجغرافي والاستراتيجي الهام الذي هيأ لها أن تتوسط طرق التجارة بين الشرق والغرب . كل هذه المميزات كانت كفيلة باختيارها حاضرة لمصر الإسلامية ، ولكن ابن عبد الحكم يذكر

=الصبا فيها مما يصلح أمر سكانها ويرق طباعهم ويرفع همهم (المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٨٥) . كذلك استدح صاحب الاستبصار طبيب هوائها وتربها (الاستبصار ص ١٠٠)

(١) أثبتت الأيام صحة هذا القول ، فعندما انتفض أهل الاسكندرية على المسلمين سنة ٥٢٥ هـ ، تحصنوا داخل الاسكندرية ، وعانى عمرو بن العاص كثيراً في استردادها ، وأقسم أن يهدم سورها ، وفعل .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٢ — السيوطي ، ج ١ ص ٥٧ — المقريزي ، ج ١

عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو أرسل يستشير عمر بن الخطاب في اختياره للإسكندرية ، فسأل عمر رسول عمرو إليه سؤاله المعروف : « هل يحول بيني وبين المسلمين » فلما أجابه الرسول بالإيجاب ، كتب إلى عمرو يأمره باختيار مكان آخر لا يفصله عنه ماء في شتاء ولا صيف ، وأنه كتب كذلك إلى سعد بن أبي وقاص في مدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة ألا يجعلوا بينه وبينهم ماء متى أراد أن يركب راحلته إليهم حتى يقدم عليهم فعل . فعزل سعد عن اتخاذ المدائن حاضرة للمسلمين ، وانتقل منها إلى الكوفة على الجانب الغربي من الفرات ، وتحول صاحب البصرة من الموضع الذي نزل فيه إلى البصرة ، حيث تلتقي بها الطرق الآتية من نجد والشام وإيران ، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى القسطنطينية (١) . وأغلب الظن أن عمر بن الخطاب كان يهدف من وراء قوله أن تكون عاصمة البلاد في موضع مأمون لا يطل على بحر أو على نهر ، بل في موضع يسهل الوصول إليه دون اجتياز مياه عذبة أو ملحة ، ويبدو أيضاً من قوله أنه كان يشترط في اختيار الحاضرة ألا تكون ميناء بحرياً . ورأى عمر بن الخطاب على هذا النحو رأى سليم يشف عن بعد نظره وكياسته ، وعدوله عن اتخاذ الإسكندرية قاعدة لمصر الإسلامية كان تصرفاً حكماً ، فالإسكندرية ميناء بحري لا بد لمن يتخذها قاعدة له من التفوق في الشؤون البحرية . وكان البطالمة والرومان والبيزنطيون عارفين بأمور البحر ملمين بأصول الملاحة ، وكانت لهم الأساطيل التجارية

(١) ابن عبد الحكم ص ١٣٢ - المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٣ (طبعة بيروت) - السيوطي ، ج ١ ص ٥٧ - عبد الرحمن زكي ، عواصم مصر الإسلامية من كتاب « في مصر الإسلامية » القاهرة ١٩٣٧ ص ٩٩ ، ١٠٠ - جمال الدين الشيال ، القسطنطينية ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلد ١٢ سنة ١٩٥٨

والحربية تجوب مياه البحر المتوسط ، ولذلك لم تكن هذه الشعوب تخشى من اتخاذ قواعد بحرية على السواحل ، بل ان هذه القواعد كانت ضرورات أمليتها ظروف هذه الشعوب . أما العرب فكانوا أبعد الشعوب إلاماً بشؤون البحر ، وإذا كان عرب اليمن وحضرموت وعمان والبحرين قد برعوا في ركوب البحر في العصر الجاهلي (١) ، بحكم موقع بلادهم على البحر الأحمر غرباً ، والمحيط الهندي جنوباً ، وخليج فارس شرقاً ، وبحكم اشتغالهم بالتجارة في البر والبحر في مراحل تاريخهم القديم ، واحتكاكهم بشعوب بحرية ، وكانت لهم أساطيل تجارية ترسو قطعها على فرض البحر كعدن والجار والشعبية وأيلة ، فإن العرب في العصر السابق مباشرة على الإسلام كانوا قد فقدوا كل اتصال لهم بالبحر ، وأنهملوا شؤونه ، وفقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله ، واقتصروا في تجارتهم على الطريق البرية بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية : الحبشية والفارسية . فالفرس بضمهم اليمن والبحرين وما يليها قضوا على تجارة العرب في الخليج الفارسي وأصبحت تجارة الهند في أيديهم (٢) .

(١) اللغة العربية سائدة بألفاظ واصطلاحات بحرية إما عربية الصياغة أو مشتقة من اللغات الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية وردت في الشعر الجاهلي ، فمن أسماء السفن في الجاهلية الفلك وبوصى وعدوانية وخليج والجارى . وكذلك الأسر بالنسبة للاصطلاحات البحرية المقتبسة من اللغات الأجنبية مثل نوق وأسطول ومجداف وسكان وشراع ونونخذ وأسطام وقرقور (راجع :

Aly Mohamed Fahmy, Muslim Sea power in the eastern Mediterranean, Cairo 1966, p. 41

— فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ —
السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ج ١ ، عصر ما قبل الإسلام
الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٨ .

(٢) Aly M. Fahmy, op. cit. p. 48.

والأحباش منذ أن افتتحوا اليمن ، احتكروا الطريق التجارى عبر البحر الأحمر .
 ويعلل ابن خلدون تخلف العرب فى ثقافة البحر وركوبه ببلادهم ، بينما يعزو
 تفوق البيزنطيين والافرنجة البحرى إلى « ممارستهم أحواله ، ومرباهم فى
 التغلب على أعواده » (١) . ولا نشك فى أن العرب انصرفوا عن الاشتغال
 بالملاحة البحرية لأسباب ، منها أن بلادهم صحراوية قليلة الأشجار التى
 تصلح لصناعة السفن القوية ، كما أن بلادهم — باستثناء جبال اليمن — تخلو من
 معدن الحديد اللازم لصناعة المراسى والمسامير ، كما تخلو من النباتات التى
 تصنع منها حبال السفن ، ثم إن الملاحة فى البحر الأحمر كانت تكتنفها
 الصعوبات لكثرة الصخور والشعاب المرجانية (٢) .

فالمسألة إذن لم تكن رهبة من البحر ، كما يزعم الرواة ، ولكنها كانت
 مسألة بعد نظر وإدراك ووعى لحقيقة الأمور ، فالعرب كانوا حديثى عهد
 بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط والخليج الفارسى ، والعدو
 الذى يواجهونه سواء كان فارسياً أو بيزنطياً خصم عنيد متمرس فى شؤون
 البحر وثقافته ، متدرب على ركوبه ، ولا شك أن عمر بن الخطاب أدرك
 أن العرب فى هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجازاة الروم لقلة خبراتهم
 البحرية بخلاف الفرس الذين كانت صلتهم بالبحر أقل بكثير من الروم ،
 ولذلك نجح العرب فى أمد وجيز فى تقويض الإمبراطورية الساسانية ، بينما
 استمر نضالهم مع البيزنطيين فى الشام وفى جزر البحر المتوسط وفى المغرب
 قروناً طويلة ، وقد دفعه هذا الإدراك إلى تأديب العلاء بن الحضرمى واليه على

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي ، ج ٢

(٢) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٥

البحرين لتغريره بالمسلمين في الخليج الفارسي وتعريضهم للهلاك في سنة ١٧ هـ (١)، ولوم عرفة بن هرثة الأزدي سيد بحيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر (٢) .. وقد يكون إدراك عمر بن الخطاب بتخلف المسلمين البحري نتيجة لإخفاق حملة علقمة بن مجزز المدلحي البحرية إلى الحبشة في سنة ٢٠ هـ ، إذ غرقت سفنه في البحر ، فكان لذلك أثر عميق في نفسه (٣) .

لذلك كله عمد عمر بن الخطاب إلى تأسيس الأمصار الإسلامية في داخل البلاد كما عمد إلى انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين ، فاهتم بحصين السواحل متوسلا في ذلك بوسائل برية ، فأمر بمرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحراس على منازرها (٤) وإقامة الأربطة أو الخمارس أو المسالحي أو المناظر ، وشحنها بالمقاتلة لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون في البحر ، والإنذار باقتراب العدو ليلا عن طريق إيقاد النيران في مواقع خاصة بأعلاها ، تنبيهها للمرابطة بالخطر ، وتوجيهها لهم للإستعداد لصعد الغزاة ودفعهم . كان هذا النظام ضروريا في العهد الأول الذي تبع الفتوحات ، عندما كان العرب — وإن كانوا يعرفون شيئا عن ركوب البحر — بجهلون حروبه وأساليب القتال فيه ، ومواجهة البيزنطيين الذين كانت لهم حتى ذلك الحين السيادة الفعلية في البحر ، بالإضافة إلى أن العرب كانوا لا يثقون في المغلوبين من أهل البلاد المفتوحة ، مما حمل العرب على إبدال سكان السواحل

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة ليدن ، ج ١ ص ٢٥٤٦

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٨

(٣) الطبري ، ج ١ ص ٢٥٩٥

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة دكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ص ١٥٢ —

Cheira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie,

1947, p. 85

الشامية بسكان آخرين من العرب أو الموالين لهم . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام ومصر مبنوثة بالقتلاع والأبراج التي كانت أشبه ما تكون بسور منيع (١) امتد عليه العرب في الدفاع عن البلاد ، وحظيت سواحل الإسكندرية ورشيد وتينيس ودمياط والبرلس ، وعكا وصور وصيدا وعرة وجبيل وطرابلس وعسقلان وأنطاكية بقتلاع ومخارس ومناظر ، ووضعت في هذه المدن حاميات مرابطة تنقسم كل منها إلى عرافات أي مجموعات ، كل عرافة من مائة رجل ، وكان المرابطة يقومون بالدفاع عن السواحل أثناء فصل الصيف عندما يصبح البحر صالحا للملاحة ، أما في الشتاء ، وهو فصل انغلاق البحر بسبب العواصف والأنواء ، فكانت الحاميات تعود إلى قواعدها في القسطنطينية أو دمشق ، ولا يبقى منها على الساحل إلا جماعات يسيرة .

وهكذا أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أن الإسكندرية بوقوعها على البحر ، وإحاطتها بالبساتط من الشرق والغرب ، كانت سهلة المنال على العدو ، وقد عبر ابن خلدون عن هذه الحقيقة بقوله : « ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد ، تكون صريخا للمدينة ، متى طرقها طارق من العدو ، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل ، كانت في غرة للبيات ، وسهل طرقها في الأساطيل البحرية على عدوها ، وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها ، وهذه كإسكندرية من المشرق ، وطرابلس من المغرب ، وبونة وسلا . ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يباينهم الصريخ والنفير ، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى

(١) Cheira, op. cit. p. 87.

أستبها ، كان لما بذلك منعة من العدو ، ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبقة وبجاية وبلد القل على صغرها » (١) .

لذلك السبب لم تكن الإسكندرية في رأى عمر بن الخطاب جديرة بالاختيار كعاصمة لمصر ، ولعل وقوعها على الساحل كان سبباً في أن يهتم خليفة المسلمين بتحصينها والدفاع عنها ، « فكان يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكلف مرابطها ولا يأمن الروم عاينها » (٢) ، وجعل عمر على رباط الإسكندرية ، ربع رجاله يقيمون بها ستة أشهر في الصيف ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر ، وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه (٣) . كذلك اهتم عثمان بن عفان بتحصينها بعد أن تعرضت لغزو الروم ، سنة ٢٥ هـ ، فكتب إلى عبد الله ابن سعد يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فالزم الإسكندرية رابطةها ، ثم اجر عاينهم أرزاقهم ، وأعقب بينهم في كل ستة أشهر » (٤) .

ويضيف الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد تفسيراً آخر لعدول عمر بن الخطاب عن اختيار الإسكندرية حاضرة لمصر الإسلامية ، واختيار عمرو بن العاص موضع القسطنطينية لهذا الغرض ، أن هذا الموضع الذى يقع

(١) مقدسة ابن خلدون ، ج ٣ ص ٨٣٩

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٥٨ - السيوطى ، ج ١ ص ٧٩ - المقرئى ، المخطوط

مجلد ١ ص ٢٩٣

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

قريباً من عواصم مصر القديسية (عين شمس ومنف) هو أصلح المواضع لحكم الوجهين القبلي والبحري ، وأن اختيار عمرو له تسجيل لعودة مصر إلى السياسة الوطنية الأصلية ، التي توجه اهتمامها إلى داخل البلاد ونحو المشرق العربي ، وذلك ما لم يكن يتحقق في الإسكندرية التي تتطلع إلى البحر وإلى الشواطئ الأوروبية (١)

وهكذا كان رأى عمر بن الخطاب بخصوص الماء الذي يفصل بينه وبين المسلمين منطقياً يعبر عن حسن بصيرته وبعد نظره ، لأن الإسكندرية أصبحت بوقوعها على البحر مدينة مهددة بالغزو من البحر ، وليس أدل على ذلك من محاولة الروم فتحها بحراً في أوائل سنة ٢٥ هـ (أواخر عام ٦٤٥ م) ولم يكن قد مضى بعد على فتحها أربع سنوات . وتفصيل ذلك أن عمرو بن العاص لما افتتح الإسكندرية استخاف عليها عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم في رابطة من المسلمين وانصرف إلى القسطنطينية (٢) ، ثم عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وخلفه عليها عبد الله بن سعد في سنة ٢٥ هـ من قبل عثمان بن عفان ، فتشدد عبد الله بن سعد مع أهل مصر في جباية الضرائب والخزيات ، فضج أهل الإسكندرية ، ويبدو أنهم كتبوا إلى الإمبراطور البيزنطي يستمدونه ويستنصرون به على العرب (٣) ، ولم يتردد قسطنطين الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية في اغتنام هذه الفرصة المواتية إذ كان

(١) سعد زغلول عهد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، مقال بكتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، ص ٢٤١

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٦٠

(٣) يذكر البلاذرى أن الروم فى الاسكندرية كتبوا إلى إمبراطور الروم يخبرونه بقلّة من عندهم من المسلمين ، وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية (البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٠) .

قد هاله ما رآه من فتوحات العرب في الشام ومصر وبرقة ، فأراد أن يسترد مصر والشام من المسلمين معتمداً على قوته البحرية (١) ، وانهز فرصة جهل العرب بشؤون البحر وافتقارهم إلى الأساطيل وعمد إلى مفاجأتهم في الإسكندرية واحتلالها ، لتكون قاعدة بيزنطية لإخراج العرب من مصر (٢) . وأراد قنسطانز أن يشغل المسلمين في الشام عن الدفاع عن الإسكندرية ، فأرسل حملة أخرى للإغارة على شواطئ الشام في نفس الوقت الذي أغار فيه على الإسكندرية ، ولكن هذه الحملة على الشام لم يكتب لها النجاح ، إذ تصدى لهم جيش معاوية وإلى الشام وهزمهم هزيمة نكراء ، وأعد قنسطانز سفنه وأساطيله وقيل أنه أرسل إلى الإسكندرية ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة (٣) ، وجعل على رأس هذه الحملة قائده مانويل الذي يسميه مؤرخو العرب منويل الحصى (٤) . وكان وإلى مصر إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان . ولما أرسى أسطول الروم بالإسكندرية ، انتقض سكان الإسكندرية من الروم على المسلمين ، وانضموا إلى بني جنسهم ، وفوجئ المسلمون بتزول الروم في الإسكندرية فأسلمت المدينة للروم بدون مقاومة ، وزحفت جيوش الروم بعد ذلك إلى الجنوب الشرقي متجهة إلى القسطنطينية ، فطلب أهل مصر من عثمان أن يقدر عمرو بن العاص على قيادة جيش المسلمين

(١) إبراهيم أحمد العدوي ، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ،

١٩٥٨ ، ص ٦١

(٢) إبراهيم أحمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة

١٩٥٧ ، ص ٥

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٦٠

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ — السيوطي ، ج ١ ص ٧٨

لقتال الروم « فان له معرفة بالحرب وهيبة في قلب العدو » (١) . وترك عمرو أعداءه يتقدمون في البلاد ، ينزلون القرى فيشربون خمورها ، ويأكلون أطعمتها ، وينهبون ما مروا به ، وبذلك اكتسبوا عداء الأهالي من القبط ، فلما بلغوا نقيوس صدمهم المسلمون صدمة عنيفة ، واشتبكوا معهم في قتال شديد ، وحمل مانويل على جيش عمرو ورماه بالنشاب ، وانهمز شريك ابن سمي في خياله (٢) . وما زال عمرو يقاتلهم حتى هزمهم ، فراجعوا إلى الإسكندرية ، وتحصنوا بها ونصبوا العرادات على أسوارها (٣) . فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ، ونصب المجانيق فأخرب جدرانها (٤) ، ولكن الروم قذفوا عمرا وجيشه بالحجارة ، وقاسى العرب كثيراً أثناء حصارهم للمدينة ، ونادم عمرو على تركه أسوار الإسكندرية سليمة بعد أن افتتحها سنة ٢١ هـ ، فأقسم لأن يظهره الله على أعدائه واستولى على المدينة هذه المرة ليهدم سورها ، ويجعل الإسكندرية « كبيت الزانية يوثق من كل مكان » (٥) . ولا شك أن عمرا لقي في اقتحام المدينة صعوبات جمّة ، ولم يتمكن من دخولها إلا بعد عناء شديد ، فأعمل السيف في حامية الروم ، وقتل القائد البيزنطي مانويل وعدداً كبيراً من رجاله ، وقيل إنه أمر برفع السيف عن الباقيين ، وبني في ذلك

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨ — ابن عبد

الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٣٦

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٠

(٤) البلاذرى ، ج ١ ، ص ٢٦٠

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ — المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩٤ —

السيوطى ، ص ٧٨

الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا سماه مسجد الرحمة ، وهدم سور المدينة كله فى رواية (١) وأخربه فقط فى رواية أخرى (٢). ونجح العرب فى إحراق عدد كبير من سفن الروم . وهكذا استطاع عمرو أن يقضى على حملة الروم البحرية .

وكادت الإسكندرية تتعرض فى سنة ٣٤ هـ مرة ثانية لغزو الروم ، فلما إن العرب كانوا قد اضطنعوا فى خلال هذه السنوات العشرة سياسة بحرية ، إذ دفعتهم إلى ذلك الأخطار التى تعرضت لها ثغورهم فى مصر والشام . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « فلما استقر الملك للعرب وشهخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا إلى الجهاد فيه ، وأنشئوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح .. » (٣) .

ومضت مرحلة الدفاع البرى عندما فشلت بيزنطة فى استرداد الساحل الشامى سنة ٢٣ هـ ، والمصرى سنة ٢٥ هـ ، أمام قوة الدفاع العربى ، وآن للعرب أن يبدأوا بدورهم مرحلة الهجوم ، وكان لزاماً عليهم فى تلك الحالة أن يكون لديهم أسطول قوى يضمن لهم إحباط أى محاولة بيزنطية من البحر لاسترداد

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٧ — البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٠ — المقرئى ،

ج ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٨

(٢) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦١

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ١٢٨

مصر والشام ، ويمهد لهم السبيل للدفاع عن مكاسبهم ، وتأمين مناطق النفوذ البحرية ضد البيزنطيين الذين كانوا ما يزالون سادة البحر المتوسط .

ويرجع الفضل في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي إلى معاوية بن أبي سفيان عامل الشام في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، الذي أدرك فضل الأساطيل في الدفاع عن الساحل أثناء غزو أخيه يزيد للساحل ، فبدأ بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة ، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القبطائع والأخاند (١) ، وشجع على انتقال المسلمين إلى السواحل من كل ناحية . ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة بناء السفن في مصر ، فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان وأرسلها إلى مصر ، واستعان بالخبراء من القبط وبيعض الملاحين من أهل مصر لصناعة هذه السفن في الإسكندرية وتسييرها (٢) ، والشروع في السيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لسواحل الشام ومصر لاتخاذها قواعد بحرية لغزو بلاد البيزنطيين نفسها ، وإذا كان عمر بن الخطاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغزو أرواد المواجهة لساحل أنطوطوس ، فإن عثمان بن عفان على الضد من ذلك أطلق لمعاوية يده في الشام ، وأذن له بغزو الروم بحرا في قبرص سنة ٢٨ هـ على ألا يحمل الناس عليه كرها وأن يحمل معه امرأته .

وبدأ العرب ينافسون الروم في البحر ، فتغلبوا على جزيرتي قبرص وروودس ، وأراد معاوية مهاجمة القسطنطينية ، فأثر قنسطانز أن يبدأ هو بالهجوم ، والتقى الأسطول المصري والشامي مع الأسطول البيزنطي بالقرب من

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٢

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٠

من مياه الإسكندرية في موقعة حاسمة تعرف بموقعة ذات الصواري التي انتصر فيها الأسطول العربي على الأسطول البيزنطي انتصاراً حاسماً (١) ثبت للعرب السيطرة في البحر والتفوق على البيزنطيين (٢) .

ويعلق الأستاذ فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصواري بأنها تعتبر « حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط ؛ ذلك أن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ، ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين » (٣)

* * *

من ذلك كله نعلم أن موقع الإسكندرية على البحر الأبيض المتوسط كان موقعاً يعرضها لخطر الغزو البحري ، وهكذا جاء رأى عمر الحصيف باتخاذ حاضرة أخرى غيرها ، واهتدى عمرو بن العاص إلى موقع الفسطاط ، وهو موقع متوسط بين الدلتا والصعيد ، يستطيع منه الإشراف على مصر العليا—ومصر السفلى .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٥٥ — ٢٥٨ — الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، ص ٢٨٧٠ — الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٣ — ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٨ —

(Cheira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 88 — Aly M. Fahmy, Muslim sea - power, pp. 85 — 89.

حسين مؤنس ، أثر ظهور الاسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط . مجلة الجمعية التاريخية ، مايو ١٩٥١ ، ص ٩٠ — ٩٤ .

(٢) ابراهيم العدوى ، الدولة الاسلانية واسبراطورية الروم ، ص ٦٤ —
Aly Fahmy op cit. p 89

(٣) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة

(١) نذر الاضمحلال قبل الفتح العربي

(٢) اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربي وأسبابه

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة

(١)

نذر الإضمحلال قبل الفتح العربي

كانت الاسكندرية قبل الفتح العربي قد فقدت جانباً كبيراً من عظمتها القديمة ، والمكانة السامية التي تبوأتها في العصرين البطلمي والروماني ، لعاملين : الأول ، الاضطراب الذي سادها إبان الصراع بين الوثنية والمسيحية ، ثم أثناء النزاع المذهبي بين بيزنطة والاسكندرية حول طبيعة المسيح وإرادته . والعامل الثاني ، تعرض جانب من عمرانها للتدمير والتخريب في أثناء الحصار الفارسي من جهة ، ونتيجة لهبوط قسم كبير من واجهتها الشمالية إثر هزات أرضية عنيفة من جهة أخرى .

فن حيث العامل الأول ، رأينا فيما سبق أن اضطهاد الروم لمعتنقي المسيحية في الاسكندرية كان قد بلغ ذروته في عهد الامبراطور دقلديانوس ، الذي كان يرغب في توحيد النظام الإداري في جميع أنحاء الامبراطورية وكان المسيحيون في مصر عنصراً نافعاً بين مواطني الامبراطورية الرومانية (١) ، وكان لابد من اتخاذ الاجراءات اللازمة لإدماجهم سواء رضوا أم كرهوا ،

(١) محمد عواد حسين ، وداود عبده ، الاسكندرية في العصر البيزنطي ،

ولذلك صدر قرار الامبراطور دقلديانوس باضطهاد سياسة الاضطهاد الذى بلغ من العنف والشدة درجة أدت إلى أن الكنيسة القبطية----- فى مصر بدأت تقويمهم----- المعروف بتقويم الشهداء من تاريخ تولى دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤م (١) . وقد احتدمت فى الاسكندرية نار الثورة ضد الامبراطور ، فاضطر إلى القدوم بنفسه لإخمادها ، وحاصرها زهاء ثمانية أشهر تعرض عمراتها خلالها للتخريب . كذلك أدى انتصار المسيحية على الوثنية إلى هدم كثير من آثار الوثنية فى الاسكندرية من معابد وهياكل سنة ٣٩١ م ، فشمّل التخريب معبد السيرابيوم الذى قام المسيحيون بزعامة البطريك ثيوفيلوس بهدمه وتدميره ، وتكسير تماثيل سيرابيس ، واشعال النيران فى مكتبة المعبد ، وشهدت شوارع الاسكندرية معارك عنيفة ، راح ضحيتها العديد من السكان .

كذلك تأثر العمران السكندري فى العصر البيزنطى بحركة الاضطهاد الأعظم التى باركها قيرس حاكم مصر من قبل الامبراطور هرقل ، فقد مارس قيرس سياسة إرهابية فى الاسكندرية ، حملت عدداً كبيراً من الأهالى على هجرها والفرار إلى الصحراء ، وأدت بطبيعة الحال إلى شيوع الفوضى والاضطراب واضمحلال الحياة الاقتصادية فيها .

وأما العامل الثانى ، وهو تعرض الاسكندرية لحركة هبوط حدثت فى عصر سابق للفتح العربى نتيجة هزات أرضية عنيفة أدت إلى انخفاض منسوب المدينة ستة أو سبعة أمتار (٢) ، فطغى البحر على الجانب الأعظم من الواجهة

(١) راجع ما سبق ذكره فى الفصل الأول .

(٢) صبحى عبد الحكيم ، مدينة الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٣٠ .

الشمالية المدينة ، المطلة عليه ، وانتهى تحت مياه البحر ، وكان يشتدل على جزء من الحى المائى ، وجانب من الحى اليهودى . كما سبب هذا الهبوط اختفاء جزيرة أنتيرودس المائكية والأرصفة القديمة التى كانت تقع إلى الشمال الغربى من جزيرة فاروس (١) . وقد أشار المقرئزى إلى هذه الظاهرة إذ نقل عن جماعة من ثقات أهل الاسكندرية أن أسلافهم « شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحواً مما بين المدينة والمنارة . فى هذا الوقت ، فغلب عليه ماء البحر فى المدة اليسيرة ، وأن ذلك فى زيادة » (٢) .

وقد اكتشف جاستون جوندت فى الفترة ما بين ١٩١٠ ، ١٩١٦ على الأرصفة القديمة لميناء الاسكندرية التى كانت مغمورة تحت مياه البحر إلى الشمال الغربى من جزيرة فاروس ، ونشر بحثين عن هذا الاكتشاف أحدهما فى مجلة جمعية الآثار بالاسكندرية (٣) ، والثانى فى مذكرات المعهد المصرى ، ولم يكن هذا الاكتشاف الذى أسفرت عنه بحوث الأستاذ جوندت الدليل الوحيد على حدوث هبوط أدى إلى طغيان البحر على جزء من ميناء الاسكندرية القديم . ففى سنة ١٩٣٣ عثر بعض الغواصين على عدد من الأعمدة الرخامية والجرانيتية على عمق ٥ أمتار ، وآثار من بينها تمثال لرأس من الرخام الأبيض ارتفاعه ٣٠ سم ، من المعتقد أنه تمثال لرأس

(١) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, Mémoires présentés à l'Institut Egyptien, vol. IX, le Caire, 1916, pp. 57 — 63.

(٢) المقرئزى الخطط ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) Gaston Jondet, Les ports antiques de Pharos, dans Bulletin de la Société Archéologique d'Alexandrie, no. 14, 1912.

الاسكندر (١). وفي سنة ١٩٦١ ، اكتشفت أحد مواطنى الاسكندرية ، ويدعى كامل حسين أبو السعادات فى منطقة الميناء الشرقية تمثالاً رومانيا من الجرانيت الأحمر يمثل رجلاً واقفاً ، كما اكتشف بعض القواعد الحجرية والتماثيل والعصلات القديمة ، ثم اكتشف تمثالاً ضخماً لايونيس يزيد ارتفاعه على ٧ أمتار ويبلغ وزنه نحو ٢٥ طناً وذلك فى منطقة قايتباى (٢).

وبالإضافة إلى هبوط قسم كبير من واجهة الاسكندرية الشمالية مما أدى إلى غرقها تحت مياه البحر ، فإن قسماً كبيراً من عمـر ان الاسكندرية تخرب قبيل الفتح العربى ، إبان الحصار الفارسى لمدينة الاسكندرية فى سنة ٦١٨ م ، وبعد اقتحام الفرس لأسوارها ، وان كان قد ثبت أن الأضرار التى أصابت الأبنية العامة الكبرى بالاسكندرية كانت أقل بكثير مما أصابت ظاهر المدينة (٣) وهكذا كان الاضمحلال قد بدأ يظهر أثره على مدينة الاسكندرية قبل أن تدخلها جيوش العرب الفاتحين .

(١) سليم أنطون سرقس . الكشوف الأثرية تحت مياه البحر الأبيض المتوسط ، مقال فى كتاب دراسات أثرية وتاريخية ، من مطبوعات العيد الماسى لجمعية الآثار بالاسكندرية ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ص ١٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٦٧

(٢)

اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربى وأسبابه

لم تمض أعوام قليلة على فتح العرب لمصر ، حتى أخذت الاسكندرية تسير بخطى حثيثة نحو اضمحلال محتوم ، ولا ترجع أسباب هذا الاضمحلال إلى اتخاذ المسلمين الفسطاط حاضرة لمصر الإسلامية بدلاً من الاسكندرية العاصمة القديمة للبلاد ، ومقرراً للولاية ، ومركزاً رئيسياً لاشعاع الحضارة العربية الإسلامية ، أو نتيجة للأسباب التى ذكرناها من قبل واتى أخذت تتضح وتظهر آثارها عقب الفتح العربى فحسب ، بل ترجع إلى عوامل أخرى ثلاثة لا يمكن للباحث فى تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى أن يغفلها .

وأول هذه العوامل ، نقص عدد سكان الاسكندرية بعد الفتح العربى مباشرة نتيجة لجلاء عدد كبير من سكانها من الروم واليهود ، وكانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من مجموع سكان المدينة ، وفقاً لمعاهدة الصلح . فقد اشترط قيرس على عمرو أن يجاو رجال حامية الاسكندرية عن المدينة حاملين معهم أمتعتهم وأموالهم (١) . وقد قدر ابن عبد الحكم عدد من جلا

(١) يذكر البلاذرى أن عمرا صالح المقوقس على أن يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، وبقية بها من أحب المقام (البلاذرى ، ج ١ ص ٦٠) ، وذكر حنا النقيوسى من بين شروط الصلح أن ترحل مسلحة الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها (بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٥ — سيدة الكاشف مصر فى عصر الولاية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ١٦) ويروى ابن عبد الحكم نصاً نقله =

من الروم بثلاثين ألف رجل ، خرجوا في مائة مركب من المراكب الكبار « مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل » (١) . وذكر أيضاً نكتلا من هاني ابن المتوكل أنه رحل من الاسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو بن العاص ، أو أو في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو ، سبعون ألف يهودي (٢) ، وذكر أيضاً أن عدد من بقى من سكان الاسكندرية بلغ ستمائة ألفاً سوى النساء والصبيان (٣) ، منهم أربعون ألف يهودي عليهم الجزية (٤) ، وواضح مما ذكره أن الرقم مبالغ فيه كثيراً ، فإن ديودور الصقلي يقدر عدد سكان الاسكندرية في سنة ٦٠ ق.م. بنحو نصف مليون (٥) ، أى في ذروة عظمتها ، وليس من المعقول أن يصل عدد سكانها إلى ستمائة ألف عند الفتح العربي ، أى بعد عصر الإضطهاد أو عهد الشهداء الذي لقي فيه سكان الاسكندرية في زمن البيزنطيين صنوف الاضطهاد الديني ، مما اضطر عدداً كبيراً من المؤمنين بالمذهب اليعتمـــــوبى إلى الفرار من المدينة إلى الصحراء

= عن هاني بن المتوكل جاء فيه : « كان عدد من بالاسكندرية من الروم سائتي ألف من الرجال ، فلاحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن » (فتوح مصر ، ص ١٢١ — السيوطي ، حسن المناصرة ، ج ١ ص ٦٨) .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٢١ — السيوطي ، ج ١ ص ٦٨ — المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩١

(٢) نفس المصدر — السيوطي ، نفس المصدر — المقرئى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩١

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢١ ، ١٢٤ — السيوطي ، نفس المصدر — المقرئى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩١

(٤) نفس المصدر .

(٥) Breccia, Alexandria Ad Aegyptum, Bergamo, 1922, p. 32.

وبعد فترة الاحتلال الفارسي التي سبقت الفتح العربي خاصة الفترة التي أعقبت دخول جيوش الفرس الاسكندرية ، ففيها قتل عدد كبير من أهل المدينة عند أول دخول الفرس أبوابها ، وأرسل عدد كبير آخر إلى بلاد الفرس (١) ، يضاف إلى ذلك أن سياسة قيرس التعسفية حملت كثيراً من أهل المدينة إلى الخروج عنها والفرار إلى أديرة الصحراء . ولو افترضنا أن هذا الاحصاء الذي أورده المؤرخون العرب قريب من الصحة ، لما كثر عدد من الأخائذ التي ظفر بها الفاتحون العرب ، فقد أجمع المؤرخون على أن الاسكندرية لم يكن بها خطط ، وإنما كانت أخائذ استولى عليها المسلمون ، باستثناء الدار التي اختطها الزبير بن العوام غربي الاسكندرية (٢) . وكان المسلمون ، لكثرة الأخائذ ، ينزلون كل عريف في قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه (٣) ، فقد اتخذ عمرو قصرآ في داخل المدينة على نشر مرتفع ، وبجواره أسس جامعته المسمى بجامع عمرو بن العاص ، أو الجامع الغربي ، الواقع بالقرب من باب الاسكندرية الغربي ، وقد آل هذا القصر إلى عبد الله بن سيد بن أبي السرح بعد ذلك ، ونزل أبو ذر الغفاري الصحابي منزلاً يقع غربي المصلى المجاور لمسجد عمرو مما يلي البحر ، ونزل معاوية بن حديج في قصر فوق التل (٤) .

ونعتقد أن عدد سكان الاسكندرية لم يكن يتجاوز كثيراً الثلاثة ألاف ، فقد ذكر المقرئى نقلاً عن ابن لهيعة أنه وجد بالاسكندرية من أهل الذمة

(١) بتلر ، ص ٦٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٧ — القاخي الرشيد بن الزبير ، كتاب الذخائر والتحف ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، الكويت ١٩٥٩ ص ٢٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٨ — المقرئى ، مجلد ١ ، ص ٢٩٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٧ — المقرئى ، مجلد ١ ، ص ٢٩٣ .

ثلثمائة ألف ، فقدر عليهم دينارين لكل شخص ، فحصل عمرو من جزية الاسكندرية ستمائة ألف دينار (١) .

والواقع أن عدد سكان الاسكندرية قبل الفتح العربى لم يكن يصل بأى حال من الأحوال إلى نصف مليون شخصاً للاعتبارات السابقة ، وقد نقص عدد هؤلاء السكان برحيل الروم ، وكانوا يؤلفون العدد الأعظم من السكان ، مع عدد غير قليل من اليهود ، خافوا على أنفسهم البقاء فى الاسكندرية فى ظل الفاتحين الجدد . ونضيف إلى ما سبق ذكره أن عدد سكان الاسكندرية فى الوقت الحاضر لا يزيد على مليون ونصف مليون ، على الرغم من امتداد المدينة الحديثة إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، بحيث أصبحت فى الوقت الحاضر تتسع إلى نحو أربعة أمثال المساحة التى كانت تشغلها الاسكندرية القديمة ، وبالرغم من اكتظاظ المدينة الحاضرة بالسكان واحتشادها بالدور المرتفعة التى تتسع لأعداد كبيرة منهم .

وقد نقص عدد سكان الإسكندرية مرة ثانية فى سنة ٢٥ هـ برحيل عدد كبير من أهلها عقب استيلاء عمرو بن العاص على المدينة للمرة الثانية ، وفى هذه السنة « كتب الروم إلى قسطنطين ابن هرقل ، وهو كان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين ، وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية ، فبعث رجالاً من أصحابه يقال له منويل فى ثلاث مائة مركب ، مشحونة بالمقاتلة ، فدخل الاسكندرية ، وقتل من بها من روابط المسلمين ، إلا من لطف للهرب ، فنجوا ، وذلك فى سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمرا الخبر ، فسار إليهم فى خمسة عشر ألفاً فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ، ونصب

(١) المقرئى ، المخطوط ، مجلد ١ ، ص ٢٩٢ ، مجلد ٢ ص ١٤٢

المجانيق ، فأخرب جدرانها ، وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة ، فقتل المقاتلة ، وسبي الذرية ، وهرب بعض رومها إلى الروم ، وقتل عدو الله منويل « (١) . وهكذا اضطرب عدد كبير من الروم المنتقمين إلى الفرار مع فلول الجيش البيزنطي إلى القسطنطينية بعد أن هزمهم عمرو ابن العاص ، واسترد المدينة (٢) .

والعامل الثاني في اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربي ، هو تهديم عمرو و بن العاص لسورها الحصين بأبراج العتيدة ، وقلاع التي لا ترام (٣) ، وذلك عندما دخلها في المرة الثانية ، على أثر انتفاض أهلها ، ونزول الجيش البيزنطي بقيادة مانويل . ويذكر المؤرخون العرب أن عمرا عانى كثيراً عند حصاره لأسوار الاسكندرية ، وندم على تركه أسوار المدينة سليمة عندما افتتحها في المرة الأولى ، فأقسم لأن يستولى عليها هذه المرة الثانية ليهد من أسوارها ، ويجعل الاسكندرية « كبيت الزانية يوثى من كل مكان » (٤)

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٠

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ - البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٩ -
المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٩٤

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١١٠ - المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٨٨ .
وسن المعروف أن سور الاسكندرية عند الفتح العربي كان مزوداً بقلاع وحصون منها حصن فارس أو قصر الفرس وكان يقع بالقرب من الساحل في ركن من أركان السور الشرقي ، وسن الحصن القديم الذي اتخذ فيه دار الامارة في سنة ٤٤ هـ ، وسن المعتقد ان دار الامارة كانت تقع إلى الشمال الغربي من الاسكندرية .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٥ - المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩٤

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه هدم السور كله ، بعد أن افتتح المدينة (١) ، حتى لا يتخذ هذا السور مرة ثانية حصناً للمستقضين ، يتحصنون فيه ، وتصلهم الامدادات من البحر ، خاصة وأن العرب كانوا قليلي خبرة بشؤون البحر وثقافته ، ولم تكن دار صناعة الاسكندرية قد استأنفت بعد نشاطها في صناعة السفن بعد .

ويبدو أن ما ذكره هؤلاء المؤرخون فيما يختص بهدم سور الاسكندرية كله يتضمن بعض المبالغة ، فليس من المعقول أن يهدم عمرو كل سور الاسكندرية الذي يحمي المدينة من الغارات البحرية ، خاصة وأن العرب كانوا يخشون الروم عليها ، ويعتبرونها باباً مفتوحاً لنزولهم بأرض مصر (٢) ، كما أنه ليس من المعقول أن يذكر المؤرخون أن عمرو هدم سور الاسكندرية كله ، ثم يذكرون بعد ذلك في حوادث سنة ٢٠٤ هـ أن أحد الثوار في مصر وهو عبد العزيز الجروى حاصرها مدة سبعة أشهر ، ونصب عليها المجانيق (٣) ، مما يدل على أن سور الاسكندرية كان ما يزال قائماً على الأقل في معظم أجزائه . فكيف يمكننا أن نفسر هذا التناقض الواضح إلا إذا كان المقصود بالحصار حصن الاسكندرية وحده كما يذكر الكندى ؟ (٤) .

وحتى إذا صح ذلك فإننا نعتقد أن سور الاسكندرية لم يهدم كله في سنة ٢٥ هـ كما يزعم المؤرخون ، فان مجرد ثغرة كبيرة أو حتى عدد من الثغرات في هذا السور كانت كافية لتدفق جيوش المسلمين في المدينة ، ونعتقد أن هدم سور

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣٧ — البلاذرى ج ١ ص ١٦١ — المقرئى ، الخطط

مجلد ١ ص ٢٩٤ — السيوطى ، ج ١ ص ٧٠

(٢) محمد عبد الهادى شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربى ، مقال فى كتاب الغرفة

التجارية سنة ١٩٤٩ ، ص ٨٦

(٣) المقرئى ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٣٠٤

(٤) الكندى ، كتاب الولاة ، ص ١٧١ ، ١٧٢

بأكمله عمل هائل يستغرق شهوراً طويلة في وقت لم تكن تتوفر فيه معاول الهدم المعروفة في الوقت الحاضر خاصة إذا عرفنا أن سور الاسكندرية كان شديد الصلابة والمناعة ، وتكتنفه الأبراج والحصون في سائر أجزائه . وأغلب الظن أن عمرو بن العاص فتح في هذا السور ثغرات كبيرة ، ونرجح أن هذه الثغرات فتحت في الجانب القبلي والجانب الجنوبي الشرقي منه ، ويؤيدنا فيما نذهب إليه ما ذكره البلاذري إذ يؤكد أن عمرو وفتح الاسكندرية « وأخرب سورها » (١) ، كما يؤكد في موضع آخر أن عمرو نصب المجانيق ، « فأخرب جدرها » (٢) . ونعتقد أن المقصود بالتخريب هدم بعض أجزاء منه ، أو فتح ثغرات ، ليدخل منها الجند ، وفي نفس الوقت ليضمن عدم صلاحية الأجزاء الباقية بعد ذلك ليتحصن فيها أهل المدينة إذا فكروا في الانتفاض مرة أخرى ، ونعتقد أن عمرو أبقى على الجانب الشمالي والغربي والشمالي الشرقي من السور ، لتساعد على مدافعة المغيرين والغازين من البحر (٣) ، كما نعتقد أيضاً أن الأجزاء المهدامة من السور رمت ترميماً مؤقتاً في أوائل القرن الثالث الهجري ، عندما نزل الأنديسيون الاسكندرية أو قبل ذلك بعهد قصير . ويؤيد ما ذهبنا إليه أن بقايا من السور القديم كشفت عنها الأبحاث الأثرية التي أجراها المهندس المصري محمود باشا الفلكي في أواخر القرن التاسع عشر والتي أسفرت عن كشف مكان السور القديم

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦١

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٦٠

(٣) يذكر علي باشا مبارك أن أحمد بن طولون عندما جدد أسوار الاسكندرية هدم الأسوار القديمة حاشاً ما كان من جهة البحر والغرب ، فقد أبقى عليه مع بعض التغيير (علي مبارك ، الخطط الجديدة لمصر القاهرة ودمها ، بولاق ، ١٣٠٥ هـ ، ج ٧ ، ص ٤٣) .

المحيط بالاسكندرية ابتداء من برج السلسلة في مسافة تمتد أكثر من ثلاثة كيلومترات طولا ، والتي دلت على أن الجزء الممتد من رأس لوخيلاس حتى الميناء الغربى كان على شكل رصيف لتيسير شحن وتفريغ السفن التي كانت تصل إلى الميناء حتى درجات من الرصيف (١) .

وأيا ما كان مدى التخريب الذى لحق بسور الاسكندرية وكيفية معالجته بعد ذلك ، فإن هنالك أمر ثابت لا بد من ذكره ، وهو أن العمران السكندرى تأثر بهذا التخريب ، والمعروف أن الأسوار هي التي تحدد نمو العمران واتساعه ، فاذا تخربت أو فتحت فيها ثغرات ، انكمش العمران إلى المناطق الداخلية من المدينة ، وأصبحت المناطق الملاصقة لجانب السور المحرب أرضاً براحا مهجورة ، ونتيجة لذلك ، يكتظ قلب المدينة بالسكان ، حتى يتعدوا عن مرمى قذائف الحانيق ، فلا تصل إليهم هذه القذائف ، ولا تتعرض لها إلا الأبنية المهجورة القريبة من السور المتخرب ، وهذا يفسر لنا انحسار العمران في الاسكندرية بعد الفتح الثانى لها إلى الداخل ، فتصبح المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية منطقة غير مأهولة بالسكان ، وتتحول إلى أطلال دارسة .

أما العامل الثالث الذى ساعد على اضمحلال المدينة بعد الفتح العربى مباشرة ، فهو انقطاع ترعة شيديا التي كانت تمتد الاسكندرية بماء النيل ، واعتماد السكان في السقاية والرى على مياه الآبار والخزانات ، والصهاريج .

(١) محمود باشا الفلكى ، الاسكندرية القديمة ، ص ٦٦ — جمال الدين الشيال ،

طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ١٩٦ .

وقد ترتب على انقطاع المياه أن أقفرت البساتين والمزارع التي كانت تمتد على ضفتي الترع القديمة بعد أن كانت بلاد مريوط في نهاية العمارة ، وكانت الحنات تتصل فيما بينها وبين أرض برقة ، وكانت السفن تجرى في النيل ، وتتصل بأسوار الاسكندرية . وسرى فيما بعد كيف أن عمران الاسكندرية كان يزدهر في الأوقات التي يتم فيها تطهير هذه الترع من الرواسب الطينية التي تتراكم في مجراها ، ونفهم من ذلك أن نمو عمران المدينة كان يتوقف على وصول المياه النيل إلى مدينة الاسكندرية عن طريق ترعتها المعروفة بخليج الاسكندرية التي كانت تصب في الميناء الغربية .

الفصل الرابع

الإسكندرية في العصر الأموي

- (١) الإسكندرية دار ربساط .
- (٢) مظاهر اهتمام الولاية بالإسكندرية .
- (٣) الإسكندرية أهم قاعدة بحرية في البحر المتوسط .

الفصل الرابع

الاسكندرية في العصر الأموي

(١)

الاسكندرية دار رباط

اهتم ولاية الاسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص بتحصين ساحل مدينة الاسكندرية بالأربطة والنواظير لأنها كانت معرضة للهجوم من البحر وكان ميناؤها أصلح موانئ مصر لنزول العدو ، لذلك اعتبرها المسلمون ثغراً من الثغور الاسلامية التي يفد اليها الماربة بقصد الرباط ، وقد رأينا من قبل كيف كان الخليفة عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية ، وكيف قسم عمرو بن العاص أجناده إلى قسمين متساويين : قسم أبقاه معه في القسطة ، وقسم وزعه إلى نصفين ، أحدهما لرباط الاسكندرية وحدها ، والنصف الآخر ! نزل السواحل ، كما رأينا كيف اهتم عبد الله بن سعد بتحصين الاسكندرية امتثالاً لرأى الخليفة عثمان بن عفان . وهكذا نزل العرب بالاسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص وانتجعوها للرباط ، وطالباً لثواب الجهاد ، فقد ذكر النويري السكندري أن عمرو أرسل إليها بعد الفتح قبائل العرب من لحم وجذام وكنده والأزد وحضر موت وخزاعة والمزاغنة لسكنائها بقصد حراستها وحراسة الميناوين الشرقية والغربية بوجه خاص ، فنزلت لحيم في المكان « المعروف بكوم الدكة » ، ونزلت جذام « بركة جذام » ،

ونزلت كندة « بالبراكل » ، ونزلت الأرد « بخارة الأزدى » ، ونزلت
حضر موت « بشارع الحضارمة » ، بينما سرات خزاعة والمزاغنة بناحية
أبي قير شرقى الاسكندرية من ظاهرها ، يحرسون بها . ويذكر النويرى أن
ذرية هذه القبائل كانت موجودة فى زمنه حتى سنة ٧٧٠ هـ التى كتب فيها
كتابه « الإمام بما قضت به الأحكام » ، وأنهم كانوا يعرفون بها بالقبائل
وأن عدد مقدميهم بلغ ثلاث وثلاثين مقدماً ، لكل منهم جماعة من القبائل
لم يخرجوا عن طريقة ملبوس العرب ، « بل يسدلون العذبات ويفرجون
ذراريهم على جارى عادة أسلافهم » (١) .

وقد قيل فى فضل الرباط فى الاسكندرية أقوال كثيرة ، وكتبت فى
ذلك رسائل كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

١ - رسالة فى فضائل الاسكندرية ، مخطوطة مجهولة المؤلف ، اشتملت
على فتح الاسكندرية وفضل المراقبة فيها ، وذكر أسوارها وعدد مساجدها ،
محفظة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة (٢) .

٢ - الدرة السنية فى تاريخ الاسكندرية ، صنفه أبو مظفر منصور
ابن سليم السكندرى ر (ت ٦٧٣ هـ) (٣) .

٣ - فضائل الاسكندرية ، لأبى على الحسن بن عمر بن أبى اسحاق

(١) النويرى السكندرى ، الإمام بما قضت به الأحكام ، صورة شمسية من
مخطوطة الهند ، ص ٧٧ ب

(٢) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مجلة الكتاب ، يناير
١٩٤٧ ، ص ٣٧٩

(٣) هذا المخطوط كان محفوظاً بمكتبة أيا صوفيا ، ولكنه فقد .

المعروف بابن الصباح (١) .

٤ — فضائل الإسكندرية ، لأبي الفضائل (٢) .

وفي فضائل الرباط بالإسكندرية يذكر ابن الصباح الذي جمعه معظم ما كتبه أبو الفضائل ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المقيم بالإسكندرية ثلاثة أيام من غير رياء بمنزلة من عبد الله سبعين سنة ما بين الروم والعرب » (٣) . ورووا عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الإسكندرية وعسقلان عروستان والإسكندرية أفضلهما ، وإنها لتأتى يوم القيامة تزحف بأهلها إلى بيت المقدس ، فن رابط بالإسكندرية أربعين يوماً كتب الله له براءة من النار ، وأمن من العذاب ، وخيار أهلها أفضل من خيار غيرها ، وشرار أهلها أفضل من شرار غيرها ، وهى مدينة ذى القرنين مكتوبة فى توراة موسى وزبور داود والانجيل والفرقان ، موصوفة فى الكتب ، يعرفها أهل العالم باسم الحضراء ، واسمها فى الزبور ، واسمها فى التوراة المذهبة ، وفى الفرقان مدينة ذى القرنين ، يبعث الله منها سبعين ألف شهيد ، وجوهمهم على صورة القمر ليلة

(١) هذا المخطوط صورة شمسية محفوظة بمكتبة كلية آداب الاسكندرية تحت رقم ٧٧٩ م بصورة من النسخة المحفوظة فى المكتبة الظاهرية بدسشقي .

(٢) هكذا ورد فى كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » للسخاوى (ت ٨٣١ هـ) الوارد ذيلاً فى كتاب عام التاريخ عند المسلمين ، لفرانز روزنثال ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص ٦١٥ .

(٣) ابن الصباح ، فضائل الاسكندرية ، مخطوطة ، ص ٤ ب — النوبرى السكندري ، مخطوطة ، صورة عن نسخة الهند ، ص ١١٤ أ — ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الأصهار ، ج ٥ ص ١١٦ .

البدر ، يعطى كل واحد منهم نوراً على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم لسبعين ألفاً ، فطوبى لمن رابط فيها . « (١) .

وأورد النويرى عن سليمان الأعمش أنه قال : « حدثنا مولى عمر بن عبد العزيز ، قال له : يا أمير المؤمنين ، ألا أحدثك بحديث ؟ قال : بلى . قال : حدثنى أبى عن جدى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مدينتان من مدائن الجنة وهما من مدائن العدو ، وأنها ستفتحان على أمتى ، إحداهما من مدائن الروم يقال لها الإسكندرية ، والأخرى من مدائن الديلم يقال لها قزوين ، فمن رابط فى إحداهما ليلة واحدة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال : فاستوى عمر جالساً ، وكان مضطجعاً ، فقال : الله ! ! لقد حدثاك بهذا الحديث أبوك عن جديك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . فقال الأنصارى : لقد حدثنى أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثتك يا أمير المؤمنين . ثم قال : اللهم اجعل قبرى بالإسكندرية أو بقزوين ، فوالله لولا شغل أنا فيه لاتخذت داراً أو منزلاً بإحداهما » (٢) .

وذكر النويرى أيضاً « عن نافع ابن عمر قال له رجل من أصحابه : أى المواضع أحب إليك ، ترابط فيها ؟ فقال : الإسكندرية . وقال : لى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أحب الرباط إلى الله عز وجل رباط الإسكندرية لأنها تزف على الخلائق يوم القيامة فى صورة مدينة نورها يتلأأ ، مكالة بالدرد والياقوت ، وذلك بفضل شهدائها » (٣) .

(١) نفس المصدر ، ص ٤ ب ، ه أ

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١١٤ أ ، ١١٤ ب

(٣) النويرى ، ص ١١٤ ب

ونقل السيوطى عن عبد الله بن مرزوق أنه : « لما نعى إلى ابن عمى خالد ابن يزيد ، وكان توفى بالإسكندرية ، لقينى موسى بن على بن رباح ، وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، كلهم يقولون : أليس مات بالإسكندرية ؟ فأقول : بلى . فيقولون : هو حى عند الله يرزق ، ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك . » (١) .

وهكذا قرن المسلمون اسم الإسكندرية بالثواب والجهاد والجنة ، حتى عملت بمن وفد إليها من المرابطة ، وقد ازداد عدد الحامية المرابطة من ثلاثة آلاف فى أول الأمر إلى ١٧ ألفاً أيام خلافة معاوية إلى ٢٧ ألفاً (٢) . وقد نزلها من الصحابة سرق بن أسيد ويقال أسد الجهنى أو الديلمى أو الأنصارى (٣) ، وعبد الله بن عمر بن العاص (٤) ، وسفيان بن هانىء بن جبير أبو سـالم الجيشانى الذى توفى بالإسكندرية فى إمارة عبد العزيز بن مروان (٥) ، وعائقة بن يزيد المرادى الغطيفى الذى ولى رابطة الإسكندرية زمن معاوية بن أبى سفيان (٦) ، والمستورد بن سلامة بن عمرو الفهرى المتوفى

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٨٠ .

(٢) عبد الهادى شعرة ، ص ٨٦ .

(٣) السيوطى ، المد ١٠ السابق ، ج ١ ص ٩٧ .

(٤) سكن عبد الله بن عبد : بالإسكندرية عابداً وسربطاً للجهاد حتى وفاة معاوية (المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق زكى حسن ، ص ٥٥) .

(٥) السيوطى ، ص ٩٨ .

(٦) الكندى ، كتاب الولاة ، ص ٣٦ — السيوطى ، المصدر السابق ص ١٠٤ .

بالإسكندرية في سنة ٤٥ هـ (١) ، كما نزلها من التابعين ثمامة بن شفي
الهمداني (٢) وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام (٣) ، ومن تابعي
التابعين سعيد بن يزيد الحميري القتيبي الإسكنداني ، وطلحة بن أبي سعيد
الإسكنداني ، والعلاء بن كثير الإسكنداني (٤) .

وكان من الطبيعي أن يزود ساحل الإسكندرية بالمحارس والأبراج والحصون
لإقامة هؤلاء المرابطة ، خاصة بعد أن تخربت أسوار الإسكندرية عند الفتح
الثاني ، ولم تعد قادرة على رد المغيرين عليها من جهة البحر . وقد وصف
ابن رسته (ت ٢٩٠ هـ) هذه الحصون المشيدة على ساحل الإسكندرية ،
فقال : « وبالإسكندرية رباطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها ،
تسمى المحارس » (٥) ، ولعل وجود هذه المحارس كان سبباً في تسمية
الإسكندرية بالثغر المحروس (٦) أو بمحروسة ثغر الإسكندرية (٧) .

وكان يتولى مرابطة الإسكندرية رئيس يشرف على شؤونهم ، وينظم
أموارهم ، ومن هؤلاء الرؤساء علقمة بن يزيد الغطيفي الذي عتبه له عتبة
ابن أبي سفيان على الإسكندرية في اثني عشر ألفاً من أهل الديوان يكونون بها
رابطة ، فكتب علقمة إلى عتبة يشكو « قلة من معه من الجند ، وأنه يتخوف
على نفسه وعليهم ، فخرج عتبة إلى الإسكندرية مرابطاً في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ .

(١) السيوطي ، ص ١٠٩

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٨

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢١

(٤) نفسه ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٥) ابن رسته ، كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ، ١٨٨١ ص ١١٨

(٦) ابن بطوطة ، تحفة النظائر ، طبعة بيروت ١٩٦٠ ، ص ٢٠

(٧) اليونيني ، الذيل على مرآة الزبان ، ج ٢ ص ١٣٣

فابتنى دار الإمارة التي في الحصن القديم « (١) . وذكر ابن عبد الحكم أن معاوية أمد علقمة الغطيفي بعشرة آلاف من أهل الشام ، ثم أمد بخمسة آلاف من أهل المدينة ، كما أمر معن بن يزيد السلمي أن يكون بالرياسة أو برمل الإسكندرية في أربعة آلاف على أهبة الاستعداد لتجديده إذا ما طلب علقمة منه ذلك (٢) . ومن ولادة رابطة الإسكندرية كريب بن أبرهة بن الصباح الأصبحي في زمن عبد العزيز بن مروان (٣) .

(١) الكندي ، ص ٣٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٥٩ — السيوطي ، ج ١ ص ٨٠

(٣) السيوطي ، ج ١ ص ١٠٧

(٢)

مظاهر اهتمام الولاة بالإسكندرية

اهتم ولاة مصر بالإسكندرية اهتماماً خاصاً ، فأقاموا على رابطةها ولاة ذكرنا منهم عاقمة بن يزيد الغطيفي وكريب بن أبرهة (ت ٧٥)، وعبد الرحمن ابن معاوية بن حديج الذي ولاه عبد الملك بن مروان في سنة ٨٦ هـ على المرابطة بها، وزاد في عطائه وأخرجه إليها (١). وزارها من ولاة مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري في سنة ٦٠ هـ، بعد أن استخلف على الفسطاط عابس بن سعيد، ولم يعد مسلمة إلى الفسطاط إلا في أول سنة ٦١ هـ (٢)، كما وزارها عبد العزيز بن مروان في سنة ٧٤ هـ (٣)، واستخلف عليها ابنه الأصبع بن عبد العزيز ، ثم نقل الأصبع من ولايتها واستخلف عليها جناب بن مرثد (٤) . وزارها عبد العزيز بن مروان مرة ثانية في سنة ٧٧، وأمر ببناء حصن الإسكندرية وكان مهتماً منذ افتتح عمرو الإسكندرية الفتح الثاني (٥) وزارها للمرة الثالثة في سنة ٨١ هـ في وجوه الناس من الأشراف والشعراء، وزارها للمرة الرابعة في سنة

(١) الكندي ، ص ٥٨ ، ٣٢٦

(٢) نفس المصدر، ص ٣٩

(٣) الرشيد بن الزبير ، كتاب الذخائر والتحف ، ص ١٠٩

(٤) الكندي ، ص ٥١

(٥) الذهبي ، تاريخ الاسلام ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ ، ج ٣ ، ص ١٢٥

٨٣ هـ (١) وولى عليها عياض بن غنيم التميمي في سنة ٨٤ . وفي سنة ٩١ هـ زارها قرة بن شريك (٢) ، كما زارها حنظلة بن صفوان في سنة ١٠٣ هـ (٣) وكان يليها من قبله قيس بن الأشعث التميمي ، ثم عبد الله بن عبد الرحمن ابن حديج الذي وليها مكانه في سنة ١٢٢ هـ (٤) . كذلك زارها المغيرة بن عبيد الله الفزاري والى مصر من قبل مروان الحمدي في رمضان سنة ١٣١ هـ (٥) .

وينعكس اهتمام ولاية مصر والاسكندرية بشعر الإسكندرية فيما أنشأوه بها من منشآت ، والواقع أن العرب لم يغيروا شيئا في تخطيط المدينة ، إذ أن القبائل التي شاركت في فتحها مثل قبليتي جذام ونحلم (٦) ، استقرت في الأحياء ، واكتفى العرب على هذا النحو بالإقامة في الدور التي تركها الروم . أما الأبنية المدنية الجديدة التي اختطها العرب فقليلة ، منها الدار التي أنشأها الزبير بن العوام ، وعدة دور أقامها زيان بن عبد العزيز بن مروان (٧) . ومعظم ما أقامه ولاية مصر بالإسكندرية يقتصر على المساجد والحصون ، وقد رأينا أن

(١) الكندي ، ص ٥٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٧١

(٤) نفسه ، ص ٨١

(٥) نفسه ، ص ٩٣

(٦) المقرئ ، البيان والأعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة

١٣٣٤ هـ ، ص ٣٥

(٧) الكندي ، ص ١٠١

بناء الحصون كان أمراً ضرورياً لحراسة الساحل من الغزو البحرى ، أما المساجد فقد كانت تتخذ بالإضافة إلى وظيفتها الرئيسية كمراكز دينية ، مراكز اجتماعية وعلمية وسياسية . وكانت هذه المساجد تقام إما فى المواضع التى كانت تشغلها كنائس قديمة ، مثل جامع الألف عمود الذى أقيم على أنقاض كنيسة العذراء مريم ، وجامع العطارين الذى أقيم فى موضع كنيسة القديس أثناسيوس ، أم فى مواضع أخرى فرضتها الحوادث ، مثل جامع الرحمة الذى أسس فى الموضع الذى رفع فيه المسلمون السيف عن رقاب الروم فى سنة ٢٥ هـ . وظلت شوارع الإسكندرية مستقيمة ، تتقاطع فيما بينها عمودياً ، على شكل رقعة الشطرنج ، وسرى أن هذا النظام يظل واضحاً حتى عصر دولة المماليك الشراكسة (١) .

ويذكر المؤرخون أنه أقيم فى الإسكندرية فى القرن الأول للهجرة عدد من المساجد أهمها :

١ - مسجد موسى عليه السلام ، وكان يقع قريباً من المنار . ويذكر ابن عبد الحكم أن هذا المسجد كان أقرب إلى الكنيسة (٢) ، ولعله يعنى بذلك أنه كان أقرب مساجد المدينة إلى الكنيسة الكبرى أو كنيسة القديس مرقس التى كانت تقع على شاطئ البحر ، بحيث تتمكن السفن الوافدة إلى الميناء الشرقية من رؤيتها (٣) .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة اسكندرية ص ١٨٣ - الهروى ، كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٤٧ - غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦١

(٣) جمال الدين الشيبان ، الاسكندرية ، ص ٢٠٣ - داود عبده ، فن

الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢١١

٢ — مسجد الأخضر ، وكان يقع بالقرب من القيسارية (١) .

٣ — مسجد سليمان ، أو مسجد الرحمة (٢) ، وكان يقع عند القيسارية ، قريباً من مسلتى معبد كليوباترة القديس المسمى بالقيصريوم ، وفي الموضع المعروف بالبقرات ، وقد سمي أيضاً بمسجد القيسارية ، لهذا السبب ، كما سمي أيضاً بمسجد اللبخت لقربه من بعض أشجار اللبخ (٣) . وقد كان الموضع الذي أسس عليه مسجد الرحمة غير معروف ، ولكن ياقوت يجعل من هذا المسجد ومسجد سليمان الذي يقع بالقيسارية مسجداً واحداً ، وعلى هذا الأساس يمكننا تحديد موقعه قريباً من الكنيسة المرقسية الحالية . وقد يكون موقعه بالقرب من المكان المسمى اليوم بسيدي عمرو بمحاذئ الشلالات حسب ما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول (٤) .

٤ — مسجد ذى القرنين ، ويخلط ابن عبد الحكم بين هذا المسجد والمسجد الأخضر الذي كان يقع قريباً من الباب الأخضر من أبواب

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤١ . ونلاحظ أن ابن عبد الحكم يخلط بين مسجدي الأخضر والأخضر ، ثم يذكر أن كلا منهما مسجد (فتوح مصر ، ص ٦١) بينما يؤكد السيوطي أنهما مسجدان ، أحدهما بالقيسارية ، والآخر عند باب المدينة المعروف بالباب الأخضر وهو الأرجح .

(٢) ذكر ياقوت أن المسلتين كانتا عند مسجد الرحمة بالقرب من البقرات (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٨٤)

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ . ويسميه الهروي بمسجد النحات وصحتها اللبخت ويشير إلى أن هذا المسجد عنده شهادة لا تعرف أسماؤهم (الهروي ، ص ٥٠) .

(٤) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربي ، مقال بكتاب

الإسكندرية (١) . والأرجح أن مسجد ذى القرنين كان يقع قريباً من قبر الإسكندر ، ولعله أقيم فى نفس الموضع الذى يقوم عليه اليوم مسجد النبى دانيال .

- ٥ — مسجد الخضر (٢) الواقع بالقرب باب المدينة الغربى ، وتصحيحه المسجد الأخضر (٣) ، وكان يقع قريباً من ساحل البحر (٤) .
- ٦ — الجامع الغربى ، أو جامع الألف عمود الذى يشاهده الممرء على يمينه عند دخوله من الباب الغربى ، أقامه عمرو بن العاص عندما افتتح الإسكندرية ، وأسهم فى عمارته الصحابة الذين اشتركوا فى الفتح (٥) وبجوار هذا الجامع كانت تقع الدار التى نزلها أبو ذر الغفارى الصحابى (٦) ويذكر على مبارك أن هذا المسجد أقيم على أنقاض كنيسة العذراء مريم (٧)

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ — ابن دقاق ، ص ١٢٢ — السيوطى ، ج

ص ٤١

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ — السيوطى ، ج ١ ص ٤١

(٣) نسبة إلى الباب الأخضر وهو غير باب القرافة أو باب الإسكندرية الغربى

(٤) ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على سكى ،

ص ٣٩

(٥) الهروى ، ص ٤٧

(٦) يذكر ابن عبد الحكم أن أباً ذر الغفارى نزل منزلاً يقع غربى المصلى الذى

عند مسجد عمرو بن العاص على البحر (فتح مصر ، ص ١٧٧) .

(٧) على سبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ١٤٣ . وذكر النويرى الإسكندرى

أن موضعه كان ديراً .

وهى الكنيسة التى أسسها البطريرك ثيودور (٢٨٢ - ٣٠٠ م) (١) . ويبدو أن بناء هذا المسجد الجامع استغلوا أعمدة الكنيسة فى بيت الصلاة ، فسمى لذلك بالألف عمود . وكانت لهذا الجامع مقصورة وبداخله سوارى عديدة يجتمع حولها جماعة من أهل الزهد والتصوف (٢) . ويبدو أن بناء هذا الجامع ألحقوا به محارس ومنافع ، وذكر البكرى أن سعيد بن صالح صاحب نكور قلدها فى مسجده الذى أقامه هو على نهر عيسى قريباً من رباط نكور (٣) . وقد ظل جامع الألف عمود قائماً على الأقل حتى أيام الحملة الفرنسية على مصر (٤) ، وعرف هذا الجامع منذ أواخر العصر الفاطمى بالجامع القديم أو الجامع العتيق ، إذ أقام الأفضل شاهنشاه جامعاً بالقرب من سوق العطارين ، فأصبح بالإسكندرية منذ هذا العهد جامعاً ، جامع غربى وجامع شرقى . وقد تعرض الجامع العتيق للزيادة فيه زمن صلاح الدين ، كما رُمى فى سنة ٧٧٢ هـ ووجدت بياضه (٥) . وفى هذا الجامع صلى الأشرف شعبان صلاة الجمعة عند زيارته لهذه المدينة سنة ٧٧٠ بعد واقعة القبارصة . ويحدد لنا النويرى موقع هذا الجامع ، فيذكر أنه يقع قريباً من ضريح الشيخ الطرطوشى من دار السلطان ، داخل سور الإسكندرية ، مما يلي الباب المعروف بالباب الأخضر . ويؤكد هذا التحديد أن الجامع الغربى أو

(١) عزيز سوريال عطية ، الإسكندرية المسيحية ، مقال فى مجلة الغرفة التجارية ،

١٩٤٩ ص ٨٣

(٢) الضبى ، بغية الملتبس فى تاريخ أهل الأندلس ، مدريد ١٨٨٤ ص ١٣٢

(٣) عبيد الله البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٩١

(٤) أدى السلطان سليم الأول صلاة الجمعة فى الجامع الغربى فى يوم الجمعة ١٥

جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ (٦ يونية سنة ١٥١٧)

(٥) النويرى (مخطوطة) ص ١٦٣ ب

جامع الألف عمود هو نفس جامع عمرو الكبير (١) . وهذا رأى آخر للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، فهو يذكر أن الجامع الكبير الذى بناه عمرو بن العاص كان يقع فى الموضع الذى يقوم عليه اليوم المسجد العمرى (فى نهاية شارع أبى الدرداء عند التقائه بشارع الخديوى سابقاً) ، ويستدل على ذلك بأدلة ، منها أن هذا المسجد الحالى من اسمه ، ولقربه من حى عمود السوارى وباب السدرة ، بعيداً عن الشاطيء ، وفى موضع أمين ، يتفق مع الموقع الذى أقيم عليه الجامع الكبير . كذلك يستند على نص ذكره ابن عبد الحكم جاء فيه ، أن عمراً لما فتح الإسكندرية ، أقبل هو وعبادة بن الصامت ، وأبو ذر الغفارى ، وأبو الدرداء ، ومعاوية بن حديج ، وعلوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص ، وأن عمراً نزل فى قصر هناك ، ونزل أبو ذر منزلاً فى غرب المصلى الجاور لمسجد عمرو مما يلى البحر (٢) . ولما كان المسجد العمرى الحالى يقع قريباً من مقام سيدى أبى الدرداء ، فلا يستبعد أن يكون المسجد العمرى مقاماً على

(١) يتفق هذا الموضوع مع موضع مدرسة الباب الأخضر التابعة لقسم الجمرى قريباً من مدرسة المنير ، وهى مدرسة كبيرة المساحة تشغل حالياً أرضاً كان يقوم عليها دير للراهبات الفرنسيسكان ، ولها فناء ضخم تكثر به أبدان أعمدة من الرخام وتيجانها متناثرة ، فى أحد جدرانها شاهد قبر بالخط الكوفى ، وتطل المدرسة على شارع يعرف بشارع الألف عمود ، وأعتقد أن موضع هذه المدرسة هو نفس الموضع الذى كان يشغله جامع الألف عمود .

(٢) هذا القول يؤكد وجهة نظرى فى أن جامع عمرو بن العاص كان يقع قريباً من البحر ، والمسجد العمرى الحالى الذى لا أشك فى قدمه يقع بالقرب من باب السدرة أى فى الجنوب الغربى من مدينة الإسكندرية بعيداً عن البحر .

أرض جامع عمرو الكبير ، لأن وجود مقام لسيد أبي الدرداء يعنى بقاء أشياء فى ذهن الشعب تربط بين هذا المكان وذكرى مقام أبي الدرداء بالإسكندرية . ويستند الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى رأيه أيضاً على الروايات الشعبية التى تقول بأن جامع العمرى الحالى هو مسجد عمرو بن العاص (١) ، وأخيراً يستند على دليل مادى وهو وجود عمود قديم له تاج ذو نقش إسلامى قديم ، يمكن أن يرجع إلى العصور الإسلامية الأولى .

٧ - مسجد المنارة الذى كان يربط فيه متطوعة المصريين وغيرهم ، ولعله هو نفس المسجد الذى وصفه ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) ، وذكر أنه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه (٢) ، ويسميه صاحب الاستبصار بمسجد سليمان ، ويذكر أنه مسجد محكم البناء (٣) . ويذكر السيوطى أن مسجد المنارة المذكور من بناء الملك الكامل (٤) ، بنسائه بعد أن هدمت الرياح القبة التى كان قد أقامها أحمد بن طولون على رأس المنار بعد تدمره إثر زلزال سنة ١٨٠ (٥) ، ولكن الملك الكامل محمد لم يكن قد تولى سلطنة مصر قبل سنة وفاة ابن جبير ، ولذلك نرجح أن أعمال الملك الكامل لم تكن تتجاوز ترميم هذا المسجد .

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية من الفتح العربى ، فى كتاب محافظة الإسكندرية ص ٢٥٢

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، نشرها وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤١

(٣) كتاب الاستبصار ، ٩٦

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٤

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢ ص ١٦٥

(٢)

الإسكندرية أهم قاعدة بحرية عربية في البحر المتوسط

اشتهرت الإسكندرية في العصر البطلمي كقاعدة رئيسية للتجارة البحرية ، وفاقته موانئ مصر الأخرى في هذا المجال ، إذ كفلت لها ترعة شيدىا الإتصال المباشر بطريق القوافل إلى مصر العليا ، وأصبحت الإسكندرية على هذا النحو المركز الرئيسى فى مصر الذى تستقبل عن طريقه كل ما كانت تحتاج إليه من العالم الخارجى ، وتصدر عن طريقه الفائض من ثرواتها الزراعية وكل ما يرد إليها من إفريقيا والشرق (١) . وكان من الطبيعى أن تنشأ فى الإسكندرية دار لصناعة السفن التجارية والحربية ، استخدمت لصناعتها الأخشاب المحلية وأخشاب الأرز الواردة من الساحل اللبناى ، والسرو الواردة من ميليتوس ، والصنوبر من شمال البلقان ، كما كان يرد إليها القطران اللازم لصناعة السفن من غابات مقدونية ومن هضاب آسيا الصغرى (٢) . وفى العصر الرومانى توقف اهتمام أباطرة الرومان بعد موقعة أكتيوم البحرية ، لأن البحر المتوسط أصبح مقصوراً على الرومان لاتنافسهم فى السيطرة عليه قوة منافسة (٣) ، ومع ذلك فقد استطاع السكندريون استخدام أساطيلهم فى البحرين الأبيض والأحمر على خير وجه ، ففى البحر الأبيض كان لهم أسطول

(١) لطفى عبد الوهاب ، عصر البطالمة ، ص ٣٠٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤

(٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ص ٢٨

تجارى يجوب موافىء البحر المتوسط ، أما فى البحر الأحمر فقد احتكرت الإسكندرية التجارة الشرقية احتكاراً تاماً (١) . وفى العصر البيزنطى ، تدهورت البحرية الرومانية بصورة واضحة يدل عليها ضعف المقاومة التى واجهها الوندال فى أواخر القرن الخامس ، ولم تنتعش هذه البحرية إلا فى عصر الإمبراطور البيزنطى انستاسيوس الذى حرص على تأسيس قوة بحرية دائمة فى البحر المتوسط ، ولعله هو الذى أعاد بناء دار الصناعة البحرية فى الإسكندرية (٢) ، ونجح فى تكوين قوة بحرية حقيقية قاعدتها ميناء القرن الذهبى ، وقد اعتمد جستنيان وخلفاؤه على هذه القوة البحرية فى تحقيق انتصارات البيزنطيين ، وأصبح الأسطول البيزنطى يتحكم فى منافذ البحرين المتوسط والأسود (٣) . واحتفظت بيزنطة بقواعد بحرية ودور للصناعة فى قرطاجنة وعكا والإسكندرية والقسطنطينية ، حيث تم بناء الكثير من السفن الحربية الخفيفة الحركة المعروفة باسم الدروموز ، كما اتخذت قواعد بحرية أخرى فى سرقوسة ورافنا (٤) ، وأصبح للدولة البيزنطية فى طليعة القرن السادس أساطيل إقليمية ترابط وحداتها على سواحل البحر المتوسط عند بداية الفتوحات العربية .

وقد رأينا كيف أحجم العرب عن الحروب البحرية واعتمدوا فى الدفاع

(١) مصطفى العبادى ، الاسكندرية فى العصر الرومانى ، مقال بكتاب محافظة

الاسكندرية ، ص ٩٣

(٢) أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ص ٢٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٣

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٨

البحرى على القلاع والمحارس والمناظر التى توزعت على سواحل الشام ومصر ، كما رأينا كيف اضطر العرب إلى اصطناع سياسة بحرية بعد أن ثبتت أقدامهم فى هذين القطرين ، وفى نفس الوقت الذى تهتم فيه معاوية فى الشام بإنشاء أسطول عربى شامى ، كان عبد الله بن سعد ، عامل مصر فى خلافة عثمان بن عفان ، يقوم بإنشاء أسطول عربى مصرى فى الإسكندرية ، القاعدة البحرية القديمة ، التى لعب صناعته على كاهل الأقباط ، وقد اشترك الأسطول المصرى مع الأسطول الشامى فى غزوة قبرص (١) ، كما اشترك الأسطولان معاً فى غزوة ذات الصوارى التى انتهت بانتصار الأسطول العربى انتصاراً حاسماً . كذلك اشتركت السفن السكندرية فى حصار القسطنطينية سنة ٩٨ هـ زمن سابان بن عبد الملك ، وكان على أهل مصر أبو عبيدة بن عقبة بن نافع (٢) الذى تولى على بحر مصر فى سنة ١١٨ هـ (٣) .

ولكن معاوية بن أبى سفيان لم يستفد من انتصار العرب فى موقعة ذات الصوارى لمتابعة الغزو البحرى لجزر البحر المتوسط الشرقى ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ ، وبمناوئة على بن أبى طالب من أجل الخلافة ، عن مواجهة البيزنطيين . أما البيزنطيون ، فقد اغتتموا هذه الفرصة لتدعيم جبهتهم الداخلية وإعادة بناء قوتهم البحرية ، ثم وجهوا فى سنة ٤٩ هـ هجوماً عاتياً على سواحل الشام . ويبدو أن البيزنطيين سببوا بهجومهم خسائر فادحة وأضراراً جسيمة فى الجانب العربى ، حملت معاوية على إعادة إنشاء دار

(١) ابن الاثير ، حوادث سنة ٢٩ - فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨

(٢) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية منذ الفتح العربى ، ص ٢٦٢

(٣) الكندى ، ص ٧٩

لصناعة الأسطول في عكا لتنتج له سفناً محلية بدلا من اعتماد الشام في الانتاج البحرى على دار صناعة الإسكندرية وحدها . « فأمر بجمع الصناع والنجارين ، فجمعوا ، ورتبهم على السواحل ، وكانت الصناعة في الأردن بعكا » ، وظلت عكا القاعدة البحرية في الشام إلى أن نقلت زمن بنى مروان بن الحكم إلى صور (١) ، ومنذ قامت دار الصناعة بعكا ودار صناعة الإسكندرية بصناعة السفن حتى أصبح العرب يشكلون خطراً متزايداً على البيزنطيين ، وتوالت انتصارات العرب عليهم على نحر-----و لم يكن في الحسبان ، هذه الانتصارات حملت الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثانى على تحويل نشاطه البحرى من نصف البحر المتوسط الشرقى إلى نصفه الغربى (٢) ، حيث كانت جيوش العرب تهاجم إفريقيا البيزنطية وتشن الغارات البحرية من قاعدة الإسكندرية على صقلية وسردانية وقوصرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى ، فان الروايات الخاصة بغزو جزيرة صقلية تدل على أن أسطول مصر التى ترابط وحداته فى الإسكندرية ، والذي أخذ منذ ذلك الحين يتوجه إلى البحر المتوسط الغربى ، هو الذى كان يتولى مهمة غزو هذه الجزيرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى حتى بداية القرن الثانى الهجرى ، عندما بدأت دار الصناعة بتونس تنتج-----سج لحسابها سفناً إسلامية . وكانت دار صناعة الإسكندرية تنتج سفناً تجارية تنتقل ما بين موانئ الشام ومصر وسفناً حربية تحمل المجانيق والعرادات وآلات قذف الحجارة والنار الهلينية (٣) . وكان

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ١٤٠

(٢) ابراهيم أحمد العدوى ، قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط ،

القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٠

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤

أمراء البحر يخرجون منها للغزو ، كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهني في سنة ٤٧ هـ في البحر إلى رودس بعد أن عزله معاوية عن إمارة مصر ، وولاه إمارة البحر ، وأقام مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري (١) .

وقد اعتمد العرب بادئ ذي بدء في صناعة السفن على دار صناعة الإسكندرية ، وعلى خبرة المشتغلين في البحر من أهل مصر الأقباط الذين لم يشتركوا مشاركة فعالة في المعارك البحرية الأولى فحسب (٢) ، بل ساهموا مع جيش عبد الله بن سعد في موقعة سبیطلة التي وقعت في سنة ٢٨ هـ (٣) ، كما سبق أن ساعدوا عمرو بن العاص في الفرما ، وكانوا له أعوانا على البيزنطيين (٤) ، ومما لا شك فيه أن أسطول الاسكندرية هو الذي حمل غنائم عبد الله بن سعد التي كان ينوء بأثقالها جيشه من ميناء طرابلس بليبيا إلى الإسكندرية (٥) ، والأسطول السكندري أيضاً بقيادة عبد الله بن قيس الدزقي هو الذي غزا جزيرة صقلية في سنة ٤٦ هـ ، في الوقت الذي كان معاوية بن حديج يفتتح سوسه (٦) . وقد يكون من بين قواد المسلمين الذين غزوا صقلية وجربة وقوصرة في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الفتح العربي لإفريقية أبو محمد فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي (ت ٥٣) الذي كان يتسولى القضاء

(١) الكندي ، ص ٣٨

(٢) Cheira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 92

(٣) المالكي ، كتاب رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١ ص ١٠ ، ١١ ، ١٥

المغرب الكبير ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٢

(٥) المالكي المصدر السابق ، ص ١٧

(٦) البلاذري ، ج ١ ، ص ٢٧٨

والبحر بمصر في خلافة معاوية ، ودخل إفريقية غازياً هو ورويفع بن ثابت الأنصاري (١) ، وقد يكون من بينهم أيضاً عقبة بن نافع الذي غزا في البحر بأهل مصر سنة ٤٩ هـ (٢) . ويبدو أن الأسطول الإسلامي في المغرب الذي كان يتألف معظمه من مراكب مصرية اشترك في العمليات الحربية ضد البيزنطيين في ولاية حسان بن النعمان ، وقد أحرز هذا الأسطول في مياه قرطاجنة انتصاراً ساحقاً على الأسطول البيزنطي بقيادة البطريق جان ، أعظم قواد ليونتيوس ، الذي أغار على ساحل إفريقية في سنة ٧٩ هـ (٣) ، وأرغم سفن الروم على الفرار إلى صقلية . كذلك أسهم أسطول مصر في غزو جزيرة سردينيا في خلافة عبد الملك بن مروان ، فقد سير عبد العزيز بن مروان والي مصر عطاء بن أبي نافع الهزلي وقيل عطاء بن رافع (٤) ، في مراكب أهل مصر لغزو سردينيا ، فوصلت سفن عطاء إلى سوسة للتزود بما يلزمها من أقوات ، وكان الوقت في بداية الشتاء ، فنصححه موسى بن نصير ، والي إفريقية يومئذ ، بالبقاء فترة الشتاء إلى أن يطيب ركوب البحر ، ولكن عطاء لم يأخذ بنصيحته ، وشحن سفنه ثم رفع مراسيه ، فغزا جزيرة يقال لها سلسلة (٥) ، وافتتحها وأصاب فيها مغنم كثيرة وتحفا من الذهب والفضة

(١) المالكي ، كتاب رياض النفوس ، ص ٥٢ — التجاني ، رحلة التجاني ، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ م ١٢٤

(٢) أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) البكري ، ص ٣٨ — المالكي ص ٣٣ — Cheira, op. cit. pp. 195-197

Diehl, Histoire du Moyen Âge, t. III, Paris 1936, p. 207

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٣ — الذهبي ، العبر في أخبار بن غبر ج ٣

(٥) لعلها صقلية التي كانت تكتب بحرف السين بدلا من الصاد .

والجواهر ، ثم انصرف قافلاً ، فأصابته عاصفة عاتية أغرقت معظم سفنه ، فوجه موسى بن نصير يزيد بن سسروق في الخيل إلى سواحل البحر للبحث عن بقايا سفن غطاء وإنقاذ من يقذفه البحر من أصحاب السفن الأحياء . وقد أفاد موسى بن نصير من الملاحين المصريين الناجين ، فالحتمهم بدار الصناعة بتونس . وفي سنة ٨٩ هـ قام عبد الله بن سرة بطالعة أهل مصر على موسى ، فعقد له موسى على بحر إفريقية ، فغزا سردانية ، وافتتح مدنها ، وغنم منها غنائم كثيرة (١) .

وهكذا كان العرب الفاتحون لإفريقية يعتمدون في غزواتهم البحرية في الفترة ما بين سنتي ٢٨ هـ إلى ٨٩ هـ على أسطول مصر الذي ترابط قطعه في مياه الإسكندرية ، فتخرج لغزو صقلية وسردانية وتنفذ بعد ذلك إلى قاعدتها في الإسكندرية . وقد كان نشاط هذه السفن في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط يعرض سواحل مصر للغزو البحري البيزنطي ، كما حدث عندما أغار البيزنطيون على البرلس في ولاية مسامة بن مخلد الأنصاري سنة ٥٢ هـ واستشهد يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائد بن ثعلبة البلوي ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمي في جميع كثير من الناس (٢) ، رداً على الغزوة التي قام بها عبد الله بن قيس اللخمي على صقلية سنة ٤٦ هـ وغزوة عتبة ابن نافع في أهل مصر في البحر في سنة ٤٩ هـ ، وكما أغار البيزنطيون في سنة ٩٠ هـ على دمياط (٣) وأسروا أمير بحرها خالد بن كيسان ، رداً على غزو المسلمين لصقلية وسردانية في سنة ٨٩ هـ .

(١) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص ٧٥

(٢) الكندي ، ص ٣٨

(٣) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٧

وفظن ولاية العرب في إفريقية إلى أهمية إنشاء دار صناعة في إحدى مدن الساحل التونسي لتزويد الجيش العربى بأسطول مستقل فى عملياته الحربية عن أسطول مصر ، يساعده على غزو صقاية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التى كانت تؤلف مراكز انطلاق لغزوات البيزنطيين على السواحل التونسية ، وتشكل خطراً جاثماً أمام هذه السواحل .

ويزعم بعض مؤرخى العرب أن بحر إفريقية أصبح فى سنة ٧٣ هـ عملاً تولاه محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى (١) ، وواضح أن هذا التاريخ غير صحيح ، لأن إفريقية خرجت عن طاعة العرب منذ مقتل زهير بن قيس البلوى سنة ٦٩ هـ حتى حملة حسان بن النعمان الغسانى الأولى على إفريقية فى سنة ٧٤ هـ (٢) ، وصحة هذا التاريخ فى رأى سنة ٩٣ هـ استناداً إلى ما ذكره المقرئ ، إذ يقول : « كان محمد بن أوس من « أهل الدين والفضل معروف بالفه ، ولى بحر إفريقية سنة ثلاثة وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير . . . » (٣) . ومن المعروف أن أول غزاة غزيت فى بحر إفريقية حدثت فى سنة ٨٥ هـ ، فى ولاية موسى بن نصير على المغرب ، وذلك عندما عقد لولده عبد الله على البحر (٤) .

(١) الضبى ، بغية الملتبس ، ص ٥١ — الحميدى ، جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ ص ٤٢

(٢) المغرب الكبير ص ٢٤٢ وما يليها .

(٣) المقرئ ، ج ٤ ص ٥٨ . ومن الملاحظ أن النساخين كثيراً ما أخطأوا فى نسخ السنين خاصة ما كان يتعلق منها برقمى ٩ ، ٧ ، إذ كانوا يحرفون كتابتهما بالحروف الكوفية لتشابه هذين الرقمين عند الكتابة ، كما حدث بالنسبة لسنة ١٧٢ أو سنة ١٩٢ التى تسجل تاريخ إنشاء مدينة فاس .

(٤) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٧٥

وإلى حسان بن النعمان يرجع الفضل في إنشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي ينسبون إليه غرس البندور الأولى للفن العربي الإسلامي ، وإنشاء بحرية عربية إسلامية في المغرب . كما ينسبون إليه حركة تعريب الدواوين ، وتعريب العملات ، فلقد أظهر عبد الملك اهتماماً كبيراً بالقوى البحرية بسبب ما كانت تتعرض له بلاد الشام في بداية خلافته من غارات البيزنطيين والمردة ، مما حمّله على مهادنتهم ، واقتسام دخل جزيرة قبرص معهم (١) .

أدرك حسان بن النعمان أن الفتح العربي للمغرب لا يمكن أن يتدعم إلا إذا جرى العرب البيزنطيين في البحر ، فاصطنعوا سياسة بحرية في المغرب ، وأنشأوا أسطولاً إفريقيّاً يواجهون به أسطول البيزنطيين التي ترابط قطعه في موانئ صقلية وجنوبي إيطاليا ، ولذلك سیر إلى عبد الملك بن مروان وفداً من ٤٠ رجلاً من أشرف العرب لإطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غزو أساطيل الروم ، وكتب إليه رسالة أوضح له فيها أهمية إنشاء دار صناعة بتونس ، وطالب منه أن يبحث إليه بجماعة من أقباط مصر يتولون إنشاء دار صناعة تونس لشهرة الأقباط في صناعة السفن (٢) . وعظم على عبد الملك

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٩

(٢) مما يدل على شهرة الأقباط — والمقصود بهم بطبيعة الحال سلاحي الاسكندرية الذين شاعت شهرتهم في مجال الملاحة منذ العصر البطلمي وتسيير السفن — ما رواه المقرئزي ، إذ ذكر أن أبا سلمة عبد الرحمن أراد الخروج إلى الاسكندرية في سفينة ، فاحتاج إلى رجل يجتهد ، فسخر رجلاً من القبط (المقرئزي الخطط ، ج ٢ ص ٥٨) . وذكر ابن عبد الحكم عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب « إذ بلغه أن كعب الأحبار كان يقول: مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت لبنت حتى يخرب =

ذلك ، وعز عليه ، وكان رجلا مجاهداً شارك في فتوح إفريقية في حملة معاوية ابن حديج ، أن يتعرض المسلمون لهذه الأخطار المتواصلة ، فعزم على تحقيق رغبة حسان ، ونصحه إثنان من الصحابة هما : أنس بن مالك وزيد بن ثابت بامداد هذه البلاد ونصرة أهلها ، وبيننا له فضل المراقبة فيها ، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بمصر يأمره بأن « يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله ووالده ، وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس ، وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ، ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم » (١) . فوفد القبط عليه وهو مرابط في تونس ، فجعل معظمهم في مرسى رادس ، ووزع الباقين في مراسي إفريقية ، ثم أجرى البحر من مرسى رادس إلى موضع دار الصناعة ، واستقدم البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، وأمر القبط بعمارها في الميناء المتصلة بالبحيرة ، وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر ، وتحولت تونس على هذا النحو إلى قاعدة بحرية هامة ، تخرج منها الأساطيل الإسلامية لمهاجمة الجزر البيزنطية المقابلة للساحل التونسي .

= الله بهم وبصناعاتهم جزائر الروم » (ابن عبد الحكم ، ص ٧) . وتتضمن البرديات المكتشفة في الفيوم والبهنسا و لوم اشقاو ذكر عدد كبير من الصنائع المصريين كالنجارين والعمال المهرة والمقلطين وقصارى الأقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار الصناعة بالاسكندرية (فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٣٤٤) .

(١) البكرى ، ص ٣٨ — التجاني ، ص ٥ — ٧ ، ابن أبي دينار ، المؤنس في

ذكر بلاد إفريقية وتونس ، ص ١١

الفصل الخامس

أحداث الإسكندرية في العصر العباسي

(١) الإسكندرية قاعدة هامة للأسطول العباسي ومركز رئيسي للحمولات إلى المغرب .

(٢) غزاة البحر الأندلسيون يستولون على الإسكندرية .

أ - ثورات أهل الحوف الشرقي وامتدادها إلى الإسكندرية .

ب - مشكلة الأندلسيين الوافدين : هل هم ريفزيون أم غزاة بحر ؟

ج - استيلاء الأندلسيين على الإسكندرية .

د - جلاء الأندلسيين عن الإسكندرية واستيلائهم على إقريطش

(٣) ثورات بني مدلج في الإسكندرية .

الفصل الخامس

أحداث الاسكندرية في العصر العباسي

(٢٠)

الاسكندرية قاعدة هامة للأسطول العباسي

ومركز رئيسي للحمولات الى المغرب

كانت الاسكندرية من أولى مدن مصر التي خرجت على الأمويين ودخلت في فلك العباسيين ، فعندما قدم مروان بن محمد إلى مصر في شوال سنة ١٣٢ هـ ، سود أهل الخوف الشرقي ، مؤيدين للعباسيين ، وحذا حذوهم عدد من عمال الأمويين أمثال الأسود بن نافع بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، الذي لجأ إلى الاسكندرية ، وسود بها . وكان من الطبيعي أن يعمل مروان بن محمد على إحباط حركة الأسود الموالية للعباسيين في الاسكندرية ، فبعث لقتاله عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، فاشتبك الفريقان في الكريون في ذى القعدة من تلك السنة ، في قتال عنيف انتهى بهزيمة الأسود بن نافع ، وقتل في هذه المعركة عيسى بن أبي عبدة بن عقبة ابن نافع ، ودخل الكوثر بن الأسود المعافري أحد قواد الأمويين الاسكندرية وقتل فيها عبد الأعلى بن الهجرس مولى مراد (١). وحاول القبط برشيد، في

(١) الكندي ، ص ٩٥ ، ٩٦ — سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية منذ

نفس الوقت ، الخروج على طاعة الأمويين ، فبعث إليهم مروان بن محمد عثمان ابن أبي نسعة في المقامصة فهزمهم وقضى على حركتهم (١) . غير أن جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي العباسي لم تلبث أن تغلبت على أتباع مروان في القسطنطينية ، وقضت عليه في بوضير ، وأصبحت مصر بذلك من البلاد التابعة للخلافة العباسية .

وعلى الرغم من انصراف الدولة العباسية ، التي انتهجت منذ قيامها سياسة شرقية ، عن شؤون البحر ، ونفض يدها من محاربة البيزنطيين في البحر ، فقد حرص ولاتها في مصر على مواصلة الاهتمام بقاعدة الاسكندرية البحرية التي أصبحت مركزاً رئيسياً للعمليات العسكرية في المغرب المنشق على العباسيين . وكان من الطبيعي أن يسعى العباسيون إلى فرض نفوذهم على افريقية التي خرجت عن طاعتهم ، فلم يكف يمشي أربع سنوات على قيام الدولة العباسية حتى سير أبو العباس السفاح الجيوش العباسية بقيادة أبي عون عبد الملك ابن يزيد ، الذي قدم على جيشه عدداً من أشرف أهل مصر من بيت بني حديج وبني موسى بن نصير ، منهم قنبرة بن بخيرية بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج ، وعثمان بن عبيد الله بن موسى بن نصير ، والضحالك بن شبيب اللخمي ، ودحوح بن ثابت البلوي ، وزحف الجيش العباسي نحو المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٣٦ هـ (٢) ، يتقدمه قائد عباسي يعرف باسم عامر ابن اسماعيل . وفي نفس الوقت بعث صالح بن علي العباسي بالمثلث بن زياد الخثعمي في شوال سنة ١٣٦ هـ إلى الاسكندرية ، ليجهز المراكب منها للاقلاع

(١) نفسه ، ص ٩٦

(٢) نفسه ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ - أبو الحسن ، ج ١ ص ٣٣١

نحو طرابلس الغرب ، كما بعث بعباش بن عقبة الحضرمي في حمل الطعام والأقوات بلخيش أبي عون وعامر بن اسماعيل .

وكان دعاة أهل مصر الذين سيرهم صالح بن علي العباسي دعاة لأهل إفريقية (ومنهم قنبرة ، وعثمان بن عبيد الله ، والضحاك) قد بلغوا مدينة سرت ، في حين بلغ الجيش العباسي بقيادة أبي عون وعامر بن اسماعيل برقة عندما توفي أبو العباس السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ ، وخلفه أبو جعفر المنصور الذي أقر صالح بن علي على خراج مصر وصلاتها . فكتب صالح إلى أبي عون يأمره بالرجوع ، وبرد الدعاة عن أهل مصر (١) . فأقام أبو عون برقة أحد عشر شهراً واتخذ بها مصلًى ، ثم رجع بجيشه إلى مصر (٢) .

وفي خلافة أبي جعفر المنصور ساءت الأحوال بإفريقية ، فقد تغلب عليها الصفيرية بادية ذي بدء ، وارتكبوا في القيروان ، الحاضرة ، من ضروب البطش والظلم والطغيان واستباحة الأعراض وتدنيس المساجد ما حرك عوامل الغيرة على الإسلام في نفس أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، إمام الإباضية في طرابلس منذ عام ١٤٠ هـ ، فزحف بمجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دنس قبيلة ورفجومة الصفيرية ، وتحرير أهل القيروان من طغيانها ، وتمكن عبد الأعلى بعد موقعة دارت بالقرب من القيروان في صفر سنة ١٤١ هـ من دخول القيروان (٣) . وكان قد وفد على أبي جعفر

(١) يرجع السبب في ذلك إلى أن أبا جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوهُ إلى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ووجه إليه بهدية (المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٣٢) .

(٢) الكندي ، ص ١٠٣

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٨٢

المنصور بعض عساكر العرب من المغرب يستصرخونه لانقاذ افريقية من فساد الخوارج الصفرية المتطرفين ، ولم يتردد أبو جعفر المنصور في العمل السريع ، وبادر بثولية محمد بن الأشعث الخزاعي على مصر وافريقية في ذى الحجة من سنة ١٤١ ، وعهد إليه بإرسال جيش لاسترجاع افريقية ، فسير ابن الأشعث جيشاً عباسياً بقيادة أبي الأحوص عمر بن الأحوص العجلي ، ولكن هذا الجيش منى بهزيمة نكراء في سرت سنة ١٤٢ هـ على أيدي الاباضية أتباع عبد الأعلى (١) ، وأمام هذه الهزيمة اضطر ابن الأشعث إلى الخروج بنفسه على رأس حملة إلى إفريقية. ويذكر الكندي أنه توجه إلى الاسكندرية بعد أن استخلف محمد بن معاوية بن بجير صاحب شرطته على الصلاة، وكان خروجه إليها يوم الأضحى سنة ١٤٢ هـ (٢) ، ومن هناك جهز الحيوش وخرج نحو برقة في جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل (٣) . ونستنتج من ذلك أن الاسكندرية أصبحت القاعدة الرئيسية في مصر لتسيير الحيوش إلى افريقية بحكم متاخمتها للمغرب (٤) .

ولم تكن الاسكندرية قاعدة للأسطول العباسي ومركزاً للحملات إلى إفريقية فحسب ، بل كانت بحكم اتصالها بالطريق المؤدية إلى إفريقية والمغرب ملتقى للمتناقضات السياسية في هذه الفترة، على حد تعبير الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٥) ، فبينما كانت الخلافة العباسية توجه منها الدعاة

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ — المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٤٣

(٢) الكندي ، ص ١٠٩ — أبو المحاسن ، ج ١ ص ٣٤٦

(٣) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٤٣

(٤) سعد زغلول ، الاسكندرية منذ الفتح العربي ، ص ٢٦٥

(٥) سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥

والحيوش إلى المغرب ، كانت ملاذا للمناوئين للخلافة من الشيعة العلويين ،
فعندما انتهت حركة بني الحسن العلويين بالحجاز بالفشل في سنة ١٤٥ هـ
وباستشهاد محمد بن عبد الله بن الحسن في ١٤ رمضان ، وإبراهيم بن عبد الله
في ٢٧ ذى القعدة ، لجأ خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى القائم
بدعوة على بن محمد بن عبد الله إلى الاسكندرية ، واستخفى زماناً طويلاً
بها بعد وفاة على بن محمد ، وظل مقبياً بالشجر السكندري حتى وفاته في
زمن المهدي العباسي بعد سنة ١٦٠ هـ (١) .

(١) الكندى ، ص ١١٥ — سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥

(٢)

غزاة البحر الأندلسيون يستولون على الإسكندرية

(١) ثورات أهل الحوف الشرقي وامتدادها إلى الإسكندرية :

في خلافة هشام بن عبد الملك ، أنزل عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر في سنة ١٠٩ ، بيوتا من قيس يبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف بالحوف الشرقي ، في شرق الدلتا كما نزلاتها أيضاً قبائل من اليمانية ، وأمرهم بالاستغال بالزراعة (١) حتى يحلوا تدريجياً محل قبيل الحوف الذين ثاروا على هشام ابن عبد الملك أول ثورة لهم في سنة ١٠٧ هـ (٢) ، عندما زاد على كل دينار قيراطاً . وقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاندماج في الأهالي مما كان له أعظم الأثر في انتشار الاسلام بقرى مصر (٣) . وفي سنة ١٧٨ زاد استحق بن سليمان عامل خراج مصر على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، فخرج عليه أهل الحوف ، وحشدوا حشودهم ، فسير اليهم هارون الرشيد قائده هرثمة بن أعين في جيش عظيم ، فتلقاه أهل الحوف بالطاعة وأذعنوا بأداء الخراج (٤) . سكت أهل الحوف سكوتاً مؤقتاً إلى أن تحينت لهم الفرصة لإعلان ثورتهم الثانية في سنة ١٨٦ هـ وذلك عند ما بعث

(١) المقرئزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٣

(٢) سيدة الكاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ١٣٦

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٧

(٤) الكندى ، ص ١٣٦ — المقرئزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٤

الليث بن الفضل عامل خراج مصر من قبل الرشيد « بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم ، فانتقصوا من القصبية أصابع . فتظلم الناس إلى الليث . فلم يسمع منهم ، فعشكروا وساروا إلى الفسطاط ، فخرج إليهم ليث بن الفضل في أربعة آلاف من جند مصر فالتقى ليث مع أهل الخوف لثنتي عشرة خلت من شهر رمضان سنة ست وثمانين ، فانهزم الجند عن ليث وبقي في مائتين أو نحوها ، فحمل عليهم بمن معه ، فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة » (١). ومع ذلك فقد امتنع أهل الخوف عن أداء الخراج ، فبعث ليث إلى الرشيد يبلغه أنه لا يستطيع أن يجبي خراج الخوف إلا بجيش يبعث به معه ، فعزله الرشيد .

كذلك امتنع أهل الخوف مرة ثالثة عن أداء الخراج في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩٠ هـ ولكنهم أذعنوا بالخراج عندما سار إليهم يحيى بن معاذ الذي سيره الرشيد لاختضاعهم ، في ١١ شوال سنة ١٩١ (٢) .

وعاود أهل الخوف ثورتهم في ولاية حاتم بن هرثمة بن أعين سنة ١٩٤ هـ ، فلما قدم إليهم ونزل بلبليس صاحبه على خراجهم (٣) .

ثم أشعل الصراع بين الأمن والمأمون في سنة ١٩٦ هـ نار الفتنة في مصر وبادر جماعة من أشراف مصر بخلع الأمن وإخراج جابر بن الأشعث عامله على مصر ، وبايعوا للمأمون ، وولوا عباد بن محمد من قبل المأمون على صلاة مصر وخراجها في ٨ من رجب سنة ١٩٦ هـ (٤) ، وبلغ الأميين

(١) الكندي ، ص ١٤٠ — المقرئ ، ج ١ ص ١٤٤

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٣ — المقرئ ، ص ١٤٤

(٣) الكندي ، ص ١٤٧

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٩ — المقرئ ، ج ٢ ص ٨٦

ما فعله المصريون من خلعه وإخراج عماله جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة ابن قيس بن الزبير الجرشى رئيس قيس بالحواف بولايته على مصر ، كما كتب إلى عبد الصمد بن مسلم بن عمارة الجرشى أحد زعماء القيسية فى الحواف ، وإلى يزيد بن الخطاب وعثمان بن مستنير الجذامى من زعماء اليمانية بنفس إقليم الحواف الشرقى ، يأمرهم بمعاونة ربيعة بن قيس ونصرته بجميع أهل الحواف بمنها وقيسها . فاستجاب أهل الحواف إلى أمره وزحفوا إلى الفسطاط لمحاربة عباد بن محمد بن حيان وأنصاره من أهلها ، وفى هذه الأثناء تغلب أحد زعماء اليمانية وهو بهلول اللخمى على الاسكندرية (١) ، ونزل عبد العزيز الجروى ، أحد رؤساء اليمانية أيضاً من بلدة فاقوس ، فى بلييس وبعث عماله يجبون الخراج من الحواف (٢) . حاول أهل الحواف مهاجمة الفسطاط فتصدى لهم عباد الذى خندق عاينها ، وأسفر الاشتباك عن هزيمة أهل الحواف ، خاصة بعد أن فت فى عضدهم مقتل محمد الأمين ، وبيعة المأمون فى المحرم سنة ١٩٨ . وولى المأمون المطلب بن عبد الله الخزاعى على خراج مصر وصلاتها ، فى ١٥ ربيع الأول ، فلما قدم ، ولى على الاسكندرية أحد أشرافها المعروفين من بيت بنى حديج وهو حديج بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج ، فثار بنو مدلج الذين ينزلون مع جذام ولحم على مقربة من الاسكندرية ، واضطربت الأمور فى الاسكندرية ونواحيها ، فبعث إليهم المطلب جيشاً بقيادة أخيه هرون ، فانهمز هرون ، وفى الوقت نفسه عزل المطلب عن ولاية مصر ، فى شوال سنة ١٩٨ ، فولىها من بعده العباس

(١) الكندى ، ص ١٥٣ — المقرئى ، ج ٢ ص ٨٦

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥١ — المقرئى ، نفس الصفحة

ابن موسى ، فقدمها ابنه عبد الله الحسن بن عبيد الأنصاري ، الذي أثار الجند بسجن المطلب ومنع إعطيتهم ، وبتهديدهم ، وبتجاهله على الرعية . فلما وصل العباس بن موسى وفي صحبته محمد بن إدريس الشافعي ، لم يضع حداً لهذه التصرفات الجائرة ، فقد عاود الأنصاري سياسة التحامل على الجند والرعية فثار الجند ، ودعوا إلى ولاية المطلب ، وأعادوه بالفعل إلى الولاية للمرة الثانية في ١٤ من المحرم سنة ١٩٩ هـ ، ولكن نار الفتنة اندلعت بولايته وسرى الاضطراب في تنيس حيث انتزى عبد العزيز الجروي ، واستنحل خطره ، بعد أن هزم كل جيش سيره المطلب لمخاربهته . (١) .

وفي هذه الظروف السيئة رست بمياه الاسكندرية مراكب أندلسية قنل أصحابها من غزوهم ، ونزلوا الاسكندرية لابتياح ما يلزمهم ، فأغراهم الاضطراب السائد واستنمبار بعض الطامعين من العرب بهم على تصويمه ، فلم يترددوا في التدخل عندما واتتهم الفرصة .

(ب) مشكلة الأندلسيين الوافدين : هل هم ربضيون أم غزاة بجر ؟

من الشائع عند الباحثين أن الأندلسيين الذين قدموا في مراكبهم إلى الاسكندرية ، ودخلوا طرفاً في النزاع القائم بين الطامعين في ولايتها ، جماعة من أهل ربض قرطبة القبلي ، يعرفون باسم الربضيين نسبة لطبيع الربض أو ثورة الربض على الأمير الحكم بن هشام الأموي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) . فنفاهم الأمير خارج الأندلس ، فوفد عدد كبير منهم إلى فاس ، وسمح لهم الإمام إدريس بن إدريس الحسني بالاقامة في عدوة الأندلس من مدينة

فاس (١) ، بينما وصل فوج كبير منهم إلى الاسكندرية .

وسبب هيج الربض أن الأمير هشام والد الحكم كان قد أحاط نفسه
بالفقهاء المالكية ، واستسلم لهم ، وعظم بذلك شأنهم ، وتجاوزوا حدودهم ،
فلما تولى الحكم الإمارة بعد أبيه حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ، ويسلبهم
ما كانوا يتمتعون به في عهد أبيه من نفوذ ، ويكف أيديهم عن التدخل في
شؤون دولته ، فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم
الروحي في إثارة الرعية عليه ، وحاول بعض الفقهاء أن يغدروا به في سنة
١٨٩ هـ بحجة أنه تظاهر بشرب الخمر وانهمك في الملذات ، فامتنع منهم ،
ثم اتفق الفقهاء ووجوه قرطبة مع محمد بن القاسم القرشي المرواني المعروف
بابن الشمس على مبايعته بالإمارة ، فخذلهم ، وأفشى سرهم ، فأبلغ الحكم
ابن هشام بما اجتمعوا عليه ، وروى له تفاصيل المؤامرة ، وأعطاه بياناً بأسمائهم
فتقبض عليهم الأمير ، وصاحبهم عند قصره ، وبلغ عددهم ٧٢ رجلاً (٢) ،
من بينهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسي ، وكان قدوة في الدين
والورع ، وأبو كعب بن عبد البر ، وموسى بن سالم الحولاني وولده ،
وغيرهم (٣) . وامتلاً بجسور قرطبة وتشجع بمظاهر السخط على الحكم ، بعد

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور
السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حامى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٦ - النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ،
مخطوطة مصورة ، ج ٢٢ ، ص ١٥ - سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ،
بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق خليان ريبيرا ، مدريد ،
١٩٢٦ ص ٥٠ - ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٠٦ - المقرئ ، نفع
الطيب . طبعة نجوى الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٣٢٢ .

أن أمر بقتل الثوار ، وأنكر الناس عليه إدماناً له يد ربيع القوم من متول المناهدين بالأنبياء من الشيعارى ، وكان حظياً في رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين (١) . وفي هذا الجو المتوتر ، وقع حادث . ط أشعل نيران الفتنة بين سكان الرض القبلى من قرطبة المعروف بشقندة ، فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاماً ، فغلت نفوس الأهالى بالغضب ، وانفجرت براكين غضبهم على الأمير ، وكأنما كانوا يرتقبون وقوع هذا الحادث فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على المماوك فقتلوه ، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير ، وأول من شهر السلاح ضده أهل الرض القبلى بعدوة النهر ، ثم انضم إليهم أهل المدينة والأرباض الأخرى ، واتجه الجميع يحمون ما استطاعوا حملة من سلاح نحو قصر الإمارة ، فتحصن الحكم فى قصره وأوكل بحراسته والدفاع عنه كتائب من الجند والعبيد ، واشتبك الثوار مع الجند فى قتال عنيف كاد يتغلب فيه الثوار ، لولا أن الحكم لجأ إلى حيلة تشبه حيلة الشاميين يوم الحرة فبعث برجلين من ثقات رجاله هما عبيد الله البلنسى واسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان إلى الرض ، فأشعلوا النار فى مساكن الثوار ، فلما شاهد هؤلاء النار تحترق فى بيوتهم بادروا بالعودة لاستنقاذ أولادهم ونسائهم ، فأخذتهم السيوف من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم ، وقتلوا منهم خلال ثلاثة أيام متواصلة عدداً كبيراً تجاوز عشرة آلاف رجل ، وفر من قرطبة أضعاف هذا العدد (٢) ، وقد انتقم الحكم من الثوار الذين وقعوا أسرى ، فأمر بصلب ثلاثمائة ممن قبض عليهم صفوا واحداً على ضفة نهر الوادى الكبير من باب القنطرة القبلى حتى نهاية المصاراة فى جنوب قرطبة

(١) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، طبعة بيروت ، ص ١٥

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٦

الغربي ، وأمر بهدم الربض من الفتنه ، فأعيد بطلحاء مزرعة . ولما هضمت
ثلاثة أيام من القتل والذاك ، أمر برفع السيف عن أعناقهم وتأمين الفلول ،
على أن يخرجوا من الأندلس ، فنزل بعضهم في مدينة فاس التي أسسها
إدريس بن عبد الله بن حسن في سنة ١٧٢ هـ (١) ، وأطلق على العسكرة
الجنوبية من تلك المدينة اسم ربض الأندلسيين ويذكر البكري أنه كان يسكن
أوزفور من أغمات بالمغرب الأقصى قوم يعرفون ببني موسى من ربضية
الأندلس ، فاستفسدوا إلى من جاورهم ، وأساعوا عشرتهم ، فحاربوهم ،
فانهزم الأندلسيون ، وتفرقوا ببلاد أغمات ، وبني مدينة جزناية ، ولكن
البربر أجبواهم عنها إلى وليلى (٢) . أما جمهورهم الأعظم ، وعددهم ١٥
ألفاً ، فقد ركبوا سفناً في البحر ذكر الكندي أن عددها أربعون مركباً (٣)
واتجهوا شرقاً حتى انتهوا إلى الاسكندرية وذلك في أول ولاية عبد الله المأمون
ابن الرشيد (١٩٨ — ٢١٨ هـ) .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ثورة الربض ، فأبوا المحاسن
يجمعانها في رمضان سنة ١٩٨ (٤) (مايو ٨١٤ م) ، وابن الأثير والنويري يتفقان على
أنها حدثت في سنة ١٩٨ هـ (٥) . أما ابن الأبار فقد حدد تاريخها تحديداً دقيقاً
في يوم الأربعاء ١٣ من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٦) (٢٥ مارس سنة ٨١٨ م) ،

(١) المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٨٧ وما يليها

(٢) البكري ، ص ١٥٥

(٣) الكندي ، ص ١٦٤

(٤) أبو الحسن ، ج ١ ص ١٥٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٧٢ — النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ص ٧

(٦) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، ص ٤٤

ويحددها ابن عذارى كذلك في سنة ٢٠٢ (١) ، و يوافق روديجو الطليطلى على هذا التاريخ (٢) .

غير أن دوزى عارض هؤلاء المؤرخين القائلين بتاريخ سنة ٢٠٢ هـ (٣) لأن الثوار ثبت أنهم نزلوا في مياه الإسكندرية قبل ذلك بأربعة سنين ، استناداً على رواية ابن القوطية الذي يؤكد أنهم « ملكوها في أول ولاية الرشيد » (٤) وصحتها المأمون (٥) الذي بدأت خلافته في ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ هـ ، وما رواه المقرئ (نقلا عن الكندي) إذ يقول : « وفي سنة تسع وتسعين ومائة عظمت الحروب بديار مصر بين المطالب بن عبد الله الخزاعي أمير مصر وبين عبد العزيز الجرمي الثائر بتنيس ... وكانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم » (٦) . ولكن الأستاذ ليفى بروفنسال يؤكد صحة تاريخ سنة ٢٠٢ ، الذي حدده ابن حيان بإيراده نص المنشور الذي أصدره الحكم بعد قضائه على الهيج وأرسله إلى ولاية الأندلس ، وفيه بيان بيوم الثورة في ١٣ رمضان ، كذلك يعتمد ليفى بروفنسال (٧) على ما أورده

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٣

(٢) Las Cagigas, Andaluces en Africa, Boletín de la Real Academia de Ciencias, Bellas letras y Nobles artes de Córdoba, año VIII, 1929 No. 25. p. 108

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I, Leyde, 1932, p. 296

(٤) ابن القوطية ، ص ٥١

(٥) ابن الأبار ، ص ٤٥

(٦) الكندي ، ص ١٥٨ — المقرئ ، ج ١ ص ٣٠٢ .

(٧) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, p. 165, Note 1

ابن حزم في جمهرة الأنساب (١) ، وعلى ما جاء في المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (٢) الذي حدد نفس يوم الأربعاء ١٢ من رمضان سنة ٢٠٢ هـ تاريخاً لقيام ثورة الربض ، وأكد أن الحكم أمر بهدم الربض القبلى في اليوم التالى حتى صيره مزرعة ، وتبع دور الثوار بالهدم والاحراق . ويذهب الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى القول بأن الأندلسيين الذين وفدوا في سفنهم إلى الاسكندرية في عام ١٩٩ هـ ليسوا من ثوار الربض لأن ثورة الربض اندلعت في قرطبة بعد سنة ٢٠١ هـ ، بينما شارك الأندلسيون في أحداث الاسكندرية في سنة ١٩٩ هـ (٣) ، وهذا يعنى في رأيه أن هؤلاء الأندلسيين كانوا غزاة بحريين وأن الغزو كان حرفتهم وصناعتهم . ونحن نؤيد الدكتور سعد زغلول فيما ذهب اليه كما نؤيد الأستاذ ليفى بروفنسال في تاريخ سنة ٢٠٢ الذى يسجل ثورة الربضيين على الحكم ، ونعتقد أن دوزى أخطأ إذ اعتبر أن ثورة الربض قامت في سنة ١٩٨ والواقع أن الثورة المذكورة حدثت في سنة ٢٠٢ هـ ، وأن بعض ثوار الربض اختفوا بطليطلة التي وقع اختيارهم عليها بالذات لخالفه أهلها الحكم قبل ثورة الربض بأربعة سنوات (٤) ، فغزاهم الحكم في سنة ١٩٩ هـ ، وعاث فيهم أشد العيث ونقل وجوه أهلها إلى ترجلة (٥) . ومن هنا جاء اللبس بين ثورة الربض في سنة ٢٠٢ وثورته إلى طليطلة قبل ذلك في سنة ١٩٩ هـ ، ونفى أهلها إلى ترجلة .

(١) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٨٨

(٢) ابن سعيد الدين ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف

ج ١ ص ٤٢

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربى ، ص ٢٦٧

(٤) ابن الأبار ، ص ٤٥ - ابن سعيد ، ص ٤٢

(٥) ابن سعيد ، ص ٤١ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١١

ونعتقد بعد هذا العرض السابق أن الأندلسيين الذين قدموا في سفنهم إلى الاسكندرية سواء في ٤٠ سفينة كما يذكر الكندي (١) أو في ٤٢ سفينة كما صححناه عن اليعقوبي (٢) ، كانوا لا يزيدون بحال من الأحوال عن خمسة آلاف شخص ، بل إن اليعقوبي يؤكد أنهم كانوا زهاء ثلاثة آلاف (٣) ، ومن المستبعد أن يزيد عددهم على خمسة آلاف لسبب آخر منطقي وهو أنه إذا افترضنا أن كل سفينة قادمة عليها مهما كبر حجمها تحمل مائة من الرجال يصبح مجموع الأندلسيين أربعة آلاف . ونستند في رأينا أيضاً على نص أورده الكندي ، إذ ذكر أن حشود اللخيين في الاسكندرية بعد أن انضم إليهم الأندلسيون والصوفية في الاسكندرية باغت عشرة آلاف رجل (٤) ، ومن المعروف أن عدد اللخيين كان كبيراً للغاية وأنهم كانوا يؤلفون قوة هائلة قد تفوق قوة الأندلسيين والصوفية معاً ، ومعنى ذلك أن الأندلسيين كانوا في حدود أربعة أو خمسة آلاف على الأكثر .

ونعتقد أن هؤلاء الأندلسيين الذين قدموا إلى الاسكندرية في سنة ١٩٩ هـ ، أي قبل ثورة أهل الربض التي حدثت في سنة ٢٠٢ هـ . بما لا يقل من ثلاث سنوات كانوا على حد قول الأستاذ الدكتور سعد زغلول غزاة بخريين ، وأهل الأندلس بحكم طبيعة بلادهم واحتكاكهم ببول أوروبا كانوا رجال بحر وأهل غزو ، وأنهم ، بخلاف ما يشير إليهم المؤرخون ، كانوا ملاحين

(١) الكندي ، ص ١٦٤

(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة النجف ، ١٣٥٨ م ص ١٧٤
ذكر اليعقوبي خطأ أنهم قدموا في أربعة آلاف مركبا وسخطها أربعين سراجا .

(٣) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ١٧٤

(٤) الكندي ، ص ١٦٤

مهرة ومن المعروف أن جماعات كبيرة من البحريين من أهل الأندلس كانوا يتخذون لهم مراكز ساحلية من شرق الأندلس تمتد ما بين طرطوشة وبالنسية كان يتزعمهم أمير سرقسطة ويستخدمهم ضد الكارولنجيين (١)، وقد وجه هؤلاء غاراتهم على السواحل الكارولنجية بعد أن تفككت قوى الكارولنجيين البحرية، ونجحوا في اتخاذ قواعد اسلامية ثابتة في فراكسينت على ساحل بروفنس وجزيرة كامرج عند مصب الرون ، وفي ماجلون ، ومنها وجهوا غاراتهم إلى داخل البلاد في بروفانس ، وانتشروا في جبال الألب وتحكموا في الممرات الموصلة بين فرنسا وإيطاليا فيما بين مونت سني والبحر المتوسط (٢) . ويبدو أن هؤلاء الغزاة الأندلسيين أغاروا من قواعدهم في الأندلس ، ولحسابهم الخاص ، على جزيرة قورشقة (كورسيكا) في سنة ١٩١ هـ (٨٠٦ م) ، فأرسل إليهم بيبين بن شارلمان ، ملك إيطاليا ، أسطولاً ليرغمهم به على الانسحاب ، ونجح في خطته ، وفي أثناء قفولهم إلى قواعدهم تعقبهم آدمر ، كونت جنسوة بأسطوله ، ولما أحس الأندلسيون بمطاردته لهم تحولوا إليه واشتبكوا مع أسطوله في موقعة بحرية انتهت بهزيمة الأسطول الجنوي ، وأسر المسلمون ستين راهباً باعوه في الأندلس (٣) . ثم عاود البحريون الأندلسيون الغزو البحري بعد عامين من تلك الواقعة ، فأرسلوا بسفنهم في سردانية ، ولكن أهلها تصدوا لهم وأرغموهم على الخروج منها ، فهاجموا

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٢٢٩

(٢) أرشيبالد لويس ، ص ٢٣٠

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠

قورشقة ، واشتبكوا مع القائد بورشارد في موقعة دارت فيها الدائرة على المسلمين ، وخسروا فيها ثلاثة عشرة سفينة (١) . ثم عاودوا هجومهم على قورشقة في سنة ١٩٥ هـ وفي سنة ١٩٨ هـ وفي هذه المرة الأخيرة اشتبك معهم أسطول صاحب أمبورياش الذي نجح في أسر ثمانية سبعين بما فيها من بحريين بلغ عددهم ما يزيد على خمسمائة ، وقد انتقم المسلمون لذلك فأغاروا على سواحل نيقية (نيس) وبروفنس وغيرها (٢) .

وبالإضافة إلى هذه المنطقة التي كان يتخذها غزاة البحر الأندلسيين ، كانت توجد منطقة أخرى تقع على الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس ، عند الموضع الذي قامت عليه مرية بجانة ، وكان هؤلاء البحريون ينزلون قبل ذلك في مرسى أشكوبرش Escombreras الواقع في خليج قرطاجنة الخلفاء (٣) . ويذكر البكري أن هؤلاء البحريين الأندلسيين ، ومنهم الكركري وأبو عايشة والصفير ومهيب أسسوا مدينة تنس الحديثة بالمغرب الأوسط في سنة ٢٦٢ هـ (٤) ، كما يذكر أن جماعة منهم أسسوا مدينة وهران بالاشتراك مع نفزة وبني سفن من ازداجة سنة ٢٩٠ هـ (٥) .

وينبغي أيضاً أن نذكر هنا الدور الهام الذي قام به البحريون الأندلسيون بقيادة أصبغ بن هكاه الواري المعروف بفرغلوش في فتح صقلية ، في سنة

(١) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وبسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ص ١٤٠ — فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٢

(٢) شكيب أرسلان ، ص ١٤٠ — انتشار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥٣

(٣) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٨١

(٤) نفس المصدر ، ص ٦١

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٠

٢١٤ هـ ، وأقاموا يفتحون صقلية مع الأغالبة حتى سنة ٢١٩ هـ (١) ، وقد اشتركوا بأسطول قوامه ٢٠٠ سفينة في الاستيلاء على مينائى بارمة وميناو (٢)

وعلى هذا النحو نجد أن غزاة البحر الأندلسيين اشتغلوا بأعمال الغزو والنهب أو ما يسمونه بالقرصنة البحرية على سواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط قبل ثورة الربض سنة ٢٠٢ هـ ، ولم يكن لحكومة قرطبة حتى سنة ٢٣٠ هـ أسطول بحرى منظم ، وكانت أعمال هؤلاء الغزاة تتم بدون موافقة رسمية من حكومة قرطبة (٣) ، فهم إذن غزاة يشتغلون لحسابهم الخاص . ومما يؤكد رأينا فى أن الأندلسيين القادمين إلى الاسكندرية كانوا غزاة أن الكندى يشير عند ذكره خبر نزولهم إلى أنهم : « قد قفلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليهتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكان الأمراء لا تمكنهم دخول الاسكندرية ، وانما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم » (٤) . ونفهم من ذلك أن نزول الأندلسيين بالاسكندرية لم يكن حدثاً جديداً وأنهم كانوا يلجئون قبل هذا التاريخ إلى مياه الاسكندرية ويرسبون بالذات فى منطقة الرمل (٥) إثر كل غزو يقومون به ، وأنهم كانوا يمتارون منها ما يحتاجون إليه أثناء غزوهم فى البحر . فهم إذن غزاة يعتمدون فى حياتهم على ما يغنمونه فى غزواتهم لسواحل أوربا الجنوبية وسواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط . والمسألة أن المؤرخين ، اختلط عليهم الأمر بعد قيام أهل الربض بالثورة على الحكم ، فخلطوا بين البحرين

(١) المغرب الكبير ، ص ٣٦٠

(٢) مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٦

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 244

(٤) الكندى ، ص ١٥٨

(٥) اليعقوبى ، ج ٣ ص ١٧٤

وبين الربضيين ، ومن المعروف أن أهل الربض تفرقوا في البلاد الأندلسية (١) ونزل بعضهم إلى بر العدو ، أقرب السواحل المغربية إلى الأندلس خوفاً من بطش الأمير الحكم بهم ، فاحتلوا عدوة فاس فصيروها ربضاً قبلها لها ، ومن المعروف أيضاً أن الحكم عفا عنهم بعد ذلك ، وكتب لهم أماناً على الأنفس والأموال ، « فأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته حاشا قرطبة أو ما قرب منها » (٢) .

(ج) استيلاء الأندلسيين على الاسكندرية :

كان المطلب قد عقد لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج على الاسكندرية فاستخلف هذا عمر بن عبد الملك بن محمد الحديجي الذي يقال له عمر بن هلال فوليها عمر ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب ، وأقام على الاسكندرية أخاه الفضل ابن عبد الله بن مالك الخزاعي (٣) .

واستغلت طائفة البحريين الأندلسيين حالة الفوضى في مصر ، واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية ونواحيها من لحم وبني مدليج ، ودخلوا طرفاً في النزاع . فعندما ولي المطلب أخاه الفضل على الاسكندرية حقد عمر بن هلال عليه ، وتحالف مع ثائر آخر في ثغر تنيس هو عبد العزيز الجروى كان طامعاً في إمارة الفسطاط . فكتب إليه الجروى يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها ، وأن يخرج الفضل بن عبد الله منها (٤) . ولم يكن في امكان

(١) ابن الأبار، ج ١ ص ٤٥ — ابن عذاري، ج ٢ ص ١١٥

(٢) ابن عذاري، ج ٢ ص ١١٥

(٣) الكندي، ص ١٥٧

(٤) الكندي، ص ١٥٨

ابن هلال وحده أن يقوم بها العمل الجرىء ، فرأى أن يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يهضمون الشتاء في مراكبهم بمياه الاسكندرية ، ولم يتردد الأندلسيون في مساعدة ابن هلال ، وبفضل مساعدتهم له نجح في اخراج الفضل منها ودعا فيها لعماد العزيز الجروى ، ولكن أهل الاسكندرية استأعوا من تدخل الأندلسيين ، فهاجموا عليهم ، واشتبكوا معهم في معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين وعودتهم إلى مراكبهم ، وقتل في هذه المعركة عدد منهم . وهكذا انتصر السكندريون وأعادوا إليهم الشرعى ، ولكن المطلب لم يلبث أن عزل أخاه الفضل وأسند الولاية إلى اسحق بن أبرهة بن الصباح وهنا تحركت مطامع ابن هلال من جديد ، فخرج لمقاتلته في شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، وتجنباً للقتال عزل المطلب اسحق بن أبرهة وولى الاسكندرية لأبى بكر بن جنادة بن عيسى المعافرى . وفي نفس الوقت نجح الجروى بالاتفاق مع السرى بن الحكم النائد في التغلب على المطاب ، وارغامه على الخروج من مصر ، وتولى السرى بن الحكم ولاية مصر بإتباع الجند عليه في مستهل رمضان سنة ٢٠٠ هـ (١) . وهنا سئحت الفرصة لابن هلال للتغلب على الاسكندرية ، فهاجم إليها أبى بكر بن جنادة المعافرى وأخرجه منها ، ودعا للجروى بها ، وتهيأ للأندلسيين المجال للنزول بأرض الاسكندرية والإقامة في برها بدلاً من البقاء في سفنهم . ولكن الأندلسيين بحكم طبيعتهم الخافية كرجال بحر وغزاة احتكوا بأهل الاسكندرية ، وأفسدوا فيها . وكان ابن هلال يسعى للتقرب إلى أهل الاسكندرية وإرضائهم بغية الإبقاء على ولايته عليهم ، فأمر باخراج الأندلسيين من بر المدينة والمحاقهم يسفهم ، فاضطغنوا ذلك عليه (٢) انتظاراً لفرصة مواتية ينقلبون عليه فيها ، وحدث في هذه الفترة المضطربة من تاريخ الاسكندرية أن ظهر بالاسكندرية طائفة يدعون بالمعروف وينهون

(١) التكندى ، ص ١٦١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٢

عن المنكر ويعارضون الوالى ، سموا أنفسهم بالصوفية ، وتولى الزعامة عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى . وكان من العائىعى أن أن يتحالف هؤلاء الصوفية مع الأندلسيين لاشتراكهم معهم فى معاداة الوالى والسخط عليه ، واستناب الصوفية اللخميون واعتقدوا بهم ، وكان اللخميون قوة هائلة لها وزنها فى ناحية الاسكندرية ، وكانت لهم أطماعهم الخاصة . وعزم الحلفاء على إزاحة ابن هلال ، فجمعت حشودهم حتى بلغت بالاضافة إلى الأندلسيين والصوفية زهاء عشرة آلاف ، فحاصروا ابن هلال فى قصره ، فسلم هذا نفسه إليهم هو وأخوه شمس وابن عمه أبو هبيرة وحديج الواحد بعد الآخر ، فتلقفتهم سيوف الحلفاء ، وقتلواهم فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ .

ثم تنازع اللخميون بعد مقتل ابن هلال مع الأندلسيين نزاعاً أدى إلى قيام الحرب ، واشتبك اللخميون بقيادة زعيمهم رباح بن قررة مع الأندلسيين ، فانهزم اللخميون ودخل الأندلسيون الاسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ، وفى عهده ساد الفساد ، وكثر القتل والنهب ، فاضطرب الأندلسيون إلى عزله ، وولوا رجلاً منهم يعرف بالكنانى (١) . وعندئذ تدخل بنو مدلج ، وكانوا يقيمون بظاهر الاسكندرية ، إذ خافوا أن يستعزل الأندلسيون بها ، فهاجموا الأندلسيين ولكنهم منوا بهزيمة نكراء ترتب عليها أن أصبح الأندلسيون يتحكمون فى مصير الاسكندرية ، فننوا بنى مدلج عنها ، وانفردوا بمكها . ولم يجد السرى ابن الحكم ، والى القسطنطين ، بدا من قبول الأمر الواقع ، وحمد له الأندلسيون موقفه المتخاذل ، فعندما توسط لارجاع بنى مدلج إلى منازلهم ، قبلوا وساطته وأذنوا لهم بالعودة .

وباغ الجروى ما اجترمه الأندلسيون من قتل صاحبه ابن هلال واستبدادهم بالاسكندرية ، وتقاربهم مع السرى بن الحكم الذى سبقه فى الظفر بالامارة على الفسطاط ، فعزم على السير إلى الاسكندرية وانتزاعها من الأندلسيين ، وجهز لهذا الغرض جيشاً عدته خمسون ألفاً ، ونزل على حصن الاسكندرية فى المحرم سنة ٢٠١ هـ ، ولعله حصنها المعروف بالحصن الفارسى أحد عجائبها المشهورة ، وواصل الجروى حصاره للحصن حتى كاد أن يفتتحه ، وعندئذ خاف السرى بن الحكم أن يتغلب عليه فتضاعف قوته ثم يتغلب عليه بعد ذلك فأرسل قوة بقيادة عمرو بن وهب الخزاعى إلى تنيس لفتحها فیرغم الجروى على فك الحصار والعودة إلى بلده ونجحت خطة السرى ، واضطر الجروى إلى العودة إلى تنيس فى نفس شهر المحرم .

وفى هذه الأثناء حدث انقلاب عسكرى فى الفسطاط ، إذ انقلب الجند الحراسانيون على السرى فى ربيع الأول سنة ٢٠١ هـ ، وأرغموه على التراجع إلى الصعيد . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى ولايته بتقليد من المأمون . وعندئذ زحف الجروى إلى الاسكندرية للمرة الثانية ، واتفق مع الأندلسيين على دخول حصنها ، فدخلها قائده سلامة الطحاوى وابنه على بن عبد العزيز الجروى ، ودعوا فيها للجروى ، وأقام الجروى على ولايتها رجلاً من بنى حديج هو معاوية بن عبد الواحد بن محمد ، ومضى الجروى بكل قواته لمواجهة قوات السرى ، فانتهر الأندلسيون الفرصة ، وقاموا بنخل عامل الجروى على الاسكندرية ، وطرده منها ، كما خلعوا ولاءهم للجروى ، ودعوا للسرى .

ولما بلغت هذه الأنباء الجروى زحف إلى الاسكندرية للمرة الثالثة فى شهر رمضان سنة ٢٠٣ هـ ، وكان أهالى هذه النواحي يمرضون لأضرار جسيمة فى كل مرة يخرج فيها جيشه نحو الاسكندرية ، فعارضه القبط فى سبخا ، وانضم إليهم بنو مدلج فى ثمانين ألفاً ، واشتبك الجروى مع هذه القوة

الجديدة ، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم ، ثم بعث جيوشه إلى الاسكندرية لحصارها ، ولاحق بها للدرة الرابعة ، «فأغلق الأندلسيون حصنها ، فحاصروهم الحروى أشد الحصار ، ونصب عليهم المنجنيقات ، أقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة ٢٠٤ هـ إلى سابع صفر سنة ٢٠٥ هـ» (١). وبينما كان جيشه يضرب جدران الحصن بالمنجنيق أصيب الحروى بفلقة من منجنيق فتوفي ، وبوفاته انتهت حركته وانسحب جنده إلى تنيس ، ولم يطل العمر بالسرى بن الحكم هو الآخر ، إذ توفي في جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ ، وخلفه ابنه أبو النصر ، وهكذا انفرد الأندلسيون بحكم الاسكندرية بعد أن توفي المتنافسان ، في حين قام صراع عنيف بين أبناء السرى والحروى .

(د) بجلاء الأندلسيين عن الاسكندرية واستيلائهم على اقريطش :

صمم المأمون على وضع حد للاضطرابات الداخلية في مصر ، فأسند هذه المهمة إلى قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وأدرك ابن طاهر أنه للقضاء على هذه الفتن جميعاً لا بد من استخدام الجيش والأسطول في آن واحد ، فسير جيشاً من الخراسانيين إلى مصر ، وأقبل هو في سنة ٢١٠ هـ فتلقاه على بن الحروى بالأموال والإنزال ، وانضم إليه ، وبعث في طلب بعض السفن إلى تنيس ، أسند قيادتها إلى علي بن الحروى لمعرفته بالحرب في البحر (٢) . ونجح عبد الله بن طاهر أخيراً في إخضاع عبيد بن السرى ، وآلت إليه ولاية مصر في ٢ ربيع الأول سنة ٢١١ هـ . وما إن تم لعبد الله ابن طاهر ذلك حتى عزم على السير إلى الاسكندرية لاستئصال الأندلسيين ، فبعث على مقدمته العباس وهاشم من قواد خراسان في مستهل صفر سنة ٢١٢ هـ ، ثم أدركهما عبد الله في ربيع الأول ، فنزل على حصنها ، وحاصر المدينة

(١) الكندي ، ص ١٦٩ — ١٨٢

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٠

قراية أسبوعين ، فاستأجرت ، وخرج إليه أهلها بالأمان ، ولم نجد الأندلسيون عندئذ بابا من مصالحهم . فصالحهم على أن يخرجوا من الاسكندرية إلى حيث أرادوا من البلاد غير التابعة للعباسيين (١) بشرط ألا يأخذوا في مراكبهم أحداً من الأهالي ولا عبداً ولا آبقاً ، فاذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم . وهكذا أبحر الأندلسيون من الاسكندرية في أوائل سنة ٢١٢هـ (٢) يقودهم أحد زعمائهم وهو أبو حفص عمر بن شعيب البلوطي المعروف بابن الغايظ أو الغايظ من أهل قرية بطروج من عمل فحوص البلوط المجاور لمدينة قرطبة (٣) .

واختار أبو حفص جزيرة اقريطش منزلاً للمسلمين ، وكانت من أخصب جزر البيزنطيين ، وتتميز بموقع استراتيجي رائع في وسط البحر المتوسط الشرقى (٤) . ويبدو أن الأندلسيين كانوا يعرفون هذه الجزيرة معرفة تامة فان فازيليف ، استناداً على مارواه جنيزيوس ، يذكر أنهم أغاروا عدداً

(١) ذكر الطبري وابن الأثير أن الأندلسيين سألوا عبد الله بن طاهر أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، فرحلوا عنها ، ونزلوا بجزيرة اقريطش (الطبري ج ٣ ص ١٠٩٢ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر ابن الأبار أن عبد الله بن طاهر صالح الأندلسيين على التخلي عنها مقابل مال بذله لهم ، وخيرهم في النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر ، فاخاروا جزيرة اقريطش (ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ١ ص ٤٥) . ومنتج من ذلك أن الأندلسيين كانت لهم معرفة سابقة بجزيرة اقريطش

(٢) يذكر الطبري وابن الأثير خروج الأندلسيين من الاسكندرية في حوادث ٢١٠ (الطبري ج ٣ ص ١٩٠ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١١ ، ٢١٢) .

(٣) الضبي ، ص ٣٩٤ - المقرئ ، ج ٤ ص ١٥٧

(٤) ابراهيم أحمد العدوي ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ، ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص ٥٥

من المرات على جزيرة اقريطش وعلى جزيرة يونانية أخرى قبل أن يرحلوا من الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ . ففي عام ٢١١ هـ « بعث العرب على اقريطش عشر سفن أو عشرين عادت بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن سرفت المكان معرفة دقيقة » (١) . ومما يؤكد ذلك أن أبا المحاسن بن تغري بردي يذكر أن الأندلسيين نزحوا عن الاسكندرية قبل وصول عبد الله بن دااهر خوفاً منه وتوجهوا إلى جزيرة اقريطش (٢) .

وأما ما كان الأمر فقد أبحر الأندلسيون في أربعين سفينة بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي (٣) ، واتجهوا شمالاً إلى اقريطش حيث نزلوا في خليج سودا سنة ٢١٢ هـ . وذكر البلاذري أنهم فتحوا من اقريطش حصناً واحداً ونزلوه ، ثم لم يزل أبو حفص يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم » (٤) . ونستنتج من هذا النص أن الأندلسيين لم يلقوا مقاومة عنيفة عند قزولهم ، وأنهم قنعوا بحصن واحد من حصونها العديدة . ويبدو أنهم كانوا ينجشون من قيام أهل اقريطش بمحاربتهم في ذلك الحصن ، فأقاموا به تحصينات منيعة حتى يتحصنوا فيه إذا ما عزاهم الروم ، وحفرُوا حوله خندقاً ، فعرف الحصن لذلك بالخندق ، ثم وصل إلينا في العصر الحاضر محرفاً إلى Candia . وما إن اطمأن المسلمون

(١) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t.I, La Dynastie d'Amorium, (١)

Bruxelles, 1935, p. 54

(٢) أبو المحاسن ، ج ٢ ص ١٩٢

(٣) ذكره البلاذري أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي (البلاذري ، ج ١

ص ٢٧٩) وقيل شعيب بن عمر بن عيسى (الضبي ، ص ١٩٤ — الحميدي ، ص ٢٨٣)

(٤) البلاذري ، ص ٢٧٩

إلى تحصين قواعدهم حتى أخذوا يفتتحون المدن والحصون الأخرى في الجزيرة ، فأتموا فتحها كلها ، فيما يقرب من سنة ٢٣٠ هـ ، أى بعد مضي ١٨ سنة من نزولهم بها (١) ، وقيل افتتحت بعد سنة ٢٣٠ هـ في قول ابن حزم ، وبعد سنة ٢٢٠ في قول أبي سعيد بن يونس (٢) . ولا نشك في أن الأندلسيين استولوا على الجزيرة بالتدريج في الفترة ما بين ٢١٢ و ٢٣٠ هـ ، مستغلين في ذلك حالة الوهن والضعف التي أصابت الدولة البيزنطية على أثر ما استنزفته من قوى أثناء ثورة توماس . وذكر فاريابييف أن المسلمين استولوا على ٢٩ مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها . وكان من الطبيعي أن تلتبس العناصر الإسلامية في إقريطش الأمان ممثلا في سلطة إسلامية تظللها بحمايتها ، ولم يكن هناك مفر من الدخول في فلك الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى الإسلامي كله بما فيه مصر وإفريقية (٣) . وما لبثت إقريطش أن أصبحت في التقسيم الإداري للدولة العباسية تابعة لمصر (٤) ، وظلت إقريطش تابعة لمصر في زمن الطولونيين والإخشيديين ، « وكانت مراكب إقريطش تدير أهل مصر

(١) أبو الحسن ، ج ٣ ص ٣٢٧

(٢) الحميدى ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٣) أشار الأسير عبد الرحمن الأوسط إلى ذلك في رسالته التي بعث بها إلى الإمبراطور تيهفلس ، فقال : « وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي ومن صار معه من أهل بلدنا في خضوعهم لابن ماردة (المعتصم) ودخولهم في طاعته ، وما سألت من النظر في أسورهم والانكار لفعالهم ، فانه لم ينزع إليهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم ، وليسوا في بلدنا ، ولا يرتبنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤتتهم ، وانما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة لمأسهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته » (ليفى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١١٥ - ١١٨) .

(٤) العدوى ، إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ، ص ٥٩

بخيرات جزيرتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل إلى عمال مصر «(١) وذكر النويزى السكندري أنه كان يحمل من اقريطش « العسل النحل والخبز الكثير لمصر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا «(٢) نسبة إلى مدينة كندية أو الخندق .

وهكذا أقام الأندلسيون في اقريطش دولة اسلامية اعتمدت على معرفة سكانها بشؤون البحر في تجارتها وفي علاقاتها بجاراتها ، ودامت هذه الدولة حتى المحرم سنة ٣٥٠ هـ . عندما فاجأ البيزنطيون بقيادة فقفور فوقاس أهل اقريطش على غرة ، واستولى عليها .

(١) القاضي النعمان (أبوحنيفة بن محمد) قضية اقريطش ، ص ٣٣

(٢) النويزى السكندري ، الايام ص ١٢٣ أ

(٣)

ثورات بني مدج في الاسكندرية

لم تنته الفتن في مصر بخروج الأندلسيين من الاسكندرية في سنة ٢١٢ هـ، فقد واصل أهل الحوف الشرقي ثورتهم في ولاية عيسى بن يزيد الجلودى سنة ٢١٢ هـ بسبب تعسف صالح بن شيرزاد متولى الخراج والزيادة عليهم في خراجهم، فبعث عيسى بن يزيد جيشاً بقيادة ابنه محمد لقتالهم ، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدي أهل الحوف في بلبيس في صفر سنة ٢١٤ هـ ، ولم ينبج منه سوى محمد بن عيسى (١) ، وشجع هذا الانتصار أهل الحوف على المضي في الثورة في ولاية عمير بن الوليد، وفي ولاية عيسى بن يزيد الثانية، وعبدوية ابن جبلة ، وأمام هذه الثورة اضطر أبو اسحق المعتصم بن هرون إلى القدوم بنفسه في أربعة آلاف من أتراكه ، في رجب سنة ٢١٤ هـ، لمحاربة أهل الحوف القيسية واليمينية، واشتبك جيشه معهم في بلبيس في ٢٠ شعبان سنة ٢١٤ هـ، فانهزم أهل الحوف، ثم دخل المعتصم القسطنطينية بعد ذلك في ٨ رمضان ، وأقام بها إلى أول المحرم سنة ٢١٥ هـ ، ورحل بعد ذلك إلى الشام . ثم قدم الافشين حيدر ابن كاووس الصغدى إلى مصر ، في ٣ ذى القعدة سنة ٢١٥ هـ، وشهد الثورة العامة التي اجتاحت شمال الدلتا كله عربها وقبطها، فواقع بأهل اشليم الواقعة بالحوف الغربى (٢)؛ وحارب أهل الحوف الشرقي وقل جماعتهم ، وكانت

(١) الكندى، ص ١٨٥ - المقرئى، ج ٢ ص ٨٧

(٢) ياقوت، معجم البلدان ، مادة اشليم مجلد ١ ص ٢٠٠ - أبو المحاسن

الثورة قد امتدت إلى الاسكندرية ، فتقدّثار أهل هذه المدينة من بنى مدلج على والى مصر عيسى بن منصور (٢١٦ هـ) من قبل المعتصم ، وتولى رئاسة بنى مدلج بحر بن على اللخمى وابن عقاب اللخمى ، فى حين تولى قيادة الثورة معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج . ونظراً لخطورة الموقف فى الاسكندرية اضطر الأفشين إلى إرسال جيش بقيادة عبيد الله بن يزيد بن مزيد الشيبانى لانتقاد حركة بنى مدلج بالاسكندرية ، ونجح أهل الاسكندرية منذ الاشتباك الأول فى التغلب على عبيد الله بن يزيد وحاصروه فى حصن الاسكندرية فى شوال سنة ٢١٦ هـ . وما ان علم الأفشين بذلك حتى بادر بالزحف إلى الاسكندرية ، وتغلب وهو فى طريقه إليها على الثوار اللخمين فى شرقيون بالحواف (وهى المحلة الكبرى) ، وفى دميته الواقعة بالقرب من دمياط ، ثم اشتبك مع طائفة من بنى مدلج بخربتا من قرى الاسكندرية وانتصر عليهم ، ثم عاود المدالبة الاشتباك معه عند محلة الخلفاء فهزمهم الأفشين ، وأسر معظمهم ، ونزل بهم قرطسا فضرب بها أعناقهم . ومن قرطسا واصل الزحف إلى الاسكندرية فدخلها فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢١٦ (١)، وفر منها رؤساء الثورة .

وما إن انتهى الأفشين من مشكلة ثورة بنى مدلج بالاسكندرية حتى شغل بثورة القبط فى البشروء من قرى أسفل الأرض . وقدم الخليفة العباسى المأمون بنفسه فى المحرم سنة ٢١٧ عندما اضطربت البلاد فى جنوب مصر وشمالها ، وكان لحضوره أعظم الأثر فى تهدئة الثورة ، فالأفشين أوقع القبط بالبشروء فنزلوا على حكم المأمون الذى أمر بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، وموسى ابن ابراهيم الذى سيره الخليفة إلى الصعيد لمحاربة ابن عبيدس الفهرى نجح

في القبض عليه ، واستقدمه إلى منزل الخليفة بسخا حيث قتل (١) . وأقام المأمون بالفسطاط وحلوان نحواً من ٤٩ يوماً غادر مصر بعدها إلى مقر خلافته .

لم تكن حركة بني مدلج بالاسكندرية في سنة ٢١٦ هـ آخر حركاتهم الثورية ، فلم تكد تمضي ستة وثلاثون عاماً على هذه الثورة حتى قاموا بثورة جديدة في ولاية يزيد بن عبد الله التركي على مصر (٢٤٢ - ٢٥٥ هـ) . ففي ربيع الآخر سنة ٢٥٢ أشعل بنو مدلج نيران الثورة في أرض الاسكندرية ، وكان يتزعمها جابر بن الوليد المدلجي من بني الهجيم بن عثارة بن عمرو بن مدلج ، الذي سرعان ما اجتمع إليه حشد من بني مدلج الصليبي (أي الخالص) والموالي ، فلما بلغ ذلك والي الاسكندرية محمد بن عبيد الله بن مزيد الشيباني بعث فرقة من حامية الاسكندرية عدتها ثلثمائة رجل بقيادة رجل من أصحابه يقال له نصر الطحاوي . وفي أول لقاء بين هذا القائد وجابر المدلجي عندها (كفر الزيات) ، انهزم الطحاوي وتراجع إلى جنبويه بالبحيرة فنزلها ، ولكن جابر المدلجي زحف إليه وهزمه للمرة الثانية وعاد إلى الكريون ، فاستنجد الطحاوي بوالى الاسكندرية ، فأرسل إليه مدداً بقيادة برد بن عبد الله وأبوالعوا ، فتجمعت حشود الوالى في دسونس مع قوات الطحاوي ، وقدم إليهم جابر المدلجي ، واشتبك الفريقان في قتال عنيف أسفر عن هزيمة الطحاوي وبرد ، وظفر جابر بعسكرهم فغنم جميع ما فيه ، بينما عاد فل الطحاوي إلى الاسكندرية ، فتحصنوا بها .

واستفحل أمر جابر بن الوليد المدلجي وعظم شأنه بسبب انتصاراته ووفد إليه القوم من كل ناحية ، وانضم إليه كل من كان يومئذ إليه بشده ونجدة (٢)

(١) الكندي ، ص ١٩٢ — أبو الحسن ، ج ٢ ، ص ٢١٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٦

من الفتاك والشطار وقطاع الطرق أمثال عبد الله المريسى ، « وكان رجلاً خبيثاً » وجريج النصرانى « وكان من شرار النصارى » ، وأبو حرملة النوبى « وكان رجلاً فاتكاً » . ويعتبر أبو حرملة أخطر هؤلاء جميعاً ، فعقد له جابر على سنهور وسخا وشرقيون وبنا ، واشتد خطر أبي حرملة إلى حد تخلخل معه أمر الديار المصرية وانضم إليه عبد الله بن أحمد الأرقط الذى يرتفع نسبه إلى على بن أبى طالب ، فقوده أبو حرملة وولاه بنا وبوصير وسمنود ، أما أبو حرملة فقد أقام بشرقيون . ولم يسع يزيد بن عبد الله والى مصر الا أن يحاول من جديد إخماد هذه الحركة ، فبعث جيشاً من الأتراك بقيادة أبى أحمد محمد ابن الدبرانى ، نجح فى إيقاع الهزيمة بجيش عبد الله الأرقط فيما بين بوصير (١) وبنا ، وعاد ابن الأرقط إلى شرقيون حيث انضمت فلول جيشه مع قوات أبى حرملة ، واشتبكت هذه القوات من جديد مع الدبرانى ، فانهزم ابن الأرقط وأبو حرملة ، ثم كر أبو حرملة فى سندفا على قوات الدبرانى ، فانهزم الدبرانى وقتل من رجاله أبو حامد الدبرانى ، وتراجع أتباعه إلى سندفا . ولما عمجز يزيد ابن عبد الله عن مواجهة جابر بن الوليد وأصحابه أرسل إلى الخليفة يستمده لقتال جابر وغيره ، ولم يتردد الخليفة العباسى إزاء ذلك فى إجابة مطلب والى مصر ، فندب الخليفة الأمير مزاحم بن خاقان أخا الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى عسكر هائل إلى مصر معينا ليزيد بن عبد الله (٢) ، فقدم مزاحم فى ١٧ رجب سنة ٢٥٢ ، وقبل أن يشرع فى عملياته الحربية أرسل رسلاً إلى جابر ابن الوليد يأمره بالرجوع إلى الطاعة ، ولكن جابر سوف فى الرد عليه وعمل على استرضائه بأن أجاز رسله بجوائز عظيمة . وعندئذ عزم مزاحم على العمل ، فعهد إلى الدبرانى بمحاربة أبى حرملة ، فاشتبك الدبرانى معه فى مستهل شعبان

(١) هى قرية بوصير بنا سن كورة السمنودية ، كانت تقع بالقرب من الحملة

(٢) التميم الزاهرة ، ج ٢ ص ٣١٤

بسمنود في موقعة انتهت بهزيمة أبي حرملة وتقهقره إلى شريقيون فسندفا ،
ثم حدثت الواقعة الثانية الحاسمة بين الدبراني وأبي حرملة وأسفرت عن وقوع
أبي حرملة في أسر الدبراني ، ثم أدخل به سجن الفسطاط مع جمع كثير
من الأسرى في رمضان سنة ٢٥٢ ، وظل مقبلاً به حتى توفي في ٢٦ ربيع
الآخر سنة ٢٥٣ (١) . وفي نفس الوقت استسلم ابن عسامه المعافري الساعد
الأيمن لابن الأرقط العلوي ، ولبس السواد (٢) ، ونجح سلتق التركي في
التغلب على أصحاب جابر في صا وشباس ، فقتلهم ونفاهم عن تلك البلاد (٣) ،
واستأنى أحمد بن الأرقط العلوي في شهر رمضان ، فأرسله مزاحم إلى العراق
في مستهل ربيع الأول سنة ٢٥٣ (٤) . وفي هذه الآونة عزل الخليفة المعتز
يزيد بن عبد الله وولى مكانه مزاحم بن خاقان ، الذي بدأ ولايته على مصر
بمطاردة جابر بن الوليد ، فعقد ليزيد بن عبد الله في طلبه بناحية الاسكندرية ،
أما هو فقد مضى لمحاربة الخارجين عليه بالحواف أمثال ابن عزيز وابن ضوء
وغيرهما . أما يزيد بن عبد الله فقد أقام معسكره بالشراك ، الواقعة إلى الشرق
من تروجة ، مقر جابر منتظراً قدوم مزاحم الذي نجح في إخماد حركة ابن
عزيز بالحواف الشرقي ، وأسرهم وأسر عدداً من الثوار يبلغ نحو مائة ، قدم بهم
في ١٠ ربيع الآخر سنة ٢٥٣ . ثم زحف مزاحم إلى تروجه لمحاربة جابر
فاشتبك معه بتروجه ، فانهزم جابر وأسر جمع كبير من رجاله ، بينما
استطاع جابر الفرار بنفسه إلى نهيا من أرض الحيزة في ١٣ جمادى الآخرة

(١) الكندي ، ص ٢٠٩

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٨

(٤) نفسه

فأرسل مزاحم قائده أزجور لمطاردته ، فحاربه أزجور وهزمه ، وأسر من رجاله أربعين رجلا ، وتراجع جابر إلى الفيوم ، وما زال به مزاحم يطارده من بلدة إلى أخرى حتى أفنى رجاله . وأدرك جابر استحالة المساومة ، فاضطر أخيراً إلى طلب الأمان ، فأمنه مزاحم هو وستة نفر من رجاله ، فدخلوا الفسطاط ، وسجن جابر ، ثم بعث به إلى العراق في رجب سنة ٢٥٤ (١) . .

وهكذا انتهت حركة جابر بن الوليد في نواحي الاسكندرية بالفشل بعد عامين من قيامها ، سبب خلالها متاعب كثيرة للخلافة العباسية التي أثبتت على حد قول الدكتور سعد زغلول « أنها أعجز من أن تفرض ساططها على مصر ، وأن هذا العجز لم يعد يهدد الأمن والسلام فقط ، بل أصبح يهدد وحدة الوادي نفسها ، وهذا يعنى أنه إذا كانت الأقاليم تستطيع أن تقطع علاقاتها بالوالي وبالحلافة ، فإن الفسطاط كانت تستطيع أن تقطع علاقاتها ببغداد إذا أرادت ، وهذا ما حدث على أيام أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية » (٢) .

ومع ذلك فإن ذيلاً من ذيول هذه الحركة سببت حرجاً لأحمد بن طولون في أول ولايته لمصر ، فقد خرج عليه ابن عم جابر بن الوليد المدبلي وانضم إليه أحمد بن عبد الله بن طباطبا العلوي وأعلن الثورة فيما بين الاسكندرية وبرقة في موضع يقال له الكنائس في سنة ٢٥٥ (٣) ، ولكن هذه الثورة انتهت بالفشل بعد مقتل ابن طباطبا . ولم ترفع الاسكندرية راية العصيان مرة ثانية إلا في عصر المستعلي بالله الفاطمي على النحو الذي سنفصله فيما بعد .

(١) الكندي، ص ٢١٠ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد ، ص ٢٨١ .

(٣) الكندي ، ص ٢١٢ .

الفصل السادس

الاسكندرية في ظل الطولونيين والعباسيين

(١) في العصر الطولوني .

(٢) في ظل العباسيين (بعد سقوط الدولة الطولونية) .

الفصل السادس

الاسكندرية في ظل الطولونيين والعباسيين

(١)

في العصر الطولوني

لما ولي المعتز الخلافة في المحرم سنة ٢٥٢ هـ قلد ولاية مصر إلى أحد قواده الأتراك ويدعى باكباك في سنة ٢٥٤ هـ ، فاختار هذا الوالي أحمد بن طولون نائباً فيها لما عرف به من مقدرة في الإدارة وكفاية في الضبط والنظر ، وجعله على قصبتها الفسطاط دون غيرها ، فدخلها ابن طولون في ٢٣ من رمضان سنة ٢٥٤ هـ (١) . وعند قدومه كان سلطانه ضئيلاً إلى أبعد الحدود لم يتجاوز الفسطاط (٢) ، لأن ولاية العباسيين كانوا يقسمون أعمال مصر بين عدة أشخاص ليكون كل منهم عيناً على الآخر ، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بالبلاد ، وكان على خراج مصر عندما تسلم ابن طولون ولاية الفسطاط أحمد ابن محمد بن المدبر ، وكان على القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز . وكانت الاسكندرية ولاية قائمة بذاتها يتولاها اسحق بن دينار ، وكذلك كانت برقة ولاية يتولاها أحمد بن عيسى الصعيدي

(١) البيلوي ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق

١٣٥٨ ، ص ٤٢

(٢) سيده اسماعيل الكاشف ، وحسن أحمد محمود ، مصر في عصر الطولونيين

والاخشيديين ، القاهرة ١٩٦٠ ض ٢٠

فلما خلع المعتز ، وخلفه المهتدي بالله ، وقتل باكبك ، أسند الخليفة جميع ما بيده إلى يارجوخ وهو زعيم تركي جديد برز في المقدمة وحظى بمكانة سامية عند الخليفة المهتدي ، وكان يارجوخ حملاً لابن طولون ، فن الطبيعى إذن أن يرفع من مكانة صهره ويعتمد عليه اعتماداً كلياً في ولاية مصر كلها ، فكتب إلى أحمد بن طولون : « تسلم من نفسك لنفسك » (١) ، وزاده الأعمال الخارجة عن الفسطاط قصبة مصر كالاسكندرية وبرقة ، وكتب يارجوخ إلى اسحق ابن دينار متقلداً الاسكندرية يأمره بتسليم هذه الولاية إلى ابن طولون. وعندئذ عزم ابن طولون على الخروج إلى ثغور الاسكندرية ، لمشاهدته وتسليمه فخرج إليه مرابطاً فرحاً بما حصل له منه « لمحبتته للثغور لا غير » وكان ذلك وفقاً لما ذكره البلوى في سنة ست وخمسين ومائتين (٢) ، وإن كان الكندي يؤكد أن رحيله إلى الاسكندرية تم في ٨ من رمضان سنة ٢٥٧ . وذكر البلوى أن ابن طولون عندما اقترب من الاسكندرية لتسليمها تلقاه اسحق بن دينار ، وكان قد بلغه إضافة الأعمال الخارجة عن الفسطاط إلى ابن طولون ، وتوقع أن يصرفه عن ولاية الاسكندرية ، فخرج إليه حتى لقيه بأبعد المواضع ، وعندما رآه ترجل له ، واعترف له بحق الرئاسة عليه ، فكبر في عيني ابن طولون ، واستحيا هذا أن يصرفه عن ولاية الاسكندرية ، فأقصره عليها (٣) ، كذلك تسلم ابن طولون عمل برقة من أحمد بن عيسى الصعیدی (٤) ،

(١) البلوى ، ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٨

(٤) ابن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ،

تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة كاشف ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٨٠

ثم عاد إلى القسطنطينية التي أصبحت مركزاً وقاعدة لآمارته في ١٦ شوال سنة ٢٥٧ (١) .

ومنذ أن زار أحمد بن طولون مدينة الاسكندرية لأول مرة سواء في سنة ٢٥٦ أو في رمضان سنة ٢٤٧، فإنها وقعت في قلبه موقعاً حسناً ، وأصبح يتوق إلى زيارتها . ويذكر البلوى أنه بعد عودته من الاسكندرية استقبل أخاه موسى ، فطلب منه أخوه أن يوليئه ثغر الاسكندرية لحبه الإقامة في أحد الثغور فوعده بولايتها ، ولكنه أخذ يسوف في إجابته لطلبه ، حياء من أن يعزل عنها اسحق بن دينار ، وانتظاراً لأن ينفذ إليه يارجوخ الكتب بولاية الثغور الشامية ، وقد رشح أخاه موسى لولاية ثغر طرسوس ، وأخذ موسى ابن طولون يترقب قلقاً أن ينجز أخوه وعده له ، فلما استبطأه حدث في ذلك أبا يوسف يعقوب بن اسحق كاتب ابن طولون ، فخاطب يعقوب الأمير أحمد بن طولون في ذلك فأجابه ابن طولون بقوله : « أنا والله محتشم من اسحق بن دينار ، وقد تألمت من الاسكندرية بالألطف وحسن التواضع مما يوجب زيادة في عمله ، فكيف صرفه عنا ، فرد فكره عن هذه الناحية وتلطف في هذا تلطفاً يزول به استيحاش أخى منى ، واحذر أن يعلم أنى جاريتك فيه بحرف . قال : أفعل » . فلما قابل موسى بن طولون يعقوب الكاتب سأله عما تم في قضيته ، فأفصى إليه بما استكتمه أحمد بن طولون إياه وما أسر به إليه ، ففصى موسى إلى أخيه وسبه ولعنه . وعندئذ غضب أحمد ابن طولون ، ونفى أخاه إلى ثغر طرسوس ، وعاقب يعقوب على مخالفته

(١) الكندي ، ص ١٦٢ — أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٧

لأمره بأن زج به في سجن المطبق بالفسطاط (١) .

ثم زار أحمد بن طولون الاسكندرية للمرة الثانية في ٢٢ شعبان سنة ٢٥٩ هـ ، وقضى بها أسبوعين ، واستخلف عليها ابنه العباس ، وعاد إلى الفسطاط في ٨ من شوال سنة ٢٥٩ (٢) . وعندما خالفه ابنه العباس أثناء غيابه في طرسوس ، وخرج عليه بتأثير من بعض قواد أبيه ورفقاء السوء في سنة ٢٦٥ هـ ، أظهر العباس الرغبة في الخروج إلى الاسكندرية ، فقال له محمد بن أبا ونظراؤه من قواد أبيه : « ما يصنع الأمير بالاسكندرية فقال : بلغني أن الروم تطرقها ، وأحب أن ألقاهم لعل الله جل اسمه أن يظفرني بهم . فقالوا له : بعضنا يكفيلك هذا ، والصواب ألا تفارق ما جعلك الأمير أيده الله عليه .. » فلم يصغ إليهم واستخلف أخاه ربيعة على القطائع وخرج إلى الاسكندرية ، فأقام بها أياما ، ثم تجاوزها إلى برقة (٣) . وما إن أبلغ ابن طولون بحركة العباس حتى قدم من الشام ، ثم خرج على رأس جيش كبير وجهه إلى برقة في ١٢ ربيع أول سنة ٢٦٨ هـ ، أما هو فقد أقام بالاسكندرية ولم يرحلها إلا بعد أن استنزل ولده في ١٣ رجب سنة ٢٦٨ هـ (٤) .

ولم يتوان أحمد بن طولون أثناء زيارته القصيرة لثغور الاسكندرية عن العناية بالمدينة والاهتمام بدار صناعتها حتى تزيد في انتاج السفن ، وذلك لحاجته الشديدة لأسطول قوى يحمي به سواحل بلاده بعد أن اتضحت نوايا الموفق العدوانية ضد دولته ، ويحافظ بفضلها على طرق الاتصال البحري بين

(١) البلوى ، ص ٤٧ — ابن سعيد ، ص ٧٢

(٢) الكندي ، ص ٢١٦

(٣) البلوى ، ص ٢٤٨

(٤) الكندي ، ص ٢٢٣

الشام ومصر (١) .

وشهدت الاسكندرية في عهده ازدهاراً ورخاء لم تشهدهما من قبل . ومن حظ الاسكندرية أن هذا الازدهار أعقب فترة من المصائب والحن اعتورتها على أثر الفتن والثورات التي اجتاحت الحوف الشرقى والغربى ومنطقة البحيرة كما سبق أن أوضحناه ، ويبدو أن ابن طولون قد أحس عند زيارته لهذه المدينة بضرورة إحاطتها بسور منيع يحميها من الغزوات ، فأقام سوراً (٢) يحيط بأجزائها العامرة فقط ، أى أن الأسوار الحديدية لم تطوق مسطح المدينة القديمة كلها ، فقد أخرجت من السور الحديد منطقتان كبيرتان ، فى شرق المدينة وجنوبها ، فالمنطقة الشرقية كانت تضم مقابر اليونان والرومان ، والمنطقة الجنوبية كانت تضم بعض المزارع ، وأطلال معبد السيرابيوم ، إلى جانب بعض الآثار الرومانية التى يشرف عليها عمود السوارى ، ويبدو أيضاً أن ابن طولون أدرك عدم جدوى توسيع رقعة المدينة بضم الأجزاء المهجورة داخل نطاق السور الحديد ، خاصة وأن توسيع رقعة المدينة يستلزم بالضرورة توسيع محيط السور ، وزيادة النفقات التى لا مبرر لها . ولذلك نجد أن سور الاسكندرية الأول فى العصر الاسلامى ، وهو السور الذى أسس فى عصر أحمد بن طولون ، باعتباره أن السور الثانى الاسلامى أسس بعد ذلك فى عصر السلطان صلاح الدين أو عصر السلطان الظاهر بيبرس ، كان يضم ما يزيد قليلاً على ثلث مساحة المدينة القديمة ، بعد أن أخرجت منه المناطق الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية . وقد شاهد

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، ص ٢٧

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٤٣ — جمال الشيال ،

الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة ، ص ٢٠٩

ابن رسته هذا السور الطولونى فأشار إليه إشارة عابرة عند حديثه عن الطريق المائى الواصل بين الفسطاط والاسكندرية والذي ينتهى فى الشمال الغربى بسور الاسكندرية (١) .

وفتحت فى السور الحديد أبواب أربعة فى نفس اتجاهات الأبواب القديمة أو قبالتها ، فسمى الباب الشرقى بباب الشرق ، أو باب رشيد (٢) أو باب القاهرة ، وسمى الباب الغربى بباب القرافة نسبة إلى مقبرة وعلا التى تقع خارج هذا الباب ، تفاؤلاً بوجود هذه الجبـسـانة التى يقال أنه دفن بها المقداد بن الأسود (٣) ، أو الباب الغربى بحكم وقوعه بغرب الاسكندرية .

أما الباب القبلى فسمى بباب الشجرة (٤) ، أو باب السدرة (٥) ، نسبة إلى شجرة ضخمة من أشجار السدر كانت مغروسة إلى جواره ، وعرف هذا الباب أيضاً باسم باب العمود بسبب إشرافه على عمود السوارى الذى أصبح يقع خارج سور المدينة . أما الباب الشمالى ، فقد ظل يعرف باسم باب البحر (٦) لإشرافه على الميناء الشرقية ، كما عرف أيضاً بباب أشتوم (٧) .

(١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ١١٨

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١٢٩ ب

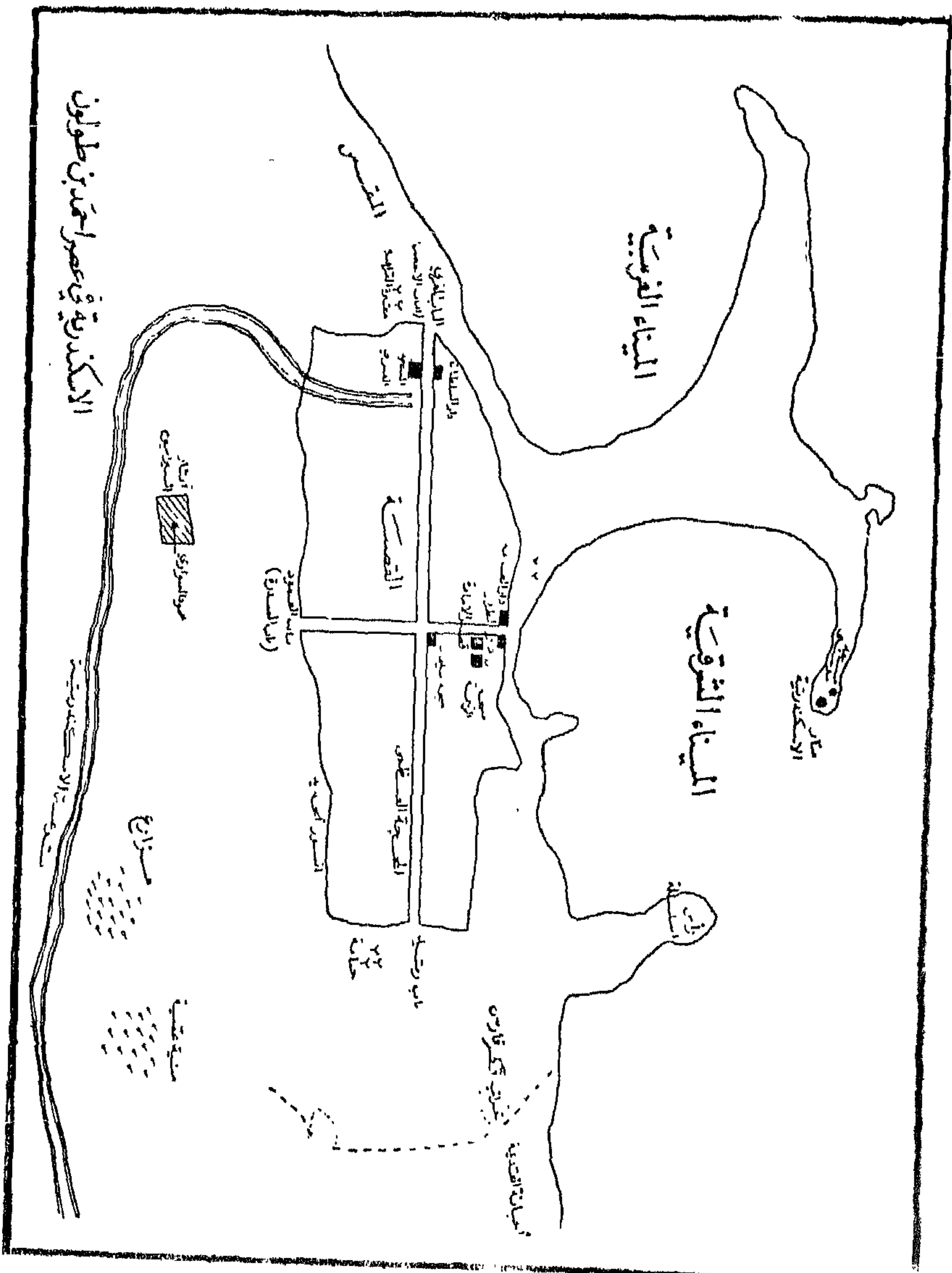
(٣) الهروى ، ص ٤٧

(٤) ياقوت ، ص ١٨٧

(٥) النويرى ، ص ١٤٦ ب

(٦) النويرى ، ص ١٤١ ب — القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٤

(٧) الاستبصار ، ص ٩٧



خريطة توضيح أسرار الأسكندرية وبعض معالمها في عصر أحمد بن طولون

وظل الطريق الفسيح الممتد بين باب الشرق وباب القرافة يخترق المدينة من وسطها ، وكان يعرف بالمحجة العظمى . ولا شك أن تخطيط المدينة ظل محتفظاً بطابعه القديم ، إذ ظلت المساجد التي أسست بعد الفتح العربى قائمة فى مواضعها . أما عن أحياء المدينة فلا نعرف منها سوى حين : الأول هو القصبة (١) ويقع فى قلب المدينة ، والثانى هو حى العادلية (٢) ولا ندرى أين كان موقعه على وجه الدقة .

أما الآثار الرائعة التى كانت تزدان بها مدينة الاسكندرية ، فقد أصبحت تقع خارج المدينة ، مثل عمود السوارى ، الذى كان يتوسط عدة أعمدة تحمل فوقها قبة ، وقد ذكره المقرئزى بقوله : « وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الأرض ، على ربوة عظيمة ، بازاء باب البلد (يقصد باب العمود) طوله خمسمائة ذراع ، وعرضه على النصف من ذلك ، وبابه من أعظم بناء وأتقنه وكان فيه نحو مائة أسطوانة ، وبازائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثل غاظها ... وكان فى وسطه قبة ، من حولها أساطين ، وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض » (٣) . وفى موضع آخر يقول : « ويقال أن عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية ... » (٤) كذلك خرج عن نطاق المدينة الملعب القديم الذى كان يقع جنوبى الشارع الكانوبى إلى اشراف من منطقة البانيوم ، وأصبح جانب منه يجاور باب رشيد فى المدينة الإسلامية .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦١ - السيوطى ، ج ١ ص ٣٧

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤٠٦

(٣) المقرئزى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٨١

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨١

ولم تقف أعمال ابن طولون الاصلاحية على بناء السور ، فقد قام كذلك بترميم منار الاسكندرية إذ كان طابقه العاوى قد تهدم بفعل زلزال سنة ١٨٠ هـ (١) (٧٩٦ - ٧٩٧ م) ، فرممه أحمد بن طولون ، وجعل في أعلى المنار قبسة من الخشب ، المصعد إليها من داخلها ، « وهى مبسوطة مؤربة بغير درج » (٢). ولكن هذه القبسة لم تلبث أن سقطت بفعل الرياح ، وتهدم أحد أركان المنار وهو الجانب الغربى مما يلى البحر نتيجة زلزال عنيف حدث في سنة ٢٧١ هـ (٣) ، فتولى ترميمها أبو الحيش خماروية بن أحمد بن طولون (٤). وسرى أنه لم يمض على هذا التعمير ثلاثة أرباع قرن حتى تهدم في شهر رمضان سنة ٣٤٤ نحو من ثلاثين ذراعاً من أعاليها بسبب الزلزلة المهولة التى وقعت في بلاد الشام ومصر والمغرب في آن واحد في النصف من يوم السبت ١٨ من رمضان (٥) . فيتولى الصالح طلائع بن رزيك أو غيره من الوزراء دعم الجزء المهدم وتجديده بالبناء ، الذى كان يبدو للناظر إليه واضحاً كالشامة إذا ما قورن بمظهر بناء المنار كله (٦). ومع ذلك

(١) الذهبى ، العبر في خبر سن غبر ، ج ١ ص ٢٧٥ - السيوطى ، ج ٢

ص ١٦٥

(٢) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥

ص ٤٨ - المقرئى ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٦

(٣) أحمد بن عبد الله القلقشندى ، سائر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت

١٩٦٤ ، ص ٢٥٦ .

(٤) المقرئى ، مجلد ١ ص ٢٧٦

(٥) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٤٨ - المقرئى ، ج ١ ص ٢٧٦

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الاسكندرية ، ص ١٨٧

فقد كان هذا الترميم موقوتاً إذ لم يلبث أن تداعى في أيام الظاهر بيبرس ، وسقط بعض أركان المنار ، فأمر ببناء ما انهدم منه في سنة ٦٧٣ ، وبني مكان قبة ابن طولون مسجداً (١) . ثم تهدم هذا البناء في ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ على أثر زلزال عنيف ، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ترميمه في شهر سنة ٧٠٣ هـ (٢) .

كذلك عمل أحمد بن طولون على تعمير الاسكندرية ، فأمر في ربيع الأول من سنة ٢٥٩ هـ بحفر خليج الاسكندرية (٣) ، ومن المعروف أن خليج الاسكندرية كان مطموراً قبل سنة ٢٤٥ ، فأمر قاضى مصر الحارث بن مسكين بحفره (٤) ، ويبدو أن هذا الخليج انطم بعد ذلك فأعاد حفره ابن طولون وساعد ذلك على إعادة غرس المناطق التى خربت خارج الاسكندرية الاسلامية والتي كانت تولى فيما مضى الجزء الشرقى والجنوبى من مدينة الاسكندرية السابقة على الفتح العربى ، وتحويلها إلى بساتين وروضات .

* * *

ورث أبناء أحمد بن طولون حبه لها ، فقد أقام ابنه ربيعة بها فترة طويلة (٥)

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧ . ولكن السيوطى يذكر أن هذا المسجد من بناء الملك الكاسل (السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٤) ، بناء بعد أن هدمت الرياح القبة الطولونية . وقد أشار ابن جبير إلى هذا المسجد ، ولذلك نرجح أن هذا المسجد كان قائماً قبل العصر الأيوبي ، ولعله كان من بناء الصالح طلائع ابن رزك ، وتكون أعماله من الملك الكاسل والظاهر بيبرس أعمال تجديدية .

(٢) المقرئى ، نفس المصدر ، ص ٢٧٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٠٠

(٤) الكندى ص ٤٦٩ — ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٣٦١ — المقرئى ،

ج ١ ص ١٢٦ ، ٣٠٠

(٥) الكندى ، ص ٥٤٢ — المقرئى ، ج ٢ ص ٧٦

كما اعتنى بها خمارويه، واهتم بأسطولها اهتماماً خاصاً، وكان يخرج لزيارتها وتفقد قطع الأسطول فيها. ويذكر المؤرخون أنه خرج إلى الاسكندرية في ٤ من شوال سنة ٢٧٦ هـ (١)، فأقام بها فترة. الوقت قبل أن يرحل إلى بلاد الشام في ١٧ من ذى القعدة سنة ٢٧٧ هـ. وفي ٢٦ شعبان سنة ٢٨١ هـ، أى قبل أن يغادر مصر إلى الشام للمرة الأخيرة من حياته، خرج خمارويه في رحلة سياحية لمحجـرد البرهة والمشاهدة إلى مريوط وهي قرية من قرى الاسكندرية تمتاز بكثرة بساتينها وثمارها، ومنها كانت تجلب الفواكه إلى الاسكندرية، كما كانت تمتاز بصحة المناخ حتى قيل: لم تطل أعمـار الناس في بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادي فرغانة (٢). وذكر المقرئى أن بلاد مريوط التي كان يسقيها ماء النيل كانت في نهاية العمارة والحنان المتصلة بأرض برقة (٣).

(١) الكندي، ص ٢٣٩ - المقرئى، ج ٢ ص ٧٦

(٢) الاستبصار، ص ١٠١ - ياقوت، مجلد ٥ مادة مريوط، ص ١١٩

(٣) المقرئى، ج ١ ص ٣٠٠

(٢)

في ظل العباسيين (بعد سقوط الدولة الطولونية)

آلت ولاية مصر بعد سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ إلى أبي موسى عيسى بن محمد النوشري ، الذي قدم إلى مصر في هذه السنة من قبل الخليفة المكتفي العباسي ، وقلد ولاية الاسكندرية إلى رجل يعرف باسم علي بن وهسودان (١) ، أو علي بن حسان (٢) . وفي هذا الوقت الذي عادت فيه مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية قام أحد أتباع الطولونيين ويدعى محمد بن الخليج بالدعوة لأبراهيم بن خماروية على منابر الرملة ، وتمكن ابن الخليج من الانتصار على قوات عيسى بن النوشري عند غزة ، وتقدم بعدها في مصر بقصد إحياء الدولة الطولونية البائدة . وتوالت انتصاراته على العباسيين في العريش والفرما والفسطاط ، ومن هناك سير في اثر عيسى النوشري عسكرياً بقيادة رجل من أتباعه يقال له خفيف النوبي ، وزوده بقوة بحرية للاستيلاء على الاسكندرية . ولما بلغ عيسى النوشري سير خفيف إليه ، رحل من البحيرة إلى الاسكندرية حتى وافاها ، وقوات خفيف البرية تطارده (٣) .

وكان محمد بن الخليج قد سير ست مراكب مزودة بالسلاح والرجال بقيادة محمد بن لجبور لدخول الاسكندرية ، وفي نفس الوقت سير مدداً في البر إلى خفيف النوبي ، ونجحت قوات محمد بن لجبور في دخول الاسكندرية

(١) الكندي ، ص ٢٥٨

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٤٥

(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٠

بعد مناوشة قصيرة الأمد ، حيث ظفر بما خلفه عيسى النوشري بالاسكندرية من معدات وآلات ، وورعها على عسكريه . ثم أقام بعسكره مواقفاً عيسى النوشري ، خارج الاسكندرية ، عدة أيام انصرف بعدها إلى الفسطاط . أما عيسى النوشري ، فقد تراجع إلى ناحية تروجة ، وهناك أدركه خفيف النوبي ، واشتبك معه في قتال عنيف أسفر عن هزيمة نكراء منى بها خفيف ، وقتل من أتباعه عدد كبير ، بينما فرّ فله إلى الفسطاط .

ولم تقف الخلافة العباسية مكتوفة الأيدي أمام هذه الأحداث ، فقد أسرع الخليفة العباسي بإرسال جيش من العراق بقيادة فاثك وبدر الحماني وغيرهما من كبار القادة ، وتعاون هذا الجيش مع جيش النوشري للقضاء على حركة ابن الخليلج ، وحدثت بين الفريقين وقائع انتهت آخر الأمر بهزيمة ابن الخليلج والقبض عليه في رجب سنة ٢٩٣هـ ، أي بعد مضي نحو سبعة أشهر وعشرين يوماً من بداية حركته (١)

ولم يكد يمضي على دخول مصر في فلك الخلافة العباسية سبع سنوات حتى تعرضت في ولاية أبي منصور تكين الأولى لغزوة قام بها الفاطميون ، وكان يتولى ثغر الاسكندرية وأعمال برقة وقتئذ القاسم بن سيما منذ منتصف رمضان سنة ٣٠١هـ (٢) . ففي أول المحرم سنة ٣٠٢هـ (٣) ، دخلت عساكر عبيد الله المهدي بقيادة حباسة بن يوسف الاسكندرية في مائة ألف أو أكثر

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٢

(٢) عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبري ، طبعة ليدن ، ١٨٩٧ ، ص ٤٤

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٣ ود ر الكندي أن جيش الفاطميين دخل

الاسكندرية في اليوم الثامن من المحرم (الكندي ، ص ٢٦٩)

كما قدم إليها أسطول فاطسي عدته مائتا مركب (١) . فتصدت لها عساكر العراق ومصر في مشطول . واشتبك الفريقان في معركة ضارية قتل فيها آلاف من الجند من الطائفتين . حتى تغلب عسكر العباسيين على جيش حباسة وهزمه وأجلاه عن الاسكندرية وبرقة . وعاد حباسة بمن بقي معه من عساكره إلى إفريقية ، وكان هذا أول جيش فاطمي يهاجم الاسكندرية من قبل عبید الله المهدي (٢) . ويبدو أن والي مصر الحديد أبا الحسن ذكا الرومي الأعور أدرك أهمية الاسكندرية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها بحكم كونها حلقة الاتصال بين مصر والمغرب واتصال أهلها بالمهدي الفاطمي ، فقد كان أهل الاسكندرية يميلون إلى الفاطميين ويعطفون على دعوتهم ، ودليل ذلك أنهم ناصروا العلويين عندما اضطهدهم المتوكل ومن تبعه من الخلفاء (٣) ، وأن دعاة الاسماعيلية في مصر أعدوا الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لتقبل المذهب الاسماعيلي .

وكان من الطبيعي أن يخرج ذكا إلى الاسكندرية لتفقد أسوارها ودراسة أحوالها ، فخرج إليها في أول المحرم سنة ٣٠٤ هـ ، وأقام بها إلى أن عاد إلى القسطنطينية في ٨ من ربيع الأول ، بعد أن أقام على ولايتها ولده المظفر ابن ذكا بدلا من القاسم بن سيما . وعندما عاد إلى القسطنطينية تلتبع من كان على اتصال بعبد الله المهدي في إفريقية ، فسجن كثيرا منهم ، وعذب آخرين ، فعظمت هيئته في النفوس . وفي هذه الفترة جلا أهل لوبية ومراقية إلى

(١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ص ٢٨٦

(٢) أبو المحاسن ، ج ٣ ص ١٧٣

(٣) محمد عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية بين الفتح العربي ، كتاب غرفة

الاسكندرية النجارية ، ١٩٤٩ ص ٩١

الاسكندرية خوفاً من صاحب برقة ، فوصلت جموعهم إلى الاسكندرية في شوال سنة ٣٠٤ هـ (١) ، فخاف ذكا من وفود هؤلاء البرقيين ، واحتاط للأمر ، فسير إلى الاسكندرية فرقاً من عسكره ، فقة بعد فرقة (٢) .

وفي غضون سنة ٣٠٦ هـ ، أى قبل محاولة المهدي الفاطمي الثانية غزو مصر ، حدث خلاف بين المظفر بن ذكا وبين بربر البحيرة ، فاضطر إلى الخروج من الاسكندرية إلى تروجة ، ثم عاد إلى الاسكندرية بعد ذلك . ولا يستبعد الأستاذ الدكتور سعد زغلول أن يكون هؤلاء البربر قد حنوا إلى إخوانهم بربر المغرب أتباع الفاطميين الذين كانوا قد التقوا بهم في سنة ٣٠٢ هـ أو أنهم كانوا على علاقة بالمهدي (٣)

ثم عاود الفاطميون الكرة مرة أخرى في سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) ، وسارت مقدمة جيش المهدي إلى لوبية ومراقبة بقيادة أبي القاسم محمد بن المهدي وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن اسحق ، وأبو غانم الكاتب ، وعبد الله بن الحسن بن أبي خنزير ، وسليمان بن كافي ، وعندما وصلت الأنباء بذلك إلى الاسكندرية فزع أهل الاسكندرية وارتاعوا ، وبادروا بالخلاء

(١) الكندي ، ص ٢٧٤ — المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١١٤ . ويرجع سبب وفود هؤلاء البرقيين إلى الاسكندرية إلى أنهم قاسوا بالشورة على الحاشية الكتامية التي تركها أبو القاسم محمد بن المهدي عقب غزوته لمصر سنة ٣٠٢ هـ ، فسير إليهم المهدي الجيوش بقيادة أبي سدين بن فروخ اللهيصى ، الذى لم يتمكن من دخولها إلا بعد حصار دام ١٨ شهراً ، فقتل بها معظم سكانها الذين لم يسعدهم الحظ بالفرار إلى الاسكندرية (البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٤١)

(٢) المقرئى ، ج ٣ ص ١١٤

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية من الفتح العربى ، ص ٢٨٥

عن مدينتهم في البر والبحر إلى الشام ، فهلك أكثرهم ، وخرج مظفر بن ذكا
منها في خمسة آلاف ، في حين دخلت مقدمة الجيش الفاطمي بقيادة أبي القاسم
الاسكندرية وهي خالية تقريباً من السكان في يوم الجمعة ٨ من صفر سنة ٣٠٧ (١)
وعندئذ زحف ذكا إلى الحيزة ، وعسكر بها في منتصف شهر صفر في طائفة
يسيرة من الجند بعد أن خالفه معظم جيشه ، وأبوا الخروج معه إلى الحيزة ،
واشترطوا عليه أن يدفع لهم عطاياهم (٢) . ولم تمض أيام حتى وصل الحسين
ابن أحمد الماذرائي واليا على خراجها ، فخرج إلى الحيزة ، ووضع العطاء
بها ، وفي نفس الوقت أخذ ذكا يتأهب للقتال ، ويعد نفسه للمعركة المقبلة ،
فأمر ببناء حصن على الجسر الغربي بالحيزة ، ولم يلبث أن توفي بها في ٩١
ربيع الأول سنة ٣٠٧ هـ ، وأحدث وفاته ارتباكاً في صفوف أهل الفسطاط ،
فلحق كثير منهم بالقلازم والحجاز (٣) . وخاف ذكا على ولاية مصر أبو
منصور تكين للمرة الثانية ، فنزل الحيزة ، وأقام بها خندقاً ثانياً ، واستعد
لتلقى جيش الفاطميين .

وحدث في هذه السنة أن تفشى وباء في عسكر المغاربة بالاسكندرية
وكثر المرض بينهم ، فتوفي داود بن حبابسة وعدد من وجوه القواد ، واشتدت
علة أبي القاسم محمد بن المهدي (٤) . وفي أثناء ذلك أقبأت ثمانون سفينة من

(١) الكندي ، ص ٢٧٥ . ويذكر المقرئ أن دخلها في ربيع الآخر سنة

٣٠٧ هـ (المقرئ ، اتعاظ الخلفاء ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧١)

(٢) الكندي ، ص ٢٧٥

(٣) أبو المحاسن ، ج ٣ ص ١٩٦

(٤) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٢ ص ١٣٣ — أبو المحاسن ، ج ٣

سفن الأسطول الفاطمي بقيادة سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ، وأرست في مياه الاسكندرية (١) ، فأرسل الخليفة المقتدر بالله الأسطول العباسي المرابط في طرسوس ، فقدمت منه ٢٥ سفينة مزودة بالنفط والعدد بقيادة ثمل الخادم ، وأرست برشيد (٢) ، وسرعان ما اشتبك الأسطولان الفاطمي والعباسي في مياه رشيد في قتال عنيف ، في ٢٠ من شوال ٣٠٧ هـ ، ظفرت فيه مراكب المقتدر ، وأحرقت كثيراً من سفن المغاربة ، وذكر الكندي أن الله بعث الريح « على مراكب سليمان فألقته إلى البر ، فتكسرت ، وأخذ من فيها أخذاً باليد ، وأسرههم ثمل وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأستأمن إليه من بقي ، ودخل بهم الفسطاط ، فأنزلهم المقس يوم الإثنين لأربع بقين من شوال سنة ٣٠٧ هـ ، ومعه سليمان الخادم وكل رئيس كان في تلك المراكب ، فأمر تكين بتمييز الأسارى ، فأطلق أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية ، وميز كتامة وزويلة ناحية ، ثم أذن للناس في قتلهم ، فقتلهم الجند والرعية ، وكانت عدة القتلى سبعمائة أو نحو ذلك ، ودخل ثمل الفسطاط ومعه سليمان فطيف به مقيداً وبرؤساء المراكب وهم مائة وسبعة عشر ، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شوال « (٣) . أما سليمان فقد توفي في سجنه بمصر ، في حين حمل يعقوب إلى بغداد ، فهرب منها وعاد إلى إفريقية ، فقاد أساطيلها (٤)

(١) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٨٧ — المقرئ ، اتعاظ

الحنفا ، ص ٧١

(٢) الكندي ، ص ٢٧٦

(٣) الكندي ، ص ٢٧٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٦ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٥ - ابن الأثير ،

وفي ٥ من المحرم سنة ٣٠٨ هـ وصل إلى مصر جيش عباسي عدته ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة مؤنس الخادم ، فنزلوا الجزيرة ، واستعدوا لتلقى المغاربة . وفي هذه الأثناء تحرك الجيش الفاطمي من الاسكندرية بعد أن ترك أبو القاسم على ولايتها ابن بعللة (١) ، وتقدمت القوات الفاطمية في الطريق الزراعي المؤدى إلى الفسطاط ، ونزلت الفيوم ، واستولى البربر على جزيرة الأشمونين كلها بالإضافة إلى الفيوم ، واشتبك الجيش العباسي والمصري مع البربر المغاربة في عدة وقائع انتهت بهزيمة البربر ، وفرارهم إلى برقة ، وكان ثمل الخادم قد استغل فرصة خروج الجيش الفاطمي من الاسكندرية ودخلها في المحرم سنة ٣٠٩ بمراكبه ، وظفر بالحامية المغربية ، بينما فر ابن بعللة . وغنم ثمل الخادم كل ما تركه المغاربة من سلاح ومتاع ، وأطلق سراح جميع من كان في سجنهم (٢) ، ثم نفى أهل الاسكندرية المماليك للفاطميين إلى رشيد (٣) .

وتخلف بمصر بعد رحيل المغاربة عدد منهم آثروا المقام بها ، وألفوا فرقة من بين فرق الجيش ، وقد لعب هؤلاء المغاربة دوراً هاماً في سياسة مصر الداخلية ، ومهدوا الطريق أمام الفاطميين في افريقية لفتح مصر (٤) . فعندما توفي أبو منصور تكين في ١٦ ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ ، حدث نزاع بين ابنه محمد بن تكين وبين أبي بكر محمد بن علي الماذرائي صاحب الخراج بسبب مطالبة الأول بولاية مصر بعد أبيه ، فتصدى له الماذرائي ، وأمره

(١) الكندي ، ص ٢٧٧

(٢) عريب بن سعد ، ص ٨٥

(٣) الكندي ، ص ٢٧٧

(٤) سعد زغلول عهد السيد ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧

بالخروج عن مصر. إلا أن محمد بن تكين لم يلبث، بعد أن سار إلى الشام، أن قفل عائداً إلى مصر مدعياً أن معه تقليد بولايتها من قبل الخليفة القاهر . فاستجاش الماذرائى بالمغاربة الموجودين فى مصر برئاسة أبى مالك حبشى بن أحمد السلمى (١) لمنع ابن تكين من دخول مصر .

ثم تتابع الولاة على مصر من قبل القاهر ، فقد وليها محمد بن طنجج وهو مقيم بدمشق مدة ٣٢ يوماً ، ثم خلفه على ولايتها أحمد بن كيغلق للمرة الثانية فى ٧ شوال سنة ٣٢١ . وفى أيامه شغب الجند فى طلب أرزاقهم على محمد بن على الماذرائى صاحب الخراج فأحرقوا داره ودور ذويه . وحدث أن انقسم الجند فى مصر إلى فرقتين : فرقة من المشاركة بقيادة حبكويه وفرقة من المغاربة بقيادة حبشى بن أحمد . ونشبت الحرب بين الفرقتين فى ٥ ذى الحجة سنة ٣٢١ هـ ، واستمرت المعارك دائرة بينهما إلى أن قدم محمد بن تكين من فلسطين فى ١٣ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، فنزل الجزيرة مع جنده وأظهر كتاباً بولايته ، فأنكر الماذرائى ذلك ، كما أنكره جماعة المغاربة الذين تمسكوا بولاية أحمد بن كيغلق ، واشتبك المغاربة مع عسكر محمد بن تكين بالقرب من الفسطاط ، فانهزم المغاربة . ولكن هذه الهزيمة لم تصرفهم عن مناهضة ابن تكين وتأييد ابن كيغلق ، فعقد ابن تكين لحبكويه وأحمد بن بدر السميساطى على ألف من الجند لمحاربة المغاربة ، واشتبك الطرفان فى شريقيون فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ هـ ، فانهزم حبكويه وأصحابه ، وطاردهم المغاربة ، وأشفوا غليلهم بقتلهم ، ثم عبر المغاربة النيل ، وتخلّى عسكر ابن تكين عنه ، وانضموا إلى ابن كيغلق الذى

(١) الكندى ، ص ٢٨١

تمكن من دخول الفسطاط في ٦ رجب سنة ٣٢٢ هـ (١) .

وعندما تولى محمد بن طنج من قبل الخليفة الراضى ولاية مصر للمرة الثانية وردت الأنباء بقدمه في جيش إلى مصر ، وإقبال عدد من مراكبه بقيادة صاعد بن كاسم إلى تنيس ودمياط ، عزم ابن كيغلغ على التسليم ، ولكن الماذرائى اعترض على ذلك ، وبعث بالمغاربة لمنع جيش ابن طنج من الوصول إلى الفسطاط ، وعلى بن بدر فى المراكب لمواجهة سفن ابن طنج فى النيل وعندما اشتبكت السفن ، دارت الدائرة على على بن بدر فى ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ (٢) . وأقبل صاعد فى مراكبه إلى الفسطاط بينما تقدم ابن طنج فى البر لمقاتلة ابن كيغلغ (٣) . غير أن هذا الأخير آثر أن يستسلم إلى ابن طنج حقنا للدماء المسلمين ، فى حين لم يرض المغاربة عن الدخول فى طاعته ، وكرهوا المقام معه ، ففضوا إلى الشرقية ، وانضم إليهم المعارضون لابن طنج أمثال بحكم وعلى بن بدر ونظيف الموسوى وعلى المغربى (٤) .

وتحرك حبشى وفرقة المغربية لمحاربة ابن طنج ، وزحفوا إلى الفيوم فسار صاعد فى مراكبه إلى خليج الفيوم ، وأراد أن تدور ، فلم تدر لضيق الخليج ، فوقع فى قبضة حبشى ، الذى قتله وقتل عدداً كبيراً من أتباع ابن طنج ، وظفر بمراكبه (٥) . ومن الفيوم اتجه حبشى إلى الاسكندرية فى حشود جيشه ، بينما سار على بن بدر وبحكم فى مراكب صاعد ، مارين

(١) الكندى ، ص ٢٨٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٦

(٣) ابن سعيد الأندلسى ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٤) الكندى ، ص ٢٨٦

(٥) ابن سعيد ، ص ١٦٠

بالفسطاط ، فأرسوا بجزيرة الصناعة ، وأحرقوا ما كان بها من السفن ، وحاول ابن طنج أن يتصدى لهم ، ولكنهم انحدروا إلى الاسكندرية حيث اجتمعوا بجيش حبشى . ومن الاسكندرية واصلوا السير غرباً إلى برقة ، وكتبوا إلى القائم بأمر الله الفاطمى صاحب إفريقية يستأذنه فى الدخول فى طاعته ، ويحرضونه على الاستيلاء على مصر ، مدللين له المهمة (١) .

ولم يتح لحبشى أن يشهد وصول الجيش المغربى من إفريقية ويرى ثمرة جهوده ، إذ توفى فى قرية رمادة ببرقة فى صفر سنة ٣٢٤ هـ قبل أن تصل جيوش الفاطميين . وبلغ ذلك ابن طنج ، فتأهب لاستقبال هذه الحملة ، وأمر باخراج عساكر مصر إلى الاسكندرية والصعيد وهما طرفا مصر من الغرب ، وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٣٢٤ هـ . وأقبلت عساكر الفاطميين بقيادة يعيش الكتامى وأبى تازرت الكتامى وانضمت إليها فرقة المغاربة المعسكرة فى برقة بقيادة بحكم ، ودخلوا مدينة الاسكندرية فى ربيع الآخر . وكان من الطبيعى أن يبادر ابن طنج برد هذا الغزو فى سرعة مناسبة قبل أن تزحف قوات الغزاة نحو الفسطاط ، فأرسل أخاه الحسن ، والقائد صالح بن نافع على رأس جيوشه إلى الاسكندرية فى ٢٢ ربيع الآخر ، واشتبك عسكر ابن طنج مع عسكر المغاربة فيما بين تروجة وأبلوق (موضع جنوبى مربوط) فى معركة حامية دارت فى ٥ جمادى الأولى ، وأسفرت عن هزيمة ساحقة منى بها جيش المغاربة ، وقتل فيها وأسر عدد كبير من وجوههم ، وكان القائد يعيش الكتامى نفسه من بين القتلى ، وتمكن الحسن بن طنج وصالح بن نافع من دخول الاسكندرية ، فتبعوا المغاربة فيها بالقتل ، وفر بحكم وعلى المغربى

(١) الكندى ، ص ٢٨٧ - ابن سعيد ، ص ١٦١ - ابو المحاسن ، ج ٣

وأتباعهما إلى برقة (١). حيث أقاما بها في حماية الخليفة الفاطمي فترة من الوقت إلى أن استأمننا إلى محمد بن طغج في سنة ٣٢٨ هـ فأمنهما وعادا إلى مصر (٢).

وهكذا نجح محمد بن طغج الإخشيد في سحق حركة المغاربة نهائياً ، ووضعت هزيمتهم في يوم أبلوق حسداً للاضطراب الذي كان يسود الاسكندرية وغيرها من المدن ، وهو اضطراب أفسح المجال لتطلعات الخلفاء الفاطميين نحو مصر . وفي ظل الأسرة الإخشيدية نعمت الاسكندرية بهدوء نسبي استمر حتى اليوم الذي دخلت فيه قوات جوهر الصقلي الاسكندرية .

(١) الكندي ، ص ٢٨٨

(٢) نفسه ، ص ٢٨٩

الفصل السابع

الاسكندرية في العصر الفاطمي

١ - دور الاسكندرية في الأحداث السياسية في هذا العصر

(أ) حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٩ - ٤٦٥ هـ)

(ب) حركة الأوحى بن بدر الحمالي في سنة ٤٧٧ هـ

(ج) نوبة الاسكندرية في سنة ٤٨٨ هـ .

(د) اشتراك الاسكندرية في الصراع بين الوزراء .

٢ - أهمية الاسكندرية كقاعدة بحرية للفاطمين .

٣ - منشآت الفاطمين في الاسكندرية

(أ) المنشآت الحربية

(ب) المنشآت المدنية

(ج) المنشآت الدينية .

١ - جامع العطارين

٢ - مسجد الطرطوشي

٣ - مسجد المؤمن

٤ - ضريح الطرطوشي

الفصل السابع

الاسكندرية في العصر الفاطمي

(١)

دور الاسكندرية في الاحداث السياسية في هذا العصر

على الرغم من الفشل المتواصل الذي منى به الفاطميون في محاولاتهم فتح مصر ، فقد ظلت فكرة فتح مصر أملاً يراودهم ، وظلوا يتطلعون إلى تحقيقها ، خاصة بعد أن أيقنوا باستحالة فتح الأندلس لعدة أسباب : منها أن الدعاية الفاطمية التي مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم في الأندلس لم تجتذب إلا عدداً محدوداً من الأنصار والمشايعين من أهل الأندلس ، ونخص بالذكر منهم ابن أبي المنظور الذي ولى القضاء لاسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١ هـ) ، والشاعر الإليري محمد بن هانيء الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ) الذي طرد من الأندلس حين تكتفت ميوله الفاطمية ، فالتحق بخدمة المعز الفاطمي بالقيروان (١) ، والقائد علي بن حمدون الخدائي المعروف بابن الأندلسي الذي قدم إلى المغرب واتصل بعبيد الله المهدي وولده ، فجهد إليه المهدي ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣ هـ (٢). ومنها أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، الذي فطن إلى خطط

(١) محمود علي سكي ، التشيع في الأندلس ، مقال بصحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرية ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤ ، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٦٨

الفاطميين ، لم يعمل على محاربتهم بنفس سلاحهم فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاء ، وبأعمال إيجابية حاسمة ، فقد بث العيون في أنحاء المغرب ، واهتم بالأساطيل ، فأنشأ عدداً من دور الصناعة في ثغور الأندلس ، ونجح في إعداد أسطول ضخم نازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط ، وتلقب بألقاب الخلافة في ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦ هـ ليدعم مركزه في داخل الأندلس وخارجه ، ووطد علاقاته بأعداء الفاطميين .

كل ذلك كان له أعظم الأثر في أن يصرف الفاطميون نظرهم عن الأندلس ويتطلعوا من جديد نحو مصر ، وكان فتح مصر ، بعد الفشل المتلاحق في الحملات السابقة ، يستلزم في هذه المرة دراسة عميقة عن طريق العيون والدعاة للأوضاع السياسية والاقتصادية في مصر ، ومعرفة نقاط الضعف فيها تمهيداً لاستغلالها ، والتسلل عن طريقها ، كما كان يتطلب استعدادات عسكرية واسعة النطاق تسبقها مرحلة طويلة للدعاية الانشاعيلية ، يقوم الدعاة خلالها بإعداد الشعب المصرى لتقبل هذا الفتح . وقد تم إعداد الحملة الفاطمية أخيراً ، على النحو الذى أوضحناه ، في عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى أحسن اختيار الزمن الملائم لتوجيه الحملة (١) ، ووفق في اختيار أبى الحسين جوهر

(١) كانت أحوال مصر الاقتصادية منذ وفاة محمد بن طنج الاخشيدي في سنة ٣٣٤ هـ في غاية السوء ، ولم ينجح كافور في تحسينها ، « ففى سنة ٣٥٢ هـ قصر النيل في فيضانه وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات قاسى المصريون خلالها الشدائد » (جبال الدين الشيال ، مصر في العصر الفاطمى ، بحث في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٢٩) ،

ويعبر المقرئ عن ذلك بقوله : « وفى سنة ٣٥١ هـ ترفع السعر واضطربت الاسكندرية والبحيرة بسبب المغاربة الواردين إليها ، وتزايد الغلاء ، وعز وجود =

الصقلي ، أعظم قواده ، قائداً لها ، وأعد منذ سنة ٣٥٥ قصوراً على طول الطريق إلى مصر لنزول الجند ، وحفر لهم الآبار (١) ، ورسم تخطيطاً علمياً منظماً للمعركة المقبلة .

ولما اقتربت عساكر الفاطميين من الاسكندرية ، ودخلتها ، وأرست في مياهها مراكب أسطوله (٢) ، جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات الناس وشاورهم ، فاتفقوا في أول الأمر على مراسلة جوهر ، وأن يشترطوا عليه شروطاً ، ثم عدلوا عن ذلك ، وأجمعوا على محاربته ، ثم تراجعوا عن هذا القرار ، وآثروا المراسلة بالصالح ، واتفقوا على إرسال وفد للمفاوضة مع جوهر في مسألة الصالح ، من بين أعضائه أبو جعفر مسلم الحسيني ، وأبو اسماعيل الرسي الحسني ، وأبو الطيب العباس ابن أحمد الهاشمي ، وأبو جعفر أحمد بن نصر ، والقاضي أبو طاهر محمد ابن أحمد ، وقابل الوفد جوهرًا بتروجه ، فكتب لهم كتاباً يتضمن شروط الصالح والأمان (٣) . غير أن الإخشيدية والكافورية لم يلبثوا أن نقضوا الصالح وبايعوا نحرير شوزان بالامارة ، وعند أول اشتباك وقع بين الإخشيدية والمغاربة بالقرب من البحيرة انهزم الإخشيدية ، وقتل من قوادهم نحرير

=القمح ، وقدم القريظي إلى الشام سنة ٣٥٣ هـ ، وقل ماء النيل ونهبت ضياع مصر..» ويقول أيضاً : « وما زالت الاسكندرية وأعمالها في اضطراب إلى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر في سنة ٣٥٨ هـ فملكها » (المقيزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٥) .

(١) المقيزي ، اتعاظ الخنفا ، ص ٩٦

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٤١

(٣) المقيزي ، اتعاظ الخنفا ، ص ١٠٣

الأرغلى ومبشر الإخشيدى ويمن الطويل (١) . وبادر أهل مصر الفسطاط إلى دار الشريف مسلم يسألونه الكتابة إلى جوهر فى إعادة أمانهم ، فكتب إليه وأجابه جوهر إلى ما التمسوه ، ثم عبر جوهر النيل من الحيزة ، ونزل بموضع القاهرة فى ١٧ شعبان ، واختطها .

وفى ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ (٢٩ مايو سنة ٩٧٣ م) وصل المعز لدين الله إلى الاسكندرية قادماً من المنصورة فى طريقه إلى القاهرة حاضرتة فى مصر ، ودخل المعز مدينة الاسكندرية يوم الجمعة ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ هـ وهو ممتط جواده ، فاستقبله فيها القاضى أبو طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بجير وسائر الشهود والفقهاء ووجوه التجار وأعيان الثغر ، فنزل المعز تحت منارة الاسكندرية (٢) يوم وصوله ، وخاطب مستقبليه بخطاب طويل « أعلمهم فيه بأن قصده القصد المبارك من إقامة الجهاد والحق وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل بما أمره به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووعظهم وطول حتى أبكى بعضهم وخلع على جماعة » (٣) ، ثم مضى إلى الحيزة ، ودخل القاهرة . وذكر ابن زولاق أن المعز عندما تلقاه القاضى محمد بن أحمد بالاسكندرية خلع عليه وحمله وسأيره فى الركوب (٤)

(١) اتعاظ الخنفا ، ص ١٠٩ — النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٣١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٤

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٢ — عبد الهادى شعيرة ،

الاسكندرية منذ الفتح العربى ، ص ٩١ — حسن إبراهيم حسن ، تاريخ السدولة الفاطمية ، ص ١٥٠ — جمال الدين سرور ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ،

ص ٤١

(٤) الكندى ، الملحق ص ٥٨٤

وكان قد قدم مع المعز من افريقية القاضي عبد الله بن محمد بن أبي ثوبان ،
فولاه المعز قضاء مصر والاسكندرية (١) .

* * *

تألفت الاسكندرية في العصر الفاطمي ، واستعادت ازدهارها القديم ،
وأصبحت مركزاً أساسياً هاماً ، شاركت في كثير من الأحداث السياسية
التي حفل بها العصر الفاطمي ، فكان أهل الاسكندرية يحكم تطرفها عن
الدلتا المصرية ، وعزلتها عن بقية مدن مصر ، واتصالها بالطرق المؤدية إلى
برقة وإفريقية وغلبة العناصر المغربية فيها (٢) ، يميلون إلى المعارضة ، وكانوا
قبل وصول الفاطميين على اتصال بهم ، فلما قدم الفاطميون حن أهل
الاسكندرية إلى الانفصال ، وأيدوا كل حركة تهدف إلى ذلك ، ومن هذه
الحركات ما يلي :

(١) حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٩ — ٤٦٥) :

استبد أبو محمد ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان بأمور
المستنصر ، وزادت مطالبته بالأموال حتى استوعبها ، وأخرج جميع ما في
القصر من ثياب وأثاث ، وباعها بالثمن ، وحالف الأتراك سرّاً على

(١) نفس المصدر ، ص ٥٨٧

(٢) انتقلت في العصر الفاطمي سوجات كثيرة من المغرب واستقرت في المنطقة
الواقعة غربى الدلتا والبحيرة والفيوم والواحات والمناطق الغربية من صعيد مصر .
فسكنت البحيرة جماعات من لواتة ، بينما نزلت هواره بالبحيرة ، من الاسكندرية
غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة (راجع : عبد المجيد عابدين ، دراسات في تاريخ
العروبة في وادى النيل ، ملحقة بكتاب البيان والاعراب بما نزل بأرض مصر من
الأعراب للمقريزى ، القاهرة ١٩٦١ ص ١٣٢ — ١٣٤) .^١

المستنصر ، وأفرج عن أمراء عرب الشام الذين كانوا في سجن المستنصر بعد أن اتفق معهم على الفتك ببدر الجمال ، وانقسم عسكر مصر إلى قسمين متعادين . وفي سنة ٤٥٩ تتبع ناصر الدواة بن حمدان العبيد الذين كانت أم المستنصر قد استكثرت منهم في الصعيد والإسكندرية ، فرأى أن يبدأ بمحاربة عبيد الاسكندرية ، فسار إليها ، والتقى معهم في موضع يعرف بالكرم فقتل منهم نحو ألف ، وتحصن الباقيون داخل أسوار الإسكندرية ، فحاصروهم فيها مدة ، وألح في مقاتلتهم حتى سألوهم الأمان ، فأخرجهم منها وأقام فيها من يثق به (١) . واشتد أمر ناصر الدولة بعد ذلك ، واستبدت بسلطة البلاد . فعزم المستنصر على وضع حد لهذا الاستبداد ، وبادر بحشد قواته من المغاربة وبعض الأتراك بقيادة الدكر الملقب بأسد الدولة ، شيخ الأتراك والمقدم عليهم ، واشتبك مع قوات ابن حمدان بالباب الجديد في القاهرة ، وأسفرت المعركة عن هزيمة ابن حمدان وفراره إلى الإسكندرية (٢) في سنة ٤٦١ ، حيث نزل في حي من أحياء عرب البحيرة وهم بنسب سنابس الذين حلوا محل بني قسرة (٣) الذين انسحبوا

(١) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، (مخطوطة) ص ١٠٠ - الخطط ، ج ٢ ص ١٢٨

(٢) أبو الحسن ، ج ٥ ص ١٥ ، ٧٤

(٣) كان بنو قرة الجنداسيون (من بطون ضبيب بن جذام) يسكنون البحيرة ، وكانوا عنصر شغب وفتنة ، فقد ثاروا في الاسكندرية سنة ٤٤٢ واستولوا عليها ثم أوقعوا الهزيمة بالجيش الفاطمى ، فاضطر الوزير اليازورى الى استدعاء جموع سنابس (من طى ينسبون إلى سنابس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث ابن طى) من الداروم بفلسطين وأقطعهم البحيرة ، « وأوطأهم الوزير ديار بنى قرة وأقطعهم أرضهم وديارهم ، فاتسعت أحوالهم وفخم أمرهم ، وعظم في أيام الخلفاء الفاطميين شأنهم » (المقرئى ، البيان والاعراب ، تحقيق دكتور عبد المجيد عابدين ص ٨ ، ٩) .

إلى الصعيد (١) .

نزل ابن حمدان في بني سنابس بالبحيرة ، واستجار بهم ، وتزوج منهم (٢) ، ومن هناك أخذ يشن غاراته على أعمال مصر ، ويهزم جيوش المستنصر التي يسيرها لقتاله بالبحيرة الجيش بعد الآخر . وكان ناصر الدولة عند فراره إلى الإسكندرية في صفر ٤٦١ هـ قد اصطحب معه طائفة من اللواتين ، الذين نهبوا ما تبقى من خزانة الكتب الفاطمية ونقلوه في خليج الاسكندرية ، بينما أخذ عبيدهم جلودها برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم ، وأحرقوا ورقها ، بالإضافة إلى ما استولى عليه عماد الدولة أبو الفضل بن المحرق بالاسكندرية ، وانتقل بعد ممتله إلى بلاد المغرب (٣) .

وما زال أمر ابن حمدان يشتد وخطره يستفحل حتى انتهى به الأمر إلى أن حاصر القاهرة ، وقطع الميرة والأقوات عنها ، ونهب أكثر الوجه البحرى ، وقطع منه الخطبة للمستنصر ، ودعا للقائم بأمر الله الخليفة العباسى فى الاسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحرى (٤) ، وفى ذلك يقول المتمرزى « وقطع خطبة المستنصر من جميع الوجه البحرى ، وكتب إلى الخليفة القائم

(١) عبد الحميد عابدين ، المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢) اتعاظ الخنفا (القسم المخطوط) ص ١٠١

(٣) المقرئى ، ج ٢ ، ص ٥٣

(٤) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، (المخطوطة) ص ١٠٥ ب — المقرئى ، الخطط ،

ج ٢ ص ١٢٩ — النويزى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة (صورة شمسية محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ج ٢٦ ، ص ٦٨ — جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٧ ،

ببغداد يسأله أن يجهز إليه الخلع والألوية السود ، فاضمححل قدر المستنصر وتلاشى أمره وتعاضمت الشدائد على مصر « (١) .

وهكذا ضعف المستنصر عن مواجهة ابن حمدان ، فأسلم له قياده في نهاية الأمر ، وساءت الأمور في مصر في ذلك الحين إلى أقصى حد من تزايد الغلاء وقلة الأقوات وهلاك عدد كبير من السكان ، «وعظم الفساد والضرر وكثر الجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات ، ووقفوا في الطرقات يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه ، مع ما نزل بالناس من الحروب والفتن التي هلك فيها من الخلق ما لا يحصيهم إلا خالقهم » (٢) . وظل الحال على هذا السوء إلى أن اختلف ابن حمدان مع الدكر ، فانقلب عليه الدكر وقتله في سنة ٤٦٥ هـ ، وتتبع أقاربه وذويه بالقتل ، واستبد الدكر بدوره ، فاضطر المستنصر إلى استدعاء الأمير بدر الجمالي ، فقدم إلى مصر في سنة ٤٦٧ هـ ، وقبض على الدكر وقتله ، ثم أخذ يصلح ما أفسده ناصر الدولة بن حمدان والدكر ، فخرج إلى الاسكندرية ، وحاصرها أياما ، ثم استولى عليها عنوة ، وقتل جماعة من الثوار فيها من طائفة العسكر الملحيين وأتباعهم (٣) ، وأصلح ما أفسده ناصر الدولة فيها ، وسلمها إلى القاضي ابن الحيرق (٤) . ويعبر المقرئ عن ذلك بقوله : « وفيها (أى في سنة ٤٦٧ هـ) سار أمير الحيوش بدر إلى الوجه البحري فأوقع بلوامة وقتل مقدمهم سليم اللواتي وابنه واستصفى جميع ما كان له ولقومه من أموال ، وأسرف في قتلهم حتى يقال

(١) المقرئ ، اتعاظ الخنفا ، ص ١٠٦ ب .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٣) الذهبى ، ج ٣ ص ٢٦٣ — المقرئ ، الخنط ، ج ٢ ص ٤٤٨

(٤) أبو الحسن ، ج ٥ ص ١٥ ، ٧٤

أنه قتل منهم عشرين ألفاً ، وسار إلى دمياط وقتل أكثر من كان فيها من
المفسدين ، وخرّب وحرّق ، وأصلح عامة أحوال الثغر ، ولم يدع بالبر
الشرقي وجميع أسفل الأرض مفسداً إلا وقتله أو قمعته ، ثم عدا إلى البر
الغربي ، فقتل كثيراً من الطائفة الملحية وأتباعهم ، وأقام على محاصرة الاسكندرية
أياماً حتى أخذها قهراً ، فقتل كثيراً من أهلها المفسدين ، وعفا عن أهل
البلد فلم يتعرّض لهم «(١) .

ويبدو أن ابن المحيرق القاضي لم يرض بما أسنده إليه بدر الحمالي ، فطمع
في أكثر من ذلك ، فلم يلبث أن أعلن الثورة في الاسكندرية في سنة ٤٦٨ هـ ،
فاضطّر أمير الجيوش بدر الحمالي إلى التوجه إلى الاسكندرية ، وقبض
على قاضيها وعلى جماعة من فقائها وأعيانها وأخذ منهم أموالاً عظيمة (٢) .

(ب) حركة الأوحّد بن بدر الحمالي سنة ٤٧٧ هـ .

لم يمض على إخماد حركة ابن المحيرق عشر سنوات حتى عادت الاسكندرية
من جديد تفتح أبوابها للشوّار والعصاة الخارجين على السلطة المركزية ، ففي
سنة ٤٧٧ هـ أعلن الأوحّد أبو الحسن على الملقب بمظفر الدولة ، الابن الأكبر
لأمير الجيوش بدر الحمالي ، الثورة على أبيه ، وانضم إليه جماعة من العسكر
والعربان ، وتوسّع بالاسكندرية ، وكان أبوه قد ولاه عليها ، فأرسل إليه
بدر أبا الفرج المغربي ، أحد الوزراء السابقين ليردعه ، فلم يستجب الأوحّد
إليه ، ثم سار إليه أخوه الأفضل ولاطفه ، فأخفق في حمله على الطاعة ،
فاضطّر بدر الحمالي إلى الخروج إليه لاختماد حركته ، ونزل على أبوابها

(١) اتعاظ الحنفا ، المخطوطة ، ص ١٠٧ ب

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٠١

وحاصرها شهراً ، وألح على الأوحـد القتال « حتى طلب أهلها الأمان وفتحوا له الباب ، فدخلها وأخذ ابنه أسيراً » (١). ويذكر المقرئى أنه « ألح عليه القتال حتى أدخل البلد وأخذ ابنه قهراً » (٢) ، ثم عاقب بدر الحمالى أهل الاسكندرية الذين أيدوا حركة الأوحـد بأن فرض عليهم جميعاً مسلمين وقبط مائة وعشرين دينار حملت إليه (٣) ، جدد بها بناء جامع العطارين بالاسكندرية . وذكر المقرئى ، أنه نزل إلى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ولده الأوحـد ، « فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة إلى أن أخذها عنوة ، وقتل جماعة ممن كان بها ، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة » (٤) .

وجامع العطارين المذكور كان فى الأصل كنيسة باسم القديس أثناثيوس ، أقيم عليها بعد الفتح مسجد صغير ، وكانت عوامل الوهن والشيخوخة قد ظهرت على هذا المسجد فى بداية العصر الفاطمى ، فهدمت أجزاء منه ، وتهاوت بعض سقفه ، وأصيب بأضرار جسيمة ، وعندما قدم أمير الحيوش بدر الحمالى إلى الاسكندرية وشاهد هذا الجامع مهتماً ، أمر بتجديد بنائه وأنفق على بنيانه الأموال التى أخذها من أهل الاسكندرية ، وأقام فيه صلاة

(١) نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٩

(٢) اتعاظ الخنفا ، ص ١٠٩ ١ — النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٧٠

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٣١ — عبد المنعم ماجيد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٨٣

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٩ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦

الجمع ، واستمر مسجداً جامعاً إلى أن زالت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الذى أمر ببناء جامع آخر نقل إليه الخطبة من جامع العطارين (١) . وتاريخ تعمير جامع العطارين مسجل فى لوحة تاريخية بالمسجد .

(ج) نوبة الاسكندرية فى ٤٨٨ هـ :

وفى الاسكندرية أيضاً قامت النوبة السكندرية المعروفة بالحركة النزارية بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله فى ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧ (٢) . وتفصيل الموضوع أنه كانت بين الأفضل شاهنشاه بن بدر الحمالى — وكان وزيراً للمستنصر — وأبى منصور نزار ، الابن الأكبر للمستنصر ، نفرة لأمر منها أنه خرج يوماً ، فاذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو واكب ، فصاح به نزار « انزل ياأرمى النحس » ، فحقدتها عليه ، وصار كل منهما يكره الآخر . ومنها أن الأفضل كان يعارض نزاراً فى أيام أبيه ويستخف به ، ويضع من قدر حواشيه ، ويبطش بغلامانه ، فلما مات المستنصر خافه لأنه كان رجلاً مكتمل الرجولة وله حاشية وأعوان (٣) . لكل ذلك بادر الأفضل شاهنشاه بعد وفاة المستنصر ، بالتخلص من نزار وإقصائه عن الخلافة ، فأجلس أبا القاسم أحمد ، الابن الأصغر للمستنصر ، فى منصب الخلافة ، ولقبه بالمستعلى بالله ، وسير إلى الأمير نزار والأمير عبد الله والأمير اسماعيل ، أولاد المستنصر ، فجاءوا إليه ، واستاءوا من جلوس أنجبهم الأصغر على سرير الخلافة ، وشق عليهم ذلك ،

(١) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ص ١١٠ .

(٢) أخطأ ابن واصل إذ جعل تاريخ هذه الحركة فى سنة ٤٩٥ بعد وفاة المستعلى بالله (التاريخ الصالحى ، مخطوطة ، حوادث سنة ٤٩٥) .

(٣) المقرئى ، ج ٢ ص ٢٧٦ — جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٤٩

فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض بين يديه ، فرضعوا لذلك مرغمين ، وباعوه ، ثم امتنعوا فيما بينهم عن ذلك ، وادعى كل منهم أن أباه قد وعده بالخلافة . ثم تظاهر نزار بأنه يحتفظ بخط أبيه بولاية العهد له . فغضب مسرعاً لاحتضاره ، ثم توجه من فوره إلى الاسكندرية يصحبه أخوه عبد الله ومحمود ابن مصال اللكى (١) ، أحسد الأمراء الذين أقنعهم نزار بالانضمام إليه في مقابل أن يكافأه بالوزارة والتقدمة على الحية وش مكان الأفضل (٢) .

وكان يتولى الاسكندرية في هذه الآونة الأمير ناصر الدولة أفتكين التركي ، أحد ممالك أمير الجيوش بدر الجمالي ، فدخلا عليه ليلاً ، وساعدهما قاضي الاسكندرية جلال الدولة علي بن أحمد بن عمار ، وأنهبيا إلى أفتكين بما تأمر عليه الأفضل ، وتراهما عليه ، وأطمعه نزار بأن يتخذ وزيراً بدلاً من الأفضل ، وأمام هذا الاغراء لم يسع أفتكين إلا أن يبائع نزاراً بالإمامة ، كما بايعه أهل الاسكندرية ، وتلقب نزار بالمصطفى لدين الله (٣) . فلما علم الأفضل بذلك أخذ يتأهب لمحاربتهم ، وخرج في آخر المحرم سنة ٤٨٨ هـ على رأس عساكره إلى الاسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين ، « فخرجوا إليه في عدة كبيرة وحارباه ، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الاسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزماً يريد القاهرة ، فذهب نزار بمن معه من العرب أكثر

(١) نسبة إلى قرية لك ببرقة

(٢) المقرئى ، اتعاظ الحنفى ، ص ١١١ ب .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ٧٣

بلاد الوجه البحري « (١) . وقوى أمر نزار وأفتكين ، واجتذبا بهذا الانتصار كثيراً من العرب المتيسمين بنواحي الاسكندرية ، واستفحل خطر نزار ، فاستولى على الوجه البحري . وقد دفع ذلك الأفضل إلى معاودة الكرة لقمع حركة نزار ، التي أصبحت تشكل خطراً ماثلاً على مركز المستعلي بالله ، فجهز بجيشاً للمرة الثانية لمحاربة نزار ، ودس إلى زعماء العرب ، ووجوه أصحاب نزار ، « يدعوهم إلى التخلي عنه ، واستمالهم بما حملاه إليهم من الأموال وما وعدهم به من الانقطاعات وغيرها » (٢) ، ونجح في خطته ، إذ انضم إليه كثير من عرب البحيرة ، ولما استكمل إعداد جيشه زحف إلى الاسكندرية ، وبرز إليه نزار واشتبك الفريقان في قتال عنيف انتهى بهزيمة نزار والتجائه إلى المدينة ، فنزل الأفضل عليها وحاصرها حصاراً شديداً ، ونصب عليها المحانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة ، وضرب أسوار المدينة بالأحجار واللهب ، ولم يكف بذلك بل كاتب أنصار نزار ، يمنهم بالوعود ، فلما اشتد الحصار ، وضاق على أهل الاسكندرية الأمر ، جمع ابن مصال ما له ، وفهر إلى جهة المغرب في ثلاثين قطعة يريد بلده لك برقة ، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة ، ففت ذلك في عضد نزار ، وفترت همته ، وضعفت نفسه ، وأيقن بالهزيمة . وفي نفس الوقت شدد الأفضل الحصار ، وتكاثر جموعه ، فبعث إليه نزار وأفتكين يسألان الأمان ، فأمنهما ، ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وأفتكين وسيرهما إلى مصر ، ولكن الأفضل لم يف بعهد أمانه ، فقد تخلص منهما ، فقتل نزاراً وأفتكين . ويذكر المقرئ في مقتل نزار أنه « سلم نزار لأهل القصر من أصحاب المستعلي ، وأنه بنى عليه حائط

(١) اتعاظ الخنفا ، ص ١١٢

(٢) نفس المصدر

ومات . وقيل قتل بالاسكندرية والأول أصح « (١) . وقيل أنه استبقاه حتى مات في الاعتقال (٢) ، وهو أمر مستبعد لخوفه من أن يثور النزارية على المستعلي . أما أفندي فقتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر (٣) ، وأما ابن مصال فإنه مضى إلى بلده لك برقة ، ثم بعث إليه الأفضل بالأمان ، فقدم عليه وعفا عنه الأفضل وأكرمه .

ولقد أثر حصار الأفضل للاسكندرية وضربها بالمجانيق على عمراتها ، وعلى أسوارها ، وكان الأفضل عندما قبض «على نزار ، وتمكن من الاسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن ماله أو أعانه ، فقبض على كثير من وجوه البلد ، منهم قاضي الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار ، واعتقله مدة ، ثم قتله وكان حسنة من حسنات الدهر ، ونخبة من نخب الفقه » (٤) . ثم إن الأفضل ولي قضاء الإسكندرية عوضاً عنه القاضي أبا الحسن أحمد بن الحسن بن حديد وبالع في إكرامه وإكرام أهل بيته ، ويبدو أنه كافأه بهذا المنصب لأنه لم يبايع هو وقومه نزاراً ، وكانوا يهادون الأفضل سراً (٥) .

(١) اتعاظ الخنفا ، ص ١١٢ — المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٧

(٢) ابن سنجب الصيرفى ، الاشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤ ص ٥٩

(٣) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ص ١١٢ — الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٧ —
أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٤٣ ، C. Cahen, La chronique abrégée d'Al-Azimi,
Journal Asiathique, Juillet- Septembre, 1938, p. 370.

(٤) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ص ١١٢

(٥) نفس المصدر ، ص ١١٢ ب

(د) اشتراك الاسكندرية في الصراع بين الوزراء :

لما توفي الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد في ٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، وبويع ابنه أبو المنصور إسماعيل الملقب بالظافر بأمر الله ، قام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين أبو الفتح سليم بن محمد بن مصال المغربي ، وكان يتولى الاسكندرية والبحيرة في عهد الحافظ وال يدعى أبو منصور على بن اسحق المعروف بابن السلار ، فخرج بعساكره لنصرة الظافر الابن الأصغر للحافظ على أخيه الإبن الأكبر الطامع في الخلافة ، ونجح في تنصيب الظافر على دست الخلافة ، وقبض على أخيه الأكبر (١) ثم خرج على ابن مصال ، ولم يرض بوزارته ، وزحف في جموعه إلى زوج أمه بالغربية ، وحشد الحيوش لمحاربة ابن مصال ، ثم زحف ابن السلاء إلى القاهرة ، واستولى على الوزارة في سنة ٥٤٥ هـ ، وتلقب بالعدل (٢) .

وفي أيام الفرائز بنصر الله خرج على وزيره الصالح طلائع بن رزيك أمير من أمرائه هو الأمير طرخان بن سليط بن طريف وإلى الاسكندرية ، في سنة ٥٥٤ هـ ، فسير إليه الصالح طلائع ابن اخته الأمير عز الدين أبو المهند حسام على عسكر لقتاله . وفي سنة ٥٥٥ هـ ازدادت ثورة طرخان اشتعالا بانضمام أخيه إسماعيل إليه ، فقد خرج إسماعيل من القاهرة في ليلة الخميس ١١ من المحرم ، ولحق بأخيه طرخان وإلى الاسكندرية ، وقد جمع لحرب الصالح حشوداً ضخمة من العربان وغيرهم . فخرج إليهما الأمير المظفر

(١) ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجبان ، تحقيق الدكتور محمود على

ديكي ، تطوان ، ص ٢٣٥

(٢) المقرئزي ، اتعاظ الخنفا ، ص ١٤٣ ب — أبو المحاسن ، ج ٥ ص ٢٩٥ ،

عز الدين حسام والأمير مجاهد الخليفة أسد الدين ورد ، وأدركتهما بعد ذلك
الأمير المظفر سيف الدين حسين . وعندما « برز طرخان من الاسكندرية
في جموعه لمقاتلتهما ، ونحيم على دهنهور ، وتلقب بالملك الهادي ، طرده
العساكر ، فهرب ، واختفى بالحيزة ، فقبض عليه في سبعة عشرة ،
وعاد المسكر في ثالث عشرينه ، فهرب طرخان من معتقله رابع ربيع الآخر ،
وظفر به في سادسه ، فصلب على باب زويله ، ثم ضربت رقبة اسماعيل في
ثانية ، وصلب إلى جانب أخيه . وكان أبو طرخان فراناً ، فترقى طرخان
في أيام الفتن حتى ولاه الصالح الاسكندرية في سنة ثلاث وخمسين» (١).

وكان الصالح طلائع قد أنشأ في وزارته فرقة من أمراء المغاربة يقال لهم
البرقية ، وجعل أبا الأشبال ضرغام بن عامر قائدهم ، فترقى حتى صار
صاحب الباب ، وطمع في شاور بن مجير السعدي الذي ولي الوزارة بعد
إيزام رزيك بن الصالح طلائع ، فجمع ضرغام حشوده وتخوف منه شاور
وانقسم العسكر على هذا النحو إلى فرقتين ، فرقة تناصر ضرغاماً ، وفرقة
تعصده شاور . ولم تكد تمضي تسعة شهور على وزارة شاور حتى ثار عليه
ضرغام في رمضان سنة ٥٥٨ هـ ، وهزمه وأخرجته من القاهرة بعد أن قتل
ابنه الأكبر طي . واستقر ضرغام في وزارة العاضد بعد خروج شاور
من القاهرة ، في حين مضى شاور إلى الشام ، واتصل بنور الدين محمود
ابن زنكي صاحب دمشق وحلب ، واستنصره على ضرغام. أما ضرغام فتقدم
انقلب على فرقته البرقية ، وقتل زعماءها بالسيف ، ومنهم الأمير مرتفع
الحاواص الذي كان مقيماً بالاسكندرية . وفي هذه الآونة قدمت عساكر
الشام بقيادة أسد الدين شيركوه ، فخرج ضرغام بعسكره ، واشتبك مع

(١) المقرئى ، اتعاظ الحنفى ، ص ١٩٩ ب ، ١٥٠ ا

شيركوه في بلبيس ، فانهزم ضرغام وعاد إلى القاهرة ، وبعث إلى أهـل البلاد يستنفرهم على النوريين ، فأنته الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية . فنزل شاور بالمقس . وحارب أهل القاهرة ، وانتقل إلى الفيـطاط ، واستولى عليها ، ثم نزل بالقوق ، واشتبكت قواته مع قوات ضرغام في عدة معارك انتهت بقتل ضرغام في آخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ ، واستولى شاور بذلك على الوزارة (١) .

ولما طالب شيركوه شاور بالوفاء بما التزم به ، نظير ما قدمه إليه نور الدين من معونة ، نكث بوعده ، وأمره بالخروج من مصر ، فأبى شيركوه ، فبعث شاور إلى الفرنج يستنجد بهم على النوريين ، وقدم ملكهم مري من عسقلان بمجموعه ، وحاصرت قوات الفرنج وقوات شاور شيركوه في بلبيس مدة ثلاثة أشهر ، وانتهى الأمر بموافقة شيركوه على الصلح على أن يعود إلى الشام . غير أن نور الدين لم يلبث أن جهز حملة جديدة بقيادة شيركوه وصلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ ، فبعث شاور يستنجد بحلفائه الفرنج ، ففضى شيركوه إلى الصعيد . إل أن وصل إلى بلدة البابين (بالمنيا) حيث أدركه الفرنج والمصريون في ١٥ من جمادى الآخرة ، واشتبك الفريقان في قتال عنيف انتهى بهزيمة الفرنج والمصريين في ٢٥ من جمادى الأولى (٢) .

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ٤١٩ -- أبو الحسن ، ج ٥ ص ٣٤٧ وما يليها .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٥٠ - ١٥١ -- أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٣٦٤

وذكر يحيى بن أبي طى الحلبى أن أسد الدين كان قد كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور بسبب إدخاله الفرنج إلى دار الاسلام ، فاستجابوا له ، وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال ، وكان قد لجأ إلى الاسكندرية مستخفياً ، فظهر في هذه الفتنة (١) . فكتب ابن مصال إلى شيركوه كتاباً حملاًه إليه الشريف الادريسي نزيل حلب ، ذكر له فيه أن السلاح في طريقه إليه ، وكان أسد الدين شيركوه معسكراً وقتئذ بالبحيرة ، فوصلت إليه خزانة السلاح والآلات بعد يومين مع ابن أخت الأمير ابن عوف ، واتجه أسد الدين بعد ذلك إلى قرية دلجة ، فنزل عليها بينما نزل شاور على الأشمونين ، وتم الاشتباك بين الفريقين ، وانتهى بهزيمة عسكر مصر والافرنج (٢) .

وعلى أثر هذا الانتصار سار أسد الدين شيركوه إلى الاسكندرية الموالية له ليتخذها قاعدة له في مصر ، وجبى القرى التى صادفها في طريقه إليها إلى أن وصل إلى ثغر الإسكندرية ، فخرج إليه أهلها وفيهم الأمير نجم الدين محمد بن مصال واليهما ، والأشرف بن الجباب قاضيا ، والقاضى الرشيد بن الزبير ناظرها ومتولى ديوانها ، معبرين عن فرحتهم بقدومه ، وحمل القاضى الرشيد إلى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح (٣) ، وسلموا إلى شيركوه مدينتهم « لميلهم إلى مذهب السنة ، وكراهم لرأى المصريين » (٤) . ونزل أسد الدين شيركوه قصر الإسكندرية ، الذى اتخذهُ محبساً للفرنج ممن أسرهم

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٤٢٦

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٢٧

(٣) نفس المصدر

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥١

في واقعة الأشمونين أو البابين . ثم خاف شيركوه أن يذهبده شاور والفرننج فيحاصروه بالإسكندرية ، فأثر المضى إلى الصعيد لامتلاكه ، فاستناب ابن أخيه صلاح الدين يوسف على الإسكندرية ، وترك له حامية تتألف من ألف فارس ، بما فيهم الجرحى والمرضى والضعفاء ، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به ، ثم رحل هو إلى الصعيد ، فتغلب عليه ، وجبى أمواله .

ثم عاد الفرننج وعسكر شاور بعد هزيمتهم إلى القاهرة ، وأعادوا تنظيم صفوفهم ، وتجميع حشودهم ، وأخرجوا لذلك ٢٤ ألف فارس ، ثم زحفوا إلى الإسكندرية وحاصروها مدة أربعة أشهر (١) ، وقيل ثلاثة ، قاتل أهل الإسكندرية خلالها جنبا إلى جنب مع صلاح الدين ورجاله ، وقووه بالمال ، وبذلوا في نصرته أموالهم وأنفسهم حتى قتل منهم جماعة كبيرة . وحاول شاور أن يغريهم بكافة وسائل الإغراء لخلد صلاح الدين ، فنهاهم بالوعود الخلابه ، وقطع على نفسه عهداً بأن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين ، فأبوا ذلك ، ولم يزداهم ما عرضه عليهم إلا استبسالاً وإلحاحاً في القتال ، وصبروا على الحصار وقلة الأقوات بالمدينة .

ولما علم أسد الدين شيركوه باشتداد الأمر على الإسكندرية حشد جموعاً كثيرة من العربان ، ورحل من قوص ، وسار نحو الإسكندرية لفتك الحصار عنها ، وما إن علم شاور بذلك حتى عاد إلى القاهرة وأسرع بمراسلة شيركوه طالباً الصلح ، وبذل له خمسين ألف دينار ، وقيل ثلاثين ألفاً على أن يرجع إلى الشام ، فأجابه إلى ذلك بشرط ألا يقيم الفرننج في البلاد . وتم الصلح

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، مخطوطة ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ

على هذا الأساس ، وفتحت المدينة ، وتسلمها عسكر المصريين في منتصف شوال (١) . وطلب صلاح الدين من مري ملك الفرنج أن يبعث إليه مراكب لنقل الجرحى من المسلمين ، فأنفذ له عدة مراكب أقلعت بهم إلى عكا ، ومنها ساروا إلى دمشق . ولم يخرج صلاح الدين من الإسكندرية إلا بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بالألا يعرض لهم بسوء ، ودخل شاور الإسكندرية في ١٧ شوال ، فاستتر ابن مصال منه ، ثم فر إلى الشام (٢) ، بينما قبض شاور على ابن الجباب وعاقبه حتى افتداه أهله بمال جزيل . أما ابن الزبير فقد فر إلى رشيد ، في حين امتنع الفقيه أبو طاهر بن عوف وجماعة كثيرة بمنار الإسكندرية ، فحاصروهم شاور ، فخطبه ابن عوف قائلاً : « اعدونا يا أمير الحيوش وسامحنا بما فعلناه . فعفا عنهم ، وولى القاضي الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا ناظراً على الأموال » (٣) .

وكان للموقف النبيل الرائع الذي وقفه أهل الإسكندرية تجاه صلاح الدين من تعصيده ومناصرته ، أعمق الأثر في نفسه ، فلم ينس لهم ما بذلوه من أجله من تضحيات يدل على ذلك تعدد زيارته إلى الثغر السكندري وعنايته به ، واهتمامه بتعميره ، وتردده المتواصل أثناء وجوده بالإسكندرية على شيخها أبي الطاهر بن عوف على النحو الذي سنفصله في الفصل التالى .

(١) ابن واصل ، ج ١ ص ١٥٢

(٢) ذكر أبو شامة أنه قبض على ابن مصال وجماعة ممن أعانوا صلاح الدين ، وضيق عليهم ، وتتبع أهل الاسكندرية (الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٤٢٨) .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٦

(٢)

أهمية الإسكندرية كقاعدة بحرية للفاطميين

ظلت الإسكندرية دار صناعة بحرية تصنع فيها الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات في العصر الفاطمي (١) ، وقاعدة بحرية هامة يخرج منها الأسطول الإسكندري للغزو ، ومركزاً رئيسياً للحط والإقلاع ، ترسو فيه سفن المغرب التجارية والمدنية التي تحمل طلاب العلم والحجاج المغاربة والأندلسيين الوافدين إلى المشرق طلباً للعلم أو لأداء فريضة الحج (٢) .

فمن حيث البحرية الحربية نلاحظ أن الفاطميين اهتموا اهتماماً خاصاً بالأسطول بحكم اضطرارهم إلى غزو الأراضي البيزنطية ومقاتلة سفن الروم في البحر ، بالإضافة إلى رغبتهم في تيسير الاتصال البحري بين سواحل مصر والشام التي تعرضت منذ طليعة القرن السادس الهجري لغزو الصليبيين ، فخصصوا للأسطول ديواناً يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العماثر ، وكان مقره صناعة الإنشاء بمصر (٣) ، وأنشأوا إلى جانب دور صناعة الإسكندرية ودمياط وتنيس داراً للصناعة بمصر (المقس) لإنشاء الشواني ، وأضافوا

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧

(٢) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربى من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، والأستاذ إبراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ٥٢ ، حاشية ١

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧

إليها الموضع الذي كانت تشغله دار الزبيب، كما أنشأوا على الساحل القديم
بالفسطاط منظره تعرف بمنظره الصناعة .

وكانت سفن أسطول الإسكندرية تقلع من الإسكندرية لغزو بلاد
الدولة البيزنطية وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى، أو تجر وراءها عدداً من قطع
أساطيل العدو ، وقد لعب أسطول الإسكندرية دوراً هاماً في الغزو البحري
وفي حماية مدينة الإسكندرية من غارات الأعداء : ففي سنة ٣٨٣ هـ يذكر
المقريزي أن سفن الأسطول السكندري اشتبكت في البحر مع الروم بنواحي
الإسكندرية في موقعة انتهت بأسر سبعين من الروم (١) ، ثم وردت مراكب
الروم إلى الإسكندرية بعد ذلك ، فخرج إليها العسكر في البر ، وتصدت
لها سفن أسطول الإسكندرية في البحر ، فولت هذه السفن الرومية من غير
حرب إلى الشام ، فطاردها الأسطول السكندري بعد أن أضيف إليه ١٨ مركباً
مشحونة بالسلاح والمقاتلة (٢) ، وعاد أسطول الإسكندرية إلى قاعدته في
جهادي الأولى سنة ٣٨٤ هـ .

ويصف المقريزي وصول غزاة البحر إلى القاهرة قافلين من غزوتهم تلك
بقوله : « وفي جهادي الأولى ، وصل غزاة البحر إلى القاهرة بمائة أسير ،
فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة ، وخرج العزيز وابنه منصور وشقا الشوارع
ثم ركب في عشارى ومعه العشاريات سائرة إلى المقس ، ثم ركب من المقس
إلى القصر ، فكان يوماً عظيماً لم ير بمصر مثله ، وقال فيه الشعراء » (٣) .

(١) المقريزي ، اتعاظ الخنفا ، تحقيق الدكتور الشيبان ، ص ٢٧٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٢

وفي سنة ٥١٧ هـ باغ المؤتمن سلطان الملوكة نظام الدين أبا تراب حيدرة ،
والى الإسكندرية والأعمال البحرية نبأ نزول مراكب الروم والبنادقة فى أكثر
من عشرين مركباً ، فبادر إليها بسفن أسطول الإسكندرية ، فلما شاهدها
الأعداء أقبلوا ، فأخذ منهم عدة قطع (١) . وفى سنة ٥٣٢ هـ كان غزو
المراكب المصرية التى وصلت من الإسكندرية ، « منها المركب الغيطانى
والمركب العجزي ، وكانت عظمة الجرم بجداً ، وكانت فيها أموال
عظيمة وخلق كثير » (٢) . وفى ١٦ من ربيع الآخر سنة ٥٥٣ هـ قدم أسطول
الإسكندرية من غزوه للسواحل التابعة للبيزنطيين ، وقد امتلأ أبداً الغزاة
بالغنائم (٣) .

أما فيما يختص بالبحرية التجارية والمدنية ، فقد شغلت الإسكندرية مكاناً
بارزاً بين المدن التجارية الهامة فى حوض البحر المتوسط فى العصر الفاطمى ،
فكانت أهم مركز فى مصر والشام لتجارة البهار بالنسبة لدول أوروبا (٤) .
وكانت السلع تصل إلى مينائها ، ثم تحمل على ظهور الإبل وتخرج من باب
البهار ثم تنقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى القسطنطينية ، والعكس
بمعكس ذلك ، ولعل هذا كان سبباً فى اهتمام الفاطميين بتطهير ترعة الخليج
من الرواسب الطينية ، فمن المعروف أن خليج الإسكندرية انقطع جريان مياهه
عنها قبل سنة ٢١ هـ ، إذ ردم جميعه ، وصار شرب أهل الإسكندرية من

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ ب

(٢) ابن القطان ، جزء من نفاة الحبان ، ص ٢٣٣

(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٩ ب

(٤) حسين مؤنس ، أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى

البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ ص ٥١

الآبار (١) ، ونفهم من هذا أن خليج الإسكندرية طهر في تلك السنة ، ولكنه لم يلبث أن تجمعت فيه الرواسب الطينية إلى حد أن مياهه توقفت من جديد عن الجريان ، فأطلق الحاكم بأمر الله أبو مسعود بن العزيز لحفره في سنة ٤٠٤ هـ مبلغاً قدره ٥ آلاف دينار أنفقها في حفر الخليج كله (٢) ، ثم طهر هذا الخليج مرة ثانية بالرواسب الطينية في عهد الخليفة المنصور بالله ، فقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن ماء الشرب في الإسكندرية من المطر (٣) .

وكانت علاقة مصر قد توثقت في العصر العباسي مع البندقية التي نهضت خلال القرن الثالث الهجري ، فذشطت أساطيلها في نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ومصر والشام ، واستطاع البنادقة فيما يقرب من سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) أن ينقلوا رفات القديس مرقس من الإسكندرية إلى البندقية ، وعلى هذه الرفات أقيمت كنيسة سان ماركو الحالية (٤) .

وفي العصر الفاطمي تألفت مدينة الإسكندرية ، واستعادت ازدهارها القديم ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر ، وثغرها التجاري الأول

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٠١ — المقریزی ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠

(٢) المقریزی ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٤٤

(٤) فييت ، المواصلات في مصر ، مقال في كتاب « في مصر الاسلانية » ،

ص ٣٩

وقد أتيج لمصر منذ ما يقرب من شهرين أن تسترد هذه الرفات المقدسة التي استقبلت بالقاهرة في احتفال سهيب .

الذى تفقد إليه السفن التجارية -معاملة سلع الشرق والغرب ، هـ لذلك نافست بغداد في الزعامة التجارية (١) ، كما أنها أصبحت محطاً رئيسياً للسفن القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر . وكان بعد بلاد المغرب وانقطاعها عن المشرق الإسلامى مركز الحضارة الإسلامية ومهددا ، واحتكاكها بالعالم الأوروبى أثر كبير فى تطلع أهل المغرب والأندلس للرحلة إلى الشام ومصر والعراق ، لتلقى العلم على شيوخ البصرة فى المراكز الثقافية المختلفة بهذه الأقطار ، كما دفع تطرف بلاد المغرب والأندلس عن دار الخلافة العلماء والأدباء المشاركة الذين ضاق المشرق بمواهبهم إلى الرحلة إلى تلك البلاد واستيطانها ، إما التماسا للعمل فى مختلف مراكزه ، ورغبة فى تحصينه على شيوخه فى تلك المراكز العلمية (٢) ، أو سعيًا

(١) حسن ابراهيم حسن ، ص ٦١٠ . ويذكر هايد أن الاسكندرية كانت ترتبط تجارياً مع بلاد أوروبا مثل مدينة أسافى التى كان لها فنادق كثيرة فى الاسكندرية وجنوة التى كانت لها جالية من أكبر الجاليات الأجنبية بالاسكندرية ، وكذلك مدينة البندقية التى كانت سفنها تزود الاسكندرية بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن وسعدن الحديد .

Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge, t. I., p. 105, Leipzig, 1923.

(٢) من أسنده الرحلات العلمية : رحلة المهدي بن تومرت إلى المشرق ، فقد ذكروا أنه جاز البحر إلى الأندلس طلباً للعلم ، وركب مركباً من المرية إلى المشرق ، وغاب فى رحلته فى طلب الهدية عاملاً . وعند عودته نزل بالاسكندرية وتردد على مجلس الفقيه الطرطوشى ، ثم ركب البحر فى سفينة من الاسكندرية إلى المهديّة (راجع ابن القفلان ، ص ٣٩) ، ومنها رحله الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة الذى رحل إلى المشرق فى سنة ٤٧٦ هـ ، حج فيها وأخذ العلم فى بغداد والبصرة ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ، واستقر به المطاف فى ثغر الاسكندرية .

للتجارة (١)، أو رغبة في أداء فريضة الحج (٢). ولقد عقد المقرئ في كتابه «نفح الطيب بابين كبيرين أفردهما الذكر الوافدين على الأندلس من المشرق وإلى المشرق من الأندلس» (٣). وهكذا التحم المشرق بالمشاب علمياً واقتصادياً وفنياً عن طريق الرحلات البحرية.

وكان لتعدد الرحلات البحرية التجارية، والمدنية، أثر كبير في حلق البحريين المسلمين لطرق الملاحة في البحر المتوسط، فقد كانت السفن تنقل بصفة مستمرة بين ثغور المغرب وبرقة مثل قصر طلميثة وطرابلس وسوسة والمهدية وتونس وبين الإسكندرية ودمياط وتنيس وطرابلس الشام وغيرها، أو بين المرية ومالقة وإشبيلية وبين الإسكندرية وغيرها من مرافئ مصر والشام، تحمل إلى المغرب سلع المشرق، كالتوابل (٤) والسكر والمسك ومواد الصباغة والدباغة والصمغ والكهرمان والحنطة والمواد الصيدلانية والعطرية (٥) والثياب المنسوجة بالإسكندرية بوجه خاص، والتي يذكر المقرئ أنه «لا نظير لها وتحمل إلى أقطار الأرض» (٦) والشرب الإسكندرية والمفرج

(١) من أمثال هذه الرحلات التجارية رحلة التاجر الفارسي الفسوي أبي يزيد ثيمة بن موسى بن الفرات إلى الأندلس الذي ركب سفينة من مصر إلى الأندلس، وكان يتجر في الوشي، وعاد من الأندلس إلى مصر فات بها في سنة ٢٣٧ هـ (الحميدى ص ٣٤٠).

(٢) من أمثال الرحالة الذين أدوا فريضة الحج ابن جبير والعبدي وأبو بكر بن العربي والوزير أبو عبد الله محمد بن عبد ربه وغيرهم.

(٣) سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٢١٢

(٤) مثل البهار والفلفل والزنجبيل والقرنفل

(٥) الطاهر أحمد المكي، معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر، مجلة المجلة،

العدد ٤٩، يناير ١٩٦١ ص ٨٨

(٦) المقرئ، الخطط، ج ١ ص ٢٨٦

الإسكندراني الخامس بالبلد - رح (١) والشاش الإسكندري والسقلاطون ،
ومثل الوشي الذي كان يحمل بثنيس ودمياط والإسكندرية ، والبز الذي
يصنع في دبيق والسبور في الهند (٢) . كذلك كانت تحمل إلى المغرب
المنتجات الخزفية والبردي الذي اشتهرت مصر بصناعته . وكانت هذه السفن
تحمل إلى المشرق منتجات المغرب والأندلس وهي عديدة وأهمها الزيتون
الذي كان يزرع في زويلة بالمهدية ويتجهز بزيتته إلى سائر بلاد المشرق (٣) ،
وكذلك زيت برقة وزيت سفاقس (٤) ، وزيت قابس (٥) ، والفستق الذي
كان يحمل من قنصه وشط الحريد إلى مصر (٦) والثياب والعصائم
السوسية (٧) والثياب الصوفية والعصائم أو المآزر المصنوعة في أنتمات وريكة (٨)
والثياب الحريرية من قابس (٩) ، وجلود النمر والبقر التي كانت تصل
إلى برقة من أوجلة وتتجهز بها المراكب القادمة من الإسكندرية (١٠) ، وجلود

(١) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٥٩

(٢) السيوطي ، ج ٢ ص ١٩٣

(٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩

(٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٢٠ - ابن حوفل ،
صورة الأرض ، ص ٧٢

(٥) الإدريسي ، ص ١٠٦

(٦) البكري ، ص ٧

(٧) الإدريسي ، ص ١٢٥ - التجاني ، الرحلة ، ص ٢٠٦

(٨) الإدريسي ، ص ٦٦

(٩) البكري ، ص ٩٧ - الإدريسي ، ص ١٠٦

(١٠) الإدريسي ، ص ١٣١

اللمط وقرونيه (١) ، والورق من أودنغست (٢) ، والصوف والعسل والتبر من مدينة تكروور وغانة (٣) ، ومن أودنغست (٤) ، ويشترى أكثره أهل ورجلان ، والشب الكوارى من انكلاس وأبر ، وتعلمة من بلاد كوار وكوكو (٥) ، والغضار والخزف من تونس (٦) . والورق من فاس (٧) . ومن برقة كانت السفن تحمل القطران والجاود للدباغ . ومن قصر طلميثة بليبيا يصدر الكتان والقطن والعسل والقطران والسمن إلى الاسكندرية (٨) ، ومن الأندلس يصدر الزيت من إشبيلية إلى الإسكندرية (٩) والمشرق (١٠) ، ومن قرطبة الزئبق (١١) ، ومن المرية (١٢) ومالقه (١٣) الوشى الذى يصدر إلى المشرق (١٤) ، ومن مرسية البسط التنتلية (١٥) ومن مرسية والمرية

-
- (١) البكرى ، ص ١٧١
(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٨
(٣) الادريسي ، ص ٣ ، ٧
(٤) البكرى ، ص ١٥٩
(٥) الادريسي ، ص ٣٨ — ٤٠
(٦) ابن حوقل ، ص ٧٥
(٧) الجزنائي ، زهرة الأس فى بناء مدينة فاس ، ص ٣٣
(٨) الادريسي ، ص ١٣٦
(٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٩٩
(١٠) العذري ، ترصيع الأخبار ص ٩٥ — الحميرى ، ص ٩٠
(١١) الادريسي ، ص ٢١٣
(١٢) المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٧
(١٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٠٦
(١٤) الضبى ، ص ٤٦٨
(١٥) المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٧

ومالقة الزجاج والفخار المزجج والزليجي (١) ، ومن شاطبة الورق (٢) ومن مالقة التين الملقى الذي كان يحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند (٣) .

وكانت معظم السفن التجارية القادمة من المغرب تسير بجذاء الساحل الإفريقي ، وترسو بشغور تونس وبرقة حتى تصل إلى الإسكندرية ، ومنها تخرج إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتينيس ، وسواحل الشام (٤) . وذكر ناصر خسرو أن بحر الإسكندرية يمتد حتى القيروان (٥) ، ولعل ذلك يوضح لنا السبب في بداية تأصل التقاليد المغربية في جميع مناحي الحياة السكندرية أدبية ومادية .

(١) المقرئ ، ج ١ ص ١٤٥ ، ١٨٧

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٦

(٣) الادريسي ، ص ٢٠٠

(٤) البكري ، ص ٨٦

(٥) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٤٤

(٣)

منشآت الفاطميين في الاسكندرية

شهدت الاسكندرية في العصر الفاطمي ازدهاراً عظيماً في الحياة الفنية والاقتصادية والعلمية ، ورخاء لم تشهد له نظيراً من قبل ، وتدفقت عليها الثروات التي يعبر عنها ما كانت تحتويه خزائن قصور الفاطميين من الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسروج والخيام والأدم ما نوه به المقرئ في خطه (١) . وقد أورد المقرئ نقلًا عن ابن سعيد مثلاً يدل على عظم الرخاء في الاسكندرية في العصر الفاطمي ، فروى أن الأمر بأحكام الله قلده المؤمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة ، أخا الوزير المأمون بن البطاحي ولاية ثغر الاسكندرية في غرة سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ، ونخلع عليه « بدلة مذهبة نخاص من لباس الخليفة ، وطوق ذهب وسيف ذهب بغير منطقة ، وشرف بتقبيل يد الخليفة في مجلسه ، وسلم إليه تقليد لفافة مذهبة بولاية الاسكندرية والأعمال البحرية ، وشدت له الأعلام والقصب الفضة والعماريات ، وحمل بين يديه الأكياس برسم التفرقة ، وحجبه الأمراء والأستاذون » (٢) .

فلما وصل حيدرة إلى الثغور مرض ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضرة القاضي مكين الدولة بن حديد ، « فأمر (ابن حديد) في الحال بعض غلمانته بالمضي إلى داره ليحضّر الدهن المذكور ، فلم يكن أكثر من مسافة

(١) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٥٤ - ٢٧٥

(٢) المقرئ ، اتعاظ الخنفا ، ص ١٢٦ ب

الطريق حتى أحضر حقاً مختوماً، فاك عنه، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته ، فعندما أحضره الرسول تعجب المؤمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر إنعامه ، وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه ، فكان جواب المؤمن : قد قبلته منك لا حاجة إليه ولا لنظر فى قيمته ، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها . وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار « (١) . » . فعلق المقرئ على ذلك بقوله : « فانظر رحمك الله إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة ، فإذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات . وهذا إنما هو حال قاضى الاسكندرية ، ومن قاضى الاسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ، وما نسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبتهتها إلا يسير حقير » (٢) .

وينعكس الانتعاش الاقتصادى الذى أصابته الاسكندرية فى العصر الفاطمى فيما أنشئ فى هذا العصر بها من منشآت متعددة الأغراض : حربية ومدنية ودينية ، وفيما يلي استعراض موجز لأهم هذه المنشآت :

(١) المنشآت الحربية :

رأينا فيما سبق كيف تخرب سور الاسكندرية وفتحت فيه ثغرات واسعة

(١) اتعاظ الخنفا ، ص ١٢٧ — الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٢ — المقرئ ،

ج ٣ ص ٦١

(٢) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣

بعد أن تعرض لقذائف مجانيق عمرو بن العاص ، ولا يستبعد أن تكون هذه الثغرات قد ازدادت بمضى الزمن اتساعاً إلى أن رمت ترميها مؤقتاً في أواخر القرن الثاني وقبل نزول الأندلسيين بئر الاسكندرية . غير أن ما تعرضت له الاسكندرية إبان فتنة الصوفية والأندلسيين والرخمين من حصار الجروى لها ولأسوارها عدة مرات يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه الأسوار تخربت من جديد ، بدليل أنها تعرضت لقذائف المنجنيقات ، وقد أصيب الجروى بشظية حجر أثناء حصاره لها مدة سبعة أشهر ، وتوفي في صفر سنة ٢٠٥ هـ . ثم حوّطت الاسكندرية بسور جديد في العصر الطولوني ، ونرجح أن هذا السور الجديد تم إنشاؤه في إمارة أحمد بن طولون ، وقد خرجت من السور الجديد مناطق كانت مهجورة ، وانحسر لذلك عمران الاسكندرية وانكمشت رقعته بصورة واضحة . أما أحجار السور القديم فيغلب على الظن أنها استخدمت في بناء السور الجديد أو في بنيان العماير الدينية والمدنية وهو أمر كان شائعاً في تاريخ العمارة الإسلامية .

ولا شك أن بنيان سور الاسكندرية تأثر تأثيراً شديداً بالحركات الثورية والفتن التي نشبت في الاسكندرية إبان العصر الفاطمي : فمن حركة ناصر الدولة بن حمدان ، وقيام بدر الحمالي باستنزال الثوار بها ، إلى حركة الأوحدي ابن بدر الحمالي ، إلى نوبة الاسكندرية أو الحركة النزارية بها . وفي هذه الحركة الأخيرة استخدم الأفضل لاختادها المجانيق ، وألح في القتال ، وضرب الأسوار بالأحجار واللهب على النحو الذي ذكرناه حتى استسلم له نزار وأفتكين . ثم حظيت مدينة الاسكندرية بوال من أنشط ولايتها وأكثرهم ولعاً بالبنيان ، وكلفا بالإصلاح ، ذلك هو المؤتمن ، سلطان الملوك ، نظام الدين ، أبو تراب حيدرة الذي لم يتردد في إصلاح هذه الأسوار وتجديد ما تهدم منها

بالبنيان ، ويذكر المقرئى فى اتعاظ الحنفا ، أنه فى سنة ٥١٧ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها المؤتمن ولاية الاسكندرية والأعمال البحرية « جددت سمارة سور الاسكندرية » (١).

ولى أبى الأشبال ضرغام ، أحد أمراء الاسكندرية ، ينسب بناء برج عرف ببرج ضرغام عند باب البحر فى سنة ٥٥٧ (٢) ، والظاهر أن هذا البرج كان المقصود به تمكين الدفاع فى موضع من أكثر المواضع تعرضاً لطروق العدو ونزوله ، ولا نستبعد أن يكون هذا البرج قد أدى خدمة كبيرة للدفاع السكندري إبان حصار الفرنج وشاور لصالح الدين فى سنة ٥٦٣ هـ ، وفى حملة ولیم الثانى صاحب صقلية على الاسكندرية فى سنة ٥٦٩ (٣). وقد أحرق هذا البرج فى غزوة القبارصة سنة ٧٦٧ (٤).

ويبدو أنه استعوض عن هذا البرج فى عصر المماليك الشراكسة ببرج قايتباى الذى أقيم على أساس منار الاسكندرية .

(ب) المنشآت المدنية :

عمرت الاسكندرية فى العصر الفاطمى بالمباني الفخمة ، والقصور السامقة ، والرياض النضرة ، والدور الحليمة ، ولا عجب فى ذلك لأنه عصر شاع فيه نوع من الترف ، واستمتع القوم من أعيان المدينة وتجارها بحياة رغدة مترفة ، فأقبلوا على التأنق ، وولعوا بالانشاء ، ويسجل شجر الاسكندرية فى هذه

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ ب

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٤

(٤) النوبرى السكندري ، (مخطوطة) ص ٨٤ ا

الفترة بأشعارهم تصويراً رائعاً لبعض هذه القصور والمعاهد : فهذا أبو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمي السكندى المعروف بابن قلاقس ، أحد شعراء الاسكندرية العظام (ت ٥٦٧هـ) في العصر الفاطمي يصف قصر بني خليف ، وهو قصر كان مقاماً في منطقة الرمل بظاهر الاسكندرية من الجهة الشرقية ، وكان قصرأ راسخ البنيان ، عظيم الارتفاع ، قد « رسا بناؤه وسما ، وكاذ يمزق بمزاحمته أثواب السما وحبته الرياض بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها ، والرمل بفنائها قد نثر تبره في زبرجد كرومه » (١) ، فيقول :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت	فيه السريـاض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سمـوه	وثنى قصور الروم ذات قصـور
لاث الغمام عمـامة مسكية	وأقام في أرض من الكافـور
غنى الربيع به محاسن وصفـه	فافتـر عن نور يروق وثـور
فالدوح يسحب حلة من سنـدس	تـزهى بلؤلؤـه طلـها المـشور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت	بسبائك المنظـوم والمـشور
والرمل في حبك النسيم كائـمـا	أبدى غصـون سواف المـدعور
والبحر يرعد متنـه فكائـمـه	درع تشن بمعطفـه مقـرور
وكأنـا والقصر يجمع شـمـلـنا	في الأفق بين كواكب وبـسـور
وكذاك دهر بني خليف لم يزل	يشنى الماطف في حـبـير حـبـور (٢)

(١) على بن ظافر الأزدي ، بدائع البدائـه القاهرة ، ١٢٧٨ هـ ، ص ١٧٥

(٢) ابن ظافر ، المصدر السابق — المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٤٠ — أحمد النجار ، الانتاج الأدبي في مدينة الاسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٦٥ — عبد العليم القباني ، شعراء الاسكندرية في العصور الاسلامية ، مجموعة كتب « مذاهب وشخصيات » عدد ١٠١ ، ص ٥٣

وهذا ابن مكنسة أبو الطاهر اسماعيل أحد شعراء الاسكندرية في العصر الفاطمي (ت ٥١٠ هـ) يصف متنزها من متنزهات الاسكندرية ذات غدير ، فيقول :

ذات غدير خلته	صرح زجاج مردا
ثم انثنى منعطفاً	مرتعشاً مردداً
خاف من الريح وقد	همت به فارتعدا
كأنما يبد الصببا	مدت عليه زردا

وهذا ظافر الحداد (ت ٥٢٩ هـ) يصف روضة على خليج الاسكندرية فيقول :

والماء يبدو في الخليج كأنه	أيم لسرعة سره مخفوز
والروض في حلل النبات كأنما	فرشت عليه ديابج وخزوز
والزهري يوههم ناظريه بأنه	ظهرت به فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق وساقط طاله	در ونور بهاره لإبريز
و كأنما القمرى ينشد مصرعا	من كل بيت والحمام يحيز (١)

ومن أشهر قصور الاسكندرية في زمن الفاطميين قصر قاضيها مكي بن الده لة أبي طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد (٢) ، وقد

(١) عبد العليم القباني ، المرجع السابق ص ٩٠

(٢) ورد ذكره من قبل ، ولعله أندلسي الأصل من أسرة ابن حديدي الطليطلية التي كان أفرادها يتولون الوزارة أيام الطوائف لبنى ذى النون ، وكان منهم القضاة ، وقد قام أحد أفراد هذه الأسرة واسمه أحمد بن حديدي بإنشاء مسجد الباب المردوم بطليطلة في سنة ٣٩٠ هـ (ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مجلد ١ قسم ٤ ص ١١٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٧ - السيد عبد العزيز الم ، المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٥١ - تاريخ المسلمين وآثارهم في

زودنا المقریزی بوصفه لجرن هذا القصر فقال : « وكان بالاسكندرية القاضي
مكن الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد ،
قد استولى على أمورهما ، وصار قاضيهما وناظرهما ، ولم يبق لأحد معه فيها كلام ،
وضمن أموالها بحملة يحملها ، وكان ذا مروعة عظيمة يحتمل أفعال البرامكة ،
وللشعراء فيه مدائح كثيرة ، ومن مدحه ظافر الحداد ، وأمىة بن أبي الصلت
وجماعة . وكان الأفضل ابن أمير الحيوش إذا أراد الاعتناء بأحد ، كتب معه
كتاباً إلى ابن حديد هذا فيغنيه بكثرة عطائه . وكان له بستان يتفرج فيه ، به
جرن (١) كبير من رخام قطعة واحدة ، ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ،
وكان يجد في نفسه برؤية هذا الجرن زيادة على أهل النعيم ، ويباهى به أهل
عصره ، فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة (٢) ، فطلبت منه الخليفة ، فأنفذ في
الحال بإحضاره ، فلم يسع ابن حديد إلا أن قلعه من مكانه وبعث به ، وفي
نفسه حزازة من أخذه منه ، وخدم البدوية وخدم جميع من يلوذ بها حتى

= الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٣٠٤ . وقد أسر القادر بالله يحيى بن ذى النون
ذلك طليطلة بقتل ابن حديد المذكور ، وقد يكون القاضي أحمد بن حديد من أعقاب
هذا الوزير الشهيد ، نزح إلى الاسكندرية بعد سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين
سنة ٤٧٨ هـ . ولا عجب في ذلك إذ أن كثير آسن أهل الأندلس وفدوا إلى المشرق
وبعضهم نزل بالاسكندرية .

(١) الجرن حوض من الرخام يتجمع فيه ماء النافورة .

(٢) أغرم الأمر بأحكام الله ببدوية فأحبها وتزوجها ، وابتنى لها قصراً في روضة
بصر سماء الهودج ، يقع بجوار البستان المختار ، وكان يتردد إليه كثيراً ، وقتل وهو
يتوجه إليه (راجع المقریزی ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٨١ ، ج ٣ ص ٩١ - المقری ،
نفح الطيب ، ج ٣ ص ٥٨) .

قالت : هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه وتحفه ، ولم يكلفنا قط أمراً نقدر عليه عند الخليفة مولانا . فلما بلغه ذلك عنها قال : مالى حاجة بعد الدعاء لله تعالى بحفظ مكانها وطول حياتها غير رد الجرن الذى أخذ من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمهم إلى مكانه . فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه ، وأمرت برد الجرن . فقيل له : قد وصلت إلى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك إلى قطعة حجر ؟ فقال : أنا أعرف ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الجرن من مكانه ، وقد باعها الله أمالها « (١) .

وإلى جانب هذا النوع من المنشآت نضيف مؤسسة علمية لها أهميتها فى هذا العصر وهى المدرسة ، فلقد شهدت الاسكندرية فى العصر الفاطمى ظهور مدرستين سنيتين وذلك قبل أن ينتشر نظام المدارس السنية فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية ، وأقدم هاتين المدرستين المدرسة العوفية (٢) التى أسسها الوزير رضوان بن ولحشى فى ثغور الاسكندرية فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨) فى خـلافة الحافظ لدين الله ، وتولى التدريس فيها الفقيه أبو الطاهر بن عوف شيخ المالكية بالثغر (٣) ، وكانت تقـع بشارع

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ص ٩١ ، ٩٢

المقرئى ، ج ٣ ص ٦٠

(٢) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ص ١٣٩ — وتعرف هذه المدرسة أيضاً بالحافظة (القلقشندى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ — ابن حجر ، ج ١ ص ٣١٦) .

(٣) هو أبو الطاهر اسماعيل بن سكى بن عيسى بن عوف الزهرى الاسكندراني ، يرتفع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابى ، تفقه على أبى بكر الطرطوشى ، وسمع منه ابن أبى عبد الله الرازى ، وبرع فى المذهب المالكى ، وكان صلاح الدين يتردد عليه ويسمع منه الموطأ ، وتوفى فى شعبان سنة ٥٨١ عن ٩٦ سنة (الذهبي ، =

المحجة (١) . أما المدرسة الثانية فهي المدرسة السلفية (٢) التي أسسها والى الاسكندرية على بن السلار في سنة ٥٤٤هـ أثناء ولايته على الاسكندرية وقدم للتدريس فيها الحافظ أبا الطاهر أحمد بن محمد السلفي (٣) .

= العبر، ج ٤ ص ٢٤٢ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٤ - حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ٣٨٣ - جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية ، ١١٢ - ١٢٥) .

(١) القلقشندي ، ج ١٠ ص ٤٥٨

(٢) ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية في التاريخ ، طبعة مصر ١٩٣٢ ، ج ١٢ ص ٣٠٧ - السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٤٥ - المقرئ ، اتعاظ الخلفاء ، ص ١٤٤ . وتعرف هذه المدرسة أيضاً بالمدرسة العادلية ، نسبة لمؤسسها العادل بن السلار .

(٣) الحافظ السلفي هو أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني الجرواني ، سمع من أبي عبد الله الثقف وأحمد بن عبد الغفار بن اشتة ، وسكى السلار بأصفهان ، وحدث في أصفهان في سنة ٤٩٢ هـ ، وكان قد بلغ من العمر سبع عشرة سنة ، ثم رحل إلى بغداد وحج ، وسمع بالكوفة والحسين والبصرة وهمدان وأذربيجان والري والدينور وقزوین وزنجان ، والشام ومصر ، و « تفقه ، فأتقن مذهب الشافعي ، وبرع في الأدب ، وجود القرآن بالروايات ، واستوطن الاسكندرية بضعا وستين سنة سكباً على الاشتغال والمطالعة والنسخ وتحصيل الكتب » (الذهبي ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٢٨) قدم إلى الاسكندرية في سنة ١١ هـ وعاصر بها من تلامذة الطرطوشي أبا الطاهر بن عوف وسند بن عنان ، وكان السلفي أواخر زمانه في علم الحديث ، وأعلمهم بقوانين الرواية ، وتوفي في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ ودفن بمقبرة وعلة (السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٤٥ - ابن كثير ، ج ١٢ ص ٣٠٧ - السيوطي ، ج ١ ص ١٦٥) ودفن داخل الاسكندرية بمقبرة وعلة قريباً من داره التي كان يسكنها ، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر ، دفن فيها أيضاً جماعة من الصالحين كالطرطوشي وغيره .

(ج) المنشآت الدينية :

وأعنى بها المساجد والأربطة والزوايا والأضرحة ، وللأسف الشديد لم تزودنا المصادر العربية إلا بأسماء ثلاثة مساجد ، أحدها مسجد جامع هو جامع العطارين ، والآخران مسجدان صغيران ، وبضريح واحد للطرطوشي .

١ - جامع العطارين :

تحدثنا فيما سبق عن جامع العطارين عندما تعرضنا لذكر ثورة الأوحى بن أمير الحيوش بدر الحمالي بالاسكندرية فى سنة ٤٧٧ ، وأشرنا إلى أن أمير الحيوش فرض على أهل الاسكندرية مبلغاً قدره مائة وعشرون ألف دينار ، بجدد بها بناء جامع العطارين المذكور ، وسجل ذلك فى اللوحة الرخامية المثبتة بأدنى المئذنة ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، مما أمر بانشائه السيد الأجل أمير الحيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضية المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغرى الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خراباً ، فرأى بحسن ولائه ودينه ، تجديده زلفاً إلى الله تعالى ، وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة » (١)

وقد عرف هذا الجامع بجامع العطارين لوقوعه بالقرب من سوق

(١) Repertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t.7, Le Claire,

1936, p 225

حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٦٧

العطارين (١) ، وبالجوامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى الذى تولى تجديدده وعمارتة (٢) . وبانشاء جامع العطارين أصبح للاسكندرية مسجدان جامعان : الجامع الغربى ، وهو الجامع العتيق ، الذى أسسه عمرو ابن العاص وعرف بجامع الألف عمود ، والجامع الشرقى ، الجديد ، ويذكر النويرى السكندرى أن بانيه « من الشيعة الذين يقولون فى أذانهم حى على خير العمل ، فدام ذلك فى الأذان بالجامع المذكور إلى أن انقرضت دولة العبديين من الشيعة ، وأقبلت دولة السنيين ، فأبطلوا منه ما كانت الشيعة تقول فى أذانهم ، ثم بطلت الخطبة والجمعة منه واستمرت بالجامع الغربى مدة سنين ، فلم يزل كذلك إلى أن ولى قضاء الاسكندرية فخر الدين أحمد بن مسكين الشافعى عوضاً عن المالكية لأمر بطول شرحها ، وذلك فى دولة السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون ، فأقام به الخطبة والجمعة ، فاستمرت به إلى الآن » (٣) .

وقد تعرض جامع العطارين لبعض الأضرار ، ففى ١١ من ذى القعدة سنة ٧٧٢هـ سقط عمود من أعمدته تكسر إلى قطع ، ولم يحدث بسقوطه أى ضرر ، وكان ناظره إذ ذاك قاضى القضاة كمال الدين ابن قاضى القضاة جمال الدين ابن شمس الدين سبط التنيسى ، فانترع قاضى القضاة كمال الدين عموداً من الجانب البحرى من الجامع ووضع مكان العمود المكسور ، وأخذ عموداً من فندق الموز الواقع بشارع المرجانيين ، « المهلم بفعل الفرنج حين الوقعة »

(١) النويرى ، الامام بما قضت به الأحكام ، مخطوطة ص ٦٣ ب - السيوطى ،

ج ٢ ص ١٣١

(٢) النويرى ، المصدر السابق

(٣) نفس المصدر

ووضعه مكان العمود بسرعة، وفي المحرم سنة ٧٧٣ هـ رُم الجوامع الشرقى أو الحيوشى وكسى بالبياض (١) . وكان لجامع الحيوشى فى صحنه روضة خضراء ، وفيه يقول النويرى :

حوى روضة خضراء فى وسط صحنه فأصبح ذاك الروض ريان مترعا (٢)

ومن المعروف أن غرس الصحن بالرياض كان تقليداً متبعاً فى مساجد المغرب والأندلس منذ أن أسس عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة سنة ١٦٩ هـ، وعهد إلى عبد الله بن صمصمة بن سلام، صاحب الصلاة بالمسجد، بأن يغرس صحنه بالأشجار (٣) .

ويبدو أن هذا الجامع لم يلق العناية الكافية فى أواخر عصر المماليك وبداية العصر العثمانى فتصدعت جدرانہ ، وتهافت سقفه ، ووصل إلينا فى أوائل القرن العشرين خرباً مهتماً ، فأمر عباس حلمى بتجديد عمارته فى سنة ١٩٠١ ولم يتبق للأسف من عمارته الأولى ما يدل عليه سوى البقعة التى أسس عليها واللوحة التذكارية .

٢ - مسجد الطروطوشى :

صاحب هذا الجامع هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف ابن سليمان بن أيوب الفهرى الطروطوشى الأندلسى نزيل الاسكندرية ، المعروف بابن أبى رندقة (٤) ، وكان الطروطوشى ، أثناء توديعه للوزير المأمون

(١) النويرى السكندرى ، اللام ، ص ١٦٣ ب .

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ، ص ١٩ -

تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ، ص ٣٨٦

(٤) ولد أبو بكر محمد الطروطوشى فى بلدة طروطوشة بالأندلس فى ٥١٤ هـ وتلقى العلم =

ابن البطائحي ، بعد انتهاء زيارته له ، الزيارة التي أهداه فيها مصنفه سراج الملوك» سنة ٥١٦ ، قد أفضى إليه بما عزم عليه من انشاء مسجد بظاهر الشجر على البحر ، فلقى هذا الاقتراح اهتماماً خاصاً عند الوزير ، وكتب إلى ابن حديد قاضي الاسكندرية « بموافقة الفقيه الطرطوشي على موضع يتخير به ، وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال

= في طرطوشة وسرقسطة ، حيث أخذ على أبي الوليد الباجي وصحبه ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجاز له ، ثم رحل إلى المشرق في سنة ٤٧٦ هـ فحج ، ودخل بغداد والبصرة فتفقه عند أبي بكر الشاشي وأبي أحمد الجرجاني ، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري ، وسكن الشام فترة درس خلالها بدمشق ، ثم استقر به المقام في الاسكندرية حيث تزوج بها خالة أبي الطاهر بن عوف ، وألف كتابه سراج الملوك وانتهى سن تصنيفه في ٥١٦ هـ ، فرحل إلى القاهرة في شوال ٥١٦ هـ وأهداه إلى الوزير المأمون البطائحي الذي أكرمه بعد أن تعرض الطرطوشي وخادمه لاضطهاد الوزير الأفضل . وكان الطرطوشي عالماً زاهداً ورعاً متقشفاً ، وكانت وفاته في شعبان سنة ٥٢٠ هـ وفقاً لبعض الروايات ، وفي جمادى الأولى ٥٢٥ هـ وفقاً لروايات أخرى ، وذكر المقرئ أنه زار قبره سراراً قبالة الباب الأخضر بالاسكندرية ، وبازال ضريحه موجوداً حتى يومنا هذا . (راجع في ترجمة الطرطوشي: ابن بشكوال ، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، مجلد ٢ ، مدريد ١٨٨٣ ص ١٨٥ الضبي ، ص ١٢٥ - ١٢٨ ، الذهبي ، العبر ، ج ٤ ص ٤٨ - السيوطي ، ج ١ ص ٢١٣ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٩٣ - وراجع أيضاً :

Francisco Pons Boigues, Ensayo Bio-bibliografico sobre
Los historiadores Y Geografos arabigo - espanoles, Madrid , 1898, p.183.
Maximiliano Alarcon, Lamparade los Principes, Madrid, 1930
(el Prologo)

جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ٥٠ - ١٠٠
وكتابه أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر ، في سلسلة أعلام العرب عدد

الدولة» (١)

ومضى الطرطوشى إلى الاسكندرية ، فبنى المسجد المذكور على باب البحر من خارج السور فى سنة ٥١٦ هـ (٢) . وقد ضاعت معالم هذا المسجد فى الوقت الحاضر ، وإن كان على مبارك باشا قد أثبت أنه كان متخرباً فى أيامه ، وأنه أصلح فى سنة ١٨٥٣ على يدى السيد ابراهيم مورو ، وأن والدته الخديوى إسماعيل أتمت تجديده (٣) . ولكن الظاهر أن على مبارك كان يقصد ضريح الطرطوشى

٣ — مسجد المؤتمن :

من المعروف أن المؤتمن سلطان الملوك ، نظام الدين أبا تراب حيدرة تولى أعمال الإسكندرية فى غرة سنة ٥١٧ هـ ، ولذلك فإن المسجد الذى بناه بئر الإسكندرية لم يبن قبل هذا التاريخ كما يذكر بعض الباحثين (٤) وإنما

(١) المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٥ ب .

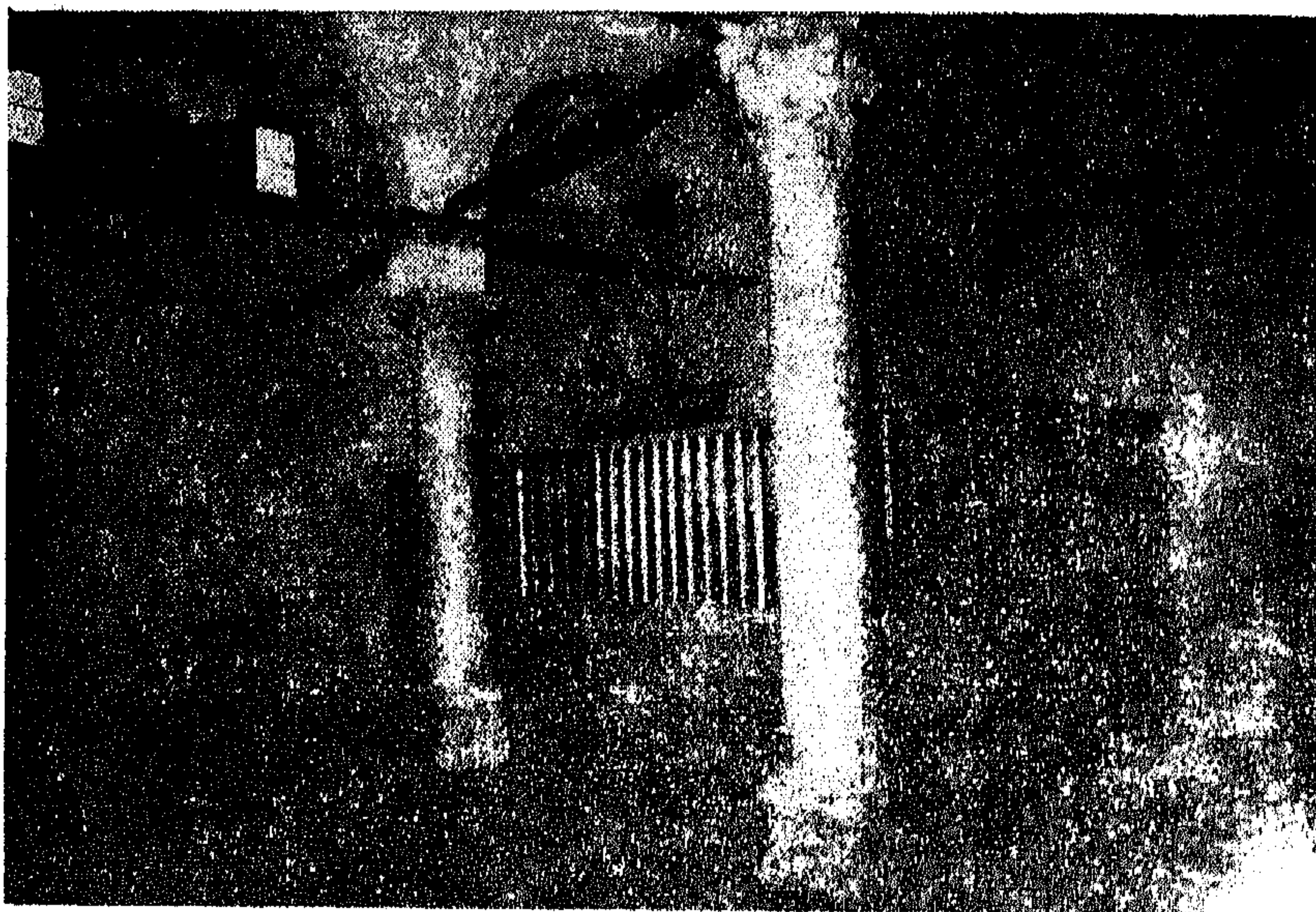
(٢) ذكر المرحوم الأستاذ الدكتور الشيال أن هذا المسجد أقيم فى خلافة الأمر بأحكام الله سنة ٥١٠ هـ سن مال الديوان السكندرى (الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ، بالمجلة التاريخية المصرية ، ص ٢١٧) والواقع أن هذا المسجد بنى فى سنة ٥١٦ هـ ، وفقاً لخطوة اتعاظ الحنفا التى استند عليها المرحوم الدكتور الشيال نفسه ، وقد تكرر ذكر هذا التاريخ (٥١٠) خطأ فى كتابه تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى الذى صدر فى سنة ١٩٦٧ ص ٤٣

(٣) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ص ٧٠ .

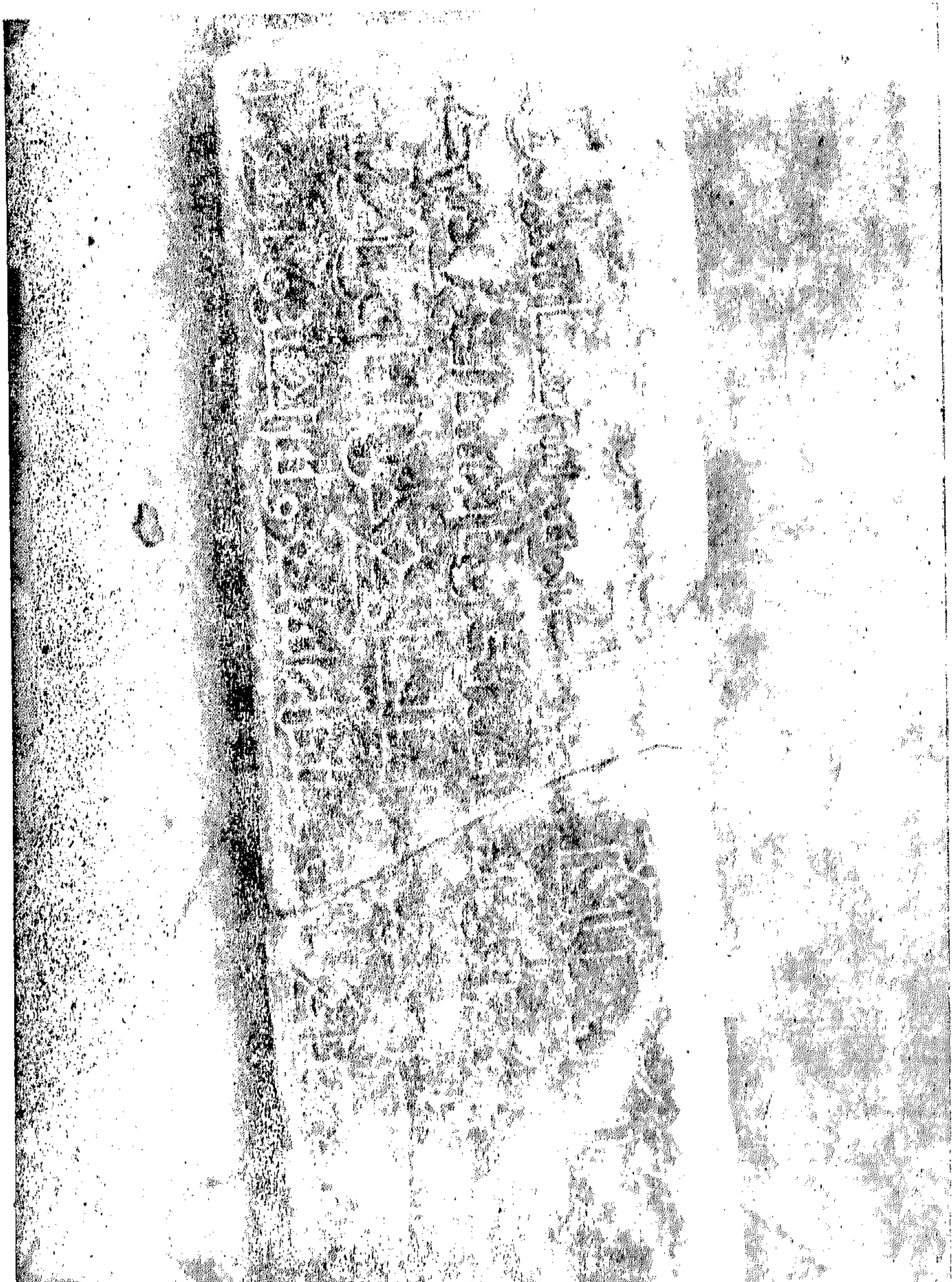
(٤) ذكر المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال أن المؤتمن أقام هذا المسجد فى سنة ٥١١ هـ أو ما بعدها وهى نفس السنة التى عين فيها والياً على الاسكندرية والأعمال البحرية (الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة ، ص ٢١٨ — تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ٤٤) ويبدو أنه حدث لبس فى تحديد تاريخ تولية المؤتمن على ثغر =



ضريح الشيخ الطرطوشي من الخارج



ضريح الشيخ أبي بكر الطرطوشي من الداخل



اللوحة التأسيسية لجامع العطارين بالأمكندرية

أقيم على حد قول المقریزی عند مقام المؤتمن بالثغر أى بعد سنة ٥١٧هـ (١) ،
أقامه بالمحجة العظمى .

٤ — ضريح الطرطوشى :

أقيم فى الطرف الغربى من الإسكندرية ، قبالة الباب الأخضر من داخل
السور ، وهو الباب الشمالى الغربى من أبوابها (٢) وكانت هذه المنطقة تشغلها جبانة
تعرف بجبانة وعلة ذكرنا أن الحافظ السافى دفن فيها . ونشاهد آثار هذا
الضريح اليوم بالقرب من نهاية شارع الباب الأخضر بمنطقة الجمرك ، لصق
مسجد صغير . ويتكون الضريح من ستة أساطين ، ترتكز عقودها على
عمودين مركزيين ، تاجاهما من الطراز الكورنثى ، ويبدو أنهما اتخذتا من
بناء قديم . ويربط بين العقود بعضها ببعض أوتار خشبية . أما المحراب
فمخوفة محفورة فى الجدار القبلى ، ووجهه على شكل عقد من الطراز
الفاطمى .

ونود أن نصصح بهذه المناسبة خطأ كثيراً ما وقع فيه الباحثون ، وهو أن
ضريح الطرطوشى أقيم فى موضع آخر غير مسجد الطرطوشى ، فبينما الضريح

= الإسكندرية ، فالمصادر الموثوق بها والتي يستند عليها المرحوم الأستاذ الدكتور الشيبان
تجى على أن ولاية المؤتمن بدأت فى سنة ٥١٧هـ (المقریزی ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ ب
الخط ج ٢ ص ٣٤٤) . بل ان المأمون البطائحي الوزير لم يتول الوزارة الا بعد
مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ .

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٥ ب

(٢) المقری ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٩٣

يقوم بالقرب من الباب الأخضر في قبالته ، نجد مسجد الطرطوشي كان مقاماً خارج باب البحر ، ولكن الباحثين يخلطون بين المسجد والضريح (١) .

(١) على سبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٧٠ — جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية ، ص ١٠٠ . وقد خلط بعض المؤرخين المحدثين بين مسجد الطرطوشي وضريحه ، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى أن ضريح الطرطوشي زود بمصلى صغير شأنه في ذلك شأن الأضرحة والمشاهد في العمارة الاسلامية ، كمشهد السيدة رقية ومشهد الجيوشي بالقاهرة من العصر الفاطمي وضريح السلطان حسن وضريح المنصور قلاوون وضريح سلار وسنجر الجاولي من العصر المملوكي .

الفصل الثامن

الإسكندرية في العصر الأيوبي

- (١) أسباب اهتمام صلاح الدين وخلفائه بالإسكندرية .
 - (٢) مظاهر اهتمام صلاح الدين بالإسكندرية .
 - (٣) عمران الإسكندرية في العصر الأيوبي .
 - (٤) تجسّارة الإسكندرية
 - (٥) أهم أحداث الإسكندرية في عصر الأيوبيين .
- أ - حملة صاحب صقاية على الإسكندرية في سنة ٥٦٩ هـ .
- ب - أحداث الإسكندرية الداخلية .

الفصل الثامن

الإسكندرية في العصر الأيوبي

(١)

أسباب اهتمام صلاح الدين وخلفائه بالإسكندرية

ذكرت المصادر العربية أن صلاح الدين زار الإسكندرية أربع مرات في أعوام ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ هـ ، أولاها خلالها كثيرا من عنايته ، واختصها برعايته : فمن عمارة لأسوارها ، وتمكين لدفاعها البرى والبحرى ، إلى تعمير لأسطوطها وتقويته ودعمه ، ومشاركة في أعمال الإنشاء والبناء ، ورعاية لأولى العلم والتقوى من أهلها . كذلك تشير المصادر إلى أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين زار الإسكندرية مرتين . الأولى لتفقد أحوالها بعد وباء سنة ٥٩٢ ، والثانية للصيد في سنة ٥٩٥ ، وأن الملك العادل أبا بكر زارها ثلاث مرات في سنة ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦١٣ (١) ، كما زارها الملك الكامل محمد بن العادل في أيام سلطنته مرة في سنة ٦٢٨ .

ويرجع اهتمام صلاح الدين وخلفائه من بعده بشغل الإسكندرية إلى العوامل الآتية :

١ - كان للمشاعر النبيلة التي عبر عنها أهل الإسكندرية نحو صلاح الدين في سنة ٥٦٢ هـ أثناء قيام شاور وخلفائه الفرنج بحصار الإسكندرية ،

(١) Cahen, La Chronique des Ayyubides d'al-Makin b. al Amid,

وما بذلوه له من توضيحات مادية وأدبية، وما قدموه إليه من أموال وأسلحة وآلات وأرواح، أثر عميق في نفس صلاح الدين، أكده للمرة الثانية صمودهم الباسل، وتفانيهم في القتال أمام قوات صاحب صقلية وليام الثاني ابن وليم الأول بن روجر، التي نزلت على ساحل الإسكندرية في ١٦ ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ، ثم انتصارهم عليهم وتبعضهم لهم في البحر (١).

٢ - كان أهل الإسكندرية يميلون إلى المذهب السني، ويبغضون المذهب الإسماعيلي (٢)، ويعبر عن هذا الشعور ثوراتهم العديدة ضد الفاطميين، ومساعدتهم للثوار الخارجين على الحكومة المركزية. ويبدو أن سبب ذلك يرجع قبل كل شيء إلى تأصل جناور السنية على الأخص المذهبين المالكي والشافعي بها، وساعد على هذا التأصل ما كان يبذله فقهاء الإسكندرية من جهود لمناهضة التشيع. ومن فقهاء الإسكندرية المالكية: الفقيه أبو بكر الطرطوشي الأندلسي نزيل الإسكندرية، وأبو علي سند بن عنان بن إبراهيم الأزدي تلميذه (ت ٥٤١) وأبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى السكندري (ت ٥٨١)، وأبو القاسم بن مخلوف المغربي الاسكندري (ت ٥٣٣)، وقاضى الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد المالكي (ت ٥٨٩) (٣)، والحافظ السلفي (ت ٥٧٦)،

(١) بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٨، ٤٩ - أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢ ص ٥٩٨ - ٦٠٠، ابن واصل، سفرج الكروب، ج ٢ ص ١١ - ١٦، المقرئى، السلوك، ج ١ ص ٥٦.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ١ ص ١٥١ - التاريخ الصالحى، مخطوطه (صورة شمسية).

(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤.

وأبو الحسن علي بن المفضل بن علي المالكي (ت ٦١١) (١)، وأبو الوليد محمد ابن عبد الله بن خيرة القرطبي المالكي (٢). ومن فقهاء الشافعية أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن علي اللخمي الميورقي نزيل الإسكندرية (١٠) (ت ٥٢٣)، وشرف الدين أبو المكارم محمد بن عبد الله بن الحسن السكندري المعروف بابن عين الدولة (ت ٦٣٩) (٤).

وقد كان لهؤلاء الفقهاء، ومعظمهم من الوافدين على الإسكندرية من بلاد المغرب والأندلس، أثر كبير في تمسك أهل الإسكندرية بالمشهد السني. ومن العجيب أن يسهم بعض هؤلاء في تدريس الفقه في المدرستين السنيتين اللتين أقامهما وزيران سنيان للخلفاء الفاطميين الإسماعيلية، هما رضوان بن ونحشى وعلي بن السلال. وتعتبر الإسكندرية لذلك أول مدن مصر التي عرفت نظام المدارس السنية قبل أن تعرفها الفسطاط نفسها. كذلك ساعد على انتشار المشهد السني في الإسكندرية منذ النصف الأول من القرن السادس الهجري خروج إفريقية وانفصالها عن الخلافة الفاطمية بمصر، وانتصار المشهد المالكي بها على المشهد الإسماعيلي، على يد أميرها المعز بن باديس في سنة ٤٤٣ هـ (٥)، واتصالها بالإسكندرية عن طريق الوافدين المغاربة بقصد طلب العلم أو الحج أو التجارة. وكانت كثرة المغاربة في الإسكندرية، وهي ظاهرة واضحة في العصر الأيوبي، واشتراكهم في

(١) السيوطي، ج ١ ص ١٦٥

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ج ٣ ص ٩

(٣) السيوطي، ج ١ ص ١٨٩

(٤) نفس المصدر، ج ١ ص ١٩٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢ ص ٥٦٩ - ٦٦٥

أحداثها السياسية ونشاطها العلمي ، أكبر الأثر في حمل صلاح الدين على إنشاء دار لهم بالإسكندرية ، ويذكر ابن جبير أن السلطان صلاح الدين « عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغامابلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من فب . ، فقد انتهى في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة أو الكثرة » (١) . وظل المغاربة ينزلون الإسكندرية في طريقهم إلى الحج ، واستوطنها الكثير منهم . واتخذوها دار رباط ، حتى نهاية عصر المماليك ، وقد لعب المغاربة في وقعة القبارصة دوراً هاماً في الدفاع عن المدينة (٢) ، وكان الأمير يلغنا الخاصكي يكثر من قياد المغاربة على المراكب « لأنهم فرسان البحر لاعتيادهم ذلك » (٣) ، بل إن رئيس دار صناعة الإسكندرية في عهد السلطان الملك الأشرف شعبان ويدعى ابراهيم التازي (٤) ، كان مغربي الأصل من بلدة رباط تازي .

وهكذا كان ثغر الإسكندرية في عصر صلاح الدين قد عم فيه مذهب السنة إلى درجة أنه أمكن للأهالي بسهولة الكشف عن داعية شيعي يسمى قديد القفاص ، والقبض عليه وقتله (٥) . وكانت الإسكندرية أول مدينة في مصر قطعت الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وسبقت بذلك مدينتي الفسطاط والقاهرة ، فقد ذكر أبو شامة في الروضتين نقلاً عن العماد :

(١) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤٢

(٢) النويري السكندري ، الامام بما قضت به الأحكام ، ص ٢٧٧ ب

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٦ ب

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٢ ب

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٥٦٦ - ابن وادل بفرج الكروب

ج ١ ص ٢٥٠ - ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٤٦ ب

« واصل الخبر بأن الخطبة قامت في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان ، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، وإقامة شعار بني العباس فيها » (١) . ولا شك أن لهذا السبق مغزى له أهميته ، فهو يؤكّد ما ذكرناه سابقاً من تأصل المذهب السني في الإسكندرية في أواخر عصر الدولة الفاطمية ، وبداية عصر الدولة الأيوبية .

٣ — لم ينس صلاح الدين لفقهاء الإسكندرية وعلمائها ، وعلى الأخص الفقيه أبي الطاهر بن عوف الذي كان قد امتنع هو وجماعة كبيرة من أنصار صلاح الدين بمنازل الإسكندرية بعد دخول جيش شاور في المدينة سنة ٥٦٢ ، ما بذلوه له من تأييد معنوي إلى جانب ما قدمه إليه الأهالي والأعيان والحكام من ضروب التأييد المادي ، فكان على كثرة مشاغله من توحيد الجبهة الإسلامية في مصر والشام والجزيرة ، بعد وفاة نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق ، ومن مواجهته لقوى الصليبيين ، يغتنم فرصة وجوده بمصر ، فيزور الإسكندرية ، ويتردد على شيخها ابن عوف والسلفي . ففي ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ هـ سار إلى الإسكندرية ، وهي أول رحلة يقوم بها إلى تلك المدينة في أيام توليه وزارة العاضد ليشاهدا ويرتب قواعدها ، وفيها « عم أهلها باحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها » (٢) . وفي ٢١ من رجب سنة ٥٦٧ هـ خرج السلطان إلى الإسكندرية ، وكان سبب خروجه إليها في هذه المرة « كثرة رجاله وقلة أمواله ، بحيث ضاق به التدبير ، فقليل له إن في بلاد برقة أموالاً متسعة ، وليس بها إلا عربان غير مانعة ، فخرج لذلك ،

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٤٠٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٨٦ .

عمد بالإسكندرية مشوراً ، حضره أبوه نجم الدين أيوب وشهاب الدين الحارمى ، وتقى الدين عمر ، بسبب المسير إلى بلاد المغرب ، ومبادرة زرعها قبل حصاده ، وكوتب من بمصر والقاهرة من الجند بالحضور ، وتجهيز الأسواق من السقطيين والبياطرة وغيرهم ، وكوتب العربان بطلب الزكوات والإنكار عليهم فى قطع الطريق على الجلابين ، واتضح أنه عدم فى هذه السنة مائة ألف رأس من الغنم . واستقر رأى على أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب يتوجه بعسكره ومعه خمسمائة فارس آخر ، وتقررت حوالتهم فى النفقة عليهم على كورة البحيرة « (١) .

وفى سنة ٥٧٢ هـ زار صلاح الدين الإسكندرية للمرة الثالثة واصطحب معه فى هذه المرة ولديه الأفضل والعزیز عثمان ، فصام بهما قسماً من شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى طاهر السلفى ، وروى عنه أحاديث كثيرة (٢) . وذكر أبو شامة نقلاً عن العباد الذى صاحب صلاح الدين وولديه إلى ثغر الإسكندرية فى ٢٥ شعبان من تلك السنة ، أخبار هذه

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٤٨ . يبدو أن صلاح الدين كان متأثراً بموقف العباسيين المعادى للموحدين ، وربما يكون نشاطه فى برقة وإفريقية بعد ذلك ناشئاً من تحريض الخليفة العباسى ضد الموحدين الذين كانوا يتطلعون إلى السيطرة على العالم الإسلامى (مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٤ أحمد طه إبراهيم تونس من سقوط الدولة الصنهاجية إلى قيام الدولة الحفصية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى الآداب بجامعة الإسكندرية فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٨ ، ص ١٢٢) .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩ — المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ص ١٦٨ — السلوك ، ج ١ ص ٦٣

الرحلة بشىء من التفصيل فقال : « ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية ، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفى ، وداومنا الحضور عنده ، واجتأينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان ، واغتئنا الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر ، فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر » (١) . غير أن ابن واصل يذكر أن صلاح الدين كان يتردد إلى الشيخ الحافظ السلفى « فى كل جمعة ثلاثة أيام هى الخميس والجمعة والسبت » (٢) بمعنى أن تردده إلى الشيخ المذكور لم يقتصر على الأيام الثلاثة التى أشار إليها أبو شامة .

وفى ١٧ شوال سنة ٥٧٧ خرج السلطان صلاح الدين إلى زيارة الإسكندرية ، فدخلها فى ٢٥ من شوال ، وشرع فى قراءة موطأ مالك يوم الخميس ثانى يوم دخوله على الفقيه أبي طاهر بن عوف (٣) . ثم قفل عائداً إلى القاهرة عن طريق دمياط فى أول ذى القعدة . وأورد ابن واصل خبر هذه الزيارة بشىء من التفصيل فأشار إلى أن صلاح الدين خرج لزيارة الإسكندرية فى هذه السنة عن طريق البحيرة ، « فخيم عند السوارى (٤) ،

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٦٨٩ - ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٦٦

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٦

(٣) السلوك ، ج ١ ص ٧٦ . وذكر المقرئ فى المخطط أن صلاح الدين خرج إلى الإسكندرية فى ١٣ من شعبان (المخطط ، ج ٣ ص ١٦٩)

(٤) يعنى بذلك منطقة أطلال معبد السيرايوم الواقعة خارج الأسوار الجنوبية لمدينة الاسكندرية .

وشاهد الأسوار التي جددتها ، وأمر بالإتمام والاهتمام . وقال : نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف ، فحضر عنده . وسمع عليه موطأ مالك بن أنس — رحمة الله عليه — بروايته عن الطرطوشي ، في ثمر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده السماع « (١) » .

٤ — كان العزيز عثمان بن صلاح الدين يؤثر مدينة الإسكندرية ويوليها اهتماماً خاصاً ، إذ لم يكن قد نسي بعد ، زيارته لها في صحبة أبيه صلاح الدين ، وسماعه الحديث على شيخها الكبيرين السلفي وابن عوف . ولا شك أن الإسكندرية كانت ، بحكم اعتبارها ثغر مصر الأول ، ودار رباط وجهاد ، وقاعدة بحرية للغزو ، وإمداد ثغور الشام بالسلاح والعتاد والرجال ، تجتذب أمراء البيت الأيوبي وسلاطينهم إليها ، إما لتفقد أحوالها أو الإطلاع على وسائل الدفاع فيها . ويذكر المقرئ في السلوك أن المظفر تقي الدين عمر خرج إليها في سنة ٥٨١ للكشف عن أحوالها بعد فتنة العوام التي وقعت في شهر ربيع الأول من تلك السنة ، ونهبوا فيها المراكب الرومية (٢) . كذلك يروي المقرئ ما يشير إلى أن الإسكندرية كانت أقرب إلى قلب العزيز عثمان من أي مدينة أخرى ، وأنه ضحى بمبلغ ضخم قدره أربعون ألف دينار قدمه إليه عبد الكريم بن علي البيساني (٣) للمظفر بولاية قضاء الإسكندرية ،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٢ — تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٧٥ أ

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٩٠

(٣) هو أخ القاضي الفاضل ، وكان والياً على إقليم البحيرة وشرفا على شؤونه المالية ، فترة طويلة ، فتجمعت لديه أموال كثيرة وأثرى ثراء فاحشاً ، ثم صرف عن عمله ، وسكن هو وزوجته الموسرة في ثغر الإسكندرية ، وهناك أساء

ورده إلى صاحبه رغم شدة حاجته إليه ، بسبب ما عرف عن عبد الكريم من سوء الخلق ، وقال العزيز عثمان إلى الأمير فخر الدين جهار كس الذى حمل إليه المال : « أعد المال إلى صاحبه ، وقل له إياك والعود إلى مثلها ، فما كل مالك يكون عادلاً ، وعرفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعته به أهل الإسكندرية ه وهذا مالا أفعاه أبداً » (١) .

وعندما تعرضت الإسكندرية للوباء فى سنة ٥٩٢ هـ ، وارتفع بها الموتان سار إليها الملك العزيز عثمان بعد أن استخلف بالقاهرة بهاء الدين قراقوش وفخر الدين جهار كس (٢) . ويذكر المقرئ أنه زارها مرة ثانية فى آخر ذى الحجة سنة ٥٩٤ هـ ، وأنه تصيد بها إلى سابع المحرم سنة ٥٩٥ هـ ، وركض خائف ذئب فستيل عن فرسه ، ثم ركب وهو محموم ، فدخل القاهرة فى عاشوراء ، وتوفى فى منتصف ليلة ٢٧ منه (٣) ، ولكننا نستبعد وصوله إلى الإسكندرية فى هذا التاريخ ، فلم تكن بالإسكندرية أحراش أو غابات للصيد ، والأرجح أن نأخذ برواية ابن واصل الذى يذكر أن الملك العزيز

= عن سرتها لسوء خلق كان فيه ، فاضطر أبوها إلى الالتجاء إلى قاضى الاسكندرية لأخذها بعد أن أثبت للقاضى عظم الضرر الذى لحق بابنته ، وكان عبد الكريم بن على البيهقلى قد أعتق عليها الدار من داخله ، فأمر القاضى بنقيب أحد جدرانه ، وأخرج المرأة وسلمها إلى أبيها ، وأعاد بناء الشجرة ، فغضب عبد الكريم لتصرف القاضى ، وعزم على السعى لعزل الخائن بمنصب قاضى الاسكندرية مكانه ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، فكأية فى قاضى سكندرية ، فعرض هذا المبلغ ثمناً للمنصب فى وقت كان الملك العزيز عثمان فى سبيس الحاجة إليه .

(١) ابن واصل ، ج ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ — السلوك ، ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) السلوك ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٤

كان قد عزم في ذى الحجة من سنة ٥٩٤ هـ « على التوجه إلى اسكندرية ودمياط
للنظر في مصالحهما ، فبرز في السادس والعشرين من الشهر إلى ذات الصفا
بالفيوم ، وأقام بها متصيداً إلى سابع المحرم من هذه السنة ، فاعترضه ذئب
فركض خلفه ، فعثر به فرسه ، فسقط إلى الأرض ، فحم من ساعته ، ثم
ركب وهو محموم ، وعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه ، ثم توجه إلى
القاهرة » (١) . ويؤكد هذا الرأي ما ذكره ابن خلكان إذ أشار إلى أنه
توجه إلى الفيوم للصيد (٢) . أما السلطان الملك العادل فقد زار
الإسكندرية ثلاث مرات : مرة في سنة ٦٠٨ هـ للكشف عن أحوالها (٣) ،
ومرة ثانية في ٦١٢ هـ للقبض على التجسسار الفرنج الذين ثاروا بها (٤) ،
ومرة ثالثة في سنة ٦١٣ هـ لترتيب أمورها (٥) . أما الملك الكامل فقد
زارها في أيام سلطنته مرتين : الأولى في سنة ٦٢٨ هـ (٦) ، والثانية في
٦٣٤ هـ (٧) .

(١) ابن واصل ، ج ٣ ص ٨٢

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة القاهرة ١٢٧٥ هـ ، ج ١ ص ٤٤٧

(٣) السلوك ، ج ١ ص ١٧٤

(٤) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٦ . على أن المقرئ في السلوك يؤرخ
حركة الفرنج في الاسكندرية في جملة أحداث سنة ٦٠٨ (راجع السلوك ، ج ١
ص ١٧٥)

(٥) المقرئ ، السلوك ، ج ١ ص ١٨٥

(٦) السلوك ، ج ١ ص ٢٤١

(٧) المكين جرجس ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٢

(٢)

مظاهر اهتمام صلاح الدين بالإسكندرية

١ - تدعيم الدفاع البرى والبحرى :

يذكر المؤرخون أن صلاح الدين زار الإسكندرية فى ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، وأنه أمر أثناء زيارته لها بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها (١) ، وأغلب الظن أن أعمال الترميم والتجديد كان يعنى بها الأسوار الجنوبية. وعند زيارته الثانية سنة ٥٧٢ هـ كملت عمارة السور على البلد (٢) . وعندما قدم صلاح الدين فى سنة ٥٧٧ هـ خـيم عند السوارى وشاهد الأسوار التى جددتها (٣) ، وذكر أبو شامة نقلا عن العماد . أنهم شاهدوا « ما استجدده السلطان من السور الدائر وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر » (٤) .

وفى هذه الزيارة أمر السلطان صلاح الدين بتعمير الأسطول (٥) ، ونقل أبو شامة عن أبى طى أن السلطان لما نوى المقام بالإسكندرية ليصوم فيها

(١) أبو شامة ، ج ٢ ص ٤٨٦ - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٩٩ - المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٧١ . والأبدان جمع بدنة وهى الستارة البنائية من السور الواقعة بين برجين .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٢٩٦

(٣) ابن واصل ، ج ٢ ص ١١٢

(٤) أبو شامة ، ج ٢ ص ٦٨٩

(٥) نفس المصدر ص ٦٨٩ - السلوك ، ج ١ ص ٦٣

« رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقسم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين ، فرأى الأسطول وقد اخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناعات أشياء كثيرة . ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعاً خبيراً وديواناً مفرداً ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ويغزى إلى جزائر البحر » (١) . ولم يمض عام واحد على تعمير الأسطول حتى أصبح للإسكندرية أسطول ضخم ، أضيفت إليه قطع جديدة صنعت بدار صناعة الإسكندرية بأمر حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وأسهم هذا الأسطول في مهاجمة أيلة ، ثم تتبع مراكب الفرنج عند عيذاب (٢) ، كذلك أسهم هذا الأسطول الإسكندري في حمل كميات ضخمة من الغلات وأصناف الأقوات إلى عكا ، حملتها ثلاث بطس كبار في سنة ٥٨٦ (٣) .

وانتهز صلاح الدين فرصة زيارته للإسكندرية في سنة ٥٧٧ ، وأمر بتقرير ديوان الأسطول ، وعين له نواحى عديدة من الخراج ، حتى ضمن الخراج بثمانية آلاف دينار (٤) ، فمن هذه النواحى الفيوم بأعمالها والحبس الحيوشى

(١) ابن واصل ، ج ١ ، ص ٦٩٠

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٧٩

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسى في الفتح القدسي ، تحقيق الأستاذ

محمد محمود صبيح ، ص ٤١٩

(٤) السلوك ، ج ١ ص ٧٣

في البرين الشرقى والغربى والبساتين خارج القاهرة ، وذكر المقرئى أنه عين لديوان الأسطول الحراج ، « وهو الأشجار من سنط لا تحصى كثرة في الهندساية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والإخميمية والقوصية لم تزل بهذه النواحي لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار » (١). ثم أفرد لديوان الأسطول ، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه ، الزكاة التى كانت تجب بمصر وقد تجاوزت فى إحدى السنين خمسين ألف دينار . ثم سلم صلاح الدين هذا الديوان إلى أخيه الملك العادل أبى بكر ، فأقام على مباشرته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر (٢) .

وفى أيام صلاح الدين كسر قراجا ، وإلى الإسكندرية ، أربعمئة عمود كانت تحيط بعمود السوارى ، ورماها بشاطئ البحر ، ليوعر على العدو سلوكه إذا قدم (٣) ، أو ليكسر سورة الأمواج ، ويخفف من حبتها على سور المدينة ، أو ليمنع مراكب العدو أن تسند إلى هذا السور (٤) . وقد شاهد الرحالة عبد اللطيف البغدادى هذه الأعمدة المتكسرة ، وحكم على هذا العمل بأنه « من عبث الولدان ، ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة » (٥) . ومن المحتمل أن يكون قراجا المذكور قد أقام هذا الحاجز من الأعمدة المتكسرة بعد سنة ٥٧٧ هـ ، لأن السوارى كانت ما تزال قائمة

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٠

(٢) نفسه

(٣) نفسه ، ج ١ ص ٢٨٠

(٤) عبد اللطيف البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار ، طبعة القاهرة ١٢٨٦

ص ٢٨

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٨

عند زيارة صلاح الدين لالاسكندرية في هذه السنة ، ثم إن الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه أنشا صلاح الدين ، والذي تولى حكم هذا الثغر في ٥٧٥ (١) ، كان قد توفي في سنة ٥٧٦ هـ ، ودفن بقصر الإمارة بالاسكندرية ، وأقام السلطان على ضريحه بها مدرسة سنة ٥٧٧ هـ (٢) ، ثم نقلت جثته إلى دمشق في سنة ٥٧٨ حيث دفنت في المدرسة الشامية بدمشق في سنة ٥٨٢ (٣) .

ب — إنشاء المدرسة والبيمارستان ودار المغاربة وعمارة الخليج :

ذكر المقرئ في حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، أن صلاح الدين أنشا بالاسكندرية عند زيارته لها مارستاناً وداراً للمغاربة ، ومدرسة على ضريح المعظم تورانشاه ، وأنه شرع في عمارة الخليج ، ونقل فوهته إلى مكان آخر (٤) . والظاهر أن موضع هذه المجموعة من الأبنية كان يقع قريباً من الباب الغربي حيث يقوم القصر الذي أقيم عنده ضريح تورانشاه المذكور . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذه المجموعة من الأبنية فقال : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمخارس الموضوعات فيه لأهل الطلاب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلتي كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعليمه ، وإجراء يقوم به في جميع أحواله واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات

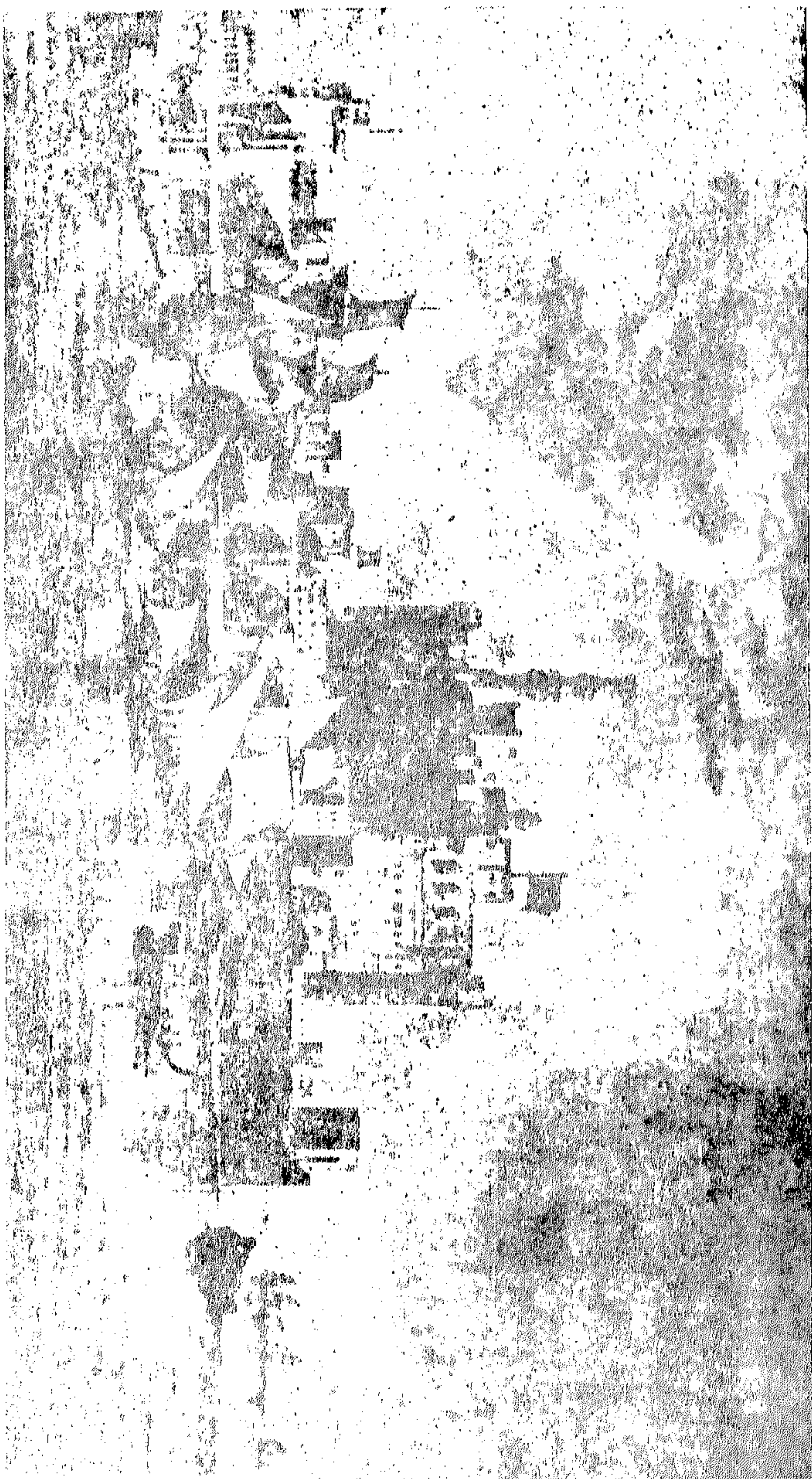
(١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٥ ص ٨٣ — ابن كثير الدمشقي

ج ١٢ ص ٣٠٦

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٧٦

(٣) Répertoire : R.G.E.A. t. 9, p. 147

(٤) السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦ — الخطط ، ج ٣ ص ١٦٩ . وذكر المقرئ في الخطط أنه جدد حفر الخليج بدلا من «وشرع في عمارة الخليج» والمتعمد بالخليج ، نعمة الاسكندرية



(عن لوی فرنسوا اکاسی)

قلمنہ قایتبای کما کانت فی سنۃ ۱۷۸۵

يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء ، وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصل للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وبينهم من إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم (١) .

ويرجع الأستاذ حسن عبد الوهاب أنه كان يدرس في هذا البيمارستان علم الطب (٢) . وقد عثر على لوحة انشائية بالاسكندرية نعتقد أنها تواريخ لبناء هذه المدرسة نطالع فيها ما يلي : (مما أمر بعمله السيد الأجل الملك الناصر ، جامع كلمة الايمان ، قانع عبدة الصليبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو المظفر يوسف بن السيد الأجل أيوب أدام الله قدرته ، وأعلى أبدأ كلمته ، ونشر في الخافقين أعلامه ، (أتم) عمارتها وانشائها الأمير الأسفهلار الكبير زين الدين جلال الأمراء ، مملوك أمير المؤمنين أبو سعيد قراجا سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) (٣)

(١) ابن جبير ، الرحلة ٢ ص ٤٢

(٢) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ٣٨٧

(٣) Repertoire Ch. d'Ep. Arabe, t. 9, p. 156

(٣)

عمران الإسكندرية في العصر الأيوبي

ازدهر عمران الإسكندرية في هذا العصر ازدهارا لا سابق له ، ب عناية
السلطين والأمراء بها وبمنشأتها ، ويبدو أن منطقة الرمل أصبحت عامرة
بالقصور والمنتزهات في زمن الأيوبيين (١) . كذلك عمرت ترعة الخليج بالمنتزهات
والبساتين التي أصبحت معلما من معالم الإسكندرية ، يقصدها أهل الثغر
للفسحة والتنزه ، وقد مدح الشاعر الجلال أبو الحسين الجزار (ت ٦٧٩)
الإسكندرية ، ووصف محاسنها في قوله :

أرى الإسكندرية ذات حسن .. بديع ما عاينته من مزيـــــــــد
هى الثغر الذى يبدى ابتساماً .. لتقبيل العفـــــــــاة من الوفـــــــــود
إذا وافيتها لم تبــــــــــــــــق همـــــــــا .. بقلبك منذ تراها من بعــــــــــــــــيد
حلت بظـــــــــاهر منها كأنى .. حلت هنـــــــــاك جنات الخلود
فلا بئر معطاة وكــــــــــــــــم قصـــــــــد .. رأيت هنـــــــــاك من قصر مشيد
بيـــــــــاض يملأ الآفاق نوراً .. يبشر برقـــــــــه بسحاب جود
وأقسم لو رأتهـــــــــا مصر يوماً .. لكادت أن تغيب من الوجـــــــــود
وكم قصر بها أضحى كحصن .. منيع لا كزرب من جريد
يرص فصوصه بانيه رصـــــــــا .. يفصله على نظم العتـــــــــود
لها سور إذا لاقى الأعادى .. يقابلهم بوجه من حــــــــــــــــيد

(١) وذكر النويرى أن بظاهر الاسكندرية موضع يعرف بالقصرين فى أرض رمل ، =

هو الفلك استدار بها وكم قد رأينا فيه من برج سعيد
أحاط بسورها بحر أجساج .. ومنهل أهلها عذب الورود (١)

ويعبر عن ازدهار الإسكندرية في العصر الأيوبي ما وصفها به الرحالة
المغاربة والمشاركة الذين زاروها في تلك الفترة ، فهذا ابن جبير يمدح عمران
الإسكندرية ويصف مسالكها بقوله : « فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع
مبانيه حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل
منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً ، ومن العجب في وصفه أن بناءه
تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق ديارها
وأزقتها تحت الأرض ، فتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضها » (٢) .

ووصفها صاحب كتاب الاستبصار بقوله : « والإسكندرية تعجب

= وهو سكان نزه يجتمع به في زمن الصيف أهل الإسكندرية يتنزهون به ، وفي هذا الموضع
يقول بعض الشعراء :

سلام على القصر ين من جانب الرسل سلام شوق للديار وللأهـل
نحن إليها كلما هبت الصبـا ونشتاقها شوق المحب إلى الوصل

(النوهرى السكندري ، ص ٢٦٥ أ) ، ويحدد الأستاذ كوسب موضع القصرين
عند مصطفى باشا حالياً ويعنى به موضع المعسكر الذى ضربه قيصر خارج الإسكندرية ،
وكان يقوم فيه قصر روساني . وكان الناصر محمد بن قلاوون قد استغل هذا القصر
والجسر الروماني في إعادة حفر خليج الإسكندرية المعروف بالخليج الناصري على يد

الأسير بكتوت (إرجع إلى : Combe, Notes de Topographie
(Alexandrine, B.S.R.A.A., No. 34, Alexandrie, 1944, pp. 66-67)

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٣١٢

(٢) ابن جبير ، ص ٤٠ ، ٤١

كل من رآها لمهجتها وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها » (١) .

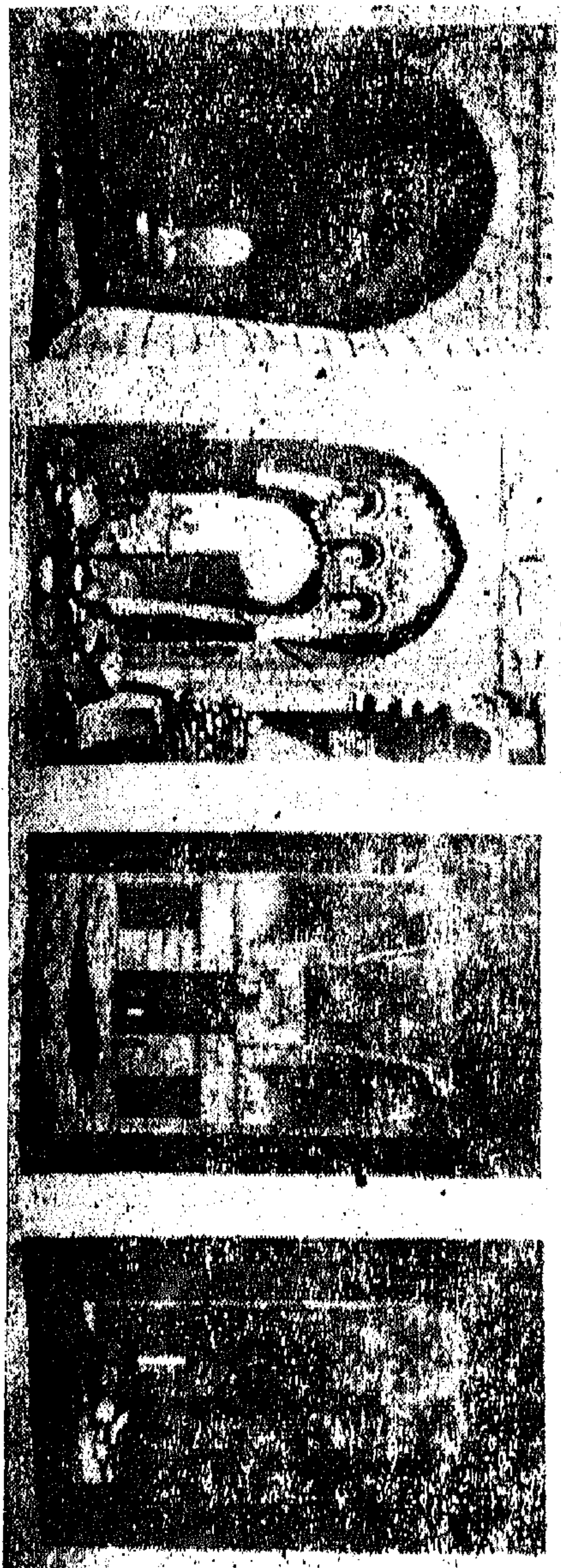
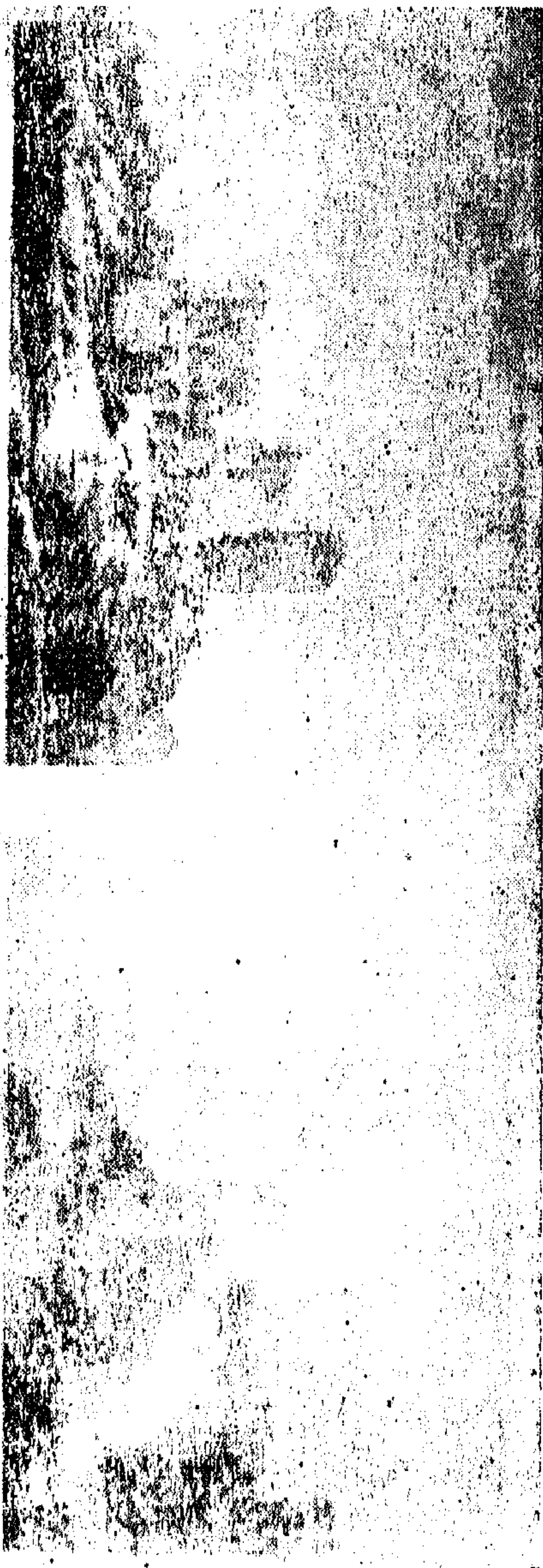
وكان خليج الإسكندرية يخترق أسوار الإسكندرية الجنوبية ، من جهة السوارى ، وكانت تعلوه عند دخوله المدينة قنطرة تعرف بقنطرة السوارى ، يعبر عليها الخارجون إلى ظاهر المدينة للنزهة على شاطئ الخليج ، حيث تكثر الرياض والبساتين ، وتحف بالخليج على جانبيه (٢) . وكان الناس يقصدون خليج الإسكندرية أيضاً لصيد السمك ، فالصيد فيه كان مطلقاً للرعية ، وكان السمك « يطفو الماء به كثرة حتى تصيده الأطفال بالخرق ثم حجره الوالى ، ومنع الناس من صيده » (٣) .

وكان لقاضى الإسكندرية الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الجباب (ت ٥٩٢) دار فى الطريق المؤدية إلى باب البحر ظلت قائمة حتى أيام الأشرف شعبان ، ورد ذكرها فى مخطوطة

(١) كتاب الاستبصار فى عجائب الأسفار ، ص ١٠٠

(٢) أحمد النجار ، الانتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية ، ص ١٨٨

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ . ذكر عثمان بن ابراهيم النابلسى أن خليج الاسكندرية كان لا يمتلئ بمياه النيل الا فترة يسيرة زمن الفيضان بسبب انسداد بواب الرصاص فى آخره من جهة النيل بالرمل . ولما حاول الملك العادل أخو صلاح الدين أن يفتح مجرى آخر للخليج عند موضع يعرف بالنقىدى صرفه أهل الخبرة عن هذا المشروع خوفاً من أن يغرم فيه أسواً كثيرة دون أن يدري هل يحصل به نفع أم لا . ثم اهتم ابنه الملك الكاسل بفوهة الخليج ، وغرق أمامها سراكباً فانصلحت مدة ، ثم عادت إلى ما كانت عليه راجع (النابلسى ، كتاب لمع القوانين ، تحقيق كلود كاهن ، فى مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسى بدمشق ، ج ١٧ ، ١٩٦١ ، ص ٥٧)



صور من قلعة قاتیبای مأجوزة من کتاب وصف مصر

الإمام للنويرى السكندرى عند تعرضه لوصف موكب السلطان . وقد ذكر المقرئى أن ابن الجباب المذكور أقيم حاكماً بالإسكندرية فترة طويلة يقدرها بثمانية وعشرين عاماً (١) ، فهو فى ظنى صاحب الدار التى ذكرها النويرى السكندرى ، وأورد السيوطى اسم أحد قضاة مصر وهو القاضى ابن الجباب أبو البركات عبد القوى بن القاضى الجليس عبد العزيز ، (٢) ونستبعد أن يكون هو صاحب تلك الدار .

وعمرت الإسكندرية بالمساجد العديدة التى بالغ الرحالة فى عددها ، فابن جبير يذكر أن الإسكندرية « أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكث والمقلل ، فالمكث ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهى كثيرة جداً ، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع » (٣) . وذكر الهروى ، أن ابن منقذ أخبره أن بها اثنى عشر ألف مسجد ، فسأل الهروى القاضى الكاتب عن ذلك ، فقال « إن الملك العزيز عثمان كشف ذلك ، فوجدوا بها عشرين ألف مسجد ، وأنا فما عدتها ، والله أعلم بصحة ذلك » (٤) .

(١) السلوك ، ج ١ ص ١٣٩

(٢) السيوطى ، ج ١ ص ١٧٦

(٣) ابن جبير ، ص ٤٣

(٤) الهروى ، كتاب الاشارات ، ص ٤٧ ، ٤٨

وعلى الرغم من وضوح عنصر المبالغة في هذه الأرقام (١) إلا أننا
مما ذكره كل من المروى وابن جبير بكثرة مساجد الإسكندرية في
الأيوبي ، وهو أمر يعبر عن غلبة النزعة الدينية في الإسكندرية في
سيطرت فيه الرغبة في الجهاد والرباط.

(١) يذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب استناداً على وصف محمد بن عبد الوهاب
المعروف بابن خزيمة الذي قدم الإسكندرية في سنة ٥٦٠ هـ وأقام بها أربعين
أن الإسكندرية كان بها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ مسجداً للخطبة وكان
١٨٠ مدرسة لطلب العلم (حسن عبد الوهاب ، الإسكندرية في العصر الاسكندراني
، ص ٣٨٧)

(٤)

تجارة الإسكندرية

أصبحت الإسكندرية في العصر الأيوبي سوقاً هامة للتجارة العالمية ، فاليها كانت تتدفق ممظم منتجات الشرق من طيب ويواقيت وعطور وتوابل وغير ذلك من المنتجات الشرقية ، وقد ذهل بعض الرحالة الأوروبيون أمثال بنيامين التطيلي ، وبرخارد الذي قسدم إلى مصر في سنة ١١٧٥ م سفسيراً للأمبراطور فردريك برباروسة ، لكميات التوابل الهائلة التي كانت تحملها السفن في النيل إلى ثغر الإسكندرية (١) . وذكر ابن سعيد أن ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراتي والبحر الحجازي يفوق الوصف (٢) ، ونتج عن ازدهار التجارة في الإسكندرية أن كثر عدد التجار الافرنج في ثغر الاسكندرية ، فقد ذكر المقریزی أنه اجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف في سنة ٦٠٨ هـ في سلطنة الملك العادل (٣) ، كذلك أقامت الجمهوريات الإيطالية فنادق لها بالإسكندرية ، وذكر بنيامين التطيلي أسماء دول كثيرة كانت تتعامل مع الإسكندرية لكل منها فندق: فيقول: « وهذا البلد تجارى، يؤمه الناس من جميع الشعوب والأمم المسيحية، فمن بلاد الغرب: البندقية، ولبارديا، وتسكانه، وأبوالية، وأمالفي، وصقلية، وكالابريا، ورومانيا، وكازاريا

(١) Meyd, Histoire du commerce du Levant, p. 384

(٢) المقری ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ١٠٦

(٣) المقریزی ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٦ — السلوك ، ج ١ ص ١٧٥
(١٧)

وباتزينا كيا، وهنغاريا، وبلغاريا، وراكوفيا، وكرواتيا، واسكلافونيا، وروسيا
والمانيا، وسكسونية، ودمرقة، وكرا لانديا، وايسلندا، والنرويج، واسكتلندا
وفرنسا، وانجلترا، وفلاندرز، ونورمانديا وأنجو، وبواتو، وبورجونية، وبروفنس
وجنوة، وبيزة، وغسقونية، وأرغون، زنبارة. ومن بلاد الشرق الإسلامى :
الأندلس، والمغرب، وإفريقية، وبلاد العرب، والهند، والحبيشة، وإيبيا، واليمن،
وبابل وسوريا، واليونان، وتركيا. وتأتيها السلع الهندية وجميع أنواع التوابل التي
يشترها التجار المسيحيون. وهى مدينة عامرة بالمتاجر والكل بلد فندق» (١).

وكانت المراكب تصل إليها من الفسطاط، عبر خليج الإسكندرية وتدخل
من باب البهار وهو باب العمود، ويذكر ابن مماتي أن المراكب كانت
تسير بخليج الإسكندرية، وتحمل إليها الشب والغلال والكتان والبهار والسكر
وغير ذلك من الأصناف، كما تحمل من الإسكندرية الأخشاب والحديد
برسم عمارة المراكب وذلك فى شهر مسرى الموافق لشهر آب، (أغسطس)
حيث ترتفع مياه النيل، ويمتلئ خليج الإسكندرية بمياه النيل (٢).

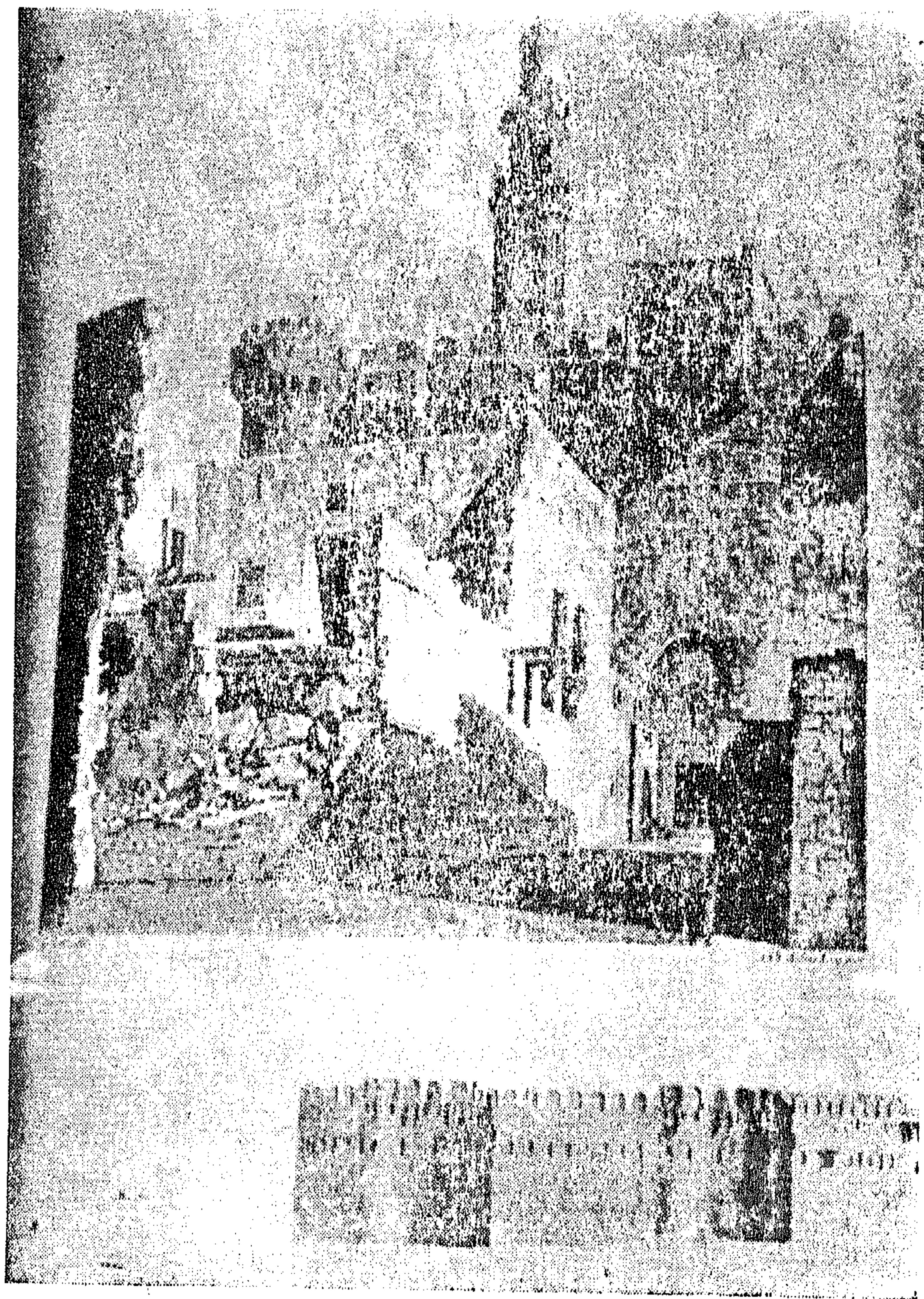
وكانت للبندقية بوجه خاص جالية كبيرة بثغر الإسكندرية يدير شؤونها
قنصل، وكان فى الحى البندقي فندقان وحمام ومخبز وكنيسة (٣).

وجرت العادة فى الإسكندرية بألا تبخر أى سفينة من السفن التجارية

(١) Benjamin de Tudela, Viajes, p. 115

(٢) ابن مماتي، كتاب قوانين الدواوين، جمعه وحققه، الدكتور عزيز سوريال
عطية، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٥٧

(٣) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة الدكتور أحمد عزت
عبد الكريم، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٩



منظر یمثل مسجد قلعة قایتبای مأخوذ من کتاب وصف مصر

الإيطالية إلا إذا دفعت ما كان مقررأ عليها من الرسوم (١) ، وكانت هذه الرسوم تصل إلى الخمس ، فما زاد على العشر رتبة صلاح الدين لفقهاء الثغر ، وعرفت هذه الرسوم الإضافية بصادر الفرنج (٢) . وكان أمناء السلطان يقومون بتقييد جميع ما يدخل بر الإسكندرية من سلع أو مال ، وذلك ليفرضوا عليهم ضريبة جمر كية ، وفي سبيل ذلك كانوا يقومون بتفتيش المسافرين . وقد أبدى كثير من الرحالة امتعاضهم لهذا الاجراء ، وانتقدوه ، فابن جبير عند نزوله بالإسكندرية يقول : « فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل ، وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا ، واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أبناء المغرب وبيع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كل يستفهم ، ثم يقيد قوله ، فخلى سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستدعوا واحداً واحداً ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ،

(١) الباز العريني ، مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٢٠٣

(٢) ابن ممتي ، ص ٣١٥ — ٣٢٦ — السلوك ، ج ١ ص ٦٣ — الخطط

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلّفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من اللذ والحزى عظيم . . . » (١) . كذلك انتقد العبدري ما فعله رجال الديوان وأمناء السلطان من تعسف وإذلال للمسافرين فقـــــال بعد وصفه الإسكندرية : « ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ، يأخذون على وفدهم الطرق الفجاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى ، وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شزيمة من الحرس ، لا حرس الله مهجتهم الحسياسة ، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فمدوا فى الحجـــــاج أيديهم ، وقتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعاً من المظالم ، وأذاقوهم ألواناً من الهوان ، ثم استحلّفوهم وراء ذلك كله ، وما رأيت هذه العـــــادة الدميمة ، والشتيمة اللثيمة فى بلد من البلاد ، ولا رأيت فى الناس أقسى قلوباً ، ولا أقل حياء ومروءة ولا أكثر إغراضاً عن الله سبحانه ، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد » (٢) .

(١) ابن جبير ، ص ٣٩ ، ٤٠

(٢) ابن جبير ، مقدمة الناشر ، ص ٢٧ — زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى القاهرة ، ١٩٤٥ ص ١٣٣ — سعد زغلول عبد الحميد ، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس =

ومن العجيب أن هذه القاعدة التي جرى عليها ديوان الثغر الإسكندري ، استمرت حتى نهاية عصر المماليك ، وكانت الحكومة تفرض على التجار الرسوم الباهظة بعد إجراء تفتيش شامل على ما يحملونه معهم ، وقد وصف فريسكو بالدي (القرن ١٤ م) ما لاقاه على أيدي حراس الديوان والمفتشين ، وقال في جملة ما قاله : « فاستلمنا بعض الضباط ، وأخذوا في عدنا كالبهائم ، ثم أثبتوا العدد في دفاترهم ، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشاً دقيقاً وتركونا في حراسة قنصل فرنسا ، ثم حملت أمتعتنا إلى الديوان ، وأعيدت ، وفحصت فحصاً شديداً » (١) . وقد علل الأستاذ فييت تشدد ديوان الإسكندرية في التفتيش منذ عصر الدولة الأيوبية ، بأن مصر كانت في حرب مع الصليبيين في بلاد الشام (٢) .

وكانت للديوان الأحمر كى عيوب من طابع آخر ، منها عيب الإهمال ، فقد كان الديوان يبتـسـع كل خشب وحديد ورصاص وغير ذلك مما يرد على موانئ مصر ، ومن الديوان يبتـسـع الناس بكسب يسير للديوان ، فاذا دعت الحاجة لمهمات الدولة من عمل الشوانى وغيرها من السفن وإقامة منشآت حربية وتحصينات ، يبتاع الديوان من التجار الذين اشتروا هذه المواد من الديوان بضعفى الثمن ، فاذا كان الديوان قد ربح فى بيعه لقرمة الخشب ديناراً ، يكسب التاجر على الديوان خمسة أو ستة ، ومن أمثلة ذلك

= والسابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، مجلد ٨ ، ديسمبر ١٩٥٤ ص ١٠٨ ، ١٠٩

(١) فييت ، المواصلات فى مصر ، مقال فى كتاب (فى مصر الاسلامية) ، ص ٤٠

(٢) نفس المرجع .

أن جماعة من التجار اشتروا قرمة الخشب بخمسة دنانير ، واشتراها الديوان
بتسعة دنانير وبعشرة ، واشترى ديوان خزائن السلاح قرمة بأحد عشر
ديناراً لتعمل نشابا (١) :

(١) عثمان بن ابراهيم النابلسي ، كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار
المصرية ، تحقيق بيكر وكلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسي بدمشق
ج ١٦ دمشق ١٩٦١ ، ص ٤٦

أهم أحداث الإسكندرية في عصر الأيوبيين

١ - حملة صاحب صقلية على الإسكندرية في سنة ٥٦٩ :

شهدت الإسكندرية في السنة الثالثة من قيام الدولة الأيوبية غزوة قام بها وليم الثاني النورماندى ملك صقلية كذيل لمؤامرة واسعة النطاق دبرها جماعة من أنصار الفاطميين في مصر لإحياء الخلافة الفاطمية بالإتفاق مع أعداء صلاح الدين من الفرنج والإسماعيلية الحشيشية في جبال الدعوة بالشام ، واتفق هؤلاء المتآمرون في مصر وعلى رأسهم عمارة اليمنى وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر بعد أن بذلوا لهم شيئا من المال والبلاذ ، وكاتبوا راشد الدين سنان بن سلمان مقدم إسماعيلية الشام . وكان في نيّتهم أنه إذا قدم الفرنج ، وخرج صلاح الدين لردهم ثاروا هم بالقاهرة ومصر ، وأعادوا الدعوة الإسماعيلية ، ولكن واحداً من الفقهاء الذين أدخلوهم معهم في مؤامرتهم ، واسمه زين الدين على بن نجا ، داخلهم وأفضى إلى صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة (١) ، فأمر بالقبض عليهم ، وصلب ثمانية من رؤسائهم بين القصرين في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ . ولم يكن وليم الثاني ملك صقلية قد علم بعد بفشل الشق الثاني من المؤامرة ، ولم يعلم أن صلاح الدين وضع يده على المتآمرين ، ولذلك سير

(١) ابن واصل ، سنج الكروب ، ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ ، ابن واصل

تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٤٤ ب

وليم أسطولا ضخما إلى الإسكندرية بقيادة رجل من دولته يسمى أكيم مودقة (١) ، تنفيذاً لما تم الإتفاق عليه مع المتآمرين في الداخل . ويذكر المؤرخون أن أسطول صقلية وصل بغتة إلى ثغر الإسكندرية ، قبل ظهر الأحد ٢٦ ذى الحجة (٢) على غفلة من المتوكلين بانظر « لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر » (٣) ، ورست قطعه على البر مما يلي البحر والمنارة ، وكان يتألف على حد قول ابن شداد من ستمائة قطعة ما بين شينى وطراة وبطسة وغير ذلك (٤) ، منها ٣٦ طريدة تحمل من الخيل ١٥٠٠ فرس ، ومائتا شينى تحمل من المقاتلة ثلاثين ألف مقاتل ، في كل شينى ١٥٠ رجلا (٥) ، وست سفن تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب كالمجانيق والدبابات والأبراج ، وأربعون مركباً حمالة تحمل مؤونة الجيش والأزواد والخدم وغللمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمنجنيقية ، بحيث أصبح مجموع من اشترك في

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ذكر شهاب الدين النويرى أنه كان ابن عم لصاحب صقلية (نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ١١٩)

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، هي ٥٩٨ — المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٥٥

(٣) نفس المصدر . وأورد أبو شامة في الروضتين رسالة موجهة من صلاح الدين إلى الخليفة العباسى نستنتج منها أن الامبراطور البيزنطى هو الذى أنذر صلاح الدين بقدوم الحملة النورماندية رغبة منه في كسب وده وصدافته (راجع مفرج الكروب ج ٢ ملحق ١٥)

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٩

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ — ابن واصل ، تاريخ

الواصلين ، ص ٦١ ب — السلوك ، ص ٦٦

هذه الحملة من الفرنج خمسين ألف مقاتل (١) ، من بينهم ألف فارس (٢) .
وما أن اكتمل نزول الفرنج على البر حتى خرج إليهم أهل الثغر بعددهم
وأسلحتهم ، فنعهم المتولى عليهم ، وأمرهم أن يقاتلوا من وراء السور ،
فلما نزل الفرنج إلى البر ، نصبوا الدبابات ، وقاربوا السور ، فقاتلهم أهل
الإسكندرية قتالا شديداً (٣) ، ثم حمل الفرنج على المسلمين حملة عنيفة
دفعتهم إلى أسوار الإسكندرية ، وقتل في هذا الهجوم من أهل الثغر في قول
سبعائة شخص (٤) وفي قول آخر سبعة فقط (٥) ، أورد أبو شامة اسم
واحد منهم هو محمود بن البصار ، وكان قد أصيب بسهم (٦) ، وأعتقد أن
هذا القول الثاني أصبح من الأول لأنه لم تحدث موقعة حاسمة بين الفرنج
والمسلمين ، تؤدي إلى مثل هذا العدد الهائل من القتلى ، بالإضافة إلى أن
أهل الإسكندرية كانوا يتوقعون طروق الفرنج لمدينتهم حتى على الرغم من
قدوم هؤلاء بغتة أو غفلة من المتوكلين بنظرها . ثم إن الفرنج لم يكونوا
قد اقتربوا بعد من المدينة ، وإنما نزلوا بالقرب من ساحل المنار أى في المنطقة
المعروفة ببحر السلسلة ، ثم جذفت مراكب الفرنج بقصد دخول الميناء
الغربية ، وكان بهذا الميناء مراكب مقاتلة وأخرى معدة للإقلاع راسية ،

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ص ١٢ — السلوك ، ص ٥٦

(٢) السلوك ، ص ٥٦

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ص ١١٩

(٤) ابن واصل ، سفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٣ — ابن واصل ، تاريخ
الواصلين ، ص ٦٢ أ

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٥٩٩ — السلوك ، ص ٥٦

(٦) نفس المصدر

فعندما فطن المسلمون إلى قصد الفرنج من دخولهم الميناء خافوا أن تقع السفن بما فيها في أيدي الفرنج وتصبح غنيمة باردة لهم ، فسبقوهم إليها ، وغرقوها وأحرقوا بعضاً منها (١) .

ثم اشتبك الفرنج مع المسلمين في قتال عنيف دام حتى المساء ، وعندئذ ضرب الفرنج خيماتهم بالبر ، وكانت عدتها ثلاثمائة خيمة ، ولما أصبحوا نصبوا « ست دبابات بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب المسلمون من شدة أثرها وعظم حرجها » (٢) . وكانت دبابات الفرنج مصنوعة من خشب شديد الصلابة ، تشبه الأبراج في عظم الارتفاع والضمخامة والانتساع وكثرة المقاتلة فيها ؛ ثم زحف الفرنج بهذه الآلات واقتربوا من السور ، وبدأوا يحكمون الحصار حول سور الإسكندرية من جهة البحر ، وقضوا نهار ذلك اليوم في قتال مع المسلمين .

ولم تكد أخبار نزول الفرنج بالإسكندرية تصل عن طريق الطير إلى صلاح الدين حتى بادر بتسيير العسكر على الفور إلى ثغر الإسكندرية ، كما أمر بتجهيز عسكر آخر إلى دمياط ، إذ كان يتوقع قدوم حملة أخرى إلى هذا الشغـر .

وفي هذا الأثناء اشتد القتال ، واستبسل أهل الإسكندرية في الدفاع عن مدينتهم مع قلة ما كان لديهم من العساكر ، ولكن الإمدادات بدأت تتلاحق

(١) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ج ١ ص ٦٢ أ

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤ — ويذكر كل من ابن واصل في تاريخ الواصلين وأبي شامة والمقريزي أنهم نصبوا ثلاث دبابات ، لاست .

من القاهرة ، فاشتد بها أزرهم ، وتقوت نفوسهم . وفي اليوم الثالث من الحصار ، فتح أهل الإسكندرية فجأة أبواب مدينتهم ، وانحطوا كالבוأشق على أعدائهم ، وكثر الصياع من كل جانب ، وتكاثروا على الفرنج فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، ومزقوا أعداءهم شر ممزق . وفي اليوم الرابع واصل المسلمون القتال بضراوة وعنفة ، وأحرقوا معدات الحصار التي كان قد نصبها الفرنج ، ثم تظاهروا بالكف عن القتال ، ودخلوا مدينتهم لقضاء فريضة الصلاة ، وهم ينوون المباكرة ، فانخدع الفرنج بذلك وظنوا أن القتال في ذلك اليوم قد توقف ، وما كادوا يخلعون جواشهم ، ويلقون بدروعهم ، ويأوون إلى خيامهم التماسا للراحة بعد القتال ، حتى كر عليهم المسلمون ، وخيوط الظلام قد بدأت تنتشر في الأفق ، ففتكوا بهم في داخل خيامهم ، وقتلوا منهم أعدادا هائلة ، ولم يسلم من خياله الفرنج إلا من « نزع عنه لباسه ورمى نفسه في البحر » ، وقبض المسلمون على الباقيين باليد ، واقتحموا البحر على من فر بالمراكب فخنسوها وأغرقوها ، أما بقية مراكب الفرنج فقد ولت هاربة (١) .

ثم أقلع الأسطول الصقلي بالناجين منهم عن الثغر في اليوم الخامس من حصارهم للإسكندرية ، أي في مستهل المحرم سنة ٥٧٠ هـ .

ب - أحداث الإسكندرية الداخلية:

كان من الصفات البارزة في صلاح الدين تقواه وورعه ، وشدة تعظيمه لشعائر الدين ، وكان من مناقبه أيضاً غيرته على الإسلام ، ويبدو أنه - في

(١) أبوشامة ، ص ٢٠٠ - ابن واصل ، ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ - السلوك ،

أول سلطنته—قد أمر بفتح خانات الإسكندرية، ومنع أهلها من تعاطي الخمر،
تطهيراً لهذه المدينة مما يندسها . ولكن قرار المنع لم يطبق طويلاً، إذ لم تلبث
الخانات أن فتحت بالإسكندرية في سنة ٥٦٧ « ببذل مال لديوان نجيم الدين
أيوب ، ففتحت مواضعها، وظهرت مناكرها » (١) ، وكثرت بيوت المزر
(أى الجمعة) بالإسكندرية إلى حد أنه أمر بهدم مائة وعشرين بيتاً لها في
سنة ٥٧٧ هـ (٢) .

وساد الهدوء مدينة الإسكندرية طوال العهد الأيوبي ، فلم تقع فيها فتن
خطيرة كما كان يحدث من قبل في العصر الفاطمي ، باستثناء حركتين
لا أهمية لهما: إحداهما وقعت في سنة ٥٨١، عندما قام العوام بنهب ما كان راسياً
بالميناء من المراكب الرومية ، وقد تمكن المسئولون من القبض على عدد
منهم ، وقدم المظفر تقي الدين عمر خصيصاً لتفقد الحالة في المدينة بعد هذا
الاضطراب (٣) . والثانية حدثت في سنة ٦٠٨ عندما اجتمع بالإسكندرية
ثلاثة آلاف تاجر من تجار الفرنج وقاموا بثورة ضد أهل المدينة ، مستغلين
في ذلك قدوم بطسة إلى الميناء بها ملكان من ملوك الفرنج ، وحاولوا أن
يقتلوا الأهالي ويستولوا على المدينة ، وعندئذ توجه الملك العادل أبوبكر
إلى الإسكندرية ، وقبض على التجار المذكورين وعلى ركاب البطسة ،
واستصفى أموالهم وزج بهم في السجن (٤) .

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في الإسكندرية الوباء الذي انتشر

(١) السلوك ، ج ١ ص ٤٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٣

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٠

(٤) المقرئ ، الخطوط ، ج ١ ص ٣٠٦ - السلوك ، ج ١ ص ١٧٥

بمصر والإسكندرية فتبيجة للمجاعة وما نزع عنها من الغلاء وارتفاع السعر ، وتذكرنا هذه المجاعة الخطيرة بالشدة العظمى التي تعرضت لها مصر في زمن الخليفة المستنصر الفاطمي ، فقد كثرت « الأموات بالإسكندرية وتزايد وجود الطرقي بها على الطرقات . وعدمت المواساة ، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشف الأحوال . وشهد من يبحث المزابيل التديمة على قشور الترمس ، وعلى نقاضات الموائد وكناسات الآدر ، ومن يقفل بابه ويموت ، ومن عمى من الجوع ويقف على الحوانيت ويقول : أشعوني رائحة الخبز » (١) . واشتد الغلاء والوباء بمصر في سنتي ٥٩٦ ، ٥٩٧ فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام ، ويذكر المؤرخون أنه صلى أمام جامع الإسكندرية في يوم واحد على سبعمائة جنازة (٢) . ويؤكد هذا القول الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي حضر بنفسه هذه الحملة وكان معاصراً لها ، إذ قال « وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة ، وأن تركة واحدة انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثاً ، وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفاً انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها » (٣) .

(١) السلوك ، ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، وراجع التفصيلات في كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٢٩ — ٣٢

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٦ ص ١٧٤ — السيوطي ، حسن المحاضرة ،

ج ٢ ص ١٧٥

(٣) عبد اللطيف البغدادي ، كتاب الافادة والاعتبار ، القاهرة ١٢٨٦ ص ٥٨

الفصل التاسع

الإسكندرية في ازهى عصورها الإسلامية

(عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون)

(١) مظاهر عناية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالإسكندرية .

- ١ - الزيارة الأولى في سنة ٦٦١ هـ .
- ٢ - ما أجرى في الإسكندرية من أعمال إصلاحية فيما بين زيارتي السلطان الأولى والثانية .
- ٣ - الزيارة الثانية في سنة ٦٦٤ هـ .
- ٤ - الزيارة الثالثة في سنة ٦٦٨ هـ .
- ٥ - حركة الأسطول في سنة ٦٦٩ هـ .
- ٦ - الزيارة الرابعة في سنة ٦٧٣ هـ .

(٢) الإسكندرية في عصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وخلفائه حتى الأشرف شعبان .

- ١ - أعمال الناصر محمد بالإسكندرية .
- ١ - ترميم منار الإسكندرية .
- ٢ - حفر خليج الإسكندرية الحديد أو الخليج الناصري .
- ب - ازدهار الإسكندرية في عصر الناصر محمد .
- ج - أحداث الإسكندرية الهامة في عصر الناصر محمد وخلفائه .
- ١ - وقعة أهل الزمة في رجب سنة ٧٠٠ هـ وربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ .
- ٢ - حركة تجار الفرنج بالإسكندرية في سنة ٧٢٧ هـ .
- ٣ - سنة الفناء أو الوباء الأعظم في سنة ٧٤٩ هـ .
- ٤ - الاحتفال بزيارة الأمير شيخو العمرى للإسكندرية في سنة ٧٥٠ هـ .

الفصل التاسع

الاسكندرية في ازهى عصورها الإسلامية

(عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون)

(١)

، ظاهر عناية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

بالاسكندرية (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ)

يعتبر السلطان الملك الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكى يولى ثغرا الإسكندرية اهتماما خاصا وعناية فاقت عناية من سبقه من الملوك والسلاطين ومن خلفه منهم على السواء ، على الرغم من المشاكل الخطيرة التى كانت تهدد دولته ، وتتمثل فى الخطرين الصليبي والمغولى ، بل إن هذين الخطرين كانا حافزا له على زيادة الاهتمام بتحسينات الثغور المصرية بوجه عام والإسكندرية بوجه خاص ؛ ففي عام ٦٥٩ هـ ، وهو العام الثانى من سلطنته ، أمر بعمارة أسوار الإسكندرية (١) ، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر ، وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر ورؤيته ، كما أمر بردم فم بحر دمياط ، وسير لذلك الغرض من القاهرة عدداً من الحجارين قاموا بقطع كثير من القرابيص ، وهى كتل الحجارة ، وإلقائها فى نهر النيل عند مصبه فى البحر شمالى دمياط ،

(١) راجع محبى الدين بن عبد الظاهر ؛ الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر

— المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٤٤٦

حتى ضاق فمه ، وتعذر بذلك دخول المراكب منه إلى دمياط (١) .

وفي نفس الوقت خص البحرية بنصيب كبير من عنايته ، بعد أن أهملت إهمالاً شديداً في أواخر عصر الدولة الأيوبية (٢) ، فنظر في أمر الشواني الحربية ، واستدعى رجال الأسطول وندبهم للغزو ، وأمر بتزويد الأسطول بالشواني ، وقطع الأخشاب لعمارتها وإنتاج عدد منها يماثل على الأقل عدد قطع الأسطول في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، في دارى صناعة الإسكندرية ودمياط (٣) ، ونزل بنفسه إلى دار صناعة مصر لترتيب صناعة الشواني ، وزيادة اهتمام الصناع بالإنتاج ، وبالفعل زاد عدد السفن على أربعين قطعة سوى الحرايق والطرائد .

وزار السلطان الملك الظاهر بيبرس ثغر الإسكندرية في أيام سلطنته أربع

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٦ — الخطط ، ج ١ ص ٣٩٣ .

(٢) يذكر المقرئى في الخطط أن الاهتمام بالأساطيل قل بعد عصر صلاح الدين وأصبح السلاطين لا يهتمون بها الا عند حاجاتهم إليها ، فاذا دعت الضرورة إلى تجهيز الأسطول كان المسؤولون يلقون القبض على الرجال في الطرقات ، ويقيدونهم بالسلاسل نهاراً ويسجنونهم في الليل حتى لا يتيسر لهم السبيل إلى الهرب ، وكانوا لا يوزعون عليهم الا شيئاً قليلاً من الخبز ويعاملونهم معاملة أسرى العدو ، فأصبحت خدمة الأسطول « عارا يسب به الرجال ، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولى ، غضب غضباً شديداً بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله ، ويتبرك بدعائهم الناس » . ولما قامت دولة المماليك زاد إهمال السلاطين للأسطول ، حتى كانت أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذى تمت على يديه حركة الاحياء البحرى (راجع ، المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ص ١١١) .

(٣) المقرئى السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٧ — الخطط ، ج ٣ ص ١١١

مرات ، ترك فيها من الآثار في كل زيارة ما نوه به المؤرخون وأشادوا
بذكره ، وفيما يلي تفصيل بالأعمال الإنشائية والإصلاحات التي قام بها
بيبرس أثناء زيارته للإسكندرية وفي الفترات التي تتخلل هذه الزيارات :

١ — الزيارة الأولى في سنة ٦٦١ هـ :

عزم السلطان على زيارة ثغر الإسكندرية ، وإجراء بعض أعمال
الإصلاح والتعمير بهذا الثغر الهام من ثغور دولته في سنة ٦٦١ هـ . ففي ٦ شوال
من هذه السنة خرج من القاهرة متوجهاً إلى الإسكندرية ، فوصل إلى
تروجة ، وقضى بها أياماً للصيد في بريتها في صحبة أوليائه ، واهتم السلطان
أثناء مقامه بتروجة بتزويد هذه المنطقة بمياه الشرب ، وأسند هذه المهمة إلى
أحد حجاجه وهو الأمير شجاع الدين الزاهدي ، وأحضر من الإسكندرية
الرجال لحفر الآبار ونزحها من الأكدار ، وكان قد سبقه إلى ثغر الإسكندرية
الصاحب بهاء الدين حنـا أحد وزرائه ، فحصل له من الإسكندرية مبلغاً
كبيراً من المال قدره ٩٥ ألف درهم ، كما استقدم له عدداً من الهدايا منها
٩٥ لفة من القماش السكندري من الحلل والبندق الرفيع والجوح الأحمر . ويذكر
المؤرخون أنه لم يعامل أهلها بغير العدل ، ولم يضرب أحداً فيها بمقرعة (١) .
وعلى هذا النحو مهد الوزير بهاء الدين بن حنـا الطريق أمام السلطان
لزيارة الإسكندرية ، ثم تحرك موكب السلطان ، وضرب مخيمه بظاهر
المدينة ، التي زينت له أحسن زينة ، ونصبت فيها الأبرجة ، وأخرج أهل

(١) ابن واصل ، تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسياسيين
المعروف بتاريخ ابن واصل وهو نفس مفرج الكروب ، صورة شمسية من مخطوطة باريس
شفوظة بمكتبة جامعة الاسكندرية تحت رقم ٦٤ مخطوط ، ص ٤٢٤ أ — المقریزی ،
السلوك ، ج ١ ص ٩٩ — ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ،
ص ٨٤ من النص المنشور

الإسكندرية ما عندهم من العسدد الخاصة بالجهاد من القسى والعماريات
والزرد والحدود والطوارق والجوبان والكزغندات ، وزينوا بها الشوارع
والأسواق ، وأمر السلطان بالألا يقيم بالشجر جندى ، وألا ينزل أحد فى دار (١) .
ثم دخل بيبرس الإسكندرية فى مستهل ذى القعدة من باب رشيد ، فتلقاه
الناس بالنسرور والفرح والدعاء والابتهال إلى الله تعالى بدوام ملكه
ودوام عزه ، « واستدعى السلطان بالخزائن والأمتعة ، وشرع فى تعبئة ما
يعبیه للأمرء على قدر مراتبهم ، ورسم بمكتوب يرد مال السهميين وصلة
أرزاق الفقراء ، وسامح بما كان يؤخذ من أهل الإسكندرية وهو ربع دينار
عن كل قنطار يباع من (البهار) ، ولعب بالكرة ، وخلع على حسين
الأمراء ، وأعطى الأتابك (٢) ثلاثة آلاف دينار ، وأعطى الأمراء على
حسب مراتبهم » (٣) .

وانتهز السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فرصة وجوده بشجر
الإسكندرية لزيارة شيخين من كبار شيوخها فى هذا العصر كانا موضح
إجلال أهـل الإسكندرية وتعظيمهم ، هما الشيخان القبارى (٤)

(١) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ أ — المقرئى ، السلوك ،
ج ١ ص ٤٩٩ — العيني ، عقد الجمان ، صورة شمسية محفوظة بدار الكتب المصرية
تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، القسم الثالث من الجزء الأول ، ص ٤٩٦ .

(٢) يقصد به الأتابك الأسير فارس الدين أقطاي

(٣) السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩ — العيني ، ص ٤٩٦ . وقد ورد النص مطولاً
فى تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ ب — ابن عبد الظاهر ، ص ٨٤

(٤) هو الشيخ الزاهد الصالح أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى المالكي
الإسكندري المعروف بالقبارى أحد العباد المشهورين بكثرة الورع والتحرى فى المأكـل =

والشاطبي (١) مقلداً في ذلك ما كان يفعله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب عندما كان يزور الشيخين ابن عوف والحافظ السلفي أثناء زيارته للشجر ، بقصد التبرك بدعائهما ، والتقرب إلى قابوب أهل الاسكندرية . فركب السلطان لزيارة الشيخ القباري في خلوته من جبل الصيقل غربى الإسكندرية فاشترط عليه الشيخ المذكور لرؤيته أن يكلمه من البستان ويبقى الشيخ في عليته (٢)

= والمشرب والملبس ، معروف بالانقطاع والتخلي وترك الاجتماع بأبناء الدنيا ، والاقبال على ما يعينه من أسر نفسه ، وقد اختار لنفسه طريقاً صعباً من العسير على أحد من معاصريه وأبناء زمانه أن يسلكه ، لخشونة عيشه ، والوحدة مع الجهد والعمل والاحتراز من الرياء . وتوفي الشيخ القباري في ليلة الاثنين ٦ من شعبان سنة ٦٦٢ هـ ببستانه بجبل الصيقل من ظاهر الاسكندرية ، ودفن به بوصية منه . وبعد وفاته بيع أثاث بيته وقيمته دون الخمسين درهما ورقا بما يزيد على عشرين ألف درهم تزايد الناس فيه التماساً للتبرك به حتى بلغ الابريق الذى كان يستعمله ويتوضأ فيه للصلاة مبلغاً عظيماً من المال . وكان رفيق القلب يشفق على الناس من الظلم ، فعندما رأى ما ينافيهم من من العسف والظلم في حفر خليج الاسكندرية في سنة ٦٦٢ هـ أعرض عن ماء الخليج ، وحمله التناهى في الورع على أن يحفر لنفسه بئراً ، كان يشرب منها ، وينقل منها الماء بالجرار على دابة ليسقى ببستانه . (راجع : اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٣١٥ - السيوطي ، ج ٢ ص ٢٤٨ - جمال الشيال ، أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ٢٦٥ - ٢٣٠).

(١) هو الفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبو عبد الله بن محمد بن سليمان المعافري الشاطبي أحد أولياء الله الصالحين المشهورين في الشجر بالعبادة ، وكان يجمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلي عن الناس ، والتمسك بطريقة السلف . وقد انقطع لعبادة الله في رباط سوار بالاسكندرية ، بتربة أستاذه أبي العباس الراسي ، وتوفي في الاسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢ هـ . ودفن بتربة شيخه المجاورة لزوايينه (المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٣٤١).

(٢) العلية ، هي غرفة عليا بارزة عن سمت^٣ جدار الدار ، تطل على الطريق بواسطة نافذة مشبكة .

دون أن يتكلف السلطان مشقة الصعود ، والشيخ مشقة النزول (١) ، فنزل السلطان على شرط الشيخ ، وقابله ، وسجى في أثناء المقابلة سماعات ثغر الإسكندرية وعمارتها ، « فلوقت تقدم السلطان بإشارة الشيخ ، ووقع بعد ذلك التعيين على القاضى ناصر الدين أحمد (٢) ، فنمض إليه الخطابة والقضاء ، ورسم له بالملع وكتابة التقايد ، وأمر بالوصية على القاضى بدر الدين بن أبى الفرج القاضى المعزول ، وكف الأذى عنه ، وأبقى جامعيته ، وما كان له عليه ، وأن تزداد حرمة وإكرامه ، وعاد بعد ذلك من زيارة الشيخ أعاد الله بركته » ، ثم طاف على أسوار المدينة ونظر فيها ، وأمر بما يجب فى أمرها . ثم زار الشيخ الشاطبى ، واستعرض حوائجه ، فقال الشيخ : « ليست لى حاجة لأن راتب السلطان علينا ونحن فى نعمته فى إنعام يفضله علينا وعنا » ، ثم زار السلطان بعد ذلك قبور مشايخ الشجر (٣) .

وفى أثناء مقام السلطان بالإسكندرية حضر إليه رجلان من أهل الشجر ، أحدهما يقال له زين الدين بن البورى ، والثانى يعرف بالمكرم بن الزيات ،

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٤٩٩ — ابن عبد الظاهر ، ص ٨٥

(٢) هو القاضى المشهور أبو العباس أحمد بن المنير أحد الأئمة المتبحرين فى العلم ، ولأه السلطان سكان قاضى الاسكندرية زين الدين أبى الفرج الاسكندراني ، ولكن ما كاد السلطان يرحل من الاسكندرية فى ١٨ ذى القعدة إلى قلعة الجبل حتى عزل ابن المنير وفوض قضاء الشجر لأحد فقهاء القاهرة الزاهدين وهو الفقيه برسان الدين بن ابراهيم بن محمد بن على البوشى المالكي ، بينها فوض الخطابة للقاضى زين الدين أبى النرج (اليوناني) ج ٢ ص ١٩٦ — ابن عبد الظاهر ، ص ٨٦ — السلوك ، ص ٥٠٠ .

(٣) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٥ أ

ادعيا أمامه أن بالشجر أموالاً ضائعة وكتبها بها أوراق ، فاستدعى السلطان في ٦ من ذى القعدة الأناباء ، والساحب والقضاة والنقهاء ، وأمر بقراءة الأوراق ، فقرئت ، « وصار كلما ذكر له باب مظلمة سده ، ويعود على المذكورين بالانكار . حتى انتهت القراءة ، فقال : اعلّموا أنى تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار من التصفيق والتقويم والراجل والعبد والحارية وتقويم النخل ، فعوضنى الله من اللال أكثر من ذلك ، وطلبت جرائد الحساب ، فزادت بعد حط المظالم جملته ، من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً » (١) ، وأمر السلطان بأشهار ابن البورى ، فأشهر وأنعم على الأمراء الذين معه بالقماش والخلع .

وفي اليوم الثامن من ذى القعدة جلس السلطان بدار العدل بالاسكندرية ، وأمر بتطهير الشجر من الخواطي الفرنجيات (٢) . وفي أثناء مقام السلطان بالشجر أمر بكسوة الجامع الغربى وعمل قناديله وعمارتة من ماله ، وفي يوم الجمعة « ركب الملك الظاهر وحضر إلى الجامع ، وبسط المنصورة التى جرت عادة الملوك أن تصلى فيها لسماع الخطبة ، فجلس تحت المنبر ، وخطب الخطيب ، فأمره بالدعاء لولى العهد بعده الملك السعيد بركة خان وللملك بركة » (٣)

(١) السلوك ، ج ١ ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ — عقد الجمان ، ص ٤٩٧

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٥٠٠ . والمقصود بالخواطي ، الناعرات من النساء اللاتي يحترفن البغاء . وقد أمر السلطان في سنة ٦٧٧ هـ بإزالة الخمر وإبطال المفسدات والخواطي من الديار المصرية والشامية ، وحبس الخواطي حتى يتزوجن ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك ، وأسقطت الضرائب التى كانت سرتبة على الدعارة (السيوطى حسن المتأسرة ، ج ٢ ص ١٧٦)

(٣) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٤٢٤ ب — ابن عبد الظاهر ، ص ١١٦

٢ — ما أجرى في الاسكندرية من أعمال إصلاحية فيما بين زيارتي السلطان

الأولى والثانية :

كان خليج الإسكندرية عند فوهته قد امتلأ بالرواسب الطينية ، الأمر الذي أدى إلى فلة وصول مياه النيل إلى ثغر الاسكندرية ، فعزم السلطان على إزالة هذه الرواسب ، وإعادة حفره ، فسير الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار ، فابتدأ بالحفر من النقيدي تحت مباشرة المعلم تعاسيف ناظر الدواوين ، إلى أن ظهر فم الخليج مما كان راسباً فيه من العالين ، وأنشأ هناك مسجداً (١) .

وفي هذه الآونة رسم الظاهر في شعبان من هذه السنة بتكملة عمارة بئر الليونة الواقع غربى الاسكندرية وإنشاء بستان فيها حتى تكون منزلاً من المنازل التي ينجم بها السلطان عند توجهه إلى منطقة الحمامات للصيد (٢) .

٣ — الزيارة الثانية في سنة ٦٦٤ هـ :

وفي صفر سنة ٦٦٤ هـ رحل السلطان إلى الاسكندرية للمرة الثانية عندما بلغه شكوى أهل الاسكندرية من عدم وصول الماء إليها في سائر شهور السنة ، بسبب ما تكس من الرمال في المجرى الممتد من النقيدي إلى فم الخليج فسير لحفره الأمير علم الدين سنجر المسرورى ، ثم خرج من قلعة الجبل وبصحبه عامة الأجناد والأمراء ، وبأشر الحفر بنفسه ، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس حتى زالت الرمال .

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٥١٠ — الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٠ — العيني

ص ٥٠٢

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٩٣ —

العيني ، عقد الجمان ، ص ٥٠٢

ويذكر عمر طوسون أنه ظهر التربة ما بين القيدى وشابور ، كما ظهر المرحلة ما بين منية ببيج ودمهور ، واستدل على ذلك من وجود قرية تسمى الضهرية ، إحدى قرى مركز إيتاي البارود (وصحة الاسم الظاهرية نسبة إليه) بدلا من الاسم القديم منية ببيج ، كذلك يستند فى رأيه على أن تربة الضاهر الحالية تحمل اسم الظاهر ببيرس مما يدل على أنه أجري فيها بعض الأعمال (١) . وعلى الرغم من ذلك فقد توقف جريان الماء فى خليج الاسكندرية فى معظم شهور السنة ، واضطر الأهالى إلى الاعتماد على الصهاريج فى السقاية والشرب (٢) . ويذكر أبو الحسن أنه بنى على خليج الاسكندرية بالقرب من قنطرة القديمة قنطرة عظيمة بعقد واحد (٣) .

٤ - - الزيارة الثالثة فى ٦٦٨ هـ :

بينما كان الظاهر ببيرس يحاصر حصن الأكراد حتى ٢٨ من رجب سنة ٦٦٨ هـ ، بلغه أن مراكب الفرنج دخلت ميناء الاسكندرية ، واستولت على مركبين للمسلمين ، فأزعجته هذه الأنباء ، وبادر بالرحيل من فوره إلى الديار المصرية ، فوصل إلى القاهرة فى ١٢ شعبان من نفس السنة ، وهناك ورد الخبر بأن « اثنى عشر مركباً للفرنج عبروا على الاسكندرية ودخلوا ميناءها وأخذوا مركباً للتجار واستأصلوا ما فيه وأحرقوه ، ولم يجسر والى الاسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغلبة رئيسها فى مهم استدعاء الملك الظاهر بسببه » ، فخشى الظاهر ببيرس أن يكون هذا الاعتداء مقدمة لحملة صليبية واسعة

(١) عمر طوسون ، تاريخ خليج الاسكندرية القديم ، ص ٢٣ ، ٢٤

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

(٣) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٣

النطاق ، وكان قد بلغه أن عدداً من ملوك الفرنج قد اجتمعوا بصقلية ،
وشرعوا في تجهيز الأساطيل دون أن تحدد وجهتهم ، فاهتم السلطان بتحصين
الثغور ، وإعداد الشوانى ، وحفظ السواحل ، وعمر الجسور إلى دمياط (١)
ولكن بدلاً من أن تتوجه الحملة الصليبية المتوقعة إلى مصر ، توجهت إلى
تونس في عصر المستنصر الحفصي ، فكتب بعض أدباء المستنصر واسمه أحمد بن
إسماعيل الزيات يقول :

أفرنسيس تونس أخت مصر فتأهب لِمَا إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وحـواشيك منكـر ونكير

فقضى الله أن يموت لويس التاسع في هذه الحملة وهو على أبواب قرطاجنة
سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) (٢).

وكان الظاهر قبل أن تصله هذه الأنباء قد اتخذ حذره ، وبالغ في الاحتياط
والاستعداد ، فأمر بقتل الكلاب بالاسكندرية ، ومنع الناس من فتح حوانيتهم
بعد المغرب ، ومن إيقاد أى نار بها أثناء الليل (٣) ، كما أمر بالاهتمام بتحصين
الاسكندرية . وفى ذى الحجة أمر بعمل جسرين على مراكب أحدهما يصل
بين مصر وجزيرة الروضة ، والآخر بين الجزيرة والحيزة ، ليسهل لعسكره
العبور عليها نحو الاسكندرية إذا طرقها العدو .

ثم خرج السلطان إلى الاسكندرية فى ٢١ صفر سنة ٦٦٨ هـ وبصحبه

(١) العيني ، ص ٥٥٨

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٩٣ — المقرئى ج ٤ ص ٩٠ — مذكرات
جوانفيل ، ترجمة الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣١٣ — جوزيف
نسيم ، لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٥٨

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٨ ، ١٤٩

ولده الملك السعيد وسائر الأمراء ، وكان صاحب بهاء الدين بن حنا قد سبقه إليها ، وحمل الأموال والقماش للخام ، فخلع السلطان على الأمراء ، وحمل إليهم التعيين والنفقة ، ولعب الكرة بظاهر الاسكندرية (١) ، ثم توجه إلى الحمامات بغربي الاسكندرية ، ونزل بالليوننة وابتاعها عن وكيل بيت المال (٢) .

٥ — حركة الأسطول سنة ٦٦٩ هـ :

اهتم الظاهر بيبرس بإنشاء أسطول حربي قوى يحسب سواحل مصر والشام من غارات الفرنج ويسهم في العمليات الحربية ، فبذل جهوداً ضخمة لتجميع عدد من السفن بقصد غزو جزيرة قبرص ، وذلك عندما علم بخروج صاحب قبرص للاغارة على عكا ، مستغلاً في ذلك خلوها من سفن القبارصة ، فسير لهذا الغرض سبعة عشر شينياً في شوال سنة ٦٦٩ هـ ، قود على سفن مصر الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور ، وعلى سفن الاسكندرية شهاب الدين محمد بن ابراهيم بن عبد السلام رئيس البحر بالاسكندرية ، وعلى أسطول دمياط شرف الدين علوى بن أبي المجد علوى العسقلاني ، ثم قدم الرئيس جمال الدين مكى بن حسون على جميع قطع هذا الأسطول ، وأبحرت السفن نحو قبرص ، وعندما اقتربت منها عمل ابن حسون على مباغته الفرنج بالهجوم ، فنصب على أعلام الشواني صليباً (٣) حتى يوهم القبارصة بأنها سفن مسيحية

(١) يبدو أن المنطقة الواقعة خارج باب البحر كانت تتخذ ملعباً للكرة لاتساع الفضاء هناك واستاداده ، وصلاحيته لهذه اللعبة .

(٢) السلوك ، ج ١ ص ٥٨٤ — اليوناني ، ج ٢ ص ٤٣٣ — النجوم ،

ج ٧ ، ١٤٧

(٣) النجوم ، ج ٧ ص ١٥٤ — سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ،

القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٨

ثم وصلت السفن المصرية إلى الجزيرة ليلاً ، ولكنها تعرضت لعاصفة عاتية
أبعدها عن مرسى ليماسوس (ليماسول) ، واصطدم الشينى المتقدم فى الطليعة
ببعض الشعب فانكسر ، واصطدمت به بقية الشوانى ، وتحطم من السفن ما يزيد
على إحدى عشرة سفينة ، وقيل تحطمت كلها ، وأسر الفرنج من فيها من
الرجال والصناع ، وكانوا زهاء ألف وثمانمائة نفس ، ونجا الرئيس ابن
حسون فى الشوانى السالمة (١) ، فعظم ذلك على الظاهر بيبرس (٢) ، وعزم على
إنشاء شوانى جديدة عوضاً عن الشوانى المفقودة ، وأمر باثرائها فى دور
صناعة مصر والاسكندرية ودمياط ، وانتهى العمل منها فى ١٤ من المحرم سنة
٦٧١ هـ (٣) ، وشاهدها فى ٢٧ من جمادى الآخرة ، واحتفل باستكمالها
وإعدادها للسفر . كذلك احتفل بيبرس بنصب ١٠٠ منجنيق على أسوار

(١) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٧ ص ١٠ — النجوم ، ج ٧

ص ١٥٤

(٢) يجعل المرحوم الدكتور الشيال هذه الغزوة البحرية فى سنة ٦٥٨ أى
فى نفس السنة التى تولى فيها بيبرس السلطنة بعد أن اغتال قطر . والواقع أن بيبرس
لم يبرح مصر قبل سنة ٦٥٩ ، كما أن حادثة مراكب الفرنج التى أبلغ بيبرس
بخطوها فى ميناء الاسكندرية لم تقع فى سنة ٦٥٨ ، وقد أشرنا إلى التاريخ الصحيح
عند دراستنا لزيارة بيبرس الثانية للاسكندرية . كذلك لا يمكننا أن نرجع حملة
لويس التاسع على تونس إلى سنة ٦٥٨ كما يشير المرحوم الدكتور الشيال لأن هذه
الحملة وجهت إلى تونس فى سنة ٦٦٨ . والظاهر أن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد
خطأ مطبعى . (راجع جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ١١٣ ،
١١٤) .

(٣) الخطط ، ج ٣ ص ١١١ — النجوم ج ٧ ، ص ١٥٥

الاسكندرية ، لكثرة ما تردد عن حركة الفرنج لقصد ثغور الديار المصرية (١) أما أسرى المسلمين بقبة ص ، فقد أرسل السلطان الأمير فخر الدين المشرى الحاجب إلى صور لافتدائهم ، فتغالى الفرنج في الرؤساء ، وتمسكوا بستة ، منهم رئيس الاسكندرية ، ورئيس دمياط وأبو العباس المغربي وغيره ، ووضعهم الفرنج بسجن حصين في قلعة عكا ، فأرسل السلطان إلى الأمير سيف الدين خطابا أحد نواب السلطنة بصفد ، يأمره بالتحايل على إخراجهم من السجن ، وبفضل إرشاء المتوكلين بهم ، تمكن من إدخال بعض المبارد والمناشير إليهم ، وبهذه الطريقة نجحوا في كسر أعمدة الحديد وخرجوا من جب القلعة ، وركبوا سفينة ، حملتهم إلى مصر دون أن يدري أحد في عكا بنجرهم إلا بعض رحيالهم ، وسبب ذلك قيام فتنة كبيرة بعكا (٢) .

٦ — الزيارة الرابعة في ٦٧٣ هـ :

كانت بعض أركان منار الاسكندرية قد تصدعت ، وسقط جانب كبير منها على مر السنين ، فعزم السلطان بيبرس على زيارة الاسكندرية للتصعيد وترميم ما وهى من بنيان المنار . ففي سنة ٦٧٣ دخل السلطان الاسكندرية ، وأمر ببنيان ما تهدم من المنار ، ورتب البناء على الممشى الذى حوله من أسفل عند المطلاع (٣) ، ثم أقام مسجداً فى أعلى المنار (٤) . وذكر السيوطى أن وجه

(١) المقرئى ، السلوك ، ص ٦٠٨ — الخطط ج ٣٠٦ و ٣٠٧ ، ج ٣ ص ١١١

(٢) ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٣ — السلوك ، ص ٦١٥

(٣) ابن الفرات ، ص ٢٥ — السلوك ، ص ٦١٦

(٤) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٩٧ — المقرئى ، الخطط ، ج ١ ،

المنارة البحرية تدعى وكذلك الرصيف الذى يتقدمها من جهة البحر ، وكادا ينهدمان ، فمهما بيبرس وأصحابهما (١) .

وكانت هذه الزيارة هى خاتمة زيارات بيبرس للاسكندرية ، وقد رأينا مدى ما خص به هذا السلطان الثغر السكندري من عناية واهتمام ، بحيث أصبح هذا الثغر بحق أعظم ثغور مصر كما كان موضعاً للزينة والفريجة ، بدليل أن المنصور صاحب حماة طلب من بيبرس أن يأذن له بزيارة الاسكندرية فأذن له ، فخرج إليها فى سنة ٦٦٥ هـ للفريجة (٢) ، وفى الاسكندرية أقام الشيخ خضر أبو بكر بن موسى المهراني مسجداً سماه المدرسة الخضرى على أنقاض كنيسة لاروم (٣) ، وأنفق على بناء المدرسة المذكورة مالا كثيراً من بيت المال ، وتعرف هذه المدرسة اليوم بزاوية سيدى خضر ، وتقع اليوم بشارع مسجد تربة بنة برأس التين (٤) .

(١) السيوطى ، ج ١ ص ٤٤

(٢) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٧ - العيني ، ص ٥٣٢ - السلوك ، ص ٥٥٦

(٣) ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٠٣ - أبو المحاسن ، ج ٧ ص ١٦٢

(٤) أبو المحاسن ، ج ٧ ص ١٦٢ هامش رقم ٣

(٢)

الاسكندرية في عصر السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون وخلفائه حتى الأشرف شعبان

(١) أعمال الناصر محمد بالاسكندرية :

تابع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٦٩٤ ، ٦٩٨ - ٧٠٨ ، ٧٠٩ - ٧٤١ هـ) سياسة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في العناية بشجر الاسكندرية ، على الرغم من عدم قيامه بزيارتها (١). ويتمثل اهتمام الناصر محمد بشجر الاسكندرية في إصلاحين عظيمين قام بهما : الأول ترميمه لمنار الاسكندرية ، والثاني حفره للخليج الناصري .

١ - ترميم منار الاسكندرية :

شهدت مصر في يوم الخميس ٢٣ من ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ زلزالا عنيفاً عند المربع الشمس ، اهترت له أرض مصر كلها إلى القاهرة وأعمال الديار المصرية ودمشة والسواحل ، وإن كان أثره في مصر أشد وأعظم من الشام ، إذ تساقطت له الدور ، وتشققت الجدران ، وانهارت مآذن

(١) لم يخرج السلطان الناصر محمد إلى نواحي الاسكندرية إلا للصيد مرتين ، احداً في سنة ٧٠٣ هـ، نزل فيها بتروجة (السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٥٥) ، والثانية في سنة ٧٢١ عندما خرج إلى البرية متصيداً حتى وصل إلى الحمامات بغربي الاسكندرية (أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٧ ص ١٠٦)

المساجد والمدارس ، وأحدث هذا الزلزال بالاسكندرية أضراراً جسيمة .
فكان تأثيره فيها أعظم من غيرها ، فقد « طلع البحر الى نصف البلد ، وأخذ
الحمال والرجال ، وغرقت المراكب » (١) . وذكر المقرئى أن المنار انشق
وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة ، والبحر هاج رنة الرياح
العاتية أمواجه حتى باب البحر ودار الصناعة ، فغمرت بها ، وحملت المراكب
الافرنجية الراسية بالميناء الشرقية إلى البر ، ولطمت الأسوار بشدة ، فتهوى
من السور ست وأربعون بدنة وسبعة عشر برجاً (٢) ، وأتلف مد البحر
قماش التجار بالقصارين (٣) ، وهلك بسببه عدد كبير من أهل الاسكندرية
تحت الانقاض (٤) . فاهتم السلطان بعمارة ما تهدم في الاسكندرية (٥) ، وتم
ذلك في شهر سنة ٧٠٣ هـ على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٦) .

ولكن يبدو أن إصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم التي
أجراها الأمير بيبرس ، فسقط جانب كبير منه ، وشاهده الرحالة ابن بطوطة
في سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) أثناء مروره بالاسكندرية في طريقه إلى مكة
لأداء فريضة الحج ، فقال : « قصدت المنار في هذه الوجهة ، فرأيت أحد
جوانبه متهدماً » ، ولما زاره بعد ذلك بخمس وعشرين عاماً ، أى في سنة

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٨

(٢) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٦٠ - السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٤٣ ، ٩٤٤

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٣ ، أحداث سنة ٧٠٢ هـ

(٤) أبو الفداء ، ج ٧ ، ص ٦٠ - السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٤٣

(٥) السلوك ، ص ٩٤٤

(٦) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

٧٥٠ هـ (١٣٤٩-١٣٥٠ م) في طريق عودته إلى المغرب رآه « قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود (١) إلى بابه » ، ويشير إلى أن السلطان الملك الناصر محمد كان قد شرع في بناء منسار مثله بازائه (٢) فعاقه الموت عن إتمامه (٣).

ونقل السيوطي عن ابن فضل الله العمري أن هذه المنارة خربت وبقيت أثراً بعد عين ، في أيام قلاوون أو ولده (٤) ، وذكر النويري السكندري أنه لم يكن

(١) أورد الأستاذ ليفي بروفنسال وصفاً للمنسار في بداية الرابع الهجري لابن عبد المنعم الحميري ، ذكر فيه أن هذا المنار من دخله ولم يعرف مسالكه تاه فيه وضل لأن طريقه تؤول إلى أسفله وإلى البحر ، وروى أن صاحب المغرب حين وصل إلى الاسكندرية في خلافة المقتدر العباسي دخل جماعة من المغاربة المنار على خيولهم ليروا ما فيه من الغرائب ، فتأهوا وضلوا الطريق ، وفقد منهم عدد كبير . (راجع Lévi-Provençal, une description arabe inédite du Phare d'Alexandrie, dans "Mélanges Maspero, III, Orient Islamique", Le Caire, 1940, p. 166)

و روى صاحب الاستبصار أنه يرقى إلى الباب من أسفل المنارة إلى أعلى الحزام الأول في طريق يمشى فيه فارسان متناكبان في أرض سهلة لا يكاد الراقى يعلم فيه هل هوراق أو ساتس (الاستبصار ص ٩٦)

(٢) أتم الأمير إلاح الدين خليل بن عرام وإلى الاسكندرية في سلطنة الأشرف شعبان بناء حصن دائر حول أساس هذا المنار الجديد الذي لم يكن العمل قد استكمل فيه ، وركب لهذا الحصن باباً ضخماً ، اقتلعه القبارصة بعد ذلك في أثناء غزوتهم في سنة ٧٦٧ هـ . (النويري السكندري ، الامام ، ص ٨٣ ب)

(٣) ابن بطوطة ، ص ٢١

(٤) السيوطي ، ج ١ ص ٤٤

قد تبقى من المنارة في سنة ٧٧٥ هـ إلا بقعة أساسها (١) . وظلت أسس المنار قائمة حتى أيام المقریزی ، إذ أشار إلى أن المنار « باق إلى يومنا هذا » (٢) . يقصد إلى أيامه : أما المنار الحديد الذي أشار إليه ابن طة ، فهو معلم جديداً من معالم الاسكندرية الاسلامية شرع في بنائه في زمن الناصر محمد عند نهاية الصخور المتصلة برأس السلسلة ، وتم في عهود من خلفه من السلاطين (٣) . ويعرف في الوقت الحاضر بطابية السلسلة (٤) .

٢ — حفر خليج الاسكندرية الحديد أو الخليج الناصري :

ومن أعظم مآثر السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الاسكندرية حفره لترعة جديدة هي الخليج الناصري في سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م) وذلك بعد أن طمرت الرمال الترعة القديمة ، وتعطل جريان الماء فيها بطول السنة منذ سنة ٦٦٤ هـ حتى سنة ٧١٠ هـ . وفي هذه السنة تقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخازنداري (٥) إلى السلطان الملك الناصر محمد بالقلعة ، وعرض عليه فكرة

(١) النويري السكندري ، الامام ، نسخة دار الكتب ، ص ١٠١ أ

(٢) المقریزی ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

(٣) جمال الدين الشيبان ، الاسكندرية ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، ص ٢٣٣

(٤) عبد الرحمن زكي ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، ص ١٤٧

(٥) هو الأمير بكتوت أمير شكار الخازنداري أحد محاليك الأمير بيلايك الخازندار نائب السلطنة بمصر في أيام الظاهر ، ثم تدرج بكتوب في المناصب حتى ذاع صيته في أيام العادل زين الدين كتبغا ، فولاه أمير شكار ، ثم تولى على الاسكندرية وكثر ماله . وعظم قدره في أيام سلار وبيبرس الجاشنكير ، وتوفي بعد أن عزله عنها في ٨ رجب سنة ٧١١ هـ (راجع المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ص ١١١ — الدرر الكاسنة ، ج ٢ ص ٢٢ — النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢١٧)

إعادة حفر الخليج المذكور ، وحسن له وضعها موضع التنفيذ لضمان استمرار وصول الماء إلى الاسكندرية صيفاً وشتاء ، وذكر له ما في ذلك من المزايا والفوائد التي لحصها المقرري في ما يلي : « أولها حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الاسكندرية في المراكب ، وفي ذلك توفير للكلف وزيادة في مال الديوان ، وثانيها عمارة ما على حافتي الخليج من الأراضي بإنشاء الضياع والسواقي ، فينبو الخراج بهذا نموا كثيراً ، وثالثها انتفاع الناس به في عمارة بساتينهم وشرب مائه دائماً » (١) .

واستحسن السلطان ما عرضه عليه الأمير بدر الدين بكتوت ، وأعجب برأيه ، فعهد إليه بحفر خليج الاسكندرية ، وزدب لمساعدته في ذلك الأمير بدر الدين محمد بن كيدغدى المعروف بابن الوزير ، وأمر جميع أمراء الدولة باخراج مباشريهم وأستاداريهم لحشد الرجال اللازمين للحفر من النواحي التابعة لاقطاعاتهم . فاجتمع لذلك ما يقرب من أربعين ألف رجل جمعو في نحو عشرين يوماً . وبدأ العمل فيه في شهر رجب سنة ٧١٠ هـ ، وخصص لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل . وبلغ قياس المجرى الحديد المحفور من فم نهر النيل إلى شنبار (أبو حمص الحالية) ثمانية آلاف قصبة حاكمية ، ومن شنبار إلى الاسكندرية مثل هذا العدد ، وبلغ عمق المجرى ست قصبات في حين بلغ عرضه ثمانى قصبات . وكان الخليج الأصلي يدخل الماء إليه من حد شنبار . ولما انتهى الحفر إلى حد الخليج الأول ، أزدوا في عمقه وفي عرضه بحيث أصبح المجرى في الخليج المستحدث والقديم بحرا واحداً . ثم ركب عليه السدود والمنابر (٢) . . وعثر في الخليج القديم عند تعميق

(١) المقرري ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

(٢) المقرري ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١ - السلوك ، ج ٢ ص ١١٢ - النجوم

الزاهرة ، ج ٩ ص ٢١٨

مجره على شىء كثير من الرصاص المبني تحت الصهاريج ، فأنعم به السلطان على الأمير بكتوت . ونتج عن حفر هذا الخليج أن كثر الماء ، وأصبحت السفن تجرى فيه طوال العام ، واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج ، وبأدروا بالعمارة على جانبيه وأقاموا قرية جديدة عرفت بالناصرية (١) .

ويذكر المؤرخون أنه لم يمض غير قليل على حفر هذا الخليج حتى استجد عليه ما يزيد على مائة ألف فدان زرعت بعد أن كانت سباحاً ، وما يزيد على ستمائة ساقية برسم القلائس والنيلة والسهم ، وما يزيد على الأربعين ضيعة ، وأكثر من ألف غيط بالاسكندرية ، وعمرت بفضلها عدة بلاد ، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد عليه (٢) بعد أن كان سباحاً . وعندما انتهى العمل في الخليج ، شرع الأمير بكتوت في عمل جسر من ماله استمر العمل فيه ثلاثة أشهر ، وهو عبارة عن رصيف ذك أساسه بالحجر والرصاص وكساه بالحجر والكلس ، وأقام له ثلاثين قنطرة ، وأنشأ بجواره خانا وحنوتاً ينزله الناس ، رتب فيه الخفراء ، ووقف على مصالحه رزقه . وقد بلغ جملة ما أنفقه عليه نحو ٦٠٠ ألف دينار مصرية ، إذا أخرج من هذا المبلغ ما أخذه من حجارة قصر قديم كانت أطلاله ما زالت قائمة خارج الاسكندرية (٣)

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ١١٢ - النجوم ، ج ٩ ص ٢١٨ .
ويذكر المقرئى أن هذه القرية عمرت بعد ذلك بفضل نزول زعيم العربان بمقداد بن شماس بها ، فأقام هناك وأنشأ البيوت والسواق والدواهب ، وعمر تلك الجهات ، وبقي عقبه بها من بعده (السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ٥٣٨) .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

(٣) لعله آثار القصر الرومانى الذى أشرنا إليه سابقاً ، وهما الادريسي القصرين =

وما عثر عليه من الرصاص في سرب كان يقوم عليه هذا القصر يمتد من جنوب المدينة إلى ما يقرب من البحر ، وما أنعم السلطان به عليه من الرصاص الذى عثر عليه في مجرى الخليج القديم (١) .

ومنذ ذلك الحين لم يتوقف ماء الخليج عن الوصول إلى الاسكندرية حتى ما بعد سنة ٧٧٠ هـ عندما انقطع الماء بعد ذلك في أغلب شهور السنة ، ولم يعد يصل إلى الاسكندرية إلا في أوقات الفيضان ، على النحو الذى سنشير إليه فيما بعد .

وما أن تم الفراغ من حفر الخليج بالحديد حتى أصبح الاتصال في النيل بين الاسكندرية والقاهرة أمراً ميسوراً ، فعن طريق الخليج الناصري خرجت حراقتان تحملان أبا الفداء المؤرخ مع صحبه (٢) ، كذلك ركب فيه الأمير شيخو بعد خروجه من سجن الاسكندرية في حراقة حملته إلى القاهرة في سنة ٧٥٢ هـ (٣) .

(ب) ازدهار الاسكندرية في عصر الناصر محمد :

ازدهرت الاسكندرية في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ازدهاراً كبيراً ، وكثرت فيها الثروات بسبب اشتغال أهلها بالتجارة البحرية ، ويكفى

= وكانت أطلاله قائمة في الموضع المعروف حالياً بمصطفى باشا .

Combe, Notes de Torographie Alexandrine, p 66

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٢ — السلوك ، ج ٢ ص ١١٢ —

النجوم ، ج ٩ ص ٢١٩

(٢) أبو الفداء ، المختصر ، ج ٧ ص ٩٨

(٣) السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٤٨

للدلالة على ذلك أن نذكر أنه عندما قبض على القاضى كريم الدين عبد الكريم ابن العلم بن هبة الله ناظر الخا ص ، فى ١٤ ربيع الآخر سنة ٧٢٣ هـ وصودرت أملاكه ، أخصى ماله فى الاسكندرية ، فثبت أنه كان لديه خمسون ألف دينار ، « ومن أصناف المتجر شىء كثير جداً . منه ثمانون ألف قطعة خشب ، ومائة وستون ألف قنطار رصاص ، وبلغت قيمة الأصناف التى له فى الاسكندرية خمسمائة ألف دينار » (١) .

وعندما عزل الأمير بيبرس الحمدار الركنى عن ولاية ثغر الاسكندرية فى سنة ٧٤٠ هـ ، وصودرت أملاكه بها ، ثبت أنه كان يربح من بيع الخمر وحدها ثلاثين ألف دينار ، ووجدت له بالاسكندرية جملة عقارات ، منها ثلاثون بستاناً أقلها بألف دينار (٢) ، ووجدت له عدة دور وحوانيت وبساتين ، باعها جمال الكفاة ناظر الخا ص بخمسمائة ألف وستين ألف درهم (٣)

ويبدو أن تجارة الخمر كانت من التجارات الرائجة المربحة بثغر الاسكندرية بسبب توافر الكـروم فى منطقة الرمل وكثرة تردد تجار الفرنج على الثغـر ، وكان بعض نواب الاسكندرية يحتكرون بيعها ، بينما كان بعضهم الآخر يتظاهـر بالتمسك بالدين ويسعى للتجنب إلى الفقهاء عن طريق إراقها ، كما حدث عندما ولى الأمير بكتمر الحسامى ثغر الاسكندرية فى سنة ٧٢٣ هـ ، فأراق الخمر بها ، ومنع بيعها (٤) . ويروى المقرئى حادثاً يدل على عظم ما كان لدى تجار الاسكندرية من أموال

(١) السلوك ، ج ٢ ص ٢٤٤

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٨٨

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٩٣

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٥٠

فذكر أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون خرج إلى منطقة البحيرة لاصيد ، ونزل ببلدة تروجة ، وطلب من شهاب الدين أحمد بن عبادة ، وكيل جبابة أموال أملاك السلطان دراهم يشتري بها جملة هدايا ، فلم يجد عنده من مال السلطان ما يكفيه ، فبعثه ليقترض من تجار الاسكندرية مبلغاً من المال ، فاجتمع ابن عبادة بالوزير ناصر الدين محمد بن الشيخى الذى كان موجوداً يومئذ بالاسكندرية وشكا له ما يعانى به السلطان من الضيق والحاجة ، وأنه قدم بقصد الاقتراض له من التجار مبلغاً من المال يكفى لشراء هدايا لحواريه ونسائه ، فوعده الوزير بأن سيقدم إلى السلطان ألفى دينار من الرسوم التى دفعها تجار من الفرنج قدموا إلى الثغر بتجارهم فتحصل منهم على أربعين ألف دينار (١)

(ج) أحداث الاسكندرية الهامة فى عصر الناصر محمد وخلفائه :

ومن الأحداث الهامة فى الاسكندرية فى عصر الناصر ومن تلاه من السلاطين حتى أيام السلطان الأشرف شعبان ما يلى :

١ - وقعة أهل الذمة فى رجب سنة ٧٠٠ ، وربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ :

اجتمع قضاة القاهرة فى المدرسة الصالحية ، وقرروا بتحريض من أحد وزراء سلطان المغرب ، وجوب تمييز النصارى بلبس العمام الزرق ، واليهود بلبس العمام الصفرة ، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال ، وإلزامهم بما شرطه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وذلك بعد أن تزايد ترفهم فى مصر والقاهرة ، وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة والبغلات المزينة بالحلى الفاخرة ، وفى ارتداء الثياب الرقيقة والعمام البيضاء . وفى يوم خميس العهد

الموافق ٢٠ من رجب جمع النصارى واليهود فى القاهرة ومصر وظواهرهما ،
ورسم بألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء ، وألا
يركبوا خيلا ولا بغالا ، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم ، ونودى بذلك
فى القاهرة ومصر ، وهدد من خالفه بسفك دمه .

فتألم النصارى من ذلك الاجراء ، وسعوا بالأموال فى إبطال ما تقرر ،
« فاضطر النصارى إلى الإذعان ، وأسلم بعضهم أنفة من لبس العمام الزرق
وركوب الحمير » . فلما ورد على أهل الاسكندرية مرسوم السلطان فى أمر
أهل الذمة ، هاجوا عليهم ، وهدموا كنيسة للنجارى بها ، كما هدموا دور
اليهود والنصارى التى تعلو على دور جيرانهم المسلمين ، ودمروا مساطب
حوانيتهم حتى أصبحت أدنى مستوى من مساطب المسلمين (١) .

ثم تجددت الحركة ضد النصارى فى الديار المصرية كلها فى ٩ ربيع
الآخرة سنة ٧٢١ هـ ، وامتدت إلى الاسكندرية فى ١١ ربيع الآخر بعد
صلاة الجمعة ، إذ تجمع العامة ، وهاجموا الكنائس الأربعة بها وهدموها ،
فركب الأمير بدر الدين المحسنى متولى الثغر ليدركها قبل أن تهدم ، ولكنه
وصل بعد فوات الأوان (٢) . ويبدو أن هذا الاجراء أثار جماعة من النصارى
على المسلمين ، فقاموا بحرق بعض المساجد والخواصل السلطانية بالقاهرة
بالنفط والقطران ، فقبض عليهم ، وأحرق عدد منهم (٣) ، ثم نودى
فى الاسكندرية بالزام النصارى بلبس العمام الزرق ومنعهم من المباشرة

(١) السلوك ، ص ٩١٢

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٢١٩ — الخطط ، ج ١ ص ٨٦

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٧٩

بالديوان (١) .

٢ - حركة تجار الفرنج بالاسكندرية في سنة ٧٢٧ هـ :

وسبب هذه الفتنة الجديدة أن أحد تجار الفرنج خرج إلى ظاهر باب البحر حيث تجتمع العامة للفرجة ، وتعرض إلى صهي بقصد سبي ، فأنكر عليه بعض المسلمين ذلك ، فتناول الفرنجي خفيه وضرب به وجه الرجل ، فعظمت الفتنة ، وتجمع أهل الاسكندرية على الإفرنجي وحاولوا قتله ، فثار الفرنج لحماية صاحبهم . فاشتبك المسلمون والفرنج في قتال عنيف بالسلاح بظاهر الاسكندرية (٢) ، وقيل في موضع بين الباب الأخضر وباب البحر (٣) . فركب الأمير ركن الدين الكركي متولى الشغل لفض المعركة ، ولكن القوم تعصبوا على الإفرنجي ، وشهدوا عليه بما يوجب قتله ، وحملوه إلى القماضي ، فأمر الوالى عندئذ باغلاق أسواق المدينة وأبوابها ، وذكر ابن بطوطة أن والى المدينة حصر المسلمين بين فصيلي باب المدينة (٤) ثم فتحت الأبواب في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ليدخل المدينة من كان بخارجها ، خاصة بعد أن ضججوا بالصريخ لتفتح لهم الأبواب ، فلما فتحت تدافعوا في الدخول ، وازدحموا ازدحاما أدى إلى وقوع بعضهم على الأرض ، فهلك بسبب ذلك عشرة أشخاص ، ونهبت عمام وثياب بعض الأهالي . ثم تبين للكركي تحامل العامة على الفرنج ، فقام بنفسه في مقدمة جنوده لدفع الناس عنهم ، فهاج

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٣ ص ١٢٨ - ابن الورى ، تاريخ ابن الوردى المسمى تتمه المختصر في أخبار البشر ، مصر ١٢٨٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٨١ - السلوك ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣١ ص ٧٨ .

(٤) ابن بطوطة ، ص ٢٧ .

الناس وقاتلوه وتغلبوا على عسكره ، وأحرقوا داره ، وقيل أحرقوا باب قصره المعروف بباب اليهود ، كما أحرقوا ثلاثة دور أخرى لبعض الظلمة من أصحابه ، ومضوا في غضبهم إلى سجن الوالي بالشجر ، فكسروا باباً وأطلقوا من كان محبوساً فيه ، فاعتقد الوالي أن ما كسروه هو سجن الأسراء ، وفي تلك الحالة يعتبر عملهم هذا ثورة داخلية ضد السلطان ، فأمر على الفور بوضع السيف في البلد وتخريبه ، وبإصدار بلاغ السلطان ، فسير السلطان الوزير مغلطاي الحمالي وطوغان شاد الدواوين وسيف الدين الدهر الركني أمير بجندار في جماعة من مماليك السلطان وبصحبتهم ناظر الخصاص إلى الاسكندرية لوضع حد للفتنة وتتبع أهل الفساد وقتلهم ، ومصادرة قوم من أغنيائهم ، وتغريم أهل الثغر الأموال ومصادرة الأسلحة والقبض على القاضى والشهود . فجلس الوزير والناظر بديوان الخمس بالاسكندرية . وهناك فرض الوزير على المدينة خمسمائة ألف دينار ، وأمر بعزل الوالى ، وقبض على جماعة من أهل الشغب ، ووسط نحو ثلاثين رجلاً بالسيف ، وقطع أيدي بعض الثوار وأرجلهم . وبحث عن ابن رواجه كبير دار الطراز بالاسكندرية وكان من زعماء الفتنة الذين أغروا العامة بالتعدى على الفرنج ، وأمدهم بالسلاح والفتنة ، فوسطه ، وقيل أخرجه من الاسكندرية ، كذلك أمر بضرب القاضى ونائبيه وعزلها ، ووضع السلاسل في أعناقهم ، ثم ولى على القضاء بهاء الدين علم الدين الإخنائى الشافعى . ومنذ ذلك الحين أصبح لايتولى قضاء الاسكندرية إلا قاض شافعى (١).

وبلغ عدة السلاح المصادر نحو ستة آلاف وضعت كلها في حائل ختم عليه ، وأقام الوزير نحو عشرين يوماً يسفك فيها دماء الحناة ، ويصادر أموالهم

(١) ابن كثير ، ج ١٤ ، ص ١٢٨ — ابن الوردي ، ج ٢ ص ٢٨٢

حتى جمع ما يزيد على مائتي وستين ألف دينار (١). وظل الأمر كذلك حتى قدم تاج الدين أبو اسحق وكيل السلطان، فسكنت المدينة، وهدأت الفتنة، وكان الناس ممنوعين من الدخول والخروج.

وفي هذه الفتنة كتب أبو يحيى زكريا الطراباسي كتابا من الاسكندرية يقول فيه: «إنا لله وإنا إليه راجعون فيما أصاب المسلمين بشجر الاسكندرية من الإحراق والضرب وأخذ الأموال وسفك الدماء، فالحمد لله يعظم لنا ولكم الأجر». وقال ابن الوردي:

تبارك الله ذو الجلال لقد
أدهش عقلي زماننا الفاسد،
مصادرات جرت وسفك دما
وأصابها ضرب كافر واحد (٢)

٣ — سنة الفناء أو الوباء الأعظم في سنة ٧٤٩:

نكب العالم أجمع فيما بين عامي ٧٤٢، ٧٥١ بوباء خطير اجتاح المشرق والمغرب لم يجهل مثله في التاريخ من قبل، وكان أول ظهوره في سنة ٧٤٢ في بلاد مغول القبيلة الذهبية، وانتقل من هناك إلى بلاد الخطا والمغول، واتصل ببلاد الشرق كلها، ثم امتد من هناك إلى إيران والعراق وكردستان وبلاد قرمان وقيصرية الروم وسيس وأنطاكية في أمد قصير. وفي أول جمادى الأولى ظهرت أولى الاصابات بهذا الطاعون في مدينة حلب، ومن هناك عم جميع بلاد الشام والساحل والبوادي والجبال، ثم انتقل إلى مصر في خريف سنة ٧٤٨ هـ، وانتشر في القرى والمدن في شعبان ورمضان وشوال سنة ٧٤٩ هـ. وشمل الوباء بلاد الفرنج وقبرص، وعم في الأندلس وإفريقية

(١) ابن الوردي، ص ٢٨١ — المقرئ، الخطط، ج ١ ص ٣٠٧ — السلوك،

ج ٢ ص ٢٨٦ — النويري، نهاية الأرب، ج ٣١ ص ٧٩

(٢) ابن الوردي، ص ٢٨٢

سجبالها وصحاريها ومنها (١) .

ويعتقد الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه حل بإيطاليا قبل أن يخل بمصر باعتبار أنه ظهر بفلورنسة حسب رواية بوكاشيو الذي كان معاصراً للوباء ، في شهر مارس سنة ١٣٤٨ (٧٤٨هـ) وذلك بعد ظهوره في جنوب إيطاليا (٢) . ولكننا نعتقد أن هذا الطاعون ظهر في الشرق الأدنى الإسلامي أول ما ظهر في إيران فالأناضول ، ثم انتقل من آسيا الصغرى إلى قبرص عن طريق السفن بدليل أن أول أخبار الطاعون وردت منها فيما ذكره المقرئى إذ يقول : « وفيه قدم الخبر من طرابلس بأن قبرص وقع بها فناء عظيم هلك فيه خلق كثير » (٣) ونستنتج من ذلك أن هذا الوباء ظهر في قبرص قبل أن يظهر في الشام ، ثم عم بعد ذلك بلاد الشام وانتقل منها إلى مصر (٤) .

ويبدو أن الوباء انتقل إلى الاسكندرية عن طريق مركب قدم إلى هذا الشرف كان يحمل ٣٢ تاجراً وثلاثمائة رجل ما بين بحار وعبيد ، فماتوا كلهم باستثناء أربعة تجار وعبد واحد ، ونحو أربعين من البحارة (٥) . ويبدو أيضاً أن والى الاسكندرية لم يحجر على المرضى الباقين ، فلم تكن هناك وقتنة قواعد لحصر الاصابات وعلاجها ، ومن هنا تفشى الوباء بالاسكندرية ،

(١) راجع أخبار هذا الوباء المعروف بالفناء الأسود في : المقرئى ، السلوك ، ص ٧٧٢ - ٧٩٧ - النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٦

(٢) محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٩١ - ٩٢

(٣) السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ص ٧٥٩

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، الاسكندرية ، ١٦٩٧ ص ٣٣٦

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٩

فصار يموت بها وبما يليها من أرض برقة في كل يوم مائة ، ثم استفحل الوباء بعد ذلك بالشجر ، حتى أصبح يموت بها كل يوم مائتان ، ثم تفشى في أنحاء المدينة تفشياً خطيراً إلى حد أنه صلى في يوم الجمعة بالجامع السكندري (الجامع الغربي) دفعة واحدة على سبع مائة جنازة (١) ، وكانوا لكثرة الموتى يحملونهم على الجنويات والألواح . ونتج عن كثرة الوفيات أن تعطلت دار الطراز لعدم توفر الصناعات ، فأغلقت ، كما تعطلت دار الوكالة لعدم وصول التجار إليها ، وأقفلت الأسواق وديوان الخمس (٢) . ويعبر الأديب زين الدين عمر ابن الوردي عن بشاعة ما أحدثه الوباء في الاسكندرية بقوله :

اسكندرية ذا الوبا سبع يمد إليك ضيعه
صبراً لقسمتك التي تركت من السبعين سبعة (٣)

ومات بهذا الوباء كثير من عظماء الشجر السكندري ، منهم الأمير قطليجا السيفي البكتكري متولى الاسكندرية ، وعماد الدين محمد بن اسحق بن محمد البابيسى الشافعي ، قاضى الاسكندرية في سلطنة الناصر محمد (٤) .

وتجدد وباء الطاعون بالشجر السكندري مرة ثانية في الاسكندرية والوجه البحرى كله والقاهرة في سنة ٧٥٤هـ ، ومات بسببه في كل يوم ما بين الخمسين والستين (٥)

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٧ — النجوم ، ج ١٠ ص ٢٠٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٧٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٨٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٩٦

(٥) نفس المصدر ، ص ٩٠٣

وفي سنة ٧٦٣ هـ تفشى الطاعون بمصر والاسكندرية ومات بسببه من الناس فيها خلق كثير ، وهو الوباء المعروف في المصادر العربية بالوباء الوسطى لأنه وقع بين وباءين (١) ، وباء سنة ٧٦١ هـ ، وباء ٧٦٤ هـ . وفي سنة ٧٧٥ هـ قصر النيل عن الوفاء ، فغلت الحبوب بمصر والاسكندرية وسائر بلاد مصر ، ومات بالاسكندرية عدد كبير من الناس بسبب الطاعون ، أغلبهم من الأطفال والعبيد . وممن توفي بهذا الطاعون ملك الأمراء أرغون الأحمدي الذي تولى الثغر مدة أربعين يوماً ، كما توفي فيها قاضي القضاة شهاب الدين الحنفى الحلبي ، وقاضي القضاة كمال الدين الربعي المالكي في حدود صفر سنة ٧٨٠ هـ ، ومات ولده عز الدين (٢) .

٤ -- الاحتفال بزيارة الأمير شيخو العمري للاسكندرية في سنة ٧٥٠ هـ :

كان الأمير شيخو العمري ، أحد كبار أمراء المماليك ، قد تقدم في أيام المظفر حاجي ، وارتفعت منزلته في بداية دولة الناصر حسن (٣) . وفي سنة ٧٥٠ خرج إلى الاسكندرية ، فاستقبل بها أحسن استقبال ، وتلقته الغزاة فيها بآلات السلاح ، ورموا بالجرخ بين يديه . ونصبوا المنجنيق ورموا به ، واستغل الناس فرصة وجوده بالاسكندرية ، وشكوا له ما كانوا يعانونه من احتكار التاج اسحق دكاكين العطر والنشا والأشربة ، فأمر بإبطال ذلك ، وأطلق للناس البيع حيث أحبوا (٤) . وقد أحبه أهل الاسكندرية لذلك حبا

(١) النجوم ، ج ١٠ ص ٣١١

(٢) النوبرى السكندري ، اللام ، ص ١٧٦ أ

(٣) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٩٣

(٤) السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٩

شأيداً . ثم نكب وأودع السجن بالاسكندرية في ذى القعدة سنة ٧٥١ هـ ،
ولم يفرج عنه الا بعد أن التمس الأمير طاز ذلك من السلطان الملك الصالح
صلاح الدين بن الناصر في سنة ٧٥٢ هـ ، فأرسلت حراقة لاحتضاره من
الاسكندرية ، وركب شيخو الحراقة في الخليج وأهل الاسكندرية يودعونه
فرحين لخلاصه (١) .

(١) السلوك ، ص ٨٤٨ — النجوم ، ج ١٠ ص ٢٥٥

الفصل العاشر

غزوة القبارصة للاسكندرية وآثارها

- (١) أسباب قيام بطرس لوزنيان بالحملة .
 - (٢) حملة بطرس القبرصي على الاسكندرية .
 - (ا) أحوال الاسكندرية عند وصول الحملة .
 - (ب) موقعة الجزيرة خارج باب البحر وهزيمة المسلمين .
 - (ج) موقف جنغرا بعد الهزيمة .
 - (د) اقتحام القبارصة أسوار الاسكندرية وغيثهم في المدينة .
 - (هـ) استرجاع المماليك للاسكندرية .
 - (و) صدى غزوة القبارصة في العالم الاسلامي والعالم الأوروبي المسيحي
- ٣ - الأحداث التي أعقبت وقعة القبارصة .
- (ا) تحويل الاسكندرية إلى نيابة .
 - (ب) سياسة الضغط على مصر لعقد الصلح مع قبرص .
 - (ج) غزوة القبارصة للاسكندرية في سنة ٧٧٠ هـ .
- ٤ - تحصين الاسكندرية وتعمير منشأتها العامة بعد الوقعة .
- (ا) في نيابة سنان الدين الأكرز .
 - (ب) في نيابة صلاح الدين خليل بن عرام :
- المرحلة الأولى سنة ٧٦٩ هـ - المرحلة الثانية في سنة ٧٧١ هـ -
المرحلة الثالثة في سنة ٧٧٧ هـ .

الفصل العاشر

غزوة القبارصة للاسكندرية وآثارها

(١)

أسباب قيام بطرس لوزنيان بالحملة

كانت قبرص قبل سقوط عكا في أيدي المسلمين في سنة ٦٩١ هـ ، بحكم موقعها في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط تجاه الساحل السوري ، معقلا هاما من معاقل المسيحية اللاتينية بالشرق ، توجه منها الحملات على السواحل الاسلامية ، ثم أصبحت بعد سقوط عكا وسواحل الشام في أيدي المسلمين قاعدة لللاتين في الشرق ، والجهة الرئيسية للحركة الصليبية المتأخرة (١) . وكان يتولى حكم قبرص أسرة لوزنيان المشهورة ، ومؤسسها جاي دي لوزنيان ملك بيت المقدس الذي تنازل عن حقه في مملكة بيت المقدس في ، بتبادل امتلاك جزيرة قبرص في سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) . وتتابع على ملك قبرص من بعده ، أي مناد ، فاته في سنة ١٩١٤ ، ملوك من البيت اللوزنياني الفرنسي ، أولهم أخوه عموري المؤسس الحقيقي لمملكة قبرص ، ثم هيو الأول بن عموري ، وهنري الأول بن هيو . هيو الثاني بن هنري ، وهيو الثالث الأنطاكي ، وحناء الأول بن هيو الثالث ، وهنري الثاني بن هيو الثالث ، وهيو الرابع

(١) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٣ -- الحركة الصليبية ،

فبطرس الأول . وكان هنرى الثانى يتولى حكم جزيرة قبرص فى الوقت الذى سقطت فيه عكا ، فانتقل إلى جزيرته جماعة من فرسان الإسبتارية الذين كانوا يتولون الدفاع عن عكا ، فأنزلهم فى ليماسول ، وتمتد الإسبتارية فى عام ٧١٠ (١٣١٠م) من الاستيلاء على جزيرة رودس ، واتخذوها قاعدة للاعتداء على سواحل المسلمين بغية استرجاع الأراضى المقدسة (١) . وأصبح القيام بحرب صليبية ذريعة لتبرير ابتزاز الأموال من الكنيسة ، ولهذا فان فيليب الرابع ملك فرنسا نذر نفسه للحرب المقدسة منذ أن تمكن من السيطرة على البابا بعد انتقال الكرسي البابوية إلى أفنيون فى سنة ١٣٠٥ م ، وقوبل ذلك بترحيب بالغ من رجالات الطبقات المختلفة فى مجتمع العصور الوسطى الذين نظروا إلى موضوع الحرب المقدسة على أنه أمر جدى ، وعرضت على البابا وملك فرنسا والمجلس الكنسى المنعقد فى فيينا فى سنة ١٣١١ - ١٣١٢ العروض المختلفة والمشروعات الهامة من رجال قضوا سنين عديدة فى الشرق ، وآخرين لم يخرجوا قط إلى ما وراء البحر (٢) . وأنعشت فكرة القيام بحرب صليبية أدب الدعاية للحرب المقدسة ، فاقترح بيير ديبوا فى كتاباته استرجاع الأراضى المقدسة ، واستعادة أملاك الامبراطورية البيزنطية وغزو مصر ، كما اقترح وليم دى نوجاريت ، صديق ملك فرنسا الخالص ، الحد من قوة المماليك الذين يساندتهم كاثوليك مزيفون ، يزودونهم بالأخشاب وآلات الحرب ، ويبيعون لهم الأطفال الذين ينشئهم المماليك فى الطباق أو المدارس العسكرية

(١) Aziz Surial Atia, The Crusade in the later middle ages, p.288

(٢) Atiya. op. cit. p. 48 — محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى

قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٤٤

نشأة حربية ويعرفون بالجلبان أو الأجلاب (١).

وبينما كان المجلس الكنسى منعقداً فى فينا فى سنة ١٣١١ للنظر فى مشروع القيام بحملة صليبية ، كتب فولك دى فياريه مقدم فرسان الاسبتارية برودس إلى فيليب الرابع المعروف بالحميل معبراً عن رغبته فى الاشتراك فى الحملة وأنهى إليه بأنه — مبالغه فى إثبات جديته — قد أمر بإنشاء سبع بطسات فى قطلونية ، وثلاث فى أربونة ، و ١٦ فى مرسيليا ، و ١٢ فى جنوة ، بالإضافة إلى سفن أخرى كبيرة منها ٤ راسية فى بيزه ، وستة فى البندقية . كذلك جهز الإسبتارية خمس سفن فى جنوة واثنين فى البندقية ، ساحت بمختلف أنواع الأسلحة ، و جهزت بالعدد ، بحيث أصبحت جميعاً تحت أهبة الاستعداد للإبحار قبل أن يحل ربيع ١٣١١ (٢) . وفى أثناء ذلك بعث هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرص رسولين إلى البابا كليمنت الخامس والمجلس الكنسى لعرض وجهة نظره عن الحملة ، وهدفها إضعاف قوى المماليك الحربية بحصار بحرى يمارسه الصليبيون ضد مصر والشام ، ومنع الخونة النصارى من إمداد المماليك بعناصر جديدة ، وبمواد الحرب والسلاح . ولضمان إنجاح هذا الحصار رأى ضرورة إشراك قومونيات البندقية وبيزة وجنوة وغيرها من الجمهوريات الإيطالية التى يتشكك فى إخلاصها للحركة الصليبية بسبب ارتباط مصالحها بالاسلام ، فاذا ما نجح الصليبيون فى احكام هذا الحصار لمدة سنتين

(١) Ibid. p. 54. وفيما يخص بالمماليك الجلبان ، راجع : عبد المنعم ساجد نظم دولة سلاطين المماليك ورسوسهم فى مصر ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٥ وما يليها .

(٢) Atiya. p. 57

أو ثلاث فإن ذلك من شأنه أن يقضى حتماً على قوة البحرية المصرية ومواردها (١) ونصح هنري القبرصي باتخاذ قبرص قاعدة للحملة المزيج تسييرها حتى إذا ما جاءت اللحظة المناسبة يتهيأ للحملة أن تنفذ نهجاً في مهاجمة مصر أولاً ، باعتبارها المصدر الرئيسى لجميع الكوارث التى لحقت بالصلبيين ، ثم الشام بعد ذلك (٢) .

ثم كان اعتلاء بطرس الأول عرش قبرص فى سنة ١٣٥٠ م (٨٥١ هـ) فاتحة عهد جديد فى تاريخ الحركة الصليبية المتأخرة ، واتفق عهده مع فترة من الضعف والاضمحلال كانت تجتازها مصر عتبه وفاة السلطان الناصر محمد وتولية عدد كبير من أولاده وأحفاده العرش ، مما هيا المجال لكبار أمراء المماليك للاستبداد بشؤون الدولة ، وقام النزاع بين هؤلاء الأمراء من أجل الاستئثار بالسلطة ، وشغلوا بذلك الصراع عن العناية بشؤون البلاد الداخلية والاهتمام بالبحرية ، ولما تولى بطرس الأول (٣) دى لوزنيان حكم قبرص فى الفترة من ١٣٥٠ إلى ١٣٦٩ م ، عمل على استغلال حالة الضعف والانحلال التى آلت إليها مصر ، وكان بطرس هذا من أشد ملوك الصليبية تعصباً ، وكانت حماسه البالغة للحركة الصليبية مثلاً رائعاً للفارس المتدين فى أوروبا فى العصور الوسطى ، فقد جعل بطرس من نفسه بطلاً مدافعاً عن المسيحية ، وكرس حياته لخدمة الحركة الصليبية عن طريق محاربة المماليك الذين طردوا الصليبيين نهائياً من الشام ، وهزموا التتار ، وأصبحت لهم قوة يعمل الغرب

(١) Ibid. p. 58

(٢) Ibid. p. 60

(٣) يسميه النوبرى السكندرى « ربير بطرس صاحب قبرص » .

المسيحي لها حسابا كبيرا . ويعتبر استيلاؤه على الاسكندرية في المحرم سنة ٧٦٧ هـ ونهبها خلال أربعة أيام أعظم حدث وقع في تاريخ الحركة الصليبية في القرن الثامن الهجري .

كان بطرس يرى المبادرة باستغلال حالة ضعف السلطنة المملوكية ، وهي فرصة مواتية قد لا تتاح له بعد ذلك لتسديد ضربته إلى مصر مصدر المتاعب للصليبيين ، ولكن مثل هذه الضربة كانت تحتاج إلى استعداد مسبق ، وقدرات وإمكانات وفيرة مادية وأدبية ، فقام برحلة طويلة استغرقت ثلاث سنوات إلى دول غرب أوربا لافناع ملوكها وأولى الأمر فيها بضرورة مساعدته ، فزار البندقية وأقنع أميرها بإمداد حملته التي يزعم القيام بها بالسفن اللازمة ، ثم قصد جنوة ، ورحل منها إلى أفنيون حيث قابل البابا أربان الخامس ، ثم قابل حنا الثاني ملك فرنسا ، وطاف بعد ذلك بعدد من الامارات والدول مثل فلاندر ونورماندى وبريتاني وانجلترا ، وعاد إلى باريس مرة ثانية حيث قابل شارل الخامس ملك فرنسا الجديد . ثم اجتمع بالامبراطور شارل الرابع في براغ . وبملكى بولندا وهنغاريا في كراكاو . وفي كل هذه الأقطار حظى بطرس بتأييد بالغ . وأبدى الملوك والأمراء استعدادهم التام لمساعدته في حملته . وقبل أن يعود بطرس لقيادة الحملة كتب إلى أخيه حنا بقبرص يطلب منه أن يعد السفن والرجال والميرة ويسيرها إلى رودس وينتظر قدومه هناك . ومر بطرس بالبندقية ، ثم غادرها إلى رودس فوصلها في أغسطس سنة ١٣٦٥ (١) . وهناك تباحث مع رجاله وخاصة في هدف الحملة ، فنصحته بارسيفال دى كولونى بتوجيهها إلى الاسكندرية ومهاجمتها في يوم جمعة

(١) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٧ ، ٥٨

والمسلمون في مساجدهم . واقتنع بطرس بن نصيحته ، ولكنه عمل على كتمان هذا السر حتى لا يتسرب خبر الحملة إلى المسلمين فيستعدون له . وكان قد مهد حملته على الاسكندرية بغزوة تمهيدية من قبيل التمويه والإيهام على سواحل الشام ، لإيهام المماليك بنيته في مهاجمة الشام لاسترجاع بيت المقدس ، واشترك في هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة ، ونجح في دخول طرابلس الشام في نيابة منجك اليوسفي في أول سنة ٧٦٧ هـ ، وأضرم النيران في أبنيتها كما هاجم اللاذقية وأنطوطوس بعد ذلك (١) ، وأشاع عقب هذه الغزوة بعزمه على معاودة الكرة على سواحل الشام (٢) .

ومع تكتمه الشديد ، وصلت أخبار الحملة إلى المصريين قبل أن تقوم من رودس بوقت طويل (٣) . فقد ذكر النويري السكندري أن الأخبار كانت تأتي الاسكندرية « بأن العمارة عند القبرسى ، فاستهم نائب السلطان وهو الأمير زين الدين خالد ، فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وصار يجتهد في العمارة ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكى مقدم الجيوش المنصورة الإعانة على عمارة السور ، ويخبره بخبر عمارة القبرسى للمراكب الحربية ، فيقول : إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتي إلى الاسكندرية » (٤) . ولكن الأمير يلبغا الخاسكى استهان بالقبارصة ولم يهتم للأمر . ويعا-

(١) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ص ٣٩٥

(٢) Leontios Makhairas, Recital concerning the sweet Land of

Cyprus, entitled "Chronicle". ed. by Dawkins, vol. I. Oxford, 1932, P. 151

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ص ٤٦ ب (مخطوط) .

(٤) النويرى السكندري ، الامام ، ص ٧٤ أ

النويرى السكندرى غزو القبارصة للاسكندرية بالأسباب الآتية :

١ — أن السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد كان قد منع دواوين النصارى الذميين فى سنة ٧٥٥ من الديونة ، أى أنه حرم عليهم تقييد أنفسهم فى الديوان ، باستثناء ، من أسلم منهم . أما من بقى على نصرانيته فكان عليه أن يلبس خشن الثياب ، وتقصر أكمامه وأذياله وتصغر عمامته الزرقاء ، ويركب الحمار على شق واحد . كذلك فعل الملك الصالح مع اليهود من تصغير العائم الصففر . وقد دعا ذلك الفرنج إلى السفر إلى بلادهم ، فكان ذلك سبباً من أسباب هياج القبرسى « وطوافه بأرض الرومانية وجمعه للصمص أهل المعمودية وحشره بهم إلى الاسكندرية » (١) .

٢ — أن روبر بطرس لما خلف أباه على العرش أرسل إلى الناصر حسن ابن الناصر محمد يستأذنه فى التوجه إلى صور « ليجلس على عمود بها كجارى عادة من تملك جزيرة قبرس » ، فاحتقره السلطان حسن ومنعه من دخول صور .

٣ — أطمع ضعف القوة البحرية الإسلامية فى الاسكندرية بطرس على غزوها ، إذ بلغه أن قراصنة من الفرنج قدموا فى غراب إلى ميناء الاسكندرية فى شوال سنة ٧٥٥ هـ ، وأغاروا على مينتها ، ونهبوا ما استطاعوا نهبه منها ، كما أغاروا على سفينة تجارية قادمة من بر التركية ، وأخذوا يتجولون فيما بين المينتين ، فأرسل الأمير سيف الدين بلاط نائب السلطنة بالاسكندرية قناصلة الفرنج المقيمين بها يستخبرون أصحاب الغراب عن أمره ، فأجابوهم بأنهم يريدون طعاماً وشراباً ثم يرحلون . فأرسلوا إليهم ما طلبوه ، ولكنهم بدلا من أن يرحلوا شاكرين للمسلمين ما قدموه لهم ، هاجموا مركباً تجارياً قادماً من الشام ،

(١) النويرى السكندرى ، ص ٧١ ب

فوثبوا عليه ، واستولوا على بضائعه ، وقذفوا برجاله فى ميناء أبى قير (١) . ويأتى النويرى بأمثلة أخرى تعبر عن ضعف البحرية المملوكية ، وخلق ساحل الاسكندرية من الغربان المعمورة بالرجال والسلاح ، ومن ذلك أن غرابا هاجم الجزيرة المقابلة لرشيد وأسر من المسلمين ٢٥ رجلا وامرأة . ومنها أن ثلاثة أغربة قدمت إلى ميناء أبى قير فى فجر يوم ٢٧ شعبان سنة ٧٦٥ هـ ، وأسر أصحابها من قصور البساتين ٧٦ من المسلمين بين رجال ونساء وصبيان ، ومضوا بهم إلى ساحل صيدا فافتداهم المسلمون منهم وردوهم إلى أوطانهم . ولما علم بطرس بأن أصحاب هذه الغربان الثلاثة كانوا لا يزيدون على مائة رجل مسلحين بسيوف خشبية مطلية بالقزدير الأبيض لا يملكون من بها أنهم يحملون سلاحاً ، أدرك مدى الضعف الذى وصل إليه الدفاع البحرى الاسلامى .

٤ — قدم إلى جهة أبى قير ليلا ٦ غربان من البنادقة ضلوا الميناء ، فبدلا من الإرساء بأبى قير أرسوا برشيد ، ونزل من ثلاثة من هذه الغربان جماعة إلى الساحل ، ففطن إليهم المسلمون ، فهرب الفرنج طالبيين غرابا من الثلاث ، فسبقهم أحمد الجداوى المعروف بالباشق إلى الغراب ، وأخذ المسلمون يرمونهم بالسهم ، فترامى الفرنج فى البحر ليعوموا إلى الغراب فغرقوا ، وكان عددهم ثمانين رجلا ، قذف البحر بجثثهم . فأحرقها أهل رشيد ، فلما بلغ البنادقة ما فعله أهل رشيد بأصحابهم ساعدوا القبرصى على غزو الاسكندرية .

٥ — لما عزم بطرس لوزنيان على غزو الإسكندرية استنجد بمملوك النصرانية بإشارة البابا ، فلما أعان مملوك النصرانية صاحب قبرص بالمال والغــربان والرجال ، تعمرت المراكب لـه برودس لأنها كانت

(١) لنويرى السكندرى ، ص ٧٢ ب

دار صناعة الفرنج . واستغرق تجهيزها على ما قيل أربعة سنين (١) .
ويعتقد الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن تفكير بطرس لوزنيان في غزو
الإسكندرية لم يكن بالأمر الجديد ، فتد سبقة إلى هذا التفكير عدد من دعاة
الحروب الصليبية ، بل إن هنري الثاني دي لوزنيان قدم إلى البابا كليمنت الخامس
قبل ذلك مشروعا لفتح مصر كخطوة تمهيدية لاستخلاص الأراضي المقدسة
يقال إن بطرس تأثر به إلى حد كبير في حملته على الإسكندرية (٢) . وأعتقد
أن حملة بطرس لم يكن الهدف منها فتح مصر ، لأن القبارصة منها بلغت
درجة انتصارهم في الإسكندرية ، ومهما حققوا من مكاسب في هذه الواقعة
لم يكتسبوا بها أكثر من بضعة أيام ثم جلوا عنها بعد أن نهبوا الفنادق والخوانيت
والخانات ، وجردوا المدينة من تحفها ، واعتدوا على النساء والبنات ، وخرّبوا
الدور والمساجد ، وقتلوا وأسروا أعداداً هائلة من السكان . وأعتقد أنهم
استهدفوا من وراء ذلك إرهاب سلاطين المماليك ، وإشعارهم بالخزي والعار أمام
الرأى العام الإسلامي ، وإضعاف هيبة مصر في الداخل والخارج ، وبث روح الهزيمة
في قلوب المسلمين ، وممارسة نوع من الضغط على أولى الأمر في البلاد عن
طريق المساومة بالأسرى الذين شحنوا بهم سفنهم إلى قبرص ، يملون بهم
شروطهم على المماليك ، والإطاحة بالإقتصاد المملوكي بنهب السلع والبضائع
المكدسة بمخازن المصادر أو بالفنادق (٣) ، وعن طريق إثارة أعداء المسلمين

(١) النويري السكندري ، الامام ص ٧٣ أ - ٧٤ أ

(٢) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٦٠

(٣) لا شك أن نهب بهار الإسكندرية وحليها وثرواتها وشحنه بسفن القبارصة
منذ اللحظة الأولى لدخولهم بها يدل دلالة واضحة على نيتهم في الاقلاع بهذه الشحنات، =

للبنادقة ودفع المسلمين إلى عدم السماح لهم بالمناجزة في البلاد الإسلامية . ولم يكن هدف القبارصة الاستيلاء على الاسكندرية والتحصين داخل أسوارها على الرغم من قول النويرى أنه « لولا لطف الله تعالى بعباده المسلمين بحرقهم باب رشيد وباب الزهرى كانت الفرنج ملكت البلد ، وحصل التعب في خلاصها منهم كما حصل في طرابلس الغرب ومدينة أنطاكية ببر التركية » (١) فلو أن هدفهم كان الاستيلاء على الاسكندرية لكانوا قد سدوا بابى رشيد والزهرى المذكورين وحصنوهما بالبناء في الأيام الأربعة التي مكثوها في الشجر ، وحتى لو كانوا قد فعلوا ذلك لكان مقضيا عليهم عاجلا أو آجلا بالطرد ، لأنهم كانوا لا يزيدون على ثلاثين ألفا ، فكيف يستطيع هذا العدد الضخم في مدينة سكانها جميعاً أعداء للداء للقبارصة ؟ يضاف إلى ذلك أن نائب السلطنة لم يكن يعجزه استرداد الإسكندرية بما لديه من قوات وسلاح ، ولم يكن الأمر في الإسكندرية هذه المرة مثلما كان في خلافة عثمان عندما انتقض سكانها الروم وكاتبوا قنسطانز ، فسير حملته المشهورة في سنة ٢٥ هـ بقيادة مانويل ، ومع أن الروم استطاعوا الاستيلاء على الإسكندرية بفضل وجود فريق مؤيد من السكان ، وزحفوا فوراً إلى القسطنطينية ، فان الحملة أخفقت ، ولقت مصيراً تعسفاً ، ومنيت بكارثة لم يشهد الروم لها مثيلاً من قبل .

وأعتقد أن حركة القبارصة هذه — وقد تجددت بعد ذلك بعامين في

= وهذا يرجح رأينا في أنه لم تكن لديهم النية في البقاء بالاسكندرية ، وأن حملتهم على الاسكندرية كانت لها أهداف أخرى ذكرت بها بأعلى الصفحة .

(١) النويرى ، الامام ، ص ٨٣ ب . وذكر النويرى في موضع آخر أن المسلمين أحرقوا هذه الأبواب لتجد النجدة من مصر مواضع تدخل منها إلى المدينة .

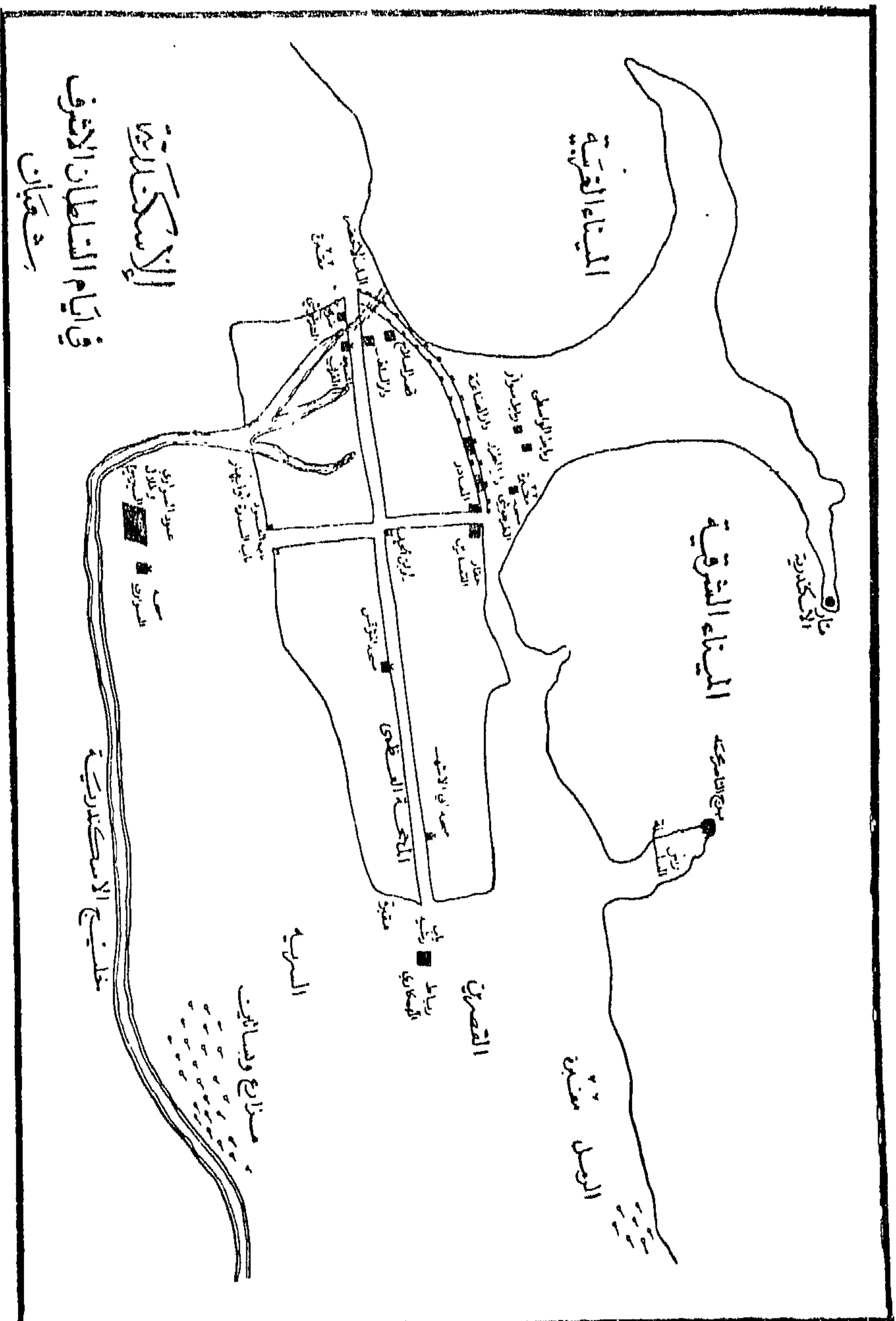
طرابلس الشام (١) — لم تكن تعدو نوعاً من القرصنة البحرية . وهى الصورة الحقيقية لوجه القبارصة الذى كانوا يخفونه تحت قناع دينى زائف . وقد أكد النويرى هذه الصورة فى مواضع كثيرة بقوله : « والقبرسى الملعون جمع من اللصوص النصرانية وأتى إلى الإسكندرية سرقوا أثاثها على حين غفلة من حمايتها ... » (٢) ، وقوله : « فماذا عسى فعل القبرسى الملعون ، الكلب اللدون ، بالإسكندرية التى دخلها لصاً وخرج منها لصاً » (٣) ، وقوله : « بل كان فعل القبرسى الملعون كفعل اللصوص السراق الذين هم بسبب فعالهم لما اقترفوه خائفين ، فثبتت لصوصيته بهربه بسرعة ، وظهر عليه بين ملوك النصرانية أكبر فضيحة وأعظم مشنعة » (٤) .

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٣٤٨

(٢) النويرى ، اللام ص ١١٣ ب (نسخة الهند) ، ١١ ب (نسخة برلين)

(٣) . النويرى ، ص ١١ أ ، ٥٦ ب (نسخة الهند) .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٦ ب



خريطة الاسكندرية في عصر السلطان الأشرف شعبان

(٢)

حملة بطرس القبرصي على الاسكندرية

١- أحوال الإسكندرية عند وصول الحملة :

وفق بطرس دى لوزنيان كل التوفيق في اختيار الوقت المناسب لغزوته ،
فقد كانت الظروف السياسية الداخلية في دولة المماليك وقتئذ في غاية السوء
للسباب الآتية :

١ - كان السلطان الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين
(٧٦٤ - ٧٧٨ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) وقت وصول الحملة ما يزال طفلاً
لا يتجاوز عمره ١٣ سنة ، فقد ارتقى عرش السلطنة في سنة ٧٦٤ هـ وعمره
عشر سنين ، وكانت السلطة الفعلية في يد الأتابك يلبغا العمري الخاصكي
الذي استبد بشؤون الدولة ، وارتكب من الفظائع وضروب العنف والاستبداد
ما أشاع الفوضى في البلاد ، وأصبحت القاهرة مسرحاً للمعارك ، ومرتعاً
للفساد (١) .

٢ - قاست مصر كثيراً من وباء الطاعون الذي تفشى في ديارها في

(١) ولیم دوير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة الأستاذين محمود عابدين
وسليم حسن ، القاهرة ١٩٢٤ ص ١٠٦ - سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية
ص ٦٢ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٧٢ - جمال الدين الشيال
الاسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص ١٠٠ - طبوغرافية المدينة (المجلة
التاريخية المصرية) ص ٢٣٥

سنى ٧٤٩ ، ٧٥٤ ، ٧٦١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ هـ ، واستنفذ هذا الوباء قوى مصر ومات بسببه أعداد هائلة من السكان .

٣ — كان نائب السلطان على ثغر الاسكندرية وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام يؤدى فريضة الحج فى الحجاز الشريف ، وكان ينوب عنه فيها أثناء غيبته أمير يسمى جنغرا ، أقيم نائباً بإشارة من الأتابكى يلبغا ، ولم يكن جنغرا هذا أهلاً للولاية لجهله بتدبير الأمور ، وعدم معرفته بمواقع الحروب وقلة جنده . وقد أساء جنغرا إذولى ضعاف الرجال كبار الأعمال (١) .

٤ — كانت الأنباء تصل إلى بطرس بجزيرة قبرص قبل قيامه بحملته على الاسكندرية بأن بهذه المدينة طوائف قاعات يديمتون بساحل ميينها ، لا خبرة لهم بالقتال ، ولا هم لهم إلا التأنق فى الزى وارتداء فاخر الثياب ، ويصفهم النويرى السكندرى بأنهم « لم يعرفوا الحرب ولا باشروه أبداً ، بل يخرجون منها إلى البحر يحرسون ، وكأهم بملبوسهم متزينون ، قد تطيلسوا من فوق العائم التى على الرؤوس أحسن زى وملبوس ، يتبخثرون فى مشيتهم كالمشى فى زفة العروس ، وروائحهم بالطيب تفوح ، يحيى بشمها كل روح ، فتزرغت لهم النسوان ، يصير كل واحد بزينته فرحان ، ومعهم الأسلحة الثقال ، ولكن ليس تحتها لوقت الحرب رجال ، مع كل واحد سيف تقلده ، بجوهر النصل جيده ، حفيره مزخرف بالذهب كجمرة نار ملتهب ، ومع ذلك صاحبه جبان ، يفرع من نعيق الغربان ، فلما علم القبرسى حالهم طمع فيهم » (٢) .

(١) النويرى ، ص ١١٣ ب (نسخة الهند) .

(٢) النويرى ، ص ٧٤ ب

وكان جنغرا يرى دلوائف الحرس المنتشرة عنه تجوب اليناء « بقسيسهم الجرخ الموترة ، وأعلامهم الحريز المنتشرة مع ما بأيديهم من المزاريق والرماح ، والدرق والصفاح ، والزررد النضيد ، وصفوحات الحديد ، والنفط الطيار المساعد منذ لذب النار ، وهو بما يوسهم المختلف الألوان ، كالزهر في البستان » ، فيغتر بمظهرهم ، وينخدع بما عاينة من بريق مخاطف ، ويتراءى له أنهم قوة هائلة ، بإمكانهم البطش بالأعداء ، وأنهم قادرون على رد أى عدوان . ويذكر النويرى أنه عندما عاينهم جنغرا بكى وقال : « هؤلاء أهل الجنة لرباطهم وجهادهم في سبيل الله ، قد طاب والله الجيش بقوة هذا الجيش ، لو أتى إلى الاسكندرية جميع نصارى الرومية ، ماقدروا مع هذا الجيش على الاسكندرية ، بل يكسرون النصارى ويصيرونهم قتلى أسارى » (١) . ويضيف النويرى قائلا : « فأقام جنغرا بالاسكندرية من شوال سنة ٧٦٦ إلى شهر المحرم ينزل لتلك الطوائف التى لكل ثلاثة منها ليلة فى الأسبوع تبين تحرس بساحل المينة ، وربما بات ليلالى فى الغرفة التى على باب تربة الامير طغية (٢) ، يوقد قدامه فانوسين أكرتين مقابل باب المسجد المذكور ، وتأتى طائفة الزرايين يطاقون النفط وهو ينزل من طيقان الغرفة المذكورة إلى الشرائر الطائرة ، والكواكب الدائرة ، بالألوان النارية ، من الخضرة والصفرة ، والبياض والحمرة فيحصل له بذلك الانشراح ، من العشى إلى الصباح ، ويبتهج أيضاً بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام ، وقد نصب لهم سوق فيه من أصناف المأكول يشترى منه ويأكلون ، ومن ماء الروايا والقرب

(١) النويرى ، ص ٧٧ أ

(٢) كانت تربة ورباط الأمير طغية تقع خارج باب البحر فى مقبرة الميناوين بشبه جزيرة المنار .

التي تحمل من البلد إليهم يشربون . فاذا أصبحوا انتظمت الطائفة التي باتت
تحرس، ودخلت البلد في همسة وجلد وكثرة مدد ، فتجتمع لدخولهم الرجال
والنساء ، ينظرون لأقوام كزهر بستان ، من حسن الملابس ، وبياض تلك
الطيالس ، فتزرغن لهم النساء إعلاناً ، عند مشاهدتهن لهم عياناً ، والأبواق
حينئذ تصرخ ، والكوسات تدق ، والمزامير تزمز ، والأعلام منشورة ، والمباخر
بالطيب معبورة ، ودخانها يفوح ، فتنبسط لتلك الروائح الأرجة كل روح ...
والناس مع ذلك في فرح وسرور ، لرؤية ذلك الجيش المنصور ، المهتر له
الشوارع والدور « (١) .

هـ — كان الدفاع عن الاسكندرية قاصراً ، إذ أن الأسوار الواقعة
من جهة الميناء الشرقية لم يكن عليها مدافعون لحمايتها ، ولم يكن يتقدمها خندق
يمنع العدو من الصعود إلى السور (٢) ، وكان الخندق الوحيد الذي يدور
بالسور يمتد من الباب الأخضر حتى قلعة ضرغام في مسافة قصيرة ،
فاكتفى شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين بن أبي عذينة
الناظر بغلق باب الديوان الذي يطل على داخل المدينة حتى لا يتمكن أحد من
نهب البضائع المقدسة . وعلى هذا الأساس اطمأن متولى الثغر إلى تلك الناحية ،
فامتنع الرماة عن حراسة السور فيها (٣) .

(١) النويري ، ص ٧٧ أ

(٢) النويري ، ص ٨١ أ

(٣) نفس المصدر ، ونلاحظ أنه كان من اليسير أن يفحص القبارصة بنظرة
شاملة مواضع الضعف في الدفاع عن المدينة لأنهم يستطيعون إدراك ذلك عند قدوسهم
إلى بحر الاسكندرية ، وبالفعل فطنوا إلى تلك المنطقة الضعيفة ، فاستغلوها في اقتحام
المدينة .

وهكذا كان الدفاع السكندري في غاية السوء عندما ظهرت في البحر
مراكب القبارصة في يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة ٧١٧ هـ ، وعندما
أقبلت هذه السفن ظن أهل الاسكندرية وقد لاحت ثمرتها من بعيد أنها
لتجار البنادقة ، وكانوا يتوقعون قدومهم بمتاجرهم على جارى عادتهم في كل
سنة ، وكان تجار المسلمين « قد جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ،
ويتعوضون عنها من متاجرهم ، فلما لم يدخلوا الميناء ، باتت الناس في قلق
شديد بسببهم » (١).

وفي صباح يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧ هـ (٩ أكتوبر ١٣٦٥)
أقبل أسطول القبارصة في سبعين قطعة ما بين غربان وقراقير (٢) نحو ساحل
شبه الجزيرة ، وقد نشرت قلاعها ، وملأت البحر من كل ناحية ، ثم حطت
قلاعها ببحر السلسلة ، وهو المينة الغربية (٣) ، مبرزة عن الساحل ، وعندئذ
تبين لأهل الاسكندرية أن هذه السفن إنما قدمت من قبرس بقصد مهاجمة

(١) النويرى ، ص ٧٨ أ

(٢) ذكر المؤرخون أن هذه السفن كانت تحمل ثلاثين ألف رجل (النويرى ،
نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٣٨ — ابن تيمى بردى ، النجوم ، ج ١١ ص ٢٩) .
وذكر النويرى السكندري أنها اشترك من مراكب البنادقة ١٤ غراباً ، ومن الجنوبية
غرابان والروادسة عشرة غربان (الامام بما قضت به الأحكام ، ص ١٢٣ أ نسخة
برلين) وأن مجموع السفن كانت تزيد على سبعين مركبا (نفس المصدر ، ص ٨٣ ب
مخطوطة الهند) .

(٣) النويرى ، ص ٧٨ أ . وقد أكد النويرى أن بحر السلسلة هو المينة الغربية
في عدة مواضع (ص ١٢ ب ، ص ٢٧٥ ب ، ص ٢٧٨ ب من مخطوطة دار الكتب) .
ويذكر أن السفن القبرصية رست من جهة الباب الأخضر أى تجاه الميناء الغربية ، في
حين يعتد الدكتور عزيز سوريال عطية أن المقصود ببحر السلسلة هو الميناء الشرقية =

تغر الاسكندرية ، فتأهب أهل المدينة للقتال والنزال ، فتعمرت القلاع التي من جهة البحر والجزيرة بالرماة الكثيرة ، وانتشرت الناس على السور ، وصار برماة الجرخ معمور « (١) . فتقدم من سفن القبارصة قارب بقمصان استطلاع منطقة الميناء ، فبادر المسلمون بتدفعه بالسهام ، فولى هارباً ، وظل الوضع على هذا النحو طوال يوم الخميس حتى المساء ، ثم نصبت الفخاخ على السور لاضاعته ، « وبات المسلمون متأهبين (٢) ، وبالسور محاذقين ، والعدو خائف لم يتحرك من الموضع الذي أرسى به ، وصارت تلك المراكب الكثيرة منضبة بعضها إلى بعض كالطوف الصغير في البحر الكبير ، فاستهونت المسلمون أمره ، وقالوا ما يقدر هذا على هذه المدينة المسورة الحصينة ، والقلاع المشيدة المتينة ، فعل الملاحون ذلك خديعة » (٣) .

وفي صباح يوم الجمعة بعد شروق الشمس ، انتشر على الساحل بشبه جزيرة الاسكندرية عدد كبير من المسلمين ، قد تساحوا بكل ما استطاعوا حمله ، فمنهم من تساح بالسيف والترس ، ومنهم من حمل النبل والقوس ، وفريق تساح بالرمح والخنجر أو لبس الزرد ، بينما كانت هناك طائفة من أهل المدينة لا يحملون عليهم سوى ثيابهم ، وأقبلت إلى الاسكندرية حشود من فرسان العربان للمشاركة في الدفاع عن المدينة .

استخف أهل الاسكندرية بالقبارصة ، وقد خدعهم ما رده المسوؤلون

= (Ania. p. 353) ويؤيده في ذلك الدكتور سعيد عاشور (قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٣ ، هامش رقم ١) .

(١) النويري ، ص ١٧٨

(٢) كان سيبت اوائف القاعات والمقاتلة بين ربط الجزيرة ومقابرها .

(٣) النويري ، ص ١٧٨ أ

من التأكيد باحكام الدفاع وقوة الجيش ، وتوافر السلاح ، وصمود الأسوار وانتهز الباعة المتجولون فرصة تجمع الجند واحتشادهم خارج باب البحر في المنطقة الواقعة بين المينتين بشبه الجزيرة ، لبيع أطعمتهم وأشربتهم دون أن يعترضهم خوف من مرابطة أسطول العدو بالميناء ، فخرج الباعة « بطباليهم وقذورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام ، يبيعونها على من بالجزيرة من الخاص والعام ، وذلك في ليلة الخميس ، ليكسبوا معاشهم ، وهم يعلنون بلعن كل راهب وقسيس ، وذلك من غير خوف من المراكب التي رويت يوم الأربعاء في البحر ، ثم إنهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم (١) يوم الخميس ، بل صاروا يلعنون القبرسى كلهم لا بليس لأمنهم ، فيما تقدم لهم من بيعهم على الطوائف المتقدم ذكرهم » (٢) .

وهكذا كان القوم على سجيئتهم ، العامة و الخرافيش يسبون القبرصى بكل ألفاظ السباب القبيح ، والباعة يبيعون ما لديهم على طوائف العسكر والمتطوعة ورماة قاعة القرافة ، والجميع لا يعبأون بالأسطول القبرصى الم رابط في مياه الاسكندرية .

ويبدو أن بطرس دى لوزنيان سير جماعة من عيونه المستعربين ، وقد تنكروا في زى المسلمين ، أثناء الليل إلى البر ، فاختلطوا بالمسلمين ، واطلعوا على ضعف الدفاع ، وفطنوا إلى استخفاف الأهالى بسفن القبارصة ، واشتغال العسكر بالأطعمة والأشربة ، وتخليهم عن أردية الحرب ، وتعزى الكثير منهم من اللباس . وقبل أن تشرق شمس الجمعة أقبلت حشود العربان من كل

(١) الأفروطة هي الأسطول ، ولعلها لفظة لاتينية الأصل محرفة من لفظة flote

(٢) النويرى ، ص ٧٨ أ

مكان ، وقد ركبوا الخيول ، ومروا بالكيمان الواقعة بغرب الاسكندرية ، وانطلقوا خارجين عرايا من الباب الأخضر ، لا يحمل الواحد منهم سوى سيفه ورمحه ، والناس موقفون بأنهم من القوة والبأس منتصرين ، وأن نتيجة المعركة المقبلة معروفة بدون مجرد الحاسن والتخمين . ولكن أحد تجسسار المغاربة ، ممن له خبرة بالحروب ، نصيح الأمير جنغرا بأن يأمر هؤلاء القوم بالتحصن داخل أسوار المدينة ، والقتال خلف هذه الأسوار إلى أن تصل النجدة من مصر ، فاعترض عليه أصحاب الأربطة والمقابر المقامة بين الميناوين خوفاً عليها أن ترك بدون حراسة فتعرض للتخريب والتدمير ، وقالوا : « ما نترك هؤلاء الفرنج الذين كل منهم رجل مغامر يطأ ن بأرجلهم ترب المقابر » (١) . وعاد التاجر المغربي ، واسمه عبد الله المعروف بالهنا ، إسداء نصيحته لجنغرا ، فقال له : « ادخلوا المسلمين البلد أصالح لهم » فاعترض أرباب الربط على قوله قائلين : « أنتم يا مغاربة أنخربتم بلدكم طرابلس بأخذ الفرنج لها (٢) ، وتريدون أن تخربوا ربط المسلمين بدخول الناس البلد ؟ لا كيد لكم ولا كرامة ، بل نمنعهم النزول من المراكب ، ونذيقهم بالسهم العذاب الواصب » . ورد جنغرا أخيراً على التاجر المغربي ، وقد مال إلى تأييد أصحاب الربط : « لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ، ولو قطعت مني الأوداج ، ونفذت المقاتل » .

(١) النويري ، ص ٧٩ أ

(٢) يقصد بذلك دخول الجنوبيين طرابلس الغرب في ربيع الأول سنة ٧٥٥ ، بعد أن قدموا إليها في عدة مرات كب واحمالوا على أهلها ، وتناهبوا أنهم تباراً ، فأطمأن أهل طرابلس لهم ، فتسور الجنوبية السور ليلاً وافتتحوها البلد وانزلوا عليها ، ولم يشعر الأهالي إلا والعدو في الشوارع وعلى أبواب البيوت ، وقد حيل بين الأهالي وبين

ويعلق النويرى السكندرى على ذلك بقوله : « ولما كانت المسلمون تركوا للعدو الجزيرة وحصنوا السور وقاتلوا من ورائه كل رجس نفور إلى أن تصل النجدة فى أقرب وقت ، لكان المسلمون يتحصنونهم بالشجر سلموا من القتل والنهب والأسر ، وما كان عليهم من إشترا ب النمرنج للربط المبنية لسلامة الاسكندرية من أذى الملة النصرانية ، فالذين خافوا على ربولهم تخربت ودورهم التى بالبلد نهبت ، وذلك بالرأى الغير صائب ، حتى حلت بهم المصائب » (١) .

(ب) موقعة الجزيرة خارج باب البحر وهزيمة المسلمين :

كان القبارصة يترقبون عملا حاسماً من جانب المسلمين ، فلما أدركوا عدم اكتراثهم للأمر ، قدموا غرابا إلى الساحل ، فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين (٢) ، خاضوا فى الماء ، وناوشوا من فيه القتال ، وتمكنوا

= أسباب الدفاع ، فنهب الجنوبية كل ما فى المدينة من ستاع وأسوار ، وأسروا عدداً كبيراً من سكانها ، وفر محمد بن ثابت إلى قبيلة الجوارى خارج السور ليحتمى فيها ، بينما فر أخوه إلى مصر . ولم يترك الجنوبيون طرابلس إلا بعد أن دفع لهم أحمد بن زكى حاكم قابس خمسين ألفاً مثنى مال من الذهب العين (راجع الطاهر أحمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٢٦٢ — ٢٦٤) .

(١) النويرى ، ص ٧٩ أ

(٢) أسهم المغاربة مساهمة فعالة فى الجهاد ضد الصليبيين وفى الرابطة على سواحل مصر والشام منذ عصر بكر ، فقد اشترك جماعة منهم فى الجهاد مع عماد نور الدين محمود بن زكى ضد الصليبيين (ابن جبير ، الرحلة ص ٣٠١) ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملائمين زاوية المالكية بمساجد دمشق أوقافاً كثيرة (نفس المصدر ، ص ٢٨٥) . كذلك كان يبذل جهده لافتداء الأسرى منهم لأنهم =

من الامساك بالغراب في أيديهم ، ثم طلبوا من الزرايين أن يزودوهم بالنار ليحرقوه ، ولكن للأسف لم يهتم أحد بذلك ، لقلة همهم وتهاونهم وغفلتهم . وما زال المغاربة ينادون في طلب النبط والنار ، وأمام صراخهم المتواصل رمى الزرايون بمدفع فيه نار « كنار الحلفا ، فوق في الماء فانظفا » ، وحدث خلاف بين المغاربة ، فتضاربوا بالسيوف ، وسقط منهم عدد كبير صرعى . ولما لم يجد بحارة الغراب من يمنعهم من المضي في مسيرهم نحو الساحل ، تابع سيره وتبعه آخر من خلفه يحميه برمي السهام على المسلمين ، فلما وصل الغرابان إلى البر تتابعت الغرابان من مناطق متفرقة حتى يرتبك المسلمون ، ويستعصى عليهم تركيز قذفها بالنار والحجر . وسرعان ما نزل الفرنج إلى البر ضحى يوم الجمعة ، وأخذ خيالهم يرمون على المسلمين بالسهم ، وقد زحف في مقدمتهم

= غرباء لأهل لهم . واشترك المغاربة في الجهاد بالاسكندرية في بداية قيام الدولة الأيوبية ، وقد رأينا كيف أسس لهم صلاح الدين مدرسة وداراً وبمارستاناً ، واشترك كثير من المغاربة في سوقة القبارصة بطرابلس الشام ، وقتل منهم في أول لقاء مغربيان (طرابلس الشام ، ص ٤٦٠) . وكان الأير يلعبا الخاصكى يكثر من قوادهم في البحر لاعتيادهم على ذلك (النويرى السكندرى ، ص ١١٦ ب) ، وقد اشترك كثير منهم في الدفاع عن الاسكندرية في وقعة الاسكندرية ، واستشهد منهم عدد كبير . وكان يلعبا الخاصكى يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر ، وذكر النويرى سعلقاً على بطولة ابراهيم التازى المغربى رئيس دار الصناعة بالاسكندرية : « لأن الفرنج ليس يقهرهم سوى المغاربة ، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعاً كبيراً بجواسك مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخربوا جزر كثيرة ، وصارت الفرنج معهم في جزيرة » (النويرى ، ص ٢٧٧ ب) .

أحجاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام - مسربلين بالزرد وصفائح الحديد
وعلى رؤوسهم الخوذ ، وبأيديهم السيوف - وقد تنكبوا القسي ، ورفعوا
أعلام المسلمين - وأحدث نزول القبارصة على الساحل موجهة من الذعر والبلع
في نفوس المسلمين ، فترك الباعة موائلهم وأطعمتهم وفروا خائفين ، والفرننج
يضربون أقفيتهم بالسهام ، ويوجهونها على خيل العربان ، فهاجت الخيل
وجفلت ، وتفرقت على غير هدى ، وطار العربان من رمى السهام « طيران
الحمام » ، وانهمزوا إلى ناحية السور ، وتدفقوا على أبواب المدينة فدخلوها .
ويعلق النويرى على هذه الهزيمة الأولى بقوله : « وكان الفرنج لا بسين الحديد
من الفرق إلى القدم ، والمسلمين كلهم على وضم ، فكيف يقاتل اللحم الحديد؟
وكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد النضيد » (١) .

ولما رأى أهل الاسكندرية ما أصاب طلائع العربان من القتل والذبح ،
فروا بأنفسهم إلى الأبواب ، وتزاحموا في الدخول ، فهلك منهم كثيرون ،
وآثر آخرون القتال والموت في ساحة المعركة ، وفضلوا الاستشهاد ، ويورد
النويرى أمثلة من بطولات فردية أبدتها جماعة من المصريين ، فيذكر أن
محمد الشريف الحزار « هجم على الفرنج بساطور الجزيرة جعل عظام جماعة
منهم مكسرة ، وهو يقول : الله أكبر قتل من كفر ، إلى أن تكاثر عليه منهم
جماعة كثيرة ، فاستشهد رحمه الله بالجزيرة ، ورؤى بعض فقهائ المكاتب
ويعرف بالفقيه محمد بن الطفال وهو قاصد الفرنج بسيفه ، فقتل له : تموت
رافقيه محمد . فقال إذن أسعد وأصير مجاوراً للنبي محمد ، وأى مودة أحسن
من الجهاد في سبيل الله لأصير إلى الجنة . وهجم فيهم فصار يضربهم ويضربونه

إلى أن رزق الشهادة ، وختم له بالسعادة » . ولما حوَصِر جماعة من رماة
قاعة القرافة المتطوعين ، في الرباط الذي عمده طم الشيخ الصالح
أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه ،
وصلاتهم وذكرهم ليلة خروج طائفتهم لترابط به ، وكان قد أسس قبل
الوقعة بما يزيد على سنة ، وأنفق على عمارته نحو ثمانمائة دينار ، فلما
تكاثر الفرنج حول الرباط المذكور أخذ رماة المسلمين في أعلاه يرمون على
الفرنج بسهامهم ، فقتلوا منهم جماعة ، فلما نفذت سهامهم عمدوا إلى شرفات
الرباط ، وأخذوا يهدمونها ، ويرمون الفرنج بأحجارها ، إلى أن نفذت
شراريف الرباط المذكور ، فانقطع رماهم . وعندئذ كسر الفرنج شبابيك
الرباط ، وصعدوا إليهم ، فلما شاهدتهم المرابطة صاحوا جميعاً : يا محمد
« وصعدوا ، فلم يسمع بهاء ذلك صوت ، أخبر بذلك عبد الله بن الفقيه أبي
بكر قيم مسجد القشيري ، وكان مختفياً بصهريج الرباط المذكور ، فاجتمع
الفرنج عن آخرهم بخناجرهم ، فصارت أدميتهم تجري من ميازيب الرباط
المذكور كجرى الأمطار إبانها منها . وقيل كان عدد المذبوحين فوق سطح
الرباط من المسلمين الزيادة على الثلاثين ... » (١) . ولم ينج من رماة الرباط
المذكور سوى اثنان ، أسطهما يدعى محمد الخياط ، أبقى القبارصة على حياته
لصغر سنه ، والآخر ، ويدعى حسين البياع ، أبقوا عليه لأنه لم يجزع حين
أقبلوا عليه ليدبحوه .

(ج) موقف جنغرا بعد الهزيمة :

رأى جنغرا ، وهو مشرف على المعركة من ظاهر باب البحر ، ما أصاب

(١) نفس المصدر، ص ٨٠ أ

المسلمين على أيدي القبارصة ، وشاهد فرارهم ، وسهام العباد تسير ، ظهورهم
فترديهم ، وكان قد أصيب بهم سال منه دمه ، فندم على مخالفته لتعاليمه المبررة ،
وأسف على سماحه للمسلمين بالخروج إلى الجزيرة ، والتعرض لسهام العدو ،
بدلاً من التحصين داخل أسوار المدينة ، ومقاتلة الفرنج من كوى هذه الأسوار
حتى تصل النجدة من القاهرة . وكان أهل الاسكندرية وقد أصبحهم الذعر
قد شرعوا في الفرار من أبواب البحر إلى بلد البساتون (١) ، والكريون
وغيرهما من القسرى الدانية والقناصية ، ويبدو أنه لم يستطع دخول المدينة
من باب البحر لكثرة تراجم الناس على الدخول ، فاضطر إلى السير ناحية
المطرق المحاذي لدار السلطان غربى الاسكندرية من ظاهر سورها ، خائضاً
بفرسه في الماء ، وبصحبه عاهد من الجنود ، فدخل الاسكندرية من باب
الحوخة ، وهو باب صغير كما يبدو من اسمه ، يقع ما بين باب البحر والباب
الأخضر ، فأتى إلى بيت المال ، وحمل ما كان فيه من الذهب والفضة نحشية
أن يقع غنيمة في أيدي القبارصة ، ثم خرج من باب البر (٢) ، وأمر باعتقال

(١) لعلمها البلقطن ، وهى مدينة صغيرة من كورة البحيرة قرب الاسكندرية
(ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٨٩) .

(٢) وهو إما باب سدرة القبلى ، أو باب الزهرى المجاور له من جهة الشرق ،
أو باب رشيد وهو الباب الشرقى (النويرى ، ص ٨١ ب من نسخة برلين) والظاهر
أنه خرج من باب سدرة لأنه أقرب أبواب البر إلى قصر الوالى .

ونلاحظ أن النويرى السكندرى كان من بين الفارين من أبواب البر فقد ذكر
النويرى سبب تأليفه لكتابه بقوله : « وكان السبب لتأليفى هذا الكتاب ، طول
إقامتى بالاسكندرية ومحبتى لها ولأهلها ، فانى دخلتها فى ذى الحجة سنة سبع وثلاثين
وسبعمائة بسبب رؤيتها وزيارة الصالحين بها ، فلما حللتها شاهدت مدينة حسنة البناء =

تجار الفرنج وقناصلهم بالشجر . وكان عا.دهم خمسين رجلاً ، واخرجهم من باب البر نحو دهنهور . ولما حاول أحدهم الاعتراض على ذلك ضرب أحد المماليك الجبائية عنقه بسيفه ، فأذعنوا بالخروج وقد قيدهم المسلمون بالسلاسل .

(د) اقتحام القبارصة أسوار الاسكندرية وعيهم في المدينة :

اقرب القبارصة من سور الاسكندرية ، ولكن المسلمين أمطروهم من أعلى السور وابلا من السهام فتوقفوا عن مواصلة الزحف ، وعمدوا إلى استخدام « بنية خشب ملأوها حريقاً ، وقصدوا بها حرق باب البحر بكركرتها بأسنه الرماح » ، ولكن السهام تساقطت عليهم من أعلى السور وأرغمهم من تجديد على التوقف ، فتركوا البنية وقد اشتعلت فيها النار ، وتراجعوا بعيداً عن مرمى سهام المسلمين ، ناحية الميناء الشرقية ، وتفحصوا السور من تلك الجهة ، فألفوا ممشاه العاوى دون بقية الأسوار ، خالياً من الجند المدافعين ، وأدركوا أن بإمكانهم الصعود إلى ذروته ، خاصة وأنه لم يكن يتقدمه خندق يعوقهم عن الصعود إليه ، فمضوا إلى ناحية باب الديوان فأحرقوه من غير أن يمنعهم مانع من تلك الجهة ، ودخل بعضهم المدينة عن طريقه ، بينما تسلق البعض الآخر سلالهم الخشبية المفصلة المركبة بعضها في بعضها وصعدوا إلى أعلى السور (١) ، ولم يكن يفصل المسلمين عن القبارصة

= جميلة المعنى ، طيبة السكنى ... فأحببتها حينئذ وسكنتها ، وتأهلت بها وألفت هذا الكتاب بها ... ثم خرجت مع من خرج من الوقعة من باب برها لعدم إلقاء نفسه في الهلكة لما لم يبق في أهلها للقتال حركة . ثم رجعت إليها لأرى صدفة درها كيف صارت بعد فعل الكفرة بها » (النويرى ، ص ٩١ أ - ٩١ ب نسخة الهند) .

(١) يؤيد ماشو الذى اعتمد فى كتابته على سدونة بطرس لوزنيان ما رواه =

الذين صعدوا بأعلى السور سوى حصن لا ممان فيه يروى ابن العبار قصة . فلما رأى المسلمون نجاح القبارصة في العودة إلى السور ، وثى بحول المدينة من باب الديوان فت فى عضدهم ، وأيقنوا بتغلبهم على المدينة . ففروا دالابين النجاة بأنفسهم ، فقتل الفرنج من أدركوه منهم ، ولم ينج إلا من أسعده الحظ بالخروج من باب البر (١) . ويعلق النويرى على ذلك بقوله : « فلو كان السور الذى يلى البحر جميعه معمرأ بالرجال من جهة الديوان والصناعة سلمت منهم الاسكندرية ، وانما قال شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين ابن أبى عايبة الناظر : اغلقوا باب الديوان الذى من داخل البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد ، فتضيع الختوق التى عليها ، فقتل الباب ، فلذلك امتنعت الرماة من حراسة تلك الجهة من السور ، فبذلك رأى العدو جهة خالية من غير خندق مانع ، فدخل البلد منها ، وقيل أيضاً أن ابن غراب الكاتب كان متعاملاً مع صاحب قبرس عليها ، وأن صاحب قبرس أباها قبل الواقعة فى زى تاجر أواه ابن غراب عنده مدة ، وصار القبرسى يتمشى بالبلد من جملة الفرنج التى بها ، وهو يكتفىها وينظر أحوال المسلمين بها ، فلما علم ذلك بعد الواقعة ، وسط الأمير صلاح الدين بن عرام بعد قدومه من الحجاز ابن غراب المذكور وعائقه قذاعتين على باب رشيد ، فلو فتح باب الديوان الذى يلى البلد ، قاتلت المسلمون الفرنج من أعلى سورهم ، وكانوا يجلسون ما يفوتهم من نقل الشام ، وكان أصحاب البضائع يسمحون بذلك ،

= النويرى فى طريقته دخول القبارصة الاسكندرية (راجع :

G. Machaut La prise d'Alexandrie, ou Chronique de Roi Pierre I L'asignan publiée par Mas Latrie, Genève. 1877)

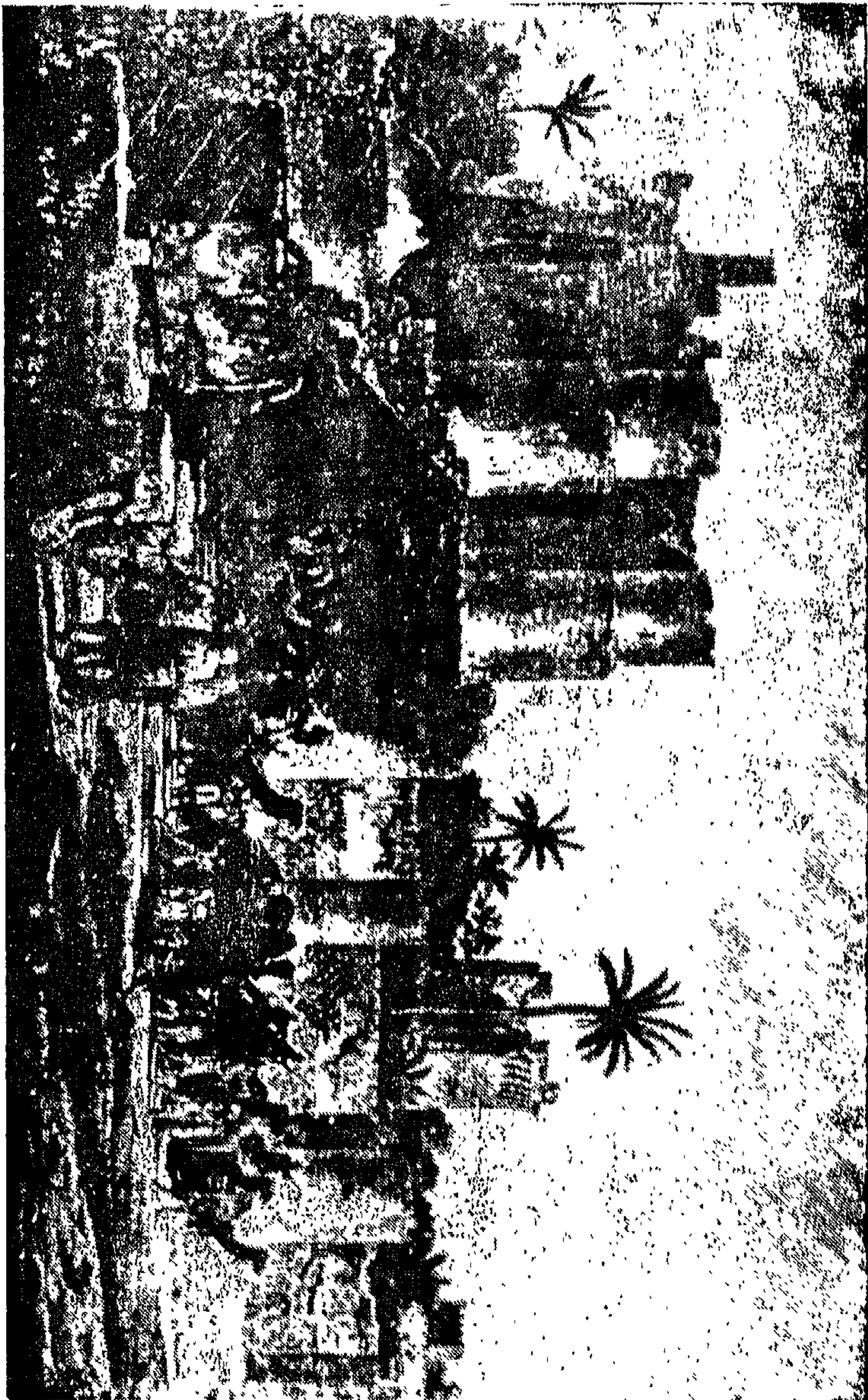
(١) النويرى ، ص ٨١ أ

فلما لم يكن للأمير جنغرا رأى صائب ، وقفل الناظر وابن غراب لباب الديوان كما قيل عنهما ذلك ، أخذت الفرنج البلاد من تلك الجهة ونفذت المقادير في كل صغير من أهل الثغر وكبير ، فمنهم من قتل ، ومنهم من أسر ، ومنهم من وقع من السور كسر « (١) . وبينما كانت قوات القبارصة تنتشر في الاسكندرية ، كان أهل المدينة يهرولون في طرقاتها يقصدون الخروج من منافذها البرية وهي باب السدرة وباب الزهرى وباب رشيد ، حيث تجتمعت الألوف ، فاشتد الازدحام هناك ، وفقد الأهالي في دفعة الازدحام ما كانوا يحملونه من ذهب ومصانع ومتاع ، فمنهم من نجح في الخروج من تلك الأبواب ، ومنهم من أدركه القبارصة بباب السدرة فقتلوه ، ومنهم من أسروه ، ومنهم من تدلى من أعلى السور في الحبال والعمائم ، فنجح البعض ، وهلك البعض . وعندما وصل القبارصة إلى باب السدرة صعدوا بأعلاه ، ونصبوا هناك أعلامهم .

أما من تمكن من الفرار من أهل الاسكندرية فقد قصصوا القرى والحقول «فامتألت منهم الغيطان والبلدان ، ونهب بعضهم العربان ، وعلا السعر فيما بينهم بما جلبته الباعة إليهم من البلدان ، فباعوا الغالي بالرخيص ، وصار كل منهم على طلب القوات حريص » .

وتدفق الفرنج في شوارع المدينة ينهبون متاجرها وفنادقها وحوانيقها ، بعد أن كسروا أقفالها وأحرقوا أبوابها ، وحملوا ما فيها على ظهور الجمال والبغال والحمير ، وقتلوا من وجدوه مختبئاً فيها صغيراً كان أو صغيراً ، واعتدوا على النساء والبنات ، وأحرقوا القياسر والخانات ، وكسروا قناديل الجوامع

(١) النويري ، ص ٨١ أ .



باب رشید کا رسمہ الفنان کاساس سنہ ۱۷۸۵

والمساجد ، وقتلوا الشيوخ والعجزة فى داخل بيوت الصلاة ، وأسروا الرجال والنساء والإماء والصبيان . واستمروا على تلك الحال من ضحى يوم الجمعة إلى مساء يوم السبت أحرقوا خلال هذا الوقت « حوانيت السرفة بكما لها وسوق القشاشين بالمعاريج ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقية ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه ، وفندق الطيبية مع فندق الجوكندار ، وفندق الدمامنى بسوق الحوار ، ووكالة الكتان المقابلة للجامع الجيوشى بالقرب من العطارين مع سوق الحشابين . وأحرقوا أيضاً داراً ببنى مدرسة ابن حباصة مع سقف الإيوان ، وعبثوا بكل ناحية ومكان ، وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد ، ونبتت بإحراق بعض حوانيت المحجة كل عالج مريد ... » (١) . ولم يستثن القبارصة من الحرق فنادق الفرنج بالاسكندرية ، فأحرقوا « فندق الكيتلانيين وفندق الجنويين وفندق الموز وفندق المرسيلين ، فصارت النار تعمل فى البندق والبضائع التى لم تجد الفرنج لها محملاً معهم لاشحان مراكبهم بما أخذوه من أموال الاسكندرية » (٢) . ثم أتى القبارصة على قياصر البزازين ، ونهبوا أقمشة التجار المصريين والشاميين المحزومة والمعدة للتصدير إلى الشام ، والمنسوجات الحريرية التى وردت مع تجار الأعاجم وغيرهم إلى الاسكندرية ، وقد وصلت أحمالها إلى عدة قناطير ، وهاجموا حوانيت الشاعين ، فكسروا أبوابها ، ودمروا ما فيها من أوعية وأوانى وأحقاق وبرانى ، فأصبحت « ملقاة مطروحة فى الطرقات ، قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك » ،

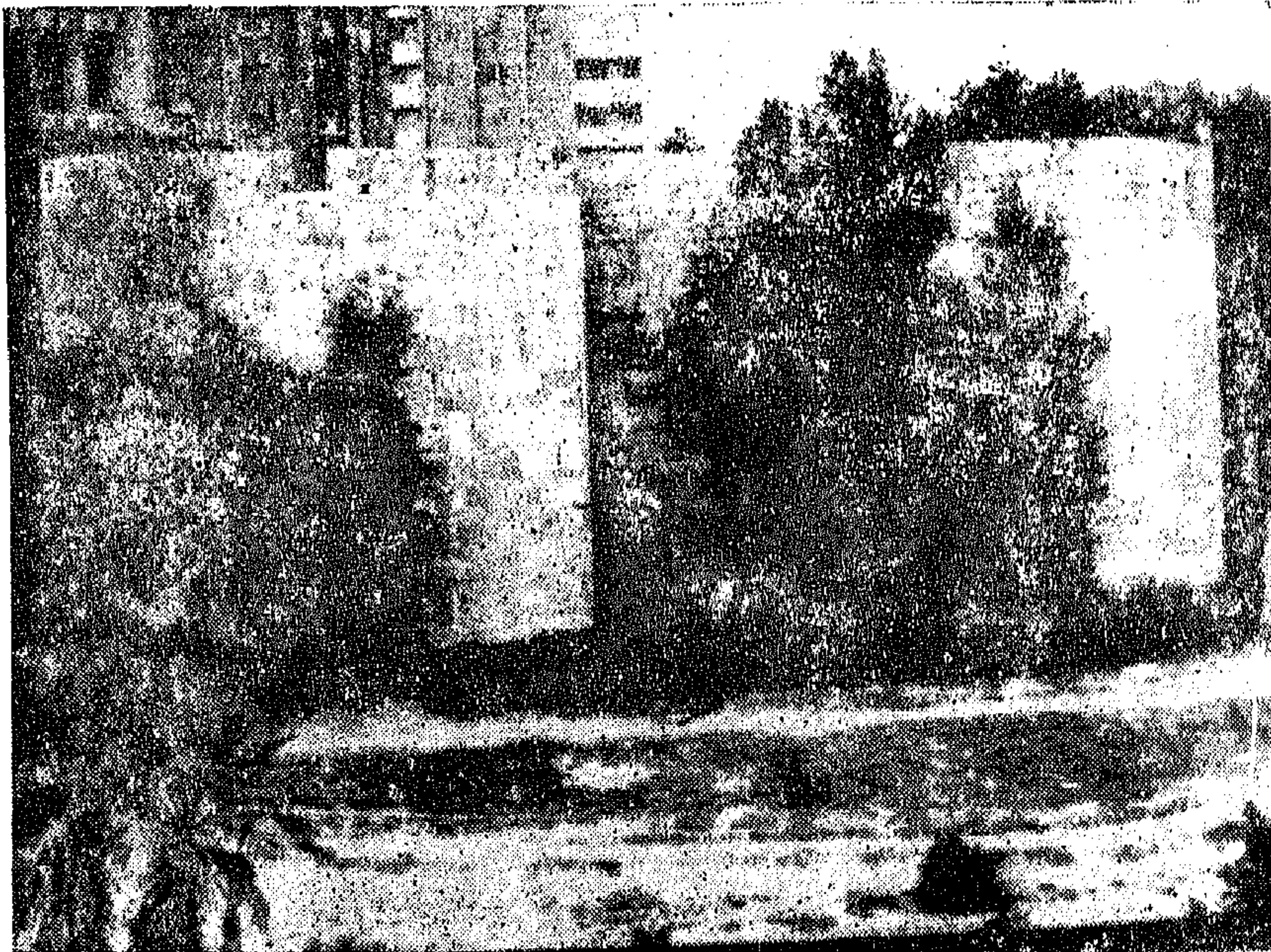
(١) التويرى ، ص ٨٢ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣ أ

وهاجدوا سوق الصباغة ، واقتحموا حوانيته ، ونهبوا كل ما فيها من الذهب والفضة ، وسطا عدد من القبارصة على الدور ونهبوا ما فيها من أموال وثياب وصباغ وفرش وبسط ونحاس ، واقتلع جماعة آخرون باب المنار الذى كان قد عمره الأمير صلاح الدين بن عرام قبل الرقعة على الأساس الذى كان قد أسسه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبطلت عمارته ، فعمل ابن عرام على أساسه حصناً دائراً ، وعمل لــــه الباب المذكور ، كما اقتلعوا نوافذ قبة تربة الأمير طغية المقامة بمقبرة الميناوين خارج باب البحر فى منطقة الجزيرة ، وكسروا شاهدى قبر الأمير طغية نفسه وقبر الأمير بلاط ، وهما على شكل عمودين موهين بالذهب واللازورد يحملان تاريخ وفاتهما ، كما أحرقوا أسقف الأربطة فى الجزيرة ، وكسروا قناديلها وقناديل المشاهد والمزارات ، وخرّبوا قصور الجزيرة وتربها ، وكسروا أعمدة قبة منبر مصلى الأعياد ، واقتلعوا حلقى باب المدرسة الخلاصية التى عمرها نور الدين على بن خلاص ، وكانت من النحاس المحرم ، وأخذوا منها كرسى الربعة وبيتها ، وكان من النحاس الأندلسى المحرم المنزل بالفضة ، بينما طرحوا الأجزاء الثلاثين للربعة بالمدرسة . وصعدت طائفة من القبارصة إلى صومعة المدرسة النابلسية ، فوجدوا بأعلاها جمال الدين ابن مؤسسها مختبئاً منهم ، «وكان شيخاً ضعيف البنية ، فألقوه على رأسه منها إلى الأرض ، فاندق عنقه ومات شهيداً رحمه الله» (١) .

وأحرق القبارصة باب البحر الأول والثانى ، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوجة والمجانيق التى كانت بالصناعتين الشرقية والغربية ،

(١) نفس المصدر، ص ٨٣ ب



برج من أبراج السور الاسلامى بالشلالات



جانب من باب الزهرى

وأحرقوا السفن التي كان المسلمون قد أخرجوها بدار الصناعة الشرقية حتى لا يستولى عليها القبارصة ، ثم أحرقوا دار الطراز والديوان بعد أن نهبوا ما كان بدار الطراز من الاستعمالات الرفيعة الأثمان ، وأحرقوا أيضاً قلعة ضرغام ، والمكان المعروف بالكديس ، وكان برسم الاستعمالات أيضاً . ولكن القبارصة عندما مروا أمام قصر السلاح لم ينتهبوا إلى حقيقة ، وظنوا أنه أحد أبواب المدينة ، لأنه كان يجاور السور من جهة البر ، « فخافوا من كسر بابه خشية أن يكون خلفه كميناً يطبق عليهم » (١) . كذلك لم يتمكن القبارصة من نهب كثير من ديار المحجة بالاسكندرية ، إذ كان عبد الله بن نخالة كاتب المحجة على بيع ثمر البساتين هو ورجاله يرمون القبارصة المارين فيها بالحجارة من أعلى الدار (٢) .

وعاث القبارصة في الاسكندرية فقتلوا من وجدوه من الأهالي مخبئاً في المساجد، وقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات (٣) ، وكانوا يحملون ما ينهبونه من الحوانيت والفنادق والدور والقياسر على الإبل والخيل والحمير ، حتى إذا ما انتهت هذه الدواب من مهمتها « طعنوها بالرماح ، وعرقبوها بالصفاح ، فصارت مطروحة بالحزيرة والبلد ، لم يعلم لها عدد ، فهلك وجافت ، فأحرقها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها » (٤)

(١) النويري ، ص ٨٤ أ

(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ ب

(٣) بلغ عدد القتلى من أهل الاسكندرية وفقاً لما ذكره المؤرخون نحو أربعة آلاف شخص (النويري نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٣٨ — ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩) .

(٤) النويري ص ٨٣ ب

وما إن حقق الفرنج هدفهم من غزو الاسكندرية بعد ثمانية أيام من يوم وصولهم في ٢١ المحرم إلى خروجهم عنها يوم الخميس ٢٨ من الشهر المذكور ، ووقروا سفنهم وشحنوها بما نهبوه منها ، حتى تحصنوا في مراكزهم بعد أن تركوا على الساحل فضلات البهار التي لم يجدوا لها موضعاً على سفنهم ، فعادت إلى أصحابها بعد خروج القبارصة . وكانت مراكز القبارصة قد نُقلت بشحناتها ، فاضطروا إلى تخفيفها في الطريق بإلقاء بعض هذه الشحنات ، وقد عثر الغواصون بمنطقة أبي قير بعد خروج القبارصة من الاسكندرية على تحف نحاسية وغيرها في قاع البحر . وحمل القبارصة معهم من الأسرى نحو خمسة آلاف شخص ما بين مسلم ويهودى ومسيحي ، نساء ورجالا وأطفالا ، أما الأطفال فقد وزعهم بأرض الرومانية (١) .

(هـ) استرجاع الممالك للاسكندرية :

كان القبارصة يعيشون في المدينة فسادا أثناء النهار ، خلال الأيام الثمانية التي قضوها هناك ، وعندما يقبل الليل يرحلون إلى سفنهم ، إذ كانت أبواب المدينة مفتحة للداخلين إليها بسبب حرق الأهالي لمصاريعها الخشبية ، ولذلك خاف القبارصة من المبيت في داخل المدينة لتوقعهم وصول النجيدات المملوكية من القاهرة . وأعتقد أيضاً أنهم كانوا بالاضافة إلى ذلك يخافون من الاصابة بالطاعون بسبب تجفيف الحشث الكثيرة المطروحة في الطرقات والشوارع . وكان عربان هواره وفزاره وغيرهما من قبائل العرب النازلين بظاهر الاسكندرية يدخلون المدينة في ساعات الليل ، عند خلوها من القبارصة ، فينهبون ما يجدونه في المخازن والفنادق والحانات والحوانيت ، وقد دمرت جميع أبوابها ، وأصبحت السلع والبضائع والتحف متاحة لكل لص وسارق (٢) . وجاء

(١) النويرى ، ص ٨٤ ب

(٢) النويرى ، ص ٩٣ أ

خبر الإعتداء القبرصى على الاسكندرية إلى يلبغا الخاصكى يوم السبت . وكان السلطان بسرياقوس باقليم القليوبية ، فقام من وقته وعائدا إلى القاهرة . وصعد إلى القلعة وأمر العساكر بالرحيل فوراً إلى الاسكندرية . ثم ركب السلطان بعد صلاة الظهر ومعه الأتابك يلبغا والعساكر ، وعبروا النيل ، واتجهوا إلى الاسكندرية من غير ترتيب أو تعبئة حتى وصلوا إلى الطرانة احدى قرى مركز كوم حمادة بالبحيرة ، والعساكر تتابع ، فأرسل السلطان من هناك جاليشا (١) من الأمراء يتقدمون الجيش إلى الاسكندرية في خفية ، وهم قطلوبغا المنصوري ، وكوندك ، وخليل بن قوصون ، وجداعة من الطبلخانات والعشرات (٢) .

وأقبل العسكر المملوكى في ٢٥ من المحرم يتقدمهم الأمير صلاح الدين بن عرام الذى كان قد عاد من الحجاز ومعه يلبغا الخاصكى ، ودخل يلبغا الاسكندرية ، « فرأى ما حل بها ، وشاهد ما آل أمرها إليه من الحريق والهدم ، وعانين بجثث المسلمين قد انتفخت واسودت ، وتغيرت وجافت ، فبكى بكاء شديدا ... وحصل له من الألم ما حمله على أن يأخذ الثأر من الفرنج الكفار ، فتهيا لعمارة المراكب الغربان منها والطرائد ، وشرع في عمل السلاح وآلات الحرب » (٣) .

ويذكر النويرى في موضع آخر أن الأمير الأتابكى يلبغا ، « عزم على عمارة المراكب الحربية واجتهد فيها وفي عمل الأسلحة المنكية ، والسفر إلى الجزيرة القبرسية ليظهرها من الصليب والخنزير » (٤) وكان أول ما فعله

(١) الجاليش طليعة الجيش

(٢) ابن تغرى بردى ، ج ١١ ص ٢٩

(٣) النويرى ، ص ٨٩ ب

(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٣ ب

ابن عرام متولى الاسكندرية بعد دخوله لها ، أن نزع أعلام صليبان القبارصة من أعلى أسوار المدينة ، ونصب أعلام المسلمين عليها . ثم أمره بإبغا الخاصكى بـدفن الموتى ، وأمره بالأموال لعمارة ما خرب منها . وقام بإبغا الخاصكى بمصادرة جميع النصارى والرهبان بالديار المصرية كرد فعل لغزوة القبارصة ، واستنفذ من جميع الأديرة ما بها من الأموال ، فجمع من ذلك أموالاً هائلة ، حتى قيل أنه جمع اثني عشر ألف صليب ، منها صليب ذهب زنته وحده عشرة أرطال مصرية (١) .

(و) صدى غزوة القبارصة فى العالم الاسلامى والعالم الأوروبى المسيحى :

كان للعدوان القبرصى الوحشى على الاسكندرية أصداء هائلة فى العالم الإسلامى آنذاك ، ففى الأندلس انتهر عبد الله الغنى بالله محمد بن اسماعيل ابن فرج بن نصر سلطان مملكة غرناطة انشغال الملك بدرو الأول ملك قشتالة بمحاربة أخيه غير الشرعى هنرى دى ترستارا الذى ينافسه على العرش وقام بهجوم واسع النطاق على بعض مدن الأندلس فى سنة ١٣٦٧ م ، وقد ورد فى رسالة كتبها لسان الدين بن الخطيب على لسان سلاطانه إلى سلطان تونس المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى أن مسلمى غرناطة عندما هاجموا مدينة جيان انطلقوا يهتفون بعبارة (يالثرات أهل الإسكندرية) (٢) ، وهى

(١) عبد الحى بن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة

١٣٥١ هـ ، ج ٦ ص ٢١٣

(٢) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، تحقيق الأستاذ

محمد بن تاووت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٩٢ القلقشندى ، صبح الأعشى ،

ج ٦ ، ص ٥٥١

صبيحة تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها غزوة القبارصة للإسكندرية في نفوس الأندلسيين (١) .

وفي بغداد أبدى الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن ألمه عندما علم بدخول القبارصة الإسكندرية ، وصادر المنسوجات التي أتت بها طائفة من الفرنج إلى مدينة تورين في سنة ٧٦٧هـ ، من جملتها أقمشة كثيرة مخيطة وغير مخيطة ، كانت من بين ما نهبه القبارصة من الإسكندرية وباعوها لتجار الفرنج ، ثم أمر أويس بالحوطة على أموالهم وقتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو ثمانمائة شخص (٢) .

ولما بلغت أنباء ما فعله القبارصة في الإسكندرية إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك للغاية ، وذكر الخطيب في الجامع يوم الجمعة على المنبر ما اقترفوه في الثغر السكندري من الجرائم ، فتباكى الناس كثيراً ، وصدر المرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصاري والفرنج دفعة واحدة وإيداعهم في الحبوس بالقلعة (٣) ، وأن يصادر ربع أموالهم لعارة ما خرب من عمران الإسكندرية ، ولعارة مراكب لغزو الفرنج ، وفي ١٥ صفر نودي بالبلدان أن لا يعامل الفرنج البنادقة والحنوية والكتيلان (٤) .

(١) مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٤٥

(٢) التنويري ، ص ٢٥٢ ب

(٣) انتقم السلطان من الجاليات الأوربية المقيمة بالشام ومصر ، كما أسر بالقضاء القبض على الرهبان الفرنسيين المقيمين بدير صهيون وسجنهم بالقاهرة حيث أقاموا بها ثلاث سنوات (أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢١) .

(٤) ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٣٢٢

وقد أوردنا ثلاثة أمثلة عن رد الفعل الإسلامى فى المشرق والمغرب وقلب العالم الإسلامى مما يدل دلالة واضحة على الوحدة الروحية الوثيقة التى كانت تربط بين الأقطار الإسلامية وتكافلها فيما بينها .

أما فى الغرب المسيحى فقد انتهج المسيحيون هذه الغزوة وهلكوا لها ، وبادر البابا بتهنئة بطرس ، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يحثهم على تقديم العون والمساعدة إلى ملك قبرس « الأسد الشجاع » على حد تعبيره ، ووعد شارل الخامس ملك فرنسا بارسال جيش كبير إلى قبرص لتحتلها - بمساعدة المسلمين ، وتسابق المغامرون والطامعون ومحترفو القرصنة إلى قبرص للدخول فى خدمة ملكها عندما بلغهم كثرة ما غنمه القبارصة من ثروات الإسكندرية (١) ومع ذلك فإن أحداً من ملوك أوربا لم يلب دعوة البابا لمساعدة بطرس تلبية جدية ، بل إن كثيراً منهم وجهوا إليه اللوم على الفرار من الإسكندرية عند قدوم جيش المماليك ، ويعبر النويرى عن ذلك بقوله : « وقد قيل إن ملوك النصرانية لامته على هروبه من الاسكندرية وقالوا له : إن الذى فعلته هو فعل اللصوص ، لا فعل الملوك ، كنت لما ملكتها أقمت بها ، وناضلت عنها ، كما فعلت الخنوية بطرابلس الغرب ، ولكن دخلتها لصاً وخرجت منها لصاً ، وذلك لعدم قدرتك على مقابلة جيش مصر » (٢) .

أما البندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية التى كانت ترتبط مع دولة المماليك بعلاقات تجارية فقد قابلت وقعة القبارصة بالإسكندرية باستنكار شديد لأنها خشت من رد الفعل الإسلامى المضاد على تجارتها التى هى المورد

(١) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٧٠ .

(٢) النويرى ، ص ١١٣ ب (مخطوطة الهند) .

الرئيسى لحياتها . ولذلك السبب حركت البندقية على إرسال وفد إلى السلطان الملك الأشرف شعبان يؤكد له أن السفن التى أغارت على الإسكندرية لاعتلاقة لها بالبندقية (١) . ولكن السلطان أصر على إيقاف التعامل مع البنادقة أو غيرهم مادام لم يصنف حسابه مع ملك قبرص ، ولهذا السبب أخفقت السفارة البندقية ، وتوجه البنادقة بعد ذلك إلى قبرص لمفاوضة بطرس فى إيقاف حملاته العدوانية على مصر والشام ، وطلب الوفد البندقي أن يقوم بطرس بمفاوضة السلطان المملوكى فى الصلح ، وتجهد البنادقة بدفع الأموال التى أنفقتها... بطرس لإعداد حملته التى كان يزعم تسييرها إلى بيروت (٢) ، فعاد بطرس عن مهاجمة بيروت ، ولكن مفاوضات الصلح بين قبرص ومصر تهرت ، وامتد أثرها ، على النحو الذى سنفصله فيما بعد .

Makhairas, vol. I, P. 157. (١)

Makhairas, vol. I, p. 157 — سعيد عاشور ، قبرص ، ص ٧١ (٢)

(٣)

الاحداث السياسية التي أعقبت وقعة القبارصة بالاسكندرية

١ - تحويل الإسكندرية من ولاية إلى نيابة :

أحس السلطان الأشرف شعبان بضرورة تحصين الإسكندرية والعناية بها وبشؤونها بعد أن أصبحت مطعماً للصليبيين ، وكانت غزوة القبارصة تجربة مريرة ، ودرساً قاسياً لم ينسه المماليك ، وازدادت أهمية المدينة في نظرهم ، فكان أول ما عمله السلطان الأشرف شعبان في هذا السبيل أن حول ولاية الاسكندرية إلى نيابة يقوم بشؤونها نائب للسلطنة ، ينفرد بحكمها ، ويكرس جهوده لتحسينها ، والإشراف على الدفاع عنها ، وأصبح هذا النائب يختار من بين الأمراء المقدمين ، بعد أن كان يتولاها وال من أكابر أمراء الطبلخانة وهكذا أصبحت الإسكندرية وظواهرها إقليماً مستقلاً يحكمه نائب للسلطنة له من السلطات ما يماثل نواب السلطنة في طرابلس الشام وحماة وصفد ، ويعتبر في نفس الوقت صورة مصغرة من السلطان ، يقوم مقامه في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته . وفي نيابة الاسكندرية يقول القلقشندي : « وهي نيابة جليلة ، تضاهي نيابة طرابلس وحماة وصفد من المملكة الشامية الآتي ذكرها ، وبها كرسي سلطنة وتمدجاة سلطانية توضع على الكرسي ، ونائبها من الأمراء المقدمين يركب في المواكب بالشبابية السلطانية ومعه أجناد الحلقة المرتبون بها ، ويخرج في موكبهِ إلى ظاهر الإسكندرية خارج باب البحر ، ويجتمع إليه

الأمراء المسيرون بها هناك ، ثم يعود وهم معه إلى دار النيابة ،
ويعد السباط السلطاني ويأكل عليه الأمراء والأجناد ، ويخضره القضاة ،
وتقرأ القصص على عادة النيابات ثم ينصرفون « (١) . وفي موضع آخر يعدد
ولاة الأمور في النيابة فيقول : « وهي نيابة جلييلة نائبا من الأمراء المقدمين ،
يضاهي في الرتبة نيابة طرابلس وما في معناها أو يزار بها ، وبها حاجب أمير
عشرة ، وحاجب جندي ووال للمدينة وأجناد حلاقة عدتهم مائتا نفر يعبر
عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضي قضاة مالكي وقاضي حنفي مستحدث ،
وربما كان بها قاض شافعي ، والمالكي أكبر الكل بها ، وهو المتحدث في
أموال الأيتام والأوقاف ، على أنه ربما ولي قضاء قضائها في الزمن الماضي
شافعي . وبها موقع يعبر عنه في البلد بكتاب السر ، وناظر متحدث في الأموال
الديوانية ومعه مستوف ، وتحت يده كتاب وشهود ، وبها المحتسب ، وليس
بها قضاة عسكري ولا مفتو دار عدل ، ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت
المال بالقاهرة . وتركز بها أمراء المقدمين والطبايعانات في غير الزمن الذي
يتمتع سير المراكب الحربية في البحر بشدة الريح منها ، ووال للتركيز يسمى
الحاجب ... » . ثم يصف موكب نائب الإسكندرية بشيء من التفصيل
فيقول : « وعادة الخدمة السلطانية بها في أيام المراكب أن يركب نائب السلطنة
من دار النيابة وفي خدمته مماليكه وأجناد المائتين المتقدم ذكرهم ، ويخرج من
دار النيابة عند طلوع الشمس ، ويسير في موكبه والشبابة السلطانية بين يديه
حتى يخرج من باب البحر ، ويخرج الأمراء المركزون على حديثهم أيضا ويجمعون

(١) القلشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٢

فى الموكب ، ويسىرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون . ويتوجه النائب إلى دار النيابة فى مماليكه وأجناد المائتين ، وقد فارقه الأمراء المركزون وتوجه كل منهم إلى منزله ، فاذا صار إلى دار النيابة ، فان كان فى ذلك الموكب سباط وضع الكرسي فى صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف تمجاده (١) سلطانية ، ومد السباط تحته ، وأكل ممالك النائب وأجناد المائتين ، وجلس النائب بجنبه من الإيوان ، والشباك مطل على ميناء البلد ، ويجلس القاضى المالكى عن يمينه والقاضى الحنفى عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه (٢) . وروءوس البلد على قدر منازلهم ، وترفع التمصص (٣) فيقروءها الموقع على النائب فينصلها بحضرة التضاة ، ثم ينصرف الموكب « (٤) وكان أول من تولى نيابة السلطنة بالإسكندرية منذ أن تحولت إلى نيابة ، الأمير بكتمر المشهور بالشريفى (٥) الذى أنعم عليه السلطان بإمرة مائة وتقدمة

(١) النسيجة منجور بقوس يشبه السيف .

(٢) هو كاتب السر ، وكان يشرف على كتاب الدواوين الذين يسبغون بأرائه وشورته ، وسمى كذلك لأنه كان يكتب سر السلطان ، وكان يلقب أيضاً بصاحب ديوان الانشاء ، وناظر الانشاء الشريف .

(٣) الشكايات .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) هو الأمير بكتمر بن عبد الله المؤسسى أسير آخور الأشرف شعبان أو الأمير آخور الكبير بالديار المصرية ، وكان من أجل الأمراء فضلاً وسعة ودينا وعفة عن الأسوال وتولى عدة وظائف ، وتنقل فى الولايات مثل نيابة حلب والإسكندرية ، ثم استقر أسير آخور إلى أن توفى فى المحرم سنة ٧٧١ هـ وهو صاحب المصلى والسبيل المعروف بسبيل المؤسسى بميدان الرميطة بالقاهرة بأدنى قلعة الجبل = (٢٣)

ألف (١) ، بعد الواقعة . ومنذ ذلك الحين عظم قدر نوابها ، وحارب نائبها يسدي ملك الأمراء (٢) .

ب — سياسة الضغط على مصر لعقد الصلح مع قبرص :

أحدثت واقعة القبارصة بالإسكندرية اضطراباً شديداً في ميزان التجارة البحرية في حوض البحر المتوسط ، فقد خاف البنادقة والكتيلان وغيرهم من الشعوب التجارية أن تؤثر هذه الواقعة على مصالحهم الاقتصادية مع مصر ، وكانت قد وصلت إلى الإسكندرية عقب الواقعة قرقورتان بهما متاجر كثيرة للكتيلان ، ولكن التجار كانوا يخشون من غضب أهالي المدينة ، فرفضوا أن ينزلوا بضائعهم من القرقورتين إذا لم يقدم لهم المسلمون رهائن منهم يضمنون بهم ألا يمسهم أحد بسوء . وظلت السفينتان راسيتين بميناء الإسكندرية إلى أن قدم إلى ميناء الإسكندرية رسل صاحب الكتيلان في غراب ، وطلبوا هم الآخرون أن يقدم أولو الأمر في الشغل رهائن من المسلمين حتى يضمنوا بذلك أداء رسالتهم والعودة سالمين . فامتنع المسلمون من ذلك ، وأصر الكتيلان على عدم النزول ما لم يضمنوا لأنفسهم الأمان عن طريق الرهائن . وفي هذه الآونة قدمت قطائع البنادقة تحمل رسلاً من البندقية ، مهمتهم تجديد الصلح وفتح كنيسة القيسامة ، وطلبوا هم أيضاً برهائن ، فأرسل الأمير

= (راجع ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ١١٢ — ابن حجر ، الدرالكاسنة ، ج ٢ ص ٢١) .

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٣٩ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ،

ص ٣٠

(٢) النجوم ، ج ١١ ص ٢٠

بكتدر الشريفة نائب الساطنة بالشعر إلى والى دمنهور يطلب منه أن يبعث إليه جماعة من سجنائه ممن حكم عليهم بالإعدام ، فأرسل إليه نحو عشرة منهم ، فلما وصلوا في حضرة النائب ، أمر بأن يتنكر أحدهم في صفة جندي ، وآخر في صفة قاضي ، وثالث في هيئة شاهد ، ورابع في زى تاجر ، وخامس في مرتبة كاتب ، وصنف باقيهم في صفات أخرى ، وألبس كلا منهم ما اقتضاه لبسه . ثم أرسلهم إلى مراكب البنادقة وشيع وراءهم نساء وصبياناً يصيحون ويهتفون كأنهم أولادهم . فاستوثق البنادقة من الرهائن ، ونزلوا من مراكبهم ، وحملوا إلى قلعة الجبل ، فأحسن الأتابك يلبيغا الخاصكى استقبالهم ، وأعطوه هداياهم ، فوزعها على من كان بحضرته بعد أن استبقى طستا وإبريقاً من الذهب ، وصندوقاً ، وعوضهم عن هداياهم بهداياه ، ثم طالع رسالتهم وكانت تتضمن ما معناه أنهم ما زالوا في طاعة الساطنة « وأنهم مساعده على ممالك قبرص حتى ترد الأسرى التي أخذت من الإسكندرية ويعرض المال ، وسألوا تجديد الصلح ، وأن يمكن تجارهم من قدم الشجر ، وأن يفتح كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت قد غلقت بعد واقعة الإسكندرية ، فأجابهم بأنه لا بد من غزو قبرص وتخريبها » (١) . وهكذا رفض يلبيغا مطالبهم ، وأصر على أن يبدأ ملك قبرص بطلب الصلح وأن يرد إليه أسرى الإسكندرية قبل كل شيء ، كشرط أساسى للتفاوض فى الصلح . وعاد وفد البنادقة إلى قبرص ، وانضموا مع الملك القبرصى -- وكان يتأهب لغزو بيروت -- على أن يدفعوا له ما أنفقته على تلك الحملة فى مقابل ألا يقوم بانفاذها ، وأن يسعى على عقد الصلح مع سلطان مصر . وعاد الوفد من جديد

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٧ ص ٥١ (مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية)

يحمل رد ملك قبرص ، ونزلوا ثغر الإسكندرية دون أن يطالبوا في هذه المرة برهائن ، وشقوا المدينة « وبين أيديهم طبولهم تدق ، وأبواقهم تصرخ ، ومزاميرهم تزمز ، وأعلامهم منشورة ، وقلوبهم مسرورة » (١).

وكان تجار الكتيلان والوفد الكتيلاني ما زالوا مقيمين في سفنهم بميناء الإسكندرية ، غير مطمئنين إلى أنفسهم عند النزول ، فلما شاهدوا رسل البنادقة يدخلون الإسكندرية بدون رهائن تجرأوا على النزول من سفنهم ، فأطلقت البطائق إلى السلطان بنزول رسل صاحب الكتيلان معهم هداياهم التي بعثها ملكهم إلى السلطان ، فأتى المرسوم بحملهم إلى القاهرة ، فحضروا بين يدي الأمير الأتابكي يلبيغا ، وذكروا ما جاعوا فيه من الطاعة للسلطان ، والسعى للصالح وزعموا أنهم لم يظاهروا صاحب قبرص ولا اشتركوا في الواقعة ، فأكرمهم الأمير الأتابكي واحتفى بهم . ثم خاطب يلبيغا رسل البنادقة ورسل الكتيلان ، فقال موجهها حديثه للبنادقة : « إن مولانا السلطان قصد إرسال رساله معكم إلى صاحب البندقية وصاحب جنوة ، ثم تطوفوا بهم أراضى ملوكهم بهدايا السلطان لهم . وبالصلح معهم ، وتكون متاجرهم تأتي إلى ساحل مصر والشام ، ومن قصد منكم زيارة كنيسة قمامة فليأت بأمان على نفسه وماله ، بشرط أن لا تظاهروا القبرسى ولا تعينوه أنتم ولا هم ، فان أنتم ظاهرتموه فليس بيننا وبينكم صلح ، فاتفق الأمر معهم على ذلك ، ورضوا به ، فأرسل السلطان الملك الأشرف شعبان معهم رسوله صاحبهم معه جنده وخدمه بعد أن تركوا منهم رهائن بالقاهرة من البنادقة والخنوية والكتيلان ، وكان رسول السلطان يقال له الأمير سيف الدين طغية بن

(١) النويرى ، اللام ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ب .

العرضى ... فسافروا في الثامن والعشرين من صفر سنة ٧٦٨ هـ (١) .

ولم يكن السلطان المملوكى في حقيقة الأمر راغباً في عقد الصلح مع ملك قبرص ، فلم يكن قد نسى بعد ما اجترمه هذا الملك وحشوده في الإسكندرية ، بل كان الأشرف شعبان يتحرق لطلب الثأر منه على هذه الغارة ، فاذا كان قد قبل مبدأ الصلح معه فانه في الواقع كان يكسب الوقت لبناء أسطول قوى لغزو قبرص بقصد تأديب ملكها . ولذلك فان يابغا الخاصكى أمر عقب الوقعة القبرصية بعمارة المراكب الحربية والاجتهاد في إعدادها ، كما أمر بتجهيز البحارة والنفقة للسفر مع المراكب التي تنتجها دار الصناعة بمصر ، ويذكر المقرئى أنه اهتم « بعمل الشوانى البحرية لغزو الفرنج ، فجمع من الأخشاب والحديد والآلات ما يجل وصفه ، وشرع النجارون في عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى (وتقع بين الروضة وبولاق) ، وتولى عملها الوزير فخر الدين بن ماجدين فقام في ذلك أتم قيام ، وبذل همه ، واستخرج وسعه ، وتصدى له ليلاً ونهاراً ، واستقر شاد العمل الأمير علاء الدين يابغا العلأى أستاذار الأمير يابغا ناظر العمل بهاء الدين بن المفسر ، فقام العمل مائة شينى ما بين غراب وطريدة برسم حمل الخيل ، وكان أمراً سهلاً ، ونودى بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفقة ومن يريد الجهاد في سبيل الله إلى بيت الأمير يابغا الأتابك للعرض ، وأخذ النفقة للسفر في المراكب ، فاجتمع عادة من المغاربة رجال البحر ، وكتبت أسماؤهم ، وقررت لهم المعاليم . وأقيست لهم نقباء ، وقاموا في مساعدة صناع المراكب ، وكتب إلى طرابلس وغيرها من بلاد الساحل بإنشاء مراكب حربية ، وجمع رجالها ،

(١) النويرى السكندرى ، ص ٢٤١ أ ، ٢٤١ ب .

وكان عملاً جليلاً» (١) . وهكذا كملت المراكب التي أمر يلبغا بصنعها في مصر في عام واحد، وكان عددها مائة مركب أشجعها بالرجال والأسلحة، وأمر الغزاة أن يلبسوا الزرد ومصفحات الحديد بالبر فلبسوها ، وتسليحوا بأسلحتهم ، وركبوا خيولهم . ثم دعا رسل صاحب الكتيلان في ربيع أول سنة ٧٦٨ لمشاهدة العرض العسكري للجيش البري والبحري (٢) . وكان يابغا قد أصدر أمره للأمير ببيد الخوارزمي في الشام بعمارة الشامسـوـاني والحملات في دار صناعة بيروت ، كما أمر جميع النجارين في الشام بقطع أخشاب شجر الصنوبر والقرو وغيرها من جبل شغلان الواقع بالقرب من أنطاكية ، ونشرها لصناعة السفن في مصر (٣) . وقد امتثل ببيد الخوارزمي لأمر يلبغا وسخر في صناعة السفن ببيروت عدداً كبيراً من الصناع ، في حين أمر العسكر بمراقبة الساحل خوفاً من قدوم صاحب قبرص على حين غفلة ، فيدمر جيشه ما تم إنشاؤه . ولكن مهمة هذا الأسطول الشامي المصري لم تتحقق ، إذ اغتيل يلبغا الخاصكي في ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٦٨ هـ بيد بعض مماليكه (٤) ، وعندئذ توقف العمل في إنشاء بقية السفن الشامية (٥) .

(١) السلوك ، ج ٧ ص ٤٩

(٢) النويري السكندري ، ص ١٣٧ ب ، ١٣٨ أ — النجوم الزاهرة ، ج ١١

ص ٣٥

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٠

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٤٠

(٥) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء الباحثين من بني الغرب ،

تحقيق الأب لويس نسيخو اليسوعي ، بيروت ١٨٩٨ ، ص ٦٢ ، ٥٣ ، ٢١٣

ثم قدم إلى ميناء الإسكندرية بعد سفر رسل السلطان إلى صاحب البندقية في صفر سنة ٧٦٨ رسل ملك قبرص في غراب ، وهم ثلاث سفراء كتيلان : حنا دالفونسو ، وكان يهودياً و تنصر . وجورج ستيكا ، وبول دى بيلونيا ، حملوا هدايا من ملك قبرص إلى السلطان ، فقابلهم السلطان شعبان وطلب منهم أن يرجعوا أسرى المسلمين (١) ، فوعده به بذلك ثم رحلوا . ولم يكده يمضى شهر على ذلك حتى قدم رسول من ملك قبرص في غراب ، وكان رسل ملك الكتيلان ما زالوا مقيمين بالقاهرة ، فحمل رسول بطرس القبرصى إلى القاهرة ، ومثل أمام يلبغا الخاصكى ، فعنقه بسبب عدم وفاء الرسل السابقين بوعدهم في إرسال أسرى المسلمين ، وعلم منه أن صاحب قبرص موجود في غراب بالبحر أمام الإسكندرية ، فجهز يلبغا ثلاثة أغربة من السفن التي عمرها في النيل مشحونة بالرجال والعدد ، بالإضافة إلى خمسة أغربة أخرى كانت مشحونة في الإسكندرية بالرجال والسلاح بقصد تسيرها للقبض على بطرس . فاضطر رسل الكتيلان إلى التوسط عند ملك قبرص بقصد إرجاع أسارى المسلمين ، فخرجوا ومعهم رسول السلطان وهو ناصر الدين محمد قراجا من جهة دمياط (٢) . وقد نجح رسل الكتيلان عند ملك قبرص في إطلاق سراح أسرى الإسكندرية .

وتسجل عودة الأسرى نهاية المرحلة الأولى من المفاوضات ، وتبدأ المرحلة الثانية بعد ذلك ، وهي مرحلة استغرقت نحو أربعة سنوات كانت تتخللها بين الحين والحين غارات قبرصية على ميناء طرابلس الشام وميناء

(١) Makhairas P. 163

(٢) النويرى السكندرى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ب .

الإسكندرية وبلدة الصرند وميناء صور وغيرها من موانئ الشام .
بقصد الضغط على السلطان المملوكي وحمله على قبول الداج مع
القبارصة (١) . ولكن السلطان لم يستطع أن يغفر سريعاً للقبارصة جرأتهم
على مهاجمة الإسكندرية وسواحل الشام ، ولذلك كان يسعى للانتقام منهم .
ولم يكن قد قبل مبدأ المفاوضات معهم إلا تظاهراً ، وإنما كان يعمل على
التسويق والمماطلة في عقد الصلح حتى يتم خلال ذلك إنشاء الأسطول الذي
كان يلبيها الخاصكى قد أمر بإنشائه في القاهرة وبירות . فلما أوفى ملك قبرص
بوعده في إرسال الأسرى ، تظاهر السلطان بالغضب بحجة أن ملك قبرص
لم يهتم بشأنه ، إذ أرسل إليه رسلاً أقل أهمية من رساله السابقين (٢) .
لم يجد بطرس بداً من تشديد الضغط على مصر بمهاجمة سواحل الشام من جديد .
ففي أوائل المحرم سنة ٧٦٨ هـ (نوفمبر ١٣٦٦ م) جهز بطرس أسطولاً ضخماً
تألف من ١٦ سفينة ما بين شوانى وبطسات للإغارة على ساحل الشام ، ولكن
عاصفة عاتية فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض ، فلم يصل
منه إلى طرابلس سوى ١٥ سفينة بقيادة فلوريمونت دى لسبار ، أطلق
رجالها يد النهب في المدينة ، ثم عادوا إلى قبرص (٣) .

ويبدو أن تلك الحملة ، رغم فشلها ، ألانت بعض الشيء من
تصميم السلطان على رفض الصلح مع القبارصة ، فوافق السلطان على بدء
المفاوضات ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك بحجة عدم رضائه على بعض

(١) Atiya, P. 372

(٢) Makhairas, P. 165

(٣) Atiya, P. 373

شروط الصالح (١). . عادت سفارة ملك قبرس التي كان يرأسها جاك دي بورس التركبولى إلى الماغوصة (بميرص) بدون نتيجة . وهكذا أخفقت محاولة بطرس إبرام صالح مع السلطان المملوكى . وعندئذ عتد بطرس العزم على ممارسة سياسة الضغط من جديد . ويذكر النويرى . أنه « لما كان فى أواخر سنة ٧٦٨ هـ أشاعت الناس أن القبرصى جمع جمعاً كثيراً من النصارى قاصداً الاسكندرية ، فارتقبت له المسلمون ، وتهيأت له الترك المجردة بها ، وأبرزوا أسلحتهم التي بها يقاتلونه ، وهى من السيوف الهندية ، والرماح الخفية ، والدرق اللطيفة ، والدبابيس اللتية ، والأطبار المردية ، والقسي الخفية ، والأعلام المشهورة مع ما هيأوا له من النفط والمدافع وأكر الرصاص التي ترمى عليه بالمقالع ، مع المجانيق الغضبانة ، والحجارة الصوانة ، والخيول المضمرة ، والفرسان المغمرة ، والعساكر المسردة التي صارت للقائه كالنار الموقودة » (٢) .

ولكن بدلا من أن يوجه القبرصى غارته على الإسكندرية تحول إلى طرابلس الشام ، فوصلها فى أول عام سنة ٧٦٩ هـ ، واشترك فى تلك الغزوة مقاتلون من البنادقة والجنوية والقبارصة والخرابطة (أهل كريت) والروادسة والفرنسيين والهنكر (الهنغارين) بلغ عددهم ١٦ ألف مقاتل ، حملتهم مائة وثلاثون سفينة ما بين شينى وقرقورة وغراب وطريدة وشختورة ، منهم ألف فارس ، والبقية رجاله ، فقدم البنادقة فى ثلاثين غرابا ، والجنوية فى عشرين ، والروادسة فى عشرة ، والأغراب فى خمسة

(١) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٧٣

(٢) النويرى السكندرى ، ص ١١٥ أ (مخطوطة الهند)

عشرة ، والبقية من قبرص (١) ، واشترك بطرس بنفسه هو وصاحب رودس في تلك الغزوة . ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الفرنج بسبب كثرة طروق القبارصة لمدينتهم ، وعييتهم بسواحل الشام ، فتصدى لهم جماعة من أهل طرابلس ومن بقي من عسكرها ، ووقعت بداخل المدينة وقائع استشهد فيها من المسلمين نحو الأربعين ، بينما قتل من الفرنج نحو الألف حسب رواية المقرئى وأبى المحاسن (٢) . وقيل قتل من المسلمين واحد وعشرون شخصاً حسب رواية النويرى السكندرى ، وقيل أربعة أنفس ، بينما قتل من الفرنج ثمانمائة (٣) . ثم انسحب القبارصة منهزمين إلى سفنهم (٤) وحاولوا تعويض خسارتهم في طرابلس بغزو بعض مدن الساحل السورى ، فرسوا بجبله بغية غزوها ، ولكن ريحاً عاصفاً فرق سفنهم في البحر ، فاتجهوا إلى اللاذقية ، فاستعصت عليهم لمناعة التحصينات وهياج البحر ، وأخيراً هاجم بطرس مدينة بانياس وأحرقها ، ثم أغار على بلدة إياس (٥) . ورد المسلمون على تلك الغزوة ، فقد خرج ابراهيم التازى رئيس دار الصناعة بالإسكندرية من ميناء الإسكندرية فى غرابين ، وبصحبه خمسمائة قائد مسلحين فى ٢٩ رجب

(١) النويرى السكندرى ، اللام ، مخطوطة رقم ٤١٩٣ بدار الكتب المصرية ص ٧٠ (نسخة محمود حمدي منقولة عن النسخة الأصلية برقم ١٤٤٩) — السلوك ج ٧ ص ٦٠ — تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوطة رقم ٨٥٥٤ ح بدار الكتب ص ٢٤١ .

(٢) السلوك ، ج ٧ ص ٦٠ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) النويرى ، اللام (نسخة دار الكتب) ص ٦٨ .

(٤) Makhairas P. 193

(٥) طرابلس الشام ، ص ٣٥٠ والملحق ص ٤٧١

سنة ٧٦٩ هـ إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر ، فغنم زورقا كبيراً بقلعين وأرسلها مع عدد من رجاله إلى الإسكندرية ، فوصل الزورق في ٩ شعبان (١) . ثم عاد ابراهيم التازي من غزوته ومعه عدد من أسرى الفرنج في ٢٤ شعبان سنة ٧٦٩ هـ ، بغرابيه موسوقين بالغنائم بعد ٢٣ يوماً ، فارتجت الإسكندرية لقدمه وماجت بأهلها ساعة وصوله ، فخرج أهل الإسكندرية إلى موضع منارها ، واصطف الترك المجردة لحراسة الإسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين إلى الغرابين القادمين ، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان . ودخل الرئيس ابراهيم التازي ثغر الإسكندرية ، وسار من خلفه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ، وجهه لذنبه ، وخلفه يسير ٣٥ أسيراً حفاة الأقدام ، قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب (٢) .

واستمر التوتر في العلاقات بين مصر وقبرص قائماً إلى أن لقي بطرس دى لوزنيان مصرعه على أيدي جماعة من النبلاء في ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) ، ولم يؤثر مصرعه في تخفيف حدة التوتر القائم ، فقد واصل القبارصة غاراتهم على سواحل مصر والشام في بداية عهد خلفه بطرس الثاني (١٣٦٩ — ١٣٨٢) .

ج — غزوة القبارصة للإسكندرية في سنة ٧٧٠ هـ :

أغار القبارصة في سنة ٧٦٩ هـ على بلدة الصر فند بساحل الشام ولكنهم لم يخرجوا من هذه الغزوة إلا بعدد من الأسرى عدتهم ١٣ أسيراً ، واتجهوا بسفنهم إلى مياه الإسكندرية للتلصص في بحرهما في ١٢ شعبان سنة ٧٦٩ هـ ،

(١) النويري ، الامام ، مخطوطه دار الكتب ، ص ٩٨ — ٩٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠١ ب

فظفروا هناك بزورق للمغاربة فداكتمل وسبقه كان راسياً بأقبحى الميناء ،
مجهزاً للإقلاع إلى طرابلس الغرب ، يحمل بالآ يقدر ثمنها ببضعة عشر ألف
دينار ، فقتلوا من فيه من المغاربة ومن كان معهم من رماة الإسكندرية ، من
بينهم ابن مبعلا أحد رؤساء دار صناعة الإسكندرية (١) . وفى العام الأول من
حكم بطرس الثانى أغار القبارصة فى أربع بطاريات بقيادة ... ابن دمرف
القبرصى ، عم بطرس الثانى والوصى عليه ، على سواحل صيدا و البترون الواقعة
جنوبى طرابلس ، كما أغاروا على أنظرطوس واللاذقية (٢) . ولم يكدهم مضى
شهر واحد على هذه الغارة حتى هاجم القبارصة مدينة الإسكندرية للمرة
الثانية ، ويذكر النويرى أنه « فى يوم الأربعاء سادس ذى الحجة من السنة
المذكورة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م) ورد إلى مينة الإسكندرية الشرقية ثلاثة
أغربة كبيرة المقادير والريادة كبيرة وساورتين ، ذكر بعض التركمان
الذين أتوا من بر التركية تجاراً إلى الإسكندرية أن سنجوان دمرف القبرصى
أتى بهم ، فيهم ألف عالج ، وهذا سنجوان دمرف المذكور هو ابن ديوك
صاحب قبرس الذى رزقه من امرأة بوطا التى كانت عماء ديوك يزانيها قبل
أن يرزق من زوجته أولاده زبير الذى ظفر بالإسكندرية والبرنز وسحاكات
..... فكان سنجوان دمرف المذكور ولد زنا ... فلما أتى سنجوان دمرف ولد
الزنا بغربانه وطريدته والساورتين ، نزل يستقوا بها مينة الإسكندرية الشرقية ،
فلم يأت منها إلى الساحل خبر ، ونزل جماعة منهم ساحل المنار ، فسار إليهم
على سيالة المنار بهاء الدين أصلان الحاجب بأجناده ، فلما رأتهم الفرنج الذين

(١) نفس المصدر ، ص ٩٩ - ١٠٠ ب

(٢) Atiya, P. 374

بساحل المنار قاصدينهم رموا عليهم بالسهم . فرمى الحاجب هو وجنده عليهم أيضاً بالسهم ، أذهلوا عتولهم بها بتواتر الرمي ، فتبادروا هرباً في قواربهم إلى غربانهم حصواها . فلما كان وقت العصر أرسلوا قارباً إلى القرب من الساحل فيه جماعة من الفرنج قالوا لمن بالساحل المعدن لحربهم ، إن معنا كتباً للسلطان نعطيها لكم ترسلونها له ونريد بجوابها ، فقالت المسلمون هاتوها ، فقالوا : في غداة غد نعطيها لكم . فقالت المسلمون لهم : كيف يكون لكم كتب للسلطان ورميتم على المسلمين بالسهم ، فقالوا خفنا منكم عند اتيانكم إلينا ، توهمنا أنكم جئتم تأسروننا . فقالت المسلمون : وما تريدون الآن ؟ فقالوا : نريد الأكل والشرب ، وفي غد ندفع إليكم الكتب . فقالت المسلمون : إذا دفعتم إلينا الكتب أطعمناكم وسقيناكم بعد أن تعطونا بكل قرية ماء رجلا منكم يكون عندنا تصديقاً لمقاتلتكم ونرسل إليكم في كل يوم الضيافة إلى أن يأتي جواب كتبكم ، فرجعوا إلى غربانهم وأخبروا بذلك أصحابهم . فباتوا ، وباتت المسلمون على الساحل مستيقظين ولحربهم متأهبين « (١) . ويواصل النويري سرد قصة هؤلاء القبارصة ، فيذكر أن المسلمين انتظروهم يقبلون عليهم بالكتب حتى سحر يوم ٧ ذي الحجة ، فلم يفعلوا ، ثم رأوهم يرفعون مراسيهم ويقامعون من الميناء الشرقية إلى صدر البحر ، وما لبثوا أن انحرفوا عن اتجاههم ، وانعطفوا قاصدين بحر السلاسة وهو الميناء الغربية ، وكان بها قرقورة وغراب وساوره للمسلمين ، وعندئذ استعد المسلمون لقتالهم . فجهزوا المجازيق بالأحجار وأعدوا المدافع للرمي بها . وصعد القياد ورماة الجرخ إلى القرقورة ، في حين صعد

(١) النويري ، ص ٢٧٤ ب ٢٨٥ ب (منطوطة الهند) .

الرايس ابراهيم التازى رئيس دار صناعة الاسكندرية إلى الغراب هو ورجاله ،
بينما صعد الرماة الجرخة أيضاً بقسيهم إلى الساوره ، ثم تعمرو السور بالرماة ،
ووقف الرماة المجردة والأجناد والتركمان المركزة على الساحل وفى المطرق
الغربى المتقدم لسور الاسكندرية من جهة الباب الأخضر . ثم انقضت العربية ،
واصطف الرماة المتطوعة بطوارقها على ضفة البحر يرمون من جوانبها
بالسهام . ثم بدأ القبارصة بالعدوان ، وقذفوا المسلمين بسهامهم بقصد
تفجيرهم ، حتى يتيسر لهم جمر السفن الإسلامية بالكلايب ، فثبت المسلمون
لهم ورموهم بالمثل ، فارتد القبارصة لكثرة ما أصابهم من سهام المسلمين .
فأقاموا نحو ساعتين ثم جندفوا من جديد نحو الساحل لمعاودة القتال ، فرماهم
الترك بالقسى العربية والقياد والرماة المتطوعة بالقسى الجرخية ، فتقهقروا
للمرة الثانية .

كل ذلك كان يحدث وأهل الإسكندرية يشاهدون القتال الدائر من
شراريف السور وهم عزل لا يحملون معهم أسلحة ، بينما جلس رماة السور
خلف الكوى والمنافذ بقسيهم الجرخ . فرمى القبارصة أهل الإسكندرية بمدفع
تعدادهم حجرة ، ووقع بالجزيرة ، فلم يصب أحداً من المسلمين . ورد
المسلمون عليهم بالمدافع ، فأخطأتهم أيضاً (١) . ولما أعييت القبارصة الحيلة
ربطوا سفنهم بعضها فى بعض ، وحاولوا جمر غربان المسلمين ، وعندئذ
أدرك إبراهيم التازى الحيلة ، وربط غربان المسلمين الثلاثة المربوطة بعضهم
فى بعض بالسرياقات فى مراسى الحديد الموثوقة شعبها على الأرصفة ،
ورسم خطة بمقتضاها يقفز المسلمون ، وعددهم ٢٥٠ رجلاً ، عندما يرمى

(١) النويرى ، ص ٢٧٦ أ ، ٢٧٦ ب

القبارة الكلايب على غراب المسلمين . دفعة واحدة على غراب المقدمة
القبر صى ، ويقوم البعض بالقتال ، بينما يقطع البعض الآخر سرياقات غراب
الفرنجة المربوطة بغربانهم الثلاث ، فاذا انقطعت السرياقات يصبح فى إمكان
المسلمين أن يظفروا بالغراب القبر صى المتقدم .

ولكن القبارة فطنوا إلى خطة المسلمين ، فبدلاً من تكليب غراب
المسلمين ، اقتربوا من مراكب المسلمين وبدأوا يرمونهم بالسهم ، فرمى
المسلمون عليهم أيضاً ، فأخذ القبارة يشجعون وجوههم المتقابلة للبر بالدرك
تاركين ظهورهم للبحر ، وعندئذ اندفع عليهم رماة المسلمين من كوى
السور ، وتراشقت عليهم السهام من كوى السور ومن المطرق ، والأحجار
من شراريف السور ، وأحاط بهم البلاء من كل جهة ، ثم قذف المنجنيق
المقابل لهم على الساحل بحجر ضخم هشم مجاذيف غرابهم . فتوقفت المجاذيف ،
واحتوى القبارة تحت الطوارق ، ويصور النويرى هذا المشهد أروع تصوير
فيقول : « وصار كل عالج يأخذ طارقه المتقابلة تسبب له التستر عليه ، يرميها
على جسده ويرقد تحتها ، فيأتيه سهم الجرح من كوة السور يخرق الطارقة ،
ويركز فى الراقد تحتها ، فيتسمر الكلب معها . فصار كل من بالغراب يصرخ
من حرارة وقع الذباب الذى احتاط بهم من كل جانب ومكان ، فحينئذ
جرت الغربان الثلاثة لغراب المقدمة بتلك السرياقات بقوة جذف قيادهم لها ،
فما بعدوا عن رمى المسلمين لهم بالسهم إلا وأجسام الفرنج حطام ، فأقاموا
داخل البحر بحيث يراهم المسلمون ، فجاءوا الغربان بعضها إلى بعض
يداوون الجرحى ويرمون فى البحر القتلى » (١) .

(١) النويرى ، ص ٢٧٧ أ ، ٢٧٧ ب (منظومة الهند) .

وفي صباح ٨ ذى الحجة رفع القبارصة صواري غرابين ليقتلعا
بهما ، وجروا غرابين خاليين من الدوابية خلفهما ، ورجعوا من
حيث أتوا .

ولم يتوقف استعداد الاسكندرية لقتال القبارصة بعد . فعندما بلغ
الأشرف شعبان أن البرنز ، الذي قتل أخاه ربير بطرس واعتلى عرش
قبرص ، يتأهب بجيوشه لمواجهة عدوان ابن عمه بجنوة الذي عمر خمسة
وعشرين غراباً ، أرسل الأمراء من القاهرة إلى ثغرى الإسكندرية ودمياط
لحراستها خشية أن يكون في الأمر مكيدة مدبرة لغزو سواحل المسلمين ، فقدم
إلى الإسكندرية من الأمراء أسنبغا بن البوبكرى ، وقطايغا المنصورى ،
والأمير المعروف بسيدى ابن عم السلطان الملك الأشرف شعبان ، كما قدم إليها
أيضاً الأمير أروس البشتكى ، والأمير ابن تغزدمر ، والأمير شرف الدين بن
الأزكشى ، والأمير مبارك الطازى بأجنادهم ومماليكهم . ودخلوا الإسكندرية
في مستهل ذى القعدة سنة ٧٧٢ هـ ، وانضم عسكرهم إلى عساكر من كان
يقيم بها من الأمراء مثل ملك الأمراء صلاح الدين خليل بن العرام ، وتمرار
أمير حاجب ، وبكتمر العلائى أمير حاجب ، بمن معهم من الأجناد والمماليك .
بالإضافة إلى قياد الصناعة ورماة القاعات المتطوعة والعربان المركزة بظاهر
الاسكندرية ، وبدخلها ، والألوف المؤلفة من أهلها ، وترقب الجميع
وصول سفن القبارصة فلم تصل .

ثم انتهى الصراع بين مصر وقبرص بتغلب الجنوية على جزيرة قبرص في
سنة ٧٧٥ هـ ، وقد قام هؤلاء بنفى الملك بطرس الثانى والوصى ، نظير اعترافهما
بتغلب الجنوية على الجزيرة (١) .

(١) النويرى ، ص ١١٦ أ (مخطوطة الهند) .

(٤)

تحصين الإسكندرية وتعمير منشآتها العامة بعد الواقعة

كان لابد للسلطان الأشرف شعبان من العناية بشغل الإسكندرية ، وإعادة تعمير ما دمره القبارصة فيها من المنشآت ، وقد بالغ في ذلك حتى أنه خرج لزيارتها في سنة ٧٧٠ هـ ، وتفقد تحصيناتها ، وشاهد أسوارها وخندقها ، وزار دار الطراز ، وشاهد النساخين وهم ينسجون الثياب . ويورد النويرى السكندرى وصفاً تفصيلياً رائعاً لهذه الزيارة ، يتضمن كثيراً من المواضع التى يمكن أن تساعدنا على إعادة تصور ما كانت عليه طوبوغرافية الإسكندرية فى عصره ، على النحو الذى سنفصله فيما بعد :

وتنسب معظم أعمال الإصلاح والإنشاء فى الإسكندرية بعد واقعة القبارصة إلى نائبين من نواب السلطنة بالشغل السكندرى ، هما : سيف الدين الأكرز وصلاح الدين خليل بن عرام .

١ - سيف الدين الأكرز : كان أول ما قام به فى الإسكندرية من أعمال عقب توليه نيابة السلطنة بها الطواف على جوامعها ومساجدها وشوارعها ومعاهدها ، فأمر بعمارتها ، فعمرت ، كما عمر المارستان الصلاحى الذى كان قد أسسه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأمر بتوفير ما يحتاج إليه من الأشربة والأدوية وغير ذلك من آلات الكشف على المرضى والجراحات ، وجعل على رحبته بخارج بابه سلسلة مانعة للدواب تماثل السلسلة المقابلة لدهليز ضريح ومدرسة ومارستان قلاوون بالقاهرة ، وأمر حراس الأخطاط وأصحاب الأرباع أن يعلقوا على أبواب الحوانيت وقاعات القزازين والطواحين والأفران والحمامات والديار الكبار فوانيس توقد طوال الليل ، وبالإضافة



البرج الاسلامي بالشلالات



باب الزهري (جانب خلفي بن السور)

إلى ذلك أمر بصنع أبراج من الخشب ونصبها بأعلى أبواب الإسكندرية تكسى بجلود الجمال والأبقار حتى لا تؤثر فيها النار عندما يقذفها الأعداء في حالة الهجوم ، كما أمر بتعليق الصخور العنوانية المقنطرة الضخمة المثنية الأصابع والمرشوقة بنصل الحراب في أعلى أبواب الإسكندرية من جهة البحر ، فهاجت بسرياقات القنب في البكر ، وذلك استعداداً لقذفها بالمنجنقات في حالة الغزو . كذلك أمر بحصر عدد القلاع والأبراج والمرامى وشرفات السور ، وأن يرتب لكل رماة رام بالسهم وآخر بالحجارة ، وأن يسجل ذلك في سجلات يذكر فيها اسم كل رجل وحرفته الأساسية ومكان سكنه (١) .

وبالإضافة إلى تلك الأعمال الحليّة التي قام بها أو التي أمر بالقيام بها تحصينا للدفاع السكندري ، فقد أمر بإزالة تراب الخندق المردوم من جهة الأبواب البرية (القبليّة والباب الشرقي) لتظهر هذه الأبواب للقادمين إلى الثغر ، وأمر أن يبني الرماة كل ليلة جمعة بالقلاع يحرسونها بالنوبة ، وأن يجتمع العتالون والمرادانية والسوادنة والقبانية لحر المنجنق والحدافات لقذفها يوم الجمعة (٢) .

وفي أيام سيف الدين الأكزركب على الباب الأخضر أبوابه الجدد الثلاثة بعد أن كان قد سد بالحجر والجير عقيب الوقعة القبرصية (٣) .

٢ - صلاح الدين خليل بن عرام : تولى صلاح الدين خليل بن عرام الذي كان يتولى الثغر قبل وقعة القبارصة ، نيابة السلطنة بالإسكندرية بعدها خمس مرات ، وقد قام هذا الأمير بكثير من أعمال الإصلاح والتعمير في الإسكندرية ، فجدد المباني التي خربها القبارصة ، وعمل على تمكين وسائل

(١) النويري ص ٢٠٤ ب ، ٢٠٥ أ (مخطوطة الهند) .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠٧ ب .

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٥ ب .

الدفاع عن المدينة بحيث تستطيع أن تصمد أمام الأعداء إذا حاولوا غزوها مرة ثانية .

قدم الأمير ابن عرام إلى الإسكندرية على رأس جيش سيره يابغا الخاصكى عقب خروج القبارصة منها ، وقام قبل كل شيء بدفن القتلى من أهلها ، وحرق جثث الخيل والدواب التي قتلها القبارصة وتركت مطروحة في الطرقات المؤدية إلى الميناء ، ثم شرع في ترميم ما تخرّب من دور المدينة ومنشآتها ، ولكن لم يتح له أن يستكمل ما شرع فيه إذ خلع من منصبه وتولى منصب حجابة الحجاب بالشجر . غير أن أعماله المنسوبة إليه تندرج في ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى (سنة ٧٦٩ هـ) :

في هذه السنة رسم السلطان الملك الأشرف شعبان بهدم ما كان قد تجدد بناؤه بشبه جزيرة المنار من الربط والقصور بعد موقعة القبارصة خوفاً من أن ينزلها العدو فيتخذها حصناً له ومأوى يأوى إليه في الليل والنهار ، وسقاية له لكثرة صهاريجها الممتلئة بمياه الأمطار (١) .

وكان للإسكندرية قبل وقعة القبارصة خندق واحد يبدأ من ساحل بحر السلسلة (الميناء الغربية) والباب الأخضر ويمتد إلى قلعة ضرغام ، وكانت أمواج البحر تلطم السور عند قلعة ضرغام الواقعة قرب الطرف الشمالى الغربى من سور الإسكندرية على ساحل البحر ، ولذلك ترك هذا الموضع بغير خندق ، ثم انحسر البحر عن السور ، فظل هذا الموضع بدون خندق ، ونسى الولاة أمره ، وأهملوا إقامة خندق هناك ، إذ لم يكن في حسابهم أن يكون هذا الموضع نقطة ضعف في دفاع الإسكندرية . ولذلك السبب حرص الأمير

(١) النويرى ، ص ٧٩ أ (مخطوطة الهند) .

صلاح الدين بن عرام في نيابته الأولى لثغر الإسكندرية أن يعمر خندقاً غربى الإسكندرية ، وهو ما عرف باسم المطرق الغربى ، ويبدأ من قلعة الباب الأخضر وينتهى بالقلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخة . وأوصل هذا الخندق بالخندق القبلى المحيط بالإسكندرية من جهة البر ، فأصبح ذلك «خندقاً ومطرقاً ومكناً لدخول نجدة المسلمين منه في خفاء لإقامة حائطه الذى يلي البحر ، إلى أن يخرجوا منه على حين غفلة إلى الجزيرة وقت حرب الفرنج إن أتوا لذلك» (١) .

وفي هذه المرحلة أيضاً أقام ابن عرام أبواب البحر الأول والثانى عوضاً عن البابين اللذين أحرقهما الفرنج ، كما أقام بابى رشيد اللذين أحرقهما أهل الإسكندرية عند الوقعة كى يسهلوا لعسكر النجدة القادمين من القاهرة أن يدخلوا منه . كذلك أقام أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان ، وسد الباب الأخضر وباب الخوخة وباب الأقنية (٢) .

وأعتقد أنه أقام في هذا العـام أيضاً الخندق الشرقى (٣) بحذاء السور الذى توصل منه الفرنج إلى دخول الاسكندرية من جهة باب الديوان ، ولم يكن بهذا الموضع خندق من قبل ، فعمره في أسرع وقت ، بدليل أن

(١) النويرى ، ص ١٣٥ أ

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٥ ب ، ويقصد بباب الأقنية ، الباب المجاور لباب الديوان من جهة الغرب ، وسمى كذلك بسبب تفتحه على مجارى القنوات المتفرعة من خليج الاسكندرية .

(٣) يدرج النويرى السكندرى انشاء هذا الخندق في أعمال ابن عرام في سنة ٧٧٧ هـ (راجع الامام ، ص ١٣٥ أ) ولكنه عندما يذكر أن السلطان الأشرف شعبان عند زيارته للإسكندرية في سنة ٧٧٠ هـ شاهد هذا الخندق المتجدد =

السلطان الأشرف شعبان شاهد عند زيارته للاسكندرية في جمادى الأولى سنة ٧٧٠ المكان الذى صعد منه القبارصة السور» ، والخنديق الحديد الذى ابتداء الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم «(١) . وكان هذا الخندق الشرقى يحاذى دار الصناعة وديوان الخمس ومجارى الأقنية من داخل السور . وبعد أن أتم ابن عرام حفر الخندق المذكور أوصله بالخنديق الأصيل الذى كان يبدأ من ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر إلى قلعة ضرغام . وقد عرف هذا الخندق بالمطرق الشرقى (٢) . وكان من فوائد المطرقين بالإضافة إلى أنهما يعرفلان من تقدم العدو أنه يمكن عسكر مصر من دخول شبه جزيرة المنار عن طريقهما بدلا من تكاليف مشقة دخول المدينة من أبوابها القبلية .

المرحلة الثانية (سنة ٧٧١ هـ) :

اهتم الأمير صلاح الدين بن عرام في نيابته الثانية لشجر الاسكندرية بتحسين الميناء الغربية المعروفة ببحر السلسلة لحماية سفن المسلمين ، فعمل على تضيق فوهة الميناء عن طريق تغريق كتل ضخمة من الحجارة في مدخل الميناء ، وسد قسم كبير منه بهذه الحجارة حتى تشبه السياج الدائر على الميناء من جهة المدخل ، فلا تصله بالبحر الا فوهة ضيقة ، أقام بها أبنية محكمة ذات سلسلة ضخمة قوية ، تغلق بقفل ثقيل ، وجعل بموضع القفل كوى

= يستنتج أن الخندق حفر قبل هذه السنة أى في فترة نيابته الأولى ، ولذلك نرجح أن الخندق أقيم في نفس الوقت مع الخندق الغربى ، وليس من المعقول أن يهمل ابن عرام الشاء هذا الخندق الشرقى مع علامه بأنه نقطة الضعف الوحيدة في سور الاسكندرية التى استغلها القبارصة ، فلا يقوم بحفره حتى سنة ٧٧٧ هـ .

(١) النويرى ، ص ١٤٢ أ (مخطوطة دار الكتب) .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٥ أ

ومنافذ لرمى السهام على من يهصد السلسلة من الفرنج . وقد تم الفراغ من هذه الأعمال في أوائل سنة ٧٧١ هـ .

وبالإضافة إلى تخصيص الميناء الغربية أمر صلاح الدين بن عرام في هذه المرحلة بتحصين باب السدرة وذلك بينان ضخمة شديد الارتفاع أشبه ما يكون بالبرج أو الطابية ، كما أمر بحفر خندق جديد في شبه جزيرة المنار ، يمتد عمودياً على الخندق العتيق ، وقد تم عمل هذا الخندق في مستهل رمضان سنة ٧٧١ هـ (١) .

المرحلة الثالثة (سنة ٧٧٧ هـ) :

وفي هذه المرحلة أمر الأمير ابن عرام بإنشاء دروب مغلقة قوية لحماية الدور بالاسكندرية من الأعداء ، ورتب خلف كل باب درب منها حارس ، وتم عمل الدروب في شهر شعبان ورمضان سنة ٧٧٧ هـ (٢) . وفي هذه السنة تم إنشاء مشط جديد ضخمة لباب الصناعة الغربية من جهة المطرق الغربي زنته عدة قناطير ، تخرج منه الرماة إلى الجزيرة وتدخل منه وقت الحرب في حماية رماة السور بأعلاه ، في الوقت الذي تكون فيه أبواب الاسكندرية مغلقة . وكان هذا المشط الحديدي يرخى عندما يتم دخول الخندق ، أما في حالة خروجهم فيرفع من أعلى السور عن طريق سرياقات تدور حول لواب الأتراس ذات الأضراس (٣) .

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٨ ب

(٢) نفس المصدر، ص ٢٧٠ ب

(٣) النويري ، ص ٢٠٨ ب ، ١٣٥ أ

ونسنتج من قيام ابن عرام فى المرحلة الأولى باقامة بابين لــــباب البحر ومن قيام سيف الدين الأكز بتركيب الأبواب الثلاثة الجدد للباب الأخضر بأن سور الاسكندرية الشمالى الممتد من باب البحر إلى الباب الأخضر كان مزدوجاً ، أى أنه كان يطوق الستارة الرئيسية سور أمامى ، فكان للسور الرئيسى بابان وللسور الأمامى باب واحد . ونعتقد أن هذا السور الأمامى أقيم إما فى عصر صلاح الدين يوسف بن أيوب عند زيارته المتتابعة بثغر الاسكندرية ، أو فى أيام الناصر محمد بن قلاوون على يد الأمير بيبرس الجاشنكير ، على النحو الذى أوضحناه من قبل .



قلعة قايتباي : صورة تمثل أحد الممرات
بداخل الجدار الخارجى للقلعة المطل على البحر

الفصل الحادى عشر

الإزدهار الأخير وبداية عصر الإضمحلال

١ — الاسكندرية منذ قيام دولة المماليك الشراكسة حتى بداية عصر الأشرف قايتباى .

(أ) فى عصر الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ — ٨٠١ هـ) وولده
الناصر زين الدين فرج (٨٠١ — ٨١٥ هـ) .

(ب) فى عصر السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ — ٨٢٤ هـ) والسلطان الأشرف
برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) .

١ — اعتداءات القبارصة والكتيلان على سواحل مصر والشام

٢ — فتح قبرص

٣ — تدهور الحياة الاقتصادية فى الاسكندرية .

٤ — إعادة حفر خليج الاسكندرية .

٢ — الاسكندرية فى عصر السلطان الملك الأشرف قايتباى (٨٧٢ — ٩٠١ هـ)

(أ) انتشار الطاعون

(ب) عيث الروادسة فى مياه الاسكندرية

(ج) زيارة الأشرف قايتباى للاسكندرية .

٣ — الاسكندرية فى عصر السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ)

(أ) اضمحلال الاسكندرية

(ب) زيارة السلطان الغورى الأولى للاسكندرية فى ذى القعدة سنة

٩٢٠ هـ .

(ج) زيارة السلطان الغورى الثانية للاسكندرية (فى رمضان ٩٢١ هـ)

٤ — الاسكندرية فى العصر العثمانى .

الفصل الحادى عشر

الإزدهار الأخير وبداية عصر الإضمحلال

(الاسكندرية فى عصر دولة المماليك الشراكسة)

(١)

الاسكندرية منذ قيام دولة المماليك الشراكسة حتى بداية عصر الأشرف قايتباى

(١) فى عصر الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) وولده الناصر

زين الدين فرج (٨٠١ - ٨١٥ هـ):

أدى التنافس التجارى بين البندقية وجنوة فى القرن الثامن الهجرى إلى احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجارى فى البحر المتوسط ، ولكن الجنوية لم يرضوا عن هذا الوضع ، فأخذوا يغيرون على سواحل الشام ومصر ويهاجمون السفن التجارية المتجهة إلى هذين البلدين ، وقد سبب ذلك كساداً فى تجارة مصر الخارجية ، وأثر فى تجارة الاسكندرية تأثيراً بالغاً . ويذكر المقرئى أن الفتنة التى قامت بين الجنوية والبنادقة فى سنة ٧٥٣ كان لها نتائج سيئة بالنسبة لمصر ، فقد « قل الواصل من بلاد الفرنج إلى الاسكندرية ، وعز وجود الحشب ، وغلا ، وتعذر وجود الرصاص والقصدير والزعفران » (١)

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٨٦٢

وضاعفت الاعتمادات القبرصية على سواحل مصر والشام ، وأعمال القرصنة البحرية التي كان يمارسها القبارصة ومن لاذ بهم من المغامرين وذوى الأطماع من هذه الأزمة . غير أن معاهدة الصلح التي أبرمت بين مصر وقبرص لم تضع حداً لذلك الاضطراب في التجارة البحرية ، فالحنوية لم يلبثوا أن استولوا على قبرص ، ومنذ ذلك الحين زاد التنافس بين الحنوية والبنادقة ، وبدأ الحنوية يغرون على سواحل الشام ومصر من قبرص التي أصبحت تشكل قاعدة النشاط ومركز الاعتمادات ، واشترك مع الحنوية في هذه الغارات بعض القراصنة الكتيلان والروادسة والقبارصة (١) .

وفي ربيع الآخر سنة ٧٦٩ هـ نزل جماعة من الحنوية إلى سيالة المنار وأسروا رجلين ، ورمى أحد الأغربة الحنوية بالنشاب على الجند الواقفين على الساحل ، وبادلهم الجند الرمي بالسهم ، ثم نهب الحنوية مركبا قادماً إلى الاسكندرية (٢) . واضطر السلطان بطبيعة الحال إلى القبض على جميع التجار الفرنج الموجودين بمصر وأودعهم السجن كرد فعل طبيعي لهذا الاعتداء . واستمرت اعتداءات الحنوية على سواحل طرابلس وصيدا وبيروت سنين طويلة ، ومع أنهم بادروا بمصالحة السلطان برقوق في سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) إلا أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى سياسة الاعتداء على سفن المسلمين في البحر . وذكر ابن الفرات أن جماعة من تجار المسلمين كانوا قادمين من بلاد الشام في سفن لهم ، وبصحبته أنحت الملك الظاهر برقوق وابنة ابن عمه إلى مصر ، فهاجمته جماعة من الفرنج في البحر ، واستولوا على مراكبهم ، وأسروا

(١) أحمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ، القاهرة ، ١٩٦١

ص ٩ — سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٢٦٨

(٢) النويري ، ص ٦٧ أ (مخطوطة دار الكتب)

من كان فيها من التجار والركاب ، فلما علم السلطان بذلك شق عليه ، وأمر جميع نواب السلطنة بالبلاد الساحلية بالقبض على جميع من لديهم من تجار الفرنج وغيرهم ، وقد نفذ نائب الاسكندرية ذلك الأمر ، ونبض على الفرنج الموجودين بالثغر ، ونخم على حواصلهم ، وتسلم أمتعتهم ومتعلقاتهم ، وكل ما كان لديهم (١) .

وظل أهل قبرص يفسدون في البحر ويقطعون الطرق على المراكب القادمة إلى ثغرى دمياط والاسكندرية ، ففي ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ وصل إلى الاسكندرية التاجر خواجا علي ، أخو خواجا عثمان وجميع من كان معه ، وكان قد أسرههم الفرنج ومن معهم في سفينة أثناء خروجهم إلى الاسكندرية . فعوق السلطان بفصائع التجار الجنوية ، ومنعهم من دخول بلاد المسلمين إلى أن يحضروا الأسرى وكل ما استولوا عليه من بضائعهم ، فأحضروها كاملة ، « وما نقص من مركبهم شيء يساوي الدرهم الفرد ولا الفلس الواحد » (٢) .

ولم تزودنا المصادر العربية بأخبار تشير إلى عناية السلطان برقوق بالاسكندرية ، ويبدو أن اشتغال السلطان بثورة يلبغا الناصري نائب حلب على السلطان ، في المحرم سنة ٧٩١ هـ وفتنة تمربغا الأفضلي الأشرفي المعروف بمنطاش نائب ملطية ، وزعيم الأشرفية ، ونجاحهما في عزل برقوق وإثباته بالكرك ، ثم عودة برقوق إلى العرش مرة ثانية مستغلا النزاع الذي نشب بين يلبغا ومنهال في نفس ذلك العام ، لم يكن برقوق من توجيه عنايته

(١) ابن الفرات ، ج ٩ ، قسم ١ ص ٣٣

(٢) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٨

بالشعر . ومع ذلك فقد أشار ابن الفرات إلى أنه قام بتجديد خزائن السلاح
بشعر الاسكندرية (١).

وعلى الرغم من اتسام عهد ابنه الناصر فرج بالفتن والقلاقل والغلاء
والوباء ، وغزو المغول لبلاده ، وغارات الفرنج على سواحله (٢) ، فقد ذكر
ابن اياس أنه زار الاسكندرية في ٧ شوال سنة ٨١٤ هـ (ودخلها في يوم
مشهود ، فأوكب بها موكباً حافلاً ، « وحملت القبة والطير على رأسه » ،
وقدم إليه بعض تجار المغاربة أثناء مروره في المحجة شكوى تتضمن تفسيراً لما
يتماسونه من ظلم القباض لهم ، فلما اطلع السلطان فرج على هذه الشكوى ،
أمر بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثه ، وقصر المكوس على العشر
أى أنه خفضها من الثلث إلى العشر ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء (٣) .
غير أن هذه المكوس لم تلبث أن أضيفت إليهم في عهد الأشرف برسباى الذى
احتكر تجارة التوابل وأضاف إلى ما كان يجبي من المكوس رسوماً جديدة .
(ب) فى عصر السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) والسلطان الأشرف

برسباى (٨٢٥ - ٨٤١) :

١ — اعتداءات القبارصة والكتيلان على سواحل مصر والشام :

نتج عن كثرة غارات القبارصة والكتيلان على الثغور المصرية والشامية
وتكرار هذه الغارات واشتدادها على مر السنين ، أن بدأ المماليك يردون

(١) ابن الفرات ، ص ٨٦

(٢) فى سنة ١٤٠٠ هـ أغار حاكم جنوة الفرنسى بالاشتراك مع جانوس ملك
قبرص وقراصنة الكتيلان على الاسكندرية والموانئ الشامية ، كما تابعوا تعبئتهم
وتجربتهم فى العام التالى (أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٢٢) .

(٣) ابن اياس ، ج ٤ ص ٤٢٦

عليهم بالانغارة على قبرص في عامي ٨١٣ - ٨١٤ هـ . ولما عاود القبارصة ومن
لاذ بهم من قراصنة الكتيلان الإغارة على الساحل الشامى في بداية سلطنة الملك
المؤيد شيخ المحمدي عزم السلطان على غزو الجزيرة ، ولكن جانوس دى
لوزنيان ملك قبرص بادر بعقد الصلح معه ، وتم ذلك في ١٤ نوفمبر سنة
١٤١٤ (٨١٧) هـ (١) . ولكن القبارصة والكتيلان عادوا إلى استئناف
عيثهم في العام التالى ، فاضطر المؤيد شيخ إلى القاء تبعة ذلك على عاتق تجار
الفرنج وقناصلهم في الاسكندرية ودمشق ، وخاصة على تجار الكتيلان
وقنصلهم بالاسكندرية ، فقبض عليهم وسجنهم بأحد أبراج القلعة ، كما تعرض
الحجاج الفرنج بالقدس لانتقام السلطات المملوكية . وعلى الرغم من هذه
الاجراءات الانتقامية العنيفة فلم تتوقف غارات القراصنة الكتيلان وأخذت
تشتد منذ سنة ١٤١٦ ، فانهز المؤيد شيخ هذه الفرصة واتخذ بعض الاجراءات
العنيفة تجاه تجار الكتيلان في الاسكندرية ودمشق ، فأمر بجلاء قنصل الكتيلان
بالاسكندرية ثم سجنه . وكان لهذا التصرف رد فعل قوى فى أرغون ، فقد
أمر الفونسو الخامس ملك أرغون بمهاجمة السواحل المصرية والشامية ، فأغار
القراصنة الكتيلان على نسطروه ، ويافا في ربيع الأول سنة ٨١٩ ، وأسروا
خمسين شخصا من المسلمين ، ثم هاجموا فى نفس الشهر ميناء الاسكندرية ،
واستولوا على إحدى سفن المغاربة ، ولم ينبج من ركبها سوى نفر قليل تمكنوا
من الوصول إلى الشاطئ سباحة . وفي ١٦ جمادى الثانى رست ثلاثة سفن لهم بميناء

(١) M.Mustafa Ziada, 'The Mamluk conquest of Cyprus, Bulletin of the
Faculty of Arts, University of Egypt, vol. 1, Part 1, May 1933, p. 91 —

الاسكندرية ، وزعموا أنهم قدموا في سفارة من ملكهم للتفاوض مع السلطات المملوكية لعمد الصلح ، فقبولوا بالترحيب ، وسمح لهم أولو الأمر في الثغر الاسكندري بنزول التجار من هذه السفن إلى البر وإنزال سلعهم . فانتهمز الكتيلان هذه الفرصة وتوجه بعضهم إلى السجن وخلصوا القنصل السجين ، ثم أغاروا على الميناء وأشعلوا النيران في جميع السفن الراسية ، واشتبكوا في قتال عنيف مع عساكر المماليك بالميناء ومن كان هناك من التجار ، فقتلوا عشرين رجلا ، وأسروا نحو ستين من الرجال والنساء ، ثم استولوا على سفينتين للجنوية وسفينة للبنادقة ورابعة للمسلمين ، وأبحروا بها إلى رودس . وواصل الكتيلان غاراتهم المدمرة على الثغور الشامية والمصرية (١) .

٢ — فتح قبرص :

وفي بداية عصر الأشرف برسباي شهدت الاسكندرية وبيروت اعتداء قبرسيا كتيلانيا ، (في شعبان سنة ٨٢٥ هـ) ، وتكرر الاعتداء في العام التالي على ميناء الاسكندرية ، إذ اعتدى غرابان قبرصيان على مركب تجارى تصل قيمة شحنته إلى نحو مائة ألف دينار ، فغضب الأشرف برسباي لذلك ، وعزم على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة ، وما يترتب عليها من اضطراب الأحوال الاقتصادية بالإضافة إلى الخسائر في الأنفس ووقوع عدد كبير من المسلمين من التجار والأهالي في أسر القراصنة ، فعمد برسباي بادىء ذى بدء إلى نقض اتفاقه مع البنادقة والرد على هذه السياسة العدوانية

(١) راجع المماليك والفرنج ، ص ٢٢ — ٢٨

بتطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية إزاءهم وإزاء جميع طوائف التجار الفرنج (١). ثم أخذ يعد العدة لمهاجمة قبرص من مصادر هذه الاعتداءات ، فأرسل إليها حملة في سنة ٨٢٧ هـ كانت على حد قول العيني غزوة صغرى (٢) ، كان هدفها استطلاع قوة الجزيرة وأحوالها الدفاعية تمهيداً لفتحها . واهتم برسباي منذ ذلك الحين بتدعيم أسطوله عن طريق إنشاء قطع جديدة ، ثم سير في العام التالي أسطولاً عدته ٤٠ سفينة بقيادة الأمير جرباش الكريمي ، واشتركت في هذه الحملة قوة تونسية من قبل السلطان الحفصي . وأرست السفن الإسلامية بالماغوضة وهزم المماليك القبارصة في عدة مواقع ، ثم عادت السفن وهي تحمل ما يزيد على ألف أسير (٣) بالإضافة إلى الغنائم الهائلة التي غنمها المسلمون. وفي صيف سنة ٨٢٩ خرجت الحملة الثالثة من ميناء الاسكندرية (٤) فيما يزيد على مائة سفينة بقيادة الأمير اينال الحكمي والأمير تغربردي الحمودي ، ولكن الحملة ما كادت تخرج من الاسكندرية حتى تعرضت لعواصف عاتية فاصطدمت السفن بعضها ببعض وتحطمت أربع منها ، ولكن العطب كان يسيراً ، فلم يلبث أن أصلح ، وأقلعت السفن نحو قبرص ، فتصدت لها في مياه الاسكندرية بعض سفن قبرصية وهاجمتها ، وترامى الفريقان بالنشاب ، وانتهى الأمر بفرار القبارصة ، ثم وصلت السفن المصرية إلى ميناء الماغوضة فاستولى المسلمون على قلعتها ، وخربوا المدينة.

(١) احمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٣٢ -

M. Mustafa Ziada, The Mamluk conquest of Cyprus, p. 90

(٢) العيني عقد الجمان ، ج ٢٥ قسم ٣ ص ٥٧٢

Ziada , op. cit. 9 p. 93.

(٣) عقد الجمان ، ج ٢٥ قسم ٣ ص ٥٧٦

Darrag, L'Egypte Sous Barsbay, p. 255. (٤)

وأحرقوها (١)، ونجحت السيادة في الاستيلاء على قبرص (٢)، وفرض الجزية عليها أما بالنسبة للكتيلان فقد اضطرت الفونسيو الخامس إلى عقد الصلح مع برسباى بعد أن أصيبت مصالحهم التجارية بأضرار فادحة منذ أن توقفت العلاقات التجارية بين أرغون ودولة المداليك في سنة ٨٢٦ هـ، وتم الصلح بمعاودة أبرمت بينهما في ٧ رمضان سنة ٨٣٣ (٣).

٣ — تدهور الحياة الاقتصادية في الاسكندرية :

ويسجل عصر الأشرف برسباى بداية ظهور معالم التدهور والاضمحلال في حياة الاسكندرية الاقتصادية، وترجع بداية هذا التدهور في حقيقة الأمر إلى وقعة القبارصة التي تسببت في تدمير المدينة وتخريب عماراتها (٤)، فلم تستطع رغم قيام نواب السلطنة بالتعمير أن تنهض من عثرتها، وتستعيد نشاطها حتى القرن التاسع عشر. فبينما زارها الرحالة الألماني لودلف فون شوشم في سنة ١٣٤٠ ووصفها بأنها أعظم مدن مصر البحرية، وامتدح تحصيناتها المنيع

(١) عقد الجمان، ص ٥٨٠ — ١٠١ — ١٠٠ Ziada. op. cit. p.

(٢) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ١٠٩ — ١١٦

(٣) راجع نصوص المعاهدة في الملحق المضاف إلى آخر الكتاب، وراجع تحليلها في مقال الأستاذ الطاهر أحمد سكي، بعنوان: معاهدة تجارية سن القرن الخامس عشر بين سلطان مصر وملك أرغون، المجلة، العدد ٤٩، ص ٨٣ — ٩٣.

(٤) ذكر النويرى السكندرى أنه فرس من فرس أهل الاسكندرية من باب البحر بعد دخول القبارصة المدينة. ثم عاد بعد خروجهم عنها ثم روى ما شاهده: « فرأيت ما حير عقلى وأذهل لبى، من خراب بعض أساكنها وحريق جوانبها وجيف البغال والخيول ونغير الحال الذى يورث الذهول وأما القتلى فانهم دفنوا بأماكنهم لتغيرهم وعدم استطاعة حملهم لنزلهم » « النويرى، ص ٩١ ب مخطوطة الهند

التي لا ترام ، تشهد رحالة آخر هو إمانويل بياوتى الذى سجل فى مقالته بعنوان *Traité sur le passage dans la Terre Sainte* حالة الاسكندرية السيئة فيقول : « إن الاسكندرية التي هى مفتاح و ثغر دولتهم (يقصد المماليك سادة القاهرة) أصبحت غير مأهولة ومهجورة ، على الرغم من جمالها وروعة مساكنها وفنادقها التي تشتغل على كسوات الرخام المزين بالزخارف الرائعة . ولكن مع أن أهل الاسكندرية تركوا هذه الديار وهجروها فأنى رأيت فى زمنى أن أحد هذه الدور بلغت قيمته دوكات ، وكان من يشتريها فى الوقت الحاضر لا يفعاون ذلك الا لكى يجردوها من الكسوات الرخامية المزدانة بالزخارف المنقورة والأعمال الفنية التي تتضمنها هذه الدور فى داخلها ، ثم يرساوها عن طريق النيل إلى القاهرة ، ويستخدموها من جديد فى تخزين فنادق القاهرة . ولهذا السبب فان الاسكندرية يمكن أن تسمى الأرض المهجورة المهملة فى البلاد » (١) .

وهكذا تبدلت حال الاسكندرية فى زمن بيلوتى أى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تبديلا تاما ، فأصابها الدمار وأصبحت مدينة مهجورة ، وكانت بيوتها تتداعى الواحد بعد الآخر إلى حد أن قلب المدينة لم يعد صالحا قط للسكنى خاصة بعد أن قل عدد سكانه (٢) .

وشمل التدهور بالاضافة إلى العمران صناعة النسيج ، فمن حيث هذه الصناعة كانت الاسكندرية أعظم مركز فى مصر لصناعة المنسوجات ، وكانت بالاسكندرية دار طراز تنتج كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية الرقيقة

(١) Paul Kahle, Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria, dans *Melanges Maspero*, p. ١37 --- Darrag, *L'Égypte sous le règne de Bursbay*, p. 86 --- 87

Ibid. p. ١39 (٢)

والحريرية التي تدخل فيها خيوط الذهب ، والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش ، كان يلبسها السلطان وأهل قصره وتصنع منها الخلع والتشريف التي يلبسها أكابر الأمراء وأعيان الدولة وسائر أهل المملكة ، أو تبعت هدايا إلى الملوك ، كما كانت تحمل منها الكسوات الفاخرة للكعبة . وبدأت أول مظاهر التدهور في هذه الصناعة منذ بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) (١) . وكان ناظر هذه الدار يوقع له مباشرة عند الأبواب السلطانية دون أن يكون لناظر الاسكندرية دخل في هذا التوقيع ، ولكن الأمر لم يلبث أن تغير في عصر برسباى ، فقد أصبح ذلك من اختصاص ناظر الاسكندرية الذى كان يرجع بدوره إلى ناظر الخاص بالأبواب السلطانية (٢) . ويبدو أن دار الطراز بالاسكندرية تعطلت زمن برسباى ، ولم تعد الاسكندرية تنتج من المنسوجات إلا ما كان يتولى صنعه بعض الأفراد ، ففي سنة ٨٣٧ هـ أحصى عدد أنوال الاسكندرية من الحاكة والقزازين ، فكان فيها ثمانمائة نول ، في حين وصل عدد أنوال الاسكندرية في نهاية القرن الثامن الهجرى إلى أربعة عشر ألف نول (٣) . ونستنتج مما سبق ذكره أن صناعة النسيج ، وكانت أهم صناعات الاسكندرية في العصر الاسلامى ، تدهورت تدهورا واضحا في عصر برسباى .

٤ - إعادة حفر خليج الاسكندرية :

وبقترن اسم الأشرف برسباى باسم خليج الاسكندرية الحديد الذى أعيد

(١) Darrag, op. cit. p. 69.

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٤٢٦

(٣) مجهول ، حوليات دمشقية ، تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨

ص ٩٤ - ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٧ ص ٢١٨

حفرة في عهده وأطلق عليه اسم ترعة الأشرفية تيمنا باسمه بدأ السلطان (١)، فقد ظل الخليج الناصري يقوم بوظيفته حتى عام ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م)، ثم انقطع الماء عنه، وأصبح لا يدخل إليه إلا في أيام الفيضان فقط، ثم يهبط عند انخفاض مياه النيل، ولذلك تحولت كثير من البساتين التي كانت تروى بالاسكندرية إلى أراضي قفر، ثم خربت كثير من القرى التي كانت تحف بصفى الخليج، ويؤكد ذلك ما ذكره القلقشندي (المتوفى ٨٢١) هـ إذ يصف خليج الاسكندرية في أيامه بقوله: «وهو خليج مخرجه من الفرقة الغربية للنيل عند قرية تسمى العطف تقابل فوه مدينة المزاحمتين، ويميل غربا حتى يتصل بجسران الاسكندرية، وتدخل منه قناة تحت الأرض إلى داخلها، ويتشعب فيها شعب كثيرة تدخل دورها، وتخرج من دار إلى أخرى، ويخالط آبارها فيحلو ماؤها، وتملأ منها صهاريجها حيثئذ فتمكث من السنة إلى السنة» (٢).

فلما كانت أيام الأشرف برسباي انتدب لحفره الأمير جرباش الكريمي المعروف بعاشق، فتوجه إليه في حشد من العمال بلغ عددهم نحو ٨٧٥ رجلا، فشرع في حفره في ١١ جمادى الأولى سنة ٨٢٦ هـ (٢٢ أبريل سنة ١٤٢٣ م)، واستمر العمل فيه زهاء تسعين يوما، وتم حفره في ١١ شعبان سنة ٨٢٦ هـ (٢٠ يوليو)، وجرت فيه السفن بين مظاهر الفرع والبهجة، وجبى ما أنفقته على العمال في الحفر من أصحاب الأراضي والبساتين الواقعة على الخليج (٣).

ومع ذلك فقد ضاعت جهود برسباي عبثا، لأن الرحالة والمسافرين من القاهرة إلى الاسكندرية كانوا يتبعون طريق الخليج فقط في زمن الفيضان، بينما كانوا يسلكون طريق البر في بقية أيام السنة، مما يجعلنا نستنتج بأن مياه النيل كانت تتوقف عن دخول الخليج في معظم أشهر السنة.

(١) ابن اياس، ج ٤ ص ٤٢٦

(٢) القلقشندي، ج ٣ ص ٣٠٠

(٣) المقرئ، الخطط، ج ١ ص ٣٠٢

(٢)

الاسكندرية في عصر السلطان الملك الأشرف قايتباي

(٨٧٢ - ٩٠١ هـ)

(١) انتشار الطاعون :

ظهرت في بداية عصر السلطان قايتباي بالاسكندرية وأعمالها بعض إصابات وباء الطاعون ، ثم لم تلبث هذه الإصابات أن ازدادت في أمد قصير بصورة وبائية ، وتفشى الطاعون تفشياً خطيراً في المحرم وصفر سنة ٨٧٣ هـ ، ومات بسببه في شهر ربيع الآخر عدد كبير من سكان الاسكندرية (١) .

وفي ١٣ ربيع الآخر وصل الأتابك أزبك إلى القاهرة قادماً من إقليم البحيرة ، فنزل السلطان إلى داره ، وسأله عن أخبار الطاعون في الاسكندرية فأخبره بأنه باق بها ، وأنه انتشر ببلاد البحيرة حتى وصل إلى دمنهور ، ومات به من عرب غزاة نحو ثمانون شخصاً (٢) . ثم انتقل الوباء سريعاً من البحيرة إلى القاهرة في رجب ، وانتشر في شهر رمضان ، وأصبح الغرباء يموتون به في الطرقات ، ثم تناقص عدد الإصابات تدريجياً من شهر شوال إلى أن اختفى بعده ذلك .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ (طبعة وليم بوهر ، كاليفورنيا

١٩٣٢) ص ٦٧٥ ، ٦٨٧ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٨

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ (طبعة وليم بوهر) ص ٦٨٨

ومن بين ضحايا طاعون الإسكندرية خوند فاطمة بنت الأشرف إينال التي طعنت بالاسكندرية أثناء حضورها لحفل ختان أولاد أخيها الظاهر أحمد ابن الأشرف إينال (١) . وكذلك توفي بهذا الطاعون السلطان السابق الملك الظاهر يلباي المؤيدى في سجنه (٢) . ومن الملاحظ أن الاسكندرية كانت تتخذ منفى للسلطين المعزولين والأمراء المبعدين ، وكان يقيم بها كثير من أبناء السلطين السابقين ، ففيها أقام أولاد المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، والسلطان الملك الظاهر يلباي المؤيدى ، والملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى ، والملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق (٣) ، والسلطان الظاهر تمرغا (٤) ، الذى أذن له السلطان قايتباى وللآخرين بالركوب إلى الجامع فى صلاة الجمعة والعيدين ، وإلى حيث شاؤوا من مواضع الاسكندرية . وقد توفي المنصور عثمان فى ذى الحجة سنة ٨٧٩ هـ بعد أن تجاوز الستين سنة .

(ب) عيث الروادسة فى مياه الاسكندرية :

منذ أن فشل السلطان الظاهر جقمق فى حملاته الثلاثة التى سببها لغزو رودس فى أعوام ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ م ، لم يكف الاسبتارية فى هذه الجزيرة عن مهاجمة السفن المصرية فى البحر ، والعيث فى مياه الاسكندرية ودمياط ،

(١) ابن اياس ، ج ٣ ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١

(٣) النجوم ، ج ٣ (طبعة بوبر) ص ٧٠٦ - ابن اياس ج ٣ ص ٣١ ، وابن اياس ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٥١ ص ١٩٥

(٤) ابن اياس ، ج ٣ ص ١١٤

وتعددت حوادث القرصنة ضد سواحل مصر والشام في عصر قايتباي ، ففي
صفر سنة ٨٧٧ هـ قبض الأمير قجماس الأسحاقى نائب ثغر الاسكندرية على
جماعة من الفرنج « يتعشون بسواحل البحر المالح » ، فأمر السلطان بسجنهم في
المتشرة بمصر (١) . وفي المحرم سنة ٨٧٨ قام جماعة من الفرنج ببعض أعمال
القرصنة في ساحل الاسكندرية ودمياط ، وأسروا من المسلمين تسعة أشخاص
فأمر السلطان نائبه بالثغر (قجماس الأسحاقى) بمطاردتهم في البحر حيث
ساروا (٢) . وفي رمضان سنة ٨٨٠ هـ احتال بعض تجار الفرنج البروفنساين
على تجار الاسكندرية حتى أسروهم ، وحملوهم معهم إلى بلاد الفرنج ، وكان
من بينهم تجار السلطان : ابن عليبة (٣) وابن يعقوب وعلى الكيرانى وعلى
النراوى ، فاضطربت أحوال الاسكندرية ، وأمر السلطان نائبه بالثغر بالقبض
« على جميع تجار الفرنج الذين بالسواحل ، وضيقت عليهم ، وأودعهم في
الحديد ، وألزمهم بأن يكتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان
بسبب التجار » (٤) . هذا الاجراء التحفظى الذى قام به قايتباي ضد تجار
الفرنج المقيمين بثغر الاسكندرية مع مصادرتهم لأموالهم ومتاجرهم وإرغامهم
على مكاتبة ملوك الفرنج ليطلقوا سراح تجار المسلمين لم يؤد إلى ما كان
يهدف إليه السلطان ، فعمل السلطان على زيادة الضغط على ملوك الفرنج ،
فأمر في أول المحرم سنة ٨٨١ هـ بالقبض على جميع الرهبان الفرنسيسكان

(١) ابن اياس ، ج ٣ ص ٧٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٩

(٣) هو الخواجه الكارمى بدر الدين حسن ابراهيم بن عليبة السكندرى
تاجر السلطان (ابن اياس ، ج ٣ ص ٢٠٧)

(٤) ابن اياس ، ج ٣ ص ١١٤

المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وإرسالهم إلى القاهرة (١) ،
وكان هذا التصرف سريع المفعول إذ لم يلبث الفرنج البروفنساليون أن أفرجوا
في نفس الشهر عن التجار المسلمين ، وفي ذلك يقول ابن اياس : « وفيه
(المحرم) جاءت الأخبار من الاسكندرية بأن الفرنج قد أطلقوا من كان عندهم
من التجار الذين كانوا أسروهم ، وقد اشتروا أنفسهم بمال له صورة حتى
أطلقوهم ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلاصوا من بلاد الفرنج
واستمر ابن عليبة من يومئذ مريضاً إلى أن مات بعد مدة » (٢) .

(ج) زيارة الأشرف قايتباي للاسكندرية (في ربيع الأول سنة ٨٨٢ ،

وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٤) :

حظيت الاسكندرية في عصر السلطان الأشرف قايتباي بقسم كبير من
عنايته ، فلقد زودها بمدرسة جديدة (٣) ، كما زارها في ربيع الأول سنة ٨٨٢ ،
فاحتفلت المدينة بتدويمه احتفالاً لم تشهده من قبل إلا في أيام الظاهر بيبرس
والأشرف شعبان . ويذكر ابن اياس أن السلطان رحل من بر الحيزة وفي
صحبته عدد من الأمراء منهم الأتابكي أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوا دار ،
وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدد من
الأمراء الطبليخانات والعشرات ، وكثير من الخاصكية والمماليك السلطانية
والمباشرين ، كما سافر معه القاضي ابن مزهر كاتب السر رغم مرضه . فلما
وصل السلطان إلى الاسكندرية زينت له المدينة زينة حافلة ، وخرج إلى

(١) دراج ، الممالك والفرنج ص ١٠٦

(٢) ابن اياس ، ربيع ٣ ص ١١٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٩

لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، وقد تزييا بالشاش والتمشاش ، كما استقبله الأمير قجماس الاسحاقى ، نائب السلطنة بشجر الاسكندرية ، واصطف الناس فى شارع المدينة الرئيسى وهو شارع المحجة لرؤية السلطان ومشاهدة موكبه ، ثم دخل السلطان كما كانت العادة من باب رشيد فى موكب مهيب وقد أحاط به العسكر وهم يحملون آلة السلاح بالعدد الكاملة ، والأتابكى أزبك يحمل القبة والطير على رأس السلطان ، والملك المؤيد بين يديه فى مقدمة الأمراء. وكان يتقدم الموكب أعيان المباشرين وأرباب الدولة فى ٢٥٠ فرسا. منها خمسون فرساً بالسروج الذهب والكنابيش (١) ، والبقية ملبسة بأنواع البركستوانات (٢) والجواغين (٣) المكففة بالذهب والفضة والبقية من المخمل الملون . فشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل ، وبينما كان يخترق المدينة من المحجة سقط الطائر الذهب من أعلى القبة ، فترجل الأمير يشبك الدوادار عن فرسه وثبت الطائر على القبة . ثم امتطى صهوة سجواده ، وسار فى الموكب ، ونثر بعض تجار الفرنج ألف بندقى ذهب على رأسه ، فتزاحم عليه المماليك لالتقاطه من الأرض ، وكاد السلطان يقع من فرسه بسبب تزاحم الناس عليه ، لولا أن أدركه الأمير تماراز رأس نوبة النواب ، وفرق الناس بعضها كانت فى يده ، حتى مكن السلطان من مواصلة السير فى الموكب . وظل موكب السلطان

(١) الكنايش جمع كنبوش ، وهو البرذعة التى توضع تحت سرج الفرس (سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٤٥) .

(٢) جمع بر كستوان وهو ما كان يوضع حول بدن الفرس كالدرع (زيادة ، السلوك ، ج ١ ص ١٧٧ حاشية هـ - سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٩٦) .

(٣) آلات من الفولاذ كانت تلبسها الخيول لحمايتها من الطعان (ابن اياس

ج ٤ ص ٤١٢) .

فى طريقه المعهود حتى نخرج من باب البحر ، وعسكر بالمخيم المضروب على ساحل البحر ، وهناك خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية . فأقام السلطان فى مخيمه ثلاثة أيام ، لعب أثناءها بالكرة فى الفضاء الممتد ما بين باب البحر وشبه جزيرة المنار ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء صحبته . وانتهز فرصة زيارته لثغر الاسكندرية ، وتوجه إلى موضع المنار القديم ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجاً ، ثم رحل السلطان إلى إدكو ، ومنها إلى دمنهور فالقاهرة (١) .

وتم بناء البرج المذكور فى عامين . وباشر البناء فيه البدرى بن الكويز والعلائى بن خاص بك وغيرهما (٢) ، ولما تم بنيانه سافر السلطان قايتباى إلى ثغر الاسكندرية للمرة الثانية فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٤ هـ لمشاهدة البرج بعد اكمال بنائه ، فرحل فى هذه المرة فى عدة مراكب فى النيل فى صحبة الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادر ، وخاير بك من حديد ، وأزبك اليوسفى الخازندار ، وعدد كبير من أمراء المقدمين والطبايعانات والعشرات ومن الخاصكية ، كما صحبه من المباشرين القاضى كاتب السر ابن مزهر وآخرون . فلما دخل المدينة لم يوكب بها كالمرة الأولى ، ثم نزل بالمخيم خارج باب البحر ، فهد له نائب الاسكندرية مدة حافلة . وأقام السلطان فى الاسكندرية أياماً شاهد أثناءها البرج ، الذى قيل أنه أنفق عليه ما يزيد على المائة ألف دينار وأوقف عليه الأوقاف الجلية (٣) .

(١) راجع تفاصيل الزيارة فى بدائع الزهور، ج ٣ ص ٣١ ، ١٣٢ ، وفى الملاحق

(٢) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الشوهر اللامع لأهل

القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٤ ، ج ٥ ص ٢٠٩

(٣) ابن لياس ، ج ٣ ص ١٥٦

وكان قد انتهر فرصة زيارته للاسكندرية . وخرج إلى رشيد لتفقد
البرج الذى أقامه بها ، تحت مباشرة مقبل الحسنى الظاهر بجمع . فعينه ،
وعاد إلى الاسكندرية . ثم رحل السلطان من الاسكندرية بعد أن شحن برجهما
بجماعة من المجاهدين ، أجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل
عليهم شادا من خواصه يقال له قانصوه المسمى المعروف بالبرجى .

ويرجع السبب فى اهتمام الأشرف قايتباى بتحصين الاسكندرية وغيرها
من ثغور مصر (١) ، إلى اضطراب العلاقات بين مصر والدولة العثمانية
التي ظهرت قوتها فى ذلك الحين ، خاصة بعد أن فتح السلطان العثمانى محمد
الثانى القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م (٨٥٧ هـ) فى عهد السلطان إينال ، وأصبحت
الدولة العثمانية على هذا النحو منافساً خطيراً للدولة المماليك . وكانت علاقات
المودة المتبادلة بين قايتباى ومحمد الثانى قناعاً زائفاً يخفى وراءه حقيقة هذه
العلاقات من تغاير وتحاسد وتربص كل منهما بالأخرى (٢) . وكان قايتباى
يدرك تماماً ما يجول بخاطر خصومه الأتراك ، وكان واثقاً من تربصهم
وانتظارهم لفرصة مواتية يشبون فيها على بلاده ، عاجلاً كان ذلك أو آجلاً
فعمد بادية ندى بدء إلى تحصين ثغوره المعرضة للغزو العثمانى من جهة البحر

(١) لم تكن الاسكندرية وحدها هى البلد الذى زوده قايتباى بتحصيناته ،
فقد ذكر ابن إياس فى بدائع الزهور ، أنه أقام برجاً آخر فى رشيد . وما زالت بقايا
هذا البرج قائمة حتى يومنا هذا ، ونلاحظ أن ثغر رشيد ظهرت أهميته منذ عهد قايتباى ،
وازدادت هذه الأهمية فى أيام قانصوه الغورى . كذلك أقام قايتباى برجاً فى طرابلس
الشام يشبه إلى حد كبير برج قايتباى بالاسكندرية . (راجع نيا بى ، العمارة الحربية) .

(٢) أحمد السيد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال فى المجلة

التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠٣

مثل الاسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، ثم أخذ يترقب الأحداث . فلما تولى بايزيد الثانى العرش بعد أبيه محمد الفاتح (١٤٨١ - ١٥١٢ م) ، ظهر العداء سافراً بين الدولتين ، خاصة بعد أن تنازع بايزيد مع أخيه جم من أجل العرش ، والتجأ جم إلى قايتباى الذى احتفل به فى شعبان سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨٢ م) احتفالاً عظيماً ، وزوده بالمال اللازم والجند ليحصل على حقه فى العرش بحمد السيف . وغادر جم القاهرة فى عام ١٤٨٢ م فى طريقه لغزو آسيا الصغرى ، ولكنه هزم ، واضطر إلى الالتجاء إلى فرسان الاسبتارية برودس فى ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢ م (١) ، وبدأ النزاع بين الدولة العثمانية ودولة المماليك يتخذ صورة مصادمات مسلحة .

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ - ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك
الجراكسة ، ص ١٦٨

(٣)

الاسكندرية في عصر السلطان قانصوه الغورى

(٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م)

(١) اضمحلال الاسكندرية :

كانت الاسكندرية مدينة عامرة مزدهرة في بداية عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، ولكنها بدأت تسير بخطى حثيثة نحو الاضمحلال منذ أيام الناصر فرج ، وأخذت آثار هذا الاضمحلال تظهر بوضوح بعد وفاة الأشرف قايتباى ، عندما نجح البرتغاليون في كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، ورابطت سفنهم بقيادة فاسكو دى جاما عند مدخل البحر الأحمر لمنع السفن المصرية من العبور إلى الهند ، وكان هذا الاكتشاف ضربة قوية أصابت كيان الاقتصاد المصرى ، وخسرت مصر خسائر فادحة نتيجة لتحكم البرتغال في الطريق التجارى القديم الذى يربط مصر بالهند (١) . ومن العوامل التى ساعدت على اضمحلال الاسكندرية قبيل الفتح العثمانى انتشار الطواعين والأوبئة بالاسكندرية في موجات متتابة ، كانت آخرها ظهور إصابات مرض الطاعون بالاسكندرية ورشيد في ذى الحجة سنة ٩١٨ هـ (٢) ، وانتشار هذا الوباء بعد ذلك في المحرم وصفر سنة ٩١٩ هـ ، مما أدى إلى وفاة عدد كبير من سكان المدينة . وقد فر جماعة من الأمراء بأولادهم وذويهم إلى

(١) فييت ، المواصلات في مصر ، ص ٤١ - ابراهيم طرخان ، ص ٢٩١ - ٢٩٥

(٢) ابن اياس ، ج ٤ ص ٢٩٦

مناطق لم يصل إليها هذا الوباء مثل جبل الطور ، وتوفي بهذا الطاعون الأمير سليمان بيك بن أحمد بن أبي يزيد بن العثماني الذي قدم إلى مصر فراراً من عمه سليم شاه ، ثم توفي أخوه علي بيك بالطاعون بعده بشهرين ، كذلك توفي بالطاعون عدد كبير من أمراء المماليك وسائر الناس . وقد أثر هذا الوباء والأوبئة السابقة على عمران الاسكندرية تأثيراً عميقاً . فتخربت الدور ، وأغلقت الحوانيت ، وقل عدد السكان ، وفقدت المدينة نضارتها ، وتحولت بساكنيها الحضراء إلى أراض قفراء ، ويعسر بدرو مارتير ، سفير الملكين الكاثوليكين إلى السلطان قانصوه الغوري ، وكان قد وصل إلى الاسكندرية في ديسمبر سنة ١٥٠١ م ، عن هذا التدهور والاضمحلال الذي أصيبت بهما الاسكندرية في ذلك البصر بقوله : « يا للأسف !! إن المدينة التي تألقت في أيام البطالة وكانت ذات يوم أجمل وأعظم وأكثر البلاد عمراناً ، تخربت وعليها ذرفت الدموع ، فقد أصبحت في أكثرها صحراء ، فياله منظر من يشير الأسى ، واأسفاه عليه يا اسكندرية !! ما أعظم أسوارها ! وما أفسح طرقاتها ! وما أشدها كآبة ! وما أروع مبانيها التي ترتفع إلى السماء !! وما أضخم عقود أبوابها !! وعند مرورنا بداخل الدور ألفيناها أنقاضا ، وفسروا لنا سبب هذا الخراب المتزايد ، فنسبه بعضهم إلى انتشار الأوبئة (١) وعلاه بعضهم بكثرة الحروب وثورات الأهالي (٢) ، بينما أرجع آخرون السبب

(١) انتشرت الطواعين والأوبئة في الاسكندرية منذ أيام الملك العادل أخی صلاح الدين ، وكان أشد هذه الأوبئة انتشاراً وأكثرها فتكاً بالسكان وباء سنة ٧٤٩ هـ ، و ٨٣٣ هـ ، ٨٥٣ هـ ، ٨٧٣ هـ ، ٨٨٣ هـ ، و ٨٩٧ هـ .

(٢) يذكر أن بطوطه أن أهالي الاسكندرية ثاروا في سنة ٧٢٧ هـ على واليها أيام الناصر محمد بن تغلق لانه كان ينجيز للروم ضد المسلمين ، فحاصروا قصره ، =

الأساسى إلى تعسف السلاطين واستبداد نوابهم فى المدينة ... فان جميع السلاطين الذين يتولون السلطنة كانوا ينهبون أهالى الاسكندرية ، إذ كانت — باستثناء دمشق — المركز التجارى الرئيسى لجميع بلاد السلطان ، ومستودع البضائع والسلع ، ولذلك كانوا يسلبونهم كما لو كانوا غنما ، فاذا ما بلغ الوشاة والمخبرين خبرا عن تاجر مثر أخرجهوا منه المال بقوة التعذيب بدون أدنى عذر سوى رغبتهم فى مصادرة ماله ، ولذلك كله ، كم كان يرتجف التجار وبعض الأهالى المياسير ليلا ونهاراً خوفاً على حياتهم بسبب ثرواتهم التى يمتلكونها ...» (١) .

ولم يكن هذا السفير وحده الذى عبر عن اضطهاد الاسكندرية فى أواخر العصر المملوكى ، فقد سبقه إلى ذلك Emmanuel Piloti فى مصنفه «Traité sur le passage dans la Terre Sainte» ، وهو تقرير كتبه بيلوتى فى سنة ١٤٢٠ ، ووصف فيه الحالة السيئة التى آلت اليها الاسكندرية فى عصر برسباى . كذلك يتضمن وصف ابن اياس لموكب السلطان الغورى عند زيارته للاسكندرية

== فبعث الناصر لنجدته أميراً يعرف بالجمالى ثم أتبعه بالأسير طوغان فدخلا الاسكندرية «وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكويك وسواهم ، وأخذوا منهم الأموال الطائلة ، وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ، ثم إن الأسيرين قتلوا من أهل الاسكندرية ستة وثلاثين رجلاً » . (راجع ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٨ . وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الثورة) .

Pedro Martir, Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, (١)
trad. por L. Garcia, Valladolid, 1947, pp. 78 - 80 — Combe, Pierre
Martyr d'Anghiera et le Drogman du Sultan Ghauri (1502), Bulletin
of the Faculty of Arts of Alexandria, 1944, vol. II, p. 107.

في ذى الحجة سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) تعبيراً صارخاً عن هذه الحالة ، فهو يقول :
« ... فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية
يومئذ في غاية التزجل والخراب ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من
أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب
بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فلأنهم صاروا يأخذوا من التجار العشر
عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى
أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل : وطلب الخبر بها فلم
يوجد ، ولا الأكل . ووجد بها بعض دكاكين مفتحة ، والبقية خراب
لم تفتح » (١) . وفي « Bahrije des Piri Re'is » صورة واقعية عن مدينة
الاسكندرية في بداية عصر الاحتلال التركي (سنة ١٥١٧ م) ، ففي داخل
نطاق سور المدينة نرى المسجدين الكبيرين حيث أدى السلطان التركي
سليم الأول صلاة الجمعة في الجامع الغربي منهما ، وذلك في يوم الجمعة الموافق
٦ يونيو ، كما نرى مرتفعين على مسافة قريبة من باب البحر ، أما في شرق
المدينة عند باب رشيد فنرى بعض الدور ما تزال قائمة ، وما دون ذلك فخراب
وأطلال (٢) .

(ب) زيارة السلطان الغوري الأولى للاسكندرية (في ذى القعدة سنة ٩٢٠) :

على الرغم من التدهور الذي أصاب العمارة السكندرية في عصر

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٤٢٤ . وفي حوادث المحرم سنة ٩٢٠
يقول : « فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع في السنة الخالية .
ابن اياس ص ٣٠٥ »

(٢) Paul Kahle, Die Katastrophe de Mittelalterlichen Alexandria, p.140.

السلطان الغورى ، فقد اهتم هذا السلطان بتحسيناتها ، وشرع على زيارتها فى جمادى الآخرة ٩١٦ هـ (سبتمبر ١٥١٠م) ليتفقد أبراجها ، ويرمم تحصيناتها ، خوفاً من طروق الإفرنج لها ، غير أن الأتابكى قرقماش أثناه عن الرحيل بحجة صعوبة السفر برا بسبب امتلاء الطرقات بالوحل الناشئ من مياه النيل . فعزل السلطان عن السفر وسافر قرقماش نيابة عنه إلى ثغر الاسكندرية ، وبصحبه الأمر إعلان الدوا دار فى رجب سنة ٩١٦ هـ ، ثم عادا فى الشهر التالى ، فأخلع عليهما السلطان ، ونزلا من القلعة فى موكب حافل (١) .

ويبدو أن السلطان — لشدة اهتمامه بتحسينات الاسكندرية — كان قد عهد إلى أحد مهندسيه بأن يقدم إليه صورة مصغرة تمثل الاسكندرية بأسوارها وتحصيناتها ، فان ابن اياس يروى أن المعلم حسن بن الصياد المهندس خط للسلطان « بالحبس فى الأرض صفة مدينة ثغر الاسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها ، وهيئة صُورها والمنار التى كان بها وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها ، وتفرج عليها ، ثم عاد إلى القلعة من يومه » (٢) . وفى محرم سنة ٩١٨ عزم السلطان على الخروج إلى الاسكندرية فى حراقة نفط أمر باعدادها لذلك الغرض ، بعد أن يقضى على فتنة عربان البحيرة الذين شقوا عصا الطاعة وأفسدوا الزروع ، ثم عدل السلطان عن عزمه على السفر إلى الاسكندرية بسبب ما تلقاه فى صفر سنة ٩١٨ من هزيمة عسكر الشاه

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٦

Combe, les Sultans Mamloûks, Ashraf Sha'ban et Ghauri à Alexandrie, dans B.S.R.A.A. No. 9 vol. IX fasc. 30-39, Alexandrie 1937 p. 44

(٢) ابن اياس ، ج ٤ ص ١٩٦

اسماعيل الصفوى (١) .

وفى ٢٥ شوال سنة ٩٢٠ اشتد عزم السلطان على السفر إلى ثغر الاسكندرية كما فعل الأشرف قايتباى ، فأعد العدة لزيارة الاسكندرية . ففي ذلك اليوم « عرض آلة الطلب (٢) وهم الخيول الملبسة بالحواعين الفولاذ المكفت ، وعرض خيول النوبة (٣) وهم بالكنابيش (٤) الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغواشي الذهب ، وعرض التختين وهما بغواشي حرير أصفر ، ثم طلع إلى الدهيشة ، وعرض الصناجق (٥) السلطانية والقبّة والطير ، وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبّة . وجعل مكانه هلالاً ذهباً مخزماً ، وعرض ستة خزائن التى يكونوا فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، وعرض الجوشنين (٦) وهما من آلة الطلب ، وعرض محفة على بغال وهى بغشاء من حرير أصفر » (٧).

وفى اليوم التالى ركب السلطان من القلعة إلى ميدان الرملة حيث استعرض مماليكه الخاصكية الذين يصحبونه أثناء رحلته إلى الاسكندرية ، فوقف على باب الميدان . واستعرض وهو راكب جواده مماليكه الجلبان من الخاصكية ،

(١) ابن إياس ، ج ٤ ، ص ٢٥٨

(٢) الطلب ، كتيبة من السابيش .

(٣) هى الخيل التى تربط بالقرب من قصر السلطان لتكون على أهبة الاستعداد لركوب السلطان .

(٤) الكنايش أى البراذع .

(٥) هى أعلام صغار تربط فى أطراف الرياح .

(٦) مشى جهنم . وهو الدرع من السلاسل المتصلة تحمى الظهر .

(٧) ابن إياس ، ج ٤ ، ص ٢٥٣

واختار منهم ١١٠ مملوكاً ليصحبوه في الرحلة . ثم صعد السلطان إلى القلعة وأمر بفتح حواصل الذخيرة وأخرج منها الزرديات والخوذ والأتراس والرماح والسيوف والجواغين ، ووزعها على خاصكياته ، وأمرهم بلبسها كاملة واستعرضهم في ٢٩ شوال بالميدان ، ثم ركب السلطان من الميدان في موكب يتقدمه الطلاب والخاصكية والأمراء المقدمون ونزل ببر إنابة . وفي ٦ من ذي القعدة رحل السلطان من إنابة متوجهاً إلى الاسكندرية ولم يسافر معه إلا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبليخانات والأمراء العشرات ، فمن الأمراء المقدمين الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس من ولي الدين أمير نجاس ، والأمير أنصباي من مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تميم الحسيني المعروف بالزردكاش ، والأمير خاير بيك ، وعلان من قراجا الدوادار ، ويخشباي ، وأقباي الطويل . وبلغ عدد هؤلاء الأمراء المقدمين عشرة . وأما من صحبه من أمراء الطبليخانات فجماعة كثيرة العدد ، منهم الأمير قنبيك الشريفي رأس نوبة ثاني والأمير مغلباى الشريفي الزردكاش ، ومن أمراء العشرات نحو عشرين أميراً ، كما صحبه نحو ٥٠٠ من الخاصكية ، وعدد كبير من المباشرين والقضاة والأعيان ، وجماعة من المغنين وأرباب الآلات . ثم رحل السلطان إلى البحيرة ، فأقام بها يوماً وليلة ، وأخذ يتنقل من موضع إلى آخر في طريقه إلى الاسكندرية متخذاً طريق رشيد ، حيث أقام بثغرها يوماً واحداً ثم أوكب من هناك في يوم ١٤ ذي الحجة ، ودخل مدينة الاسكندرية في يوم الاثنين ١٥ من الشهر نفسه ، وتقدم عسكر السلطان موكبه وهم لابسون لباس الحرب كاملاً ، وتبعهم الأمراء وقد ارتدوا الشاش والقماش ، ولم يكن السلطان مرتدياً الكفنته أو الكلوتة وهي أشبه ببطاقيّة للرأس تلبس وحدها أو بعمامة . وإنما لبس على رأسه تخفيفة صغيرة مدورة ، وارتدى كاملة

من المخمل الأحمر التي تشبه العباءة أو الطيلسان يعاوه فراء (صمور) . وكان الأتابكي سودون العجمي يحمل القبة والحلالة لتظلّل السلطان ، وانخرق الموكب مدينة الاسكندرية من المحجة ، فأخذ بعض تجار الفرنج البنادقة ينثرون قطعاً من الذهب والفضة على رأسه ، واتفق أثناء مسيرة الموكب السلطاني في سوق الاسكندرية أن صدم الأتابكي سودون بالحلالة (الهلال) التي تعلو القبة بعض السقائف ، فانكسرت الحلالة نصفين وسقطت على الأرض . كذلك انكسرت الرصافية التي كانت تعلو المحفة أثناء مرورها في نفس الموضع ، فبادر الأمراء إليها ووضعوها على المحفة . وتشاءم الناس لما حدث من كسر الحلالة والرصافية (١) . ثم خرج السلطان من باب البحر ، ونزل بالخيم الشريف ، فقدم إليه خدابردى نائب السلطنة في الاسكندرية مقدمة حافلة ما بين ذهب عين ، ومماليك ، وقماش على حمالين ، وخيول ، كما قدم إليه الخواجا ابن أبي بكر تاجر السلطان هدية قيمة ، فلبس الأتابكي سودون العجمي الكاملية المخمل التي كانت عليه ، وأخلع على نائب الاسكندرية والخواجا

(١) في ٢٦ ذى القعدة لودى في القاهرة بالزينة بسبب عودة السلطان الغورى من ثغر الاسكندرية ، ولما وصل السلطان إلى الريدانية في ٢٧ ذى القعدة عزم على دخول القاهرة في موكب حافل ، فأمر خاصكيته بارتداء آلات السلاح كالزرديات والخوذات ، وإلباس الخيول البركستوانات المخمل ، كما أسرهم بأسالك الرياح بالشطقات في أيديهم ، واتفق أثناء مسيرة الموكب السلطاني في سوق الدريس أن صدم الأتابكي بهلال القبة بعض قناديل معمرة بالزيت كانت معالقة هناك . فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفت السلطان والكاملية المخمل الأحمر التي كان يرتديها ، فتشاءم الناس بذلك الحادث أيضاً (ابن إياس ، ج ٤ ص ٤١٩) .

ابن أبي بكر. وفي هذا اليوم نارماليك السلطان الحاصكية على نائب الاسكندرية لأنه لم يوزع على كل منهم عشرين ديناراً أشرفياً كما فعل قجماس الاسحاق عندما دخل الأشرف قايتباي الاسكندرية. وفي ذلك اليوم أيضاً تابعت وفود الكشاف ومشايخ العربان بالغربية، وقدموا للسلطان هدايا قيمة ما بين ذهب عين، وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك، فوزع السلطان معظمها على من قدم معه من الأمراء. وأمر خدابردى نائب السلطنة بالاسكندرية بإيقاد القناديل والشموع على مآذن الثغر، وعلى شراريق السور، على كل شرافة قنديل. وفي اليوم التالي، ركب السلطان جواده ولعب الكرة هو والأمراء على ساحل البحر، وتوجه بعد ذلك لزيارة شيوخ المدينة، ثم مضى إلى برج السلطان قايتباي، فصعد إليه هو ومن صحبه من الأمراء، وقام الحراس بالرمي بالمكاحل والمنجنقات أمام السلطان. ثم طاف بأبراج الاسكندرية وتفقد ما فيها من السلاح والمكاحل، وأنعم على الأمير يوسف الزردكاش الثاني بامرة طبخاناه. وأقام السلطان بثغر الاسكندرية يومين ولياليتين، ثم رحل إلى القاهرة عن طريق البر، ماراً بدمهور والنجيلة والطرانة والمنصورة (١).

(ج) زيارة السلطان الغورى الثانية للاسكندرية (فى رمضان ٩٢١ هـ) :

ساعات العلاقات بين دولة المماليك وبين الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة خاصة بعد أن تحالف السلطان الغورى مع الشاه اسماعيل الصفوى، وآوى الأمير قاسم العثمانى، أحد أبناء الأمير أحمد الذى قتله السلطان سليم، واتخذ

(١) راجع أخبار زيارة السلطان للاسكندرية، فى بدائع الزهور، ج ٤ ص

٤٢٣ وما يليها، وفى الملحق

منه الغورى أداة للتهديد (١) . ويروى ابن إياس أن الأمير جانم الخاصكى الذى كان السلطان قد سيره مع هدية إلى ملك التتار ، حضر إلى القاهرة فى ١٦ شعبان سنة ٩٢١ هـ ، وأبلغ السلطان أنه لما مر على بلاد الدولة العثمانية قبض العسكر عليه وأخذوا ما كان معه من هدية الغورى وأساءوا إليه ، وهموا بشنقه أكثر من مرة لولا أن شفع فيه بعض وزراء السلطان سليم ، ثم أن جانم أخبر السلطان الغورى عن نوايا السلطان العدوانية سليم نحو مصر ، فأبلغه أنه أعد نحو أربعمئة مركب بقصد غزو مصر من ثغرى الاسكندرية ودمياط على حين غفلة ، وأنه جهز فرقا من عسكره لغزو البلاد الشامية عن طريق حلب (٢) . وعندئذ قوى عزم السلطان الغورى على السفر إلى ثغرى الاسكندرية ورشيد ليتفقد أحوال أبراجهما ، وأشيع أنه شرع فى بناء سور حول رشيد على شاطئ البحر ، وأنه أرسل لذلك الغرض عدداً من البنائين والحجارين .

فلما أدى السلطان صلاة الصبح فى يوم الأربعاء ٢ رمضان نزل من التلعة وتوجه إلى بر إنبابة حيث نصب مخيمه إلى أن يتكامل خروج العسكر ، وصحبه من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى ، والأمير أركماس أمين مجلس ، والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والأمير أنسباى حاجب الحجاب ، والأمير تانى بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وجماعة من الأمراء الطبليخانات والعشرات نخص بالذكر منهم الأمير خاير بيك المعمار ، كذلك صحبه من المباشرين الشهابى بن الحيعان نائب كاتب السر ، والقاضى أبو البقا ناظر الأسطبل . وأقام السلطان فى مخيمه ببر إنبابة إلى اليوم الثالث

(١) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٥

(٢) ابن إياس ، ج ٤ ، ص ٤٧١

من رمضان . ثم رحل في عدة مراكب هو ومن صحبه من الأمراء ، إذ كان النيل مرتفعاً قد بلغ عشرين ذراعاً ، والطرق البرية قد غمرتها مياه الفيضان .

ثم وصل السلطان إلى ثغر الاسكندرية وتفقد أحوال أبراجها ، وعين تحصيناتها ، وزار رشيد ، ورسم بأن تسور بسور من جهة البحر ، وأنعم السلطان في هذه الزيارة على مهندس هذه التحصينات الأمير خاير بيك العلای الشهير بالمعمار بتقدمة ألف ، وجعله متحدثاً في باشية برج الأشرف قايتباي . وعاد السلطان بعد ذلك إلى القاهرة فوصلها في ١٥ رمضان (١).

(٤)

الاسكندرية في العصر العثماني

ختم الفتح العثماني لمصر عصور الإزدهار في تاريخ الاسكندرية الإسلامية ، وفقدت عاصمة مصر الثانية مكانتها القديمة ، وخربت أبنيتها العظيمة التي كانت تؤلف فيما مضى أهم معالمها التي تعزز بها ، وأصبحت هذه الأبنية في هذا العصر المظلم أنقاضاً دارسة ، وأطلالا متكلسة .

وكانت الاسكندرية قد شاركت في حركة المقاومة ضد الثمانيين ، فكانت تزود طومان باي بالزرد والسلاح ما بين نشاب وقسي وبارود (١) ، وشهدت بعد أن شنق العثمانيون طومان باي على باب زويلة ، قدوم عدد كبير من أهل مصر الذين أمر السلطان سليم بارسالهم إلى القسطنطينية ، وكانوا من الكثرة بحيث استهلكوا في الشرب مياه الصهاريج بالمدينة ، فقلت هذه المياه وغلى ثمنها حتى بلغ ثمن « كل كراز هناك خمسة أنصاف » (٢) ، وأقام الرجال الذين تقرر تسييرهم إلى القسطنطينية في أبراج الاسكندرية ، بينما أقامت النساء في الخانات ورحل السلطان سليم إلى ثغر الاسكندرية في جمادى الأولى سنة ٩٢٣ ، وأقام بالثغر ثلاثة أيام استولى خلالها على السلاح الذي كان مكدساً بأبراج المدينة (٣) .

(١) ابن إياس ، ج ٥ ص ١٦٣

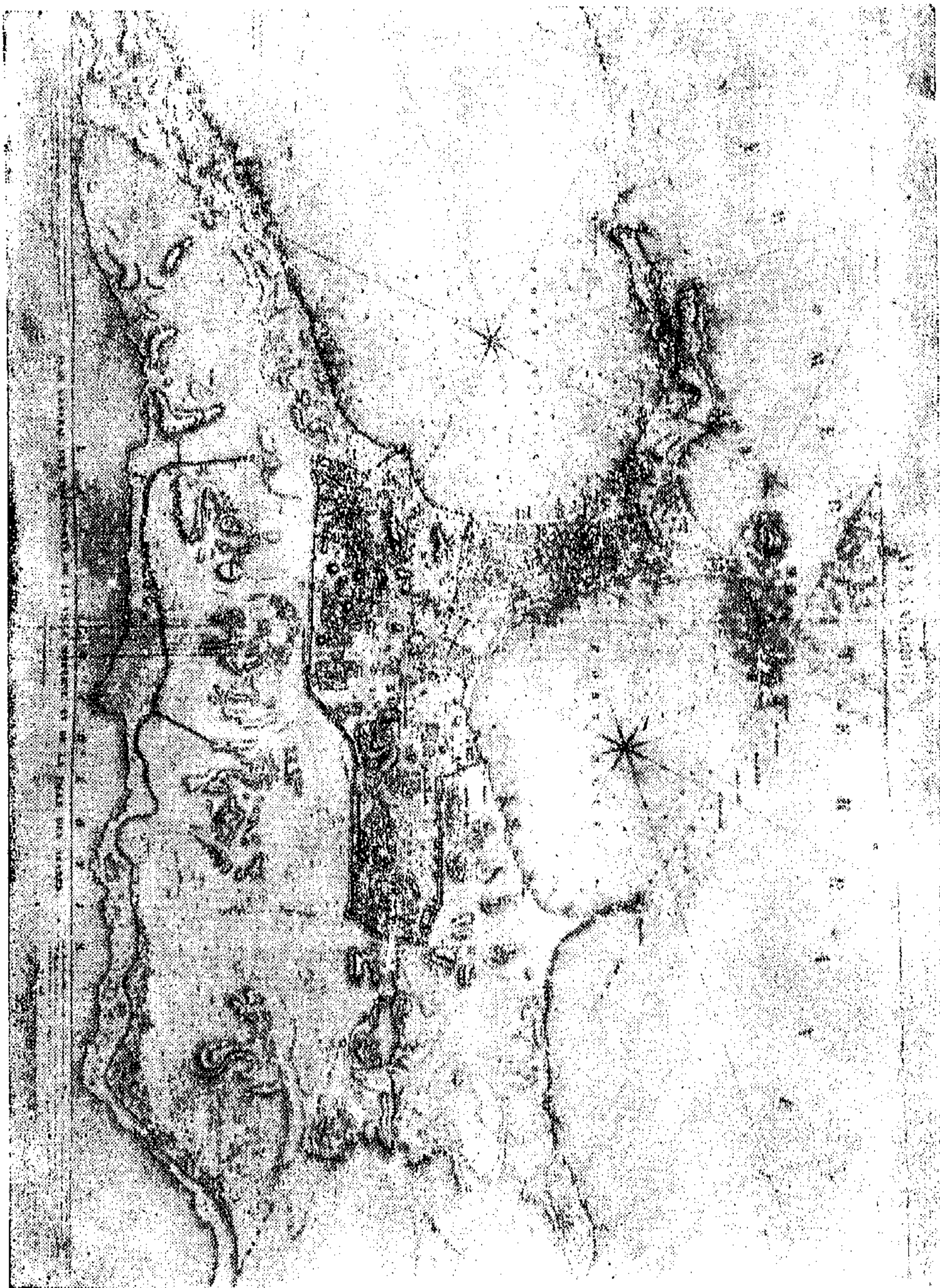
(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٥

(٣) نفس المصدر ، ص ١٨٧

وفي العصر العثماني انكشف عمران الاسكندرية ، وانحصر في المنطقة الواقعة خارج باب البحر المؤدية إلى شبه الجزيرة . وبينما كانت هذه المنطقة تجر بالمباني الجديدة لتصبح المركز العمراني الجديد لشهر الاسكندرية ، وتحل محل القصبية التي أصبحت تعرف باسم المدينة العربية ، اقتصر العمران داخل الأسوار إبان القرن السابع عشر الميلادي على عدة فنادق كان يستخدمها التجار لنزولهم ولخزن متاجرهم ، بالإضافة إلى كنيسيتين وعدة مساجد . غير أن هذه الحانات والفنادق لم تلبث أن تلاشت في القرن الثامن عشر ولم يعد لها وجود ، ولم يعد يسكن المدينة الإسلامية القديمة في الوقت الذي أقام فيه القنصل الفرنسي بنوا دي ماييه Benoit de Maillet فيما بين عامي ١٦٩٢ ، ١٧١٨ ، إلا عدد قليل من السكان لا يتجاوز المائة شخص ، وذكر بنوا أن المرء لم يكن يستطيع في ذلك الوقت الخروج من داره بداخل الأسوار في الصباح أو في المساء دون أن يعثره الخوف من قطاع الطرق واللصوص ، والظاهر أن الأهالي آثروا الإقامة خارج السور في المدينة التركية الجديدة التي أقيمت من أنقاض المدينة الإسلامية بعد أن تم ردم جزء كبير من الميناء الشرقية بحذاء اللسان القديم بالرمال (١) . وتظهر من خلال هذه المدينة الجديدة بوضوح في المخططات والصور التي سجلها جرافيه درتير في سنة ١٦٨٦ م (٢) . ويتجلى في تخطيط جرافيه المذكور بعض أعمدة قائمة في مواضع من الاسكندرية الإسلامية الواقعة داخل الأسوار بالإضافة إلى مسلة قائمة وأخرى ترقد على جانبها . ونستطيع أن نتميز في هذا التخطيط وجود كومتين أو ثلاثين ، أحدهما

Kable, *op. cit.* p. 140. (1)

Combe, *Les Levés de Gravier D'Oultiers à Alexandrie*, Bulletin (r) of the Faculty of Arts of Alexandria, vol. I, May 1913, p. 52 sqq.



خريطة تمثل الاسكندرية في عصر الحملة الفرنسية

يقع فى الجنوب الشرقى من المسلتين وهو كوم الدكة ، والثانى يقع قريباً من الميناء الغربىة ، بالقرب من السور الغربى عند التقائه بالسور الشمالى ، ويعاوه برج ، هو المعروف حالياً ببرج كوم الناصورة . وكان هذا الكوم الثانى يعرف فى المصادر العربىة بكوم وعلة (١) . وفى هذا التخطيط أيضاً نشاهد عمران المدينة التركىة فيما بين الأسوار وجزيرة فاروس القديمة .

Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie et des environs, dans :
Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, No. 34,
1941, p. 95.

القسم الثانى

بعض مظاهر حضارة الاسكندريه فى العصر الاسلامى

الفصل الثاني عشر

التوسع العمراني والمنشآت

١ - تطور العمران السكندري في العصر الإسلامي .

٢ - العمارة الحربية :

(أ) أسوار الاسكندرية :

(ب) أبواب الاسكندرية : باب رشيد - باب الزهري - باب السدرة
باب القرافة - باب الخوخة - باب الديوان - باب البحر -
باب الغدر - الباب الأخضر

(ج) قلاع الاسكندرية .

برج شرقي - برج ضرغام - برج باب السدرة - برج باب
الزهري - قلعة السلسلة - برج كوم وعلة أو كوم النظورة - قاعة
رماة القرافة - قلعة قايتباي .

(د) بعض التحصينات الأخرى .

٣ - العمارة الدينية :

(أ) المساجد : الجامعان الشرقي والغربي - مسجد وضريح أبي
العباس المرسى والمنطقة حوله - مسجد قعجاس الأسحاقي خارج
باب رشيد - جامع الصواري خارج باب السدرة .

(ب) المدارس ودور الحديث والخوانق : المدرسة الخلاصية —
المدرسة النابلسية — مدرسة الفخر — مدرسة البليسي — مدرسة
ابن حباسه — مدرسة التكريتي — دار الحديث التكريتي —
دار الحديث النبيهية — مدرسة الدماميني — المدرسة الخضراء —
خانقاه بيليك المحسني — المدرسة الحافظية — مدرسة قايتباي —
المدرسة والمارستان الصلاحي .

(ج) الربط : رباط الواسطي — رباط سوار — رباط الهكاري —
رباط ابن سلام — رباط وتربة الأمير طغية — رباط قجماس
الاسحاقى .

٤ — العمارة المدنية :

(أ) القصور الخاصة والقصور العامة :

قصر الإمارة — قصر السلطان — قصر السلاح .

(ب) الدور الخاصة والعامة :

نظام الدار الإسلامية في الاسكندرية — دار الضرب — بيت
المال ودار العدل — دار الصناعة — دار الطراز .

(ج) المؤسسات العامة :

الحمامات — الفنادق — الصهاريج والخزانات — القناطر والمقياس

الفصل الثاني عشر

التوسع العمراني والمنشآت

(١)

تطور العمران الإسكندري في العصر الإسلامي

رأينا من العرض التاريخي السابق كيف احتفظت الإسكندرية في فجر الإسلام بتخطيطها القديم حتى بعد أن تخربت بعض أجزاء من سورها اليوناني الروماني بقذائف منجنيقات عمرو بن العاص ، ورأينا كيف انكش عمران الإسكندرية بعد موجة الفتح ، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى إعادة تسويرها بسور جديد يحيط بالأجزاء العامرة منها بعد أن أخرجت من نطاق المدينة الإسلامية المناطق التي هجرت ، واستخدمت في السور الجديد ، الذي يعتقد أنه من بناء أحمد بن طولون ، أحجار الأسوار القديمة المخربة .

وظلت الإسكندرية بالرغم من ذلك تحتفظ من حيث التخطيط بنظامها التخطيطي اليوناني الروماني ، فتميزت شوارعها بالنظام المتعامد ، وكان يخرقها من الشرق إلى الغرب طريق فسيح كان يعرف باسم المحجة العظمى تمتد ما بين باب رشيد شرقاً والباب الغربي أو القرافة غرباً ، يقطعه طريق آخر رئيسي ، يقارب المحجة في الاتساع ، ينتهي في الشمال بباب البحر المطل على المينة الشرقية ، وفي الجنوب بباب السدرة أو باب البهار أو باب العمود نسبة إلى عمود السواري الذي أصبح يرى منذ بناء السور الجديد في ظاهر المدينة

من قبلتها . كذلك كانت الاسكندرية في هذا العصر تحتفظ بمعالمها التي كانت تتميز بها منذ الفتح العربي ، مثل أطلال معبد السيرابيوم وعمود السوارى الضخم ، ومنار الإسكندرية القائم في الزاوية الشمالية الشرقية من شبه جزيرة المنار بازاء رأس لوكياس ، وأطلال القصرين بمنطقة الرمل بظاهر الاسكندرية من الجهة الشرقية ، والمساجد التي أقيمت في أعقاب الفتح العربي ، وأهمها الجامع الغربى ، ودار الإمارة والقصر الفارسى ، ومثل المسلمين القائمتين بجوار آثار معبد القيصريوم . ولا نعرف من أحياء المدينة الإسلامية في ذلك العصر سوى اسمى حومتين أو حين من أحيائها هما : القصبة (١) والعادلية (٢) ، كما لا نعرف من أرباضها سوى ثلاثة هي : ربض القصرين بشرقى الاسكندرية ، وقد ذكرنا فيما سبق أن موضع القصرين يتفق وموضع معسكرات مصطفى باشا في الوقت الحاضر ، ثم ربض السرية وكان يقع في جنوب المدينة ، ويضيف الكندى ربضاً ثالثاً يقال له منية الزجاج دفن فيه عتبة بن أبى سفيان (٣)

وشهدت الاسكندرية في العصرين الفاطمى والأيوبي تطوراً عمرانياً واضح المعالم ، فقد عمرت المنطقة الشرقية بظاهر الاسكندرية بالمباني والقصور التي سبق أن تحدثنا عنها في العصرين الفاطمى والأيوبي ، وأقيمت بالاسكندرية مدرسة وبمارستان للمغاربة ظلاً قائميين في عصر المماليك البحرية ، إذ زودها سيف الدين الأكر الكشلاوى ، نائب السلطنة بالثغر السكندرى ، في سنة ٧٦٧ ، بعد وقعة القبارصة ، بالأدوية والأشربة اللازمة ، وأقام أمام بابها

(١) كان هذا الحى هو قلب الاسكندرية ومركزها الذى ينبض بالحياة ، ونعنى به حى العطارين حيث كانت تتوزع أسواق الاسكندرية الهامة .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤٠٦

(٣) الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٣٦

سلسلة ضخمة على النحو الذى أوضحناه من قبل . كما شهدت الاسكندرية مسجداً جامعاً ثانياً فى العصر الفاطمى هو جامع العطارين ، وأصبح لها بذلك جامعان رئيسيان .

وفى العصر المملوكى تطور العمران السكندرى تطوراً سريعاً ، فقد عاشت الإسكندرية فى أيام المماليك عصراً زاهراً نهضت فيه اقتصادياً وعمرانياً ، وانعكس أثر ذلك على المنشآت الحليّة ، الدينية والمدنية ، التى زخرت بها شوارع المدينة . ويعبر الرحالة ابن بطوطة عن هذا التوسع العمرانى أصدق تعبير بقوله : « هى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحسين ، وماثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلالها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفرق المحاسن ، لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا » (١) .

ونستدل من وصف النويرى السكندرى لموكب السلاطان المالك الأشرف شعبان أن المدينة كانت تحتفظ فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى إلى حد كبير بنظامها التخطيطى القديم ، فقد ظلت المحجـزة العظمى تحترق الاسكندرية من وسطها ، من الشرق إلى الغرب ، وية طعها من الشمال إلى الجنوب الطريق الرئيسى الآخر الذى يصل بين بابى البحر شمالا والسدرة جنوبا ، وبالقرب من التقاء الطريقين يقوم مسجد صغير يعرف بمسجد أبى الأشهب . كذلك نستدل من وصف النويرى للموكب أن داراً تعرف بدار

(١) ابن بطوطة الرحلة ، ص ٢٠

ابن الجباب أو ابن الجياب (وهو أحد أفراد أسرة من كبار تجار الاسكندرية) كانت تقع في الطريق المؤدى إلى البحر ، وكان جفار القصارين يقع قريباً منها مما يلي البحر ، وإن كانت هناك أجفار أخرى لقصارى الشياب ذكر النويرى السكندرى في موضع آخر أنها كانت تجاور الباب الأخضر الذى ينفتح في السور الشمالى الغربى (١) .

وكان يشغل المنطقة الفضاء الواقعة خارج باب البحر ، المؤدية إلى الفنار القديم وقلعة قايتباى فيما بعد ، وتعرف بالميدان مخيم كان ينزل به السلاطين ، ويلعب فيه الأشرف قايتباى والغورى بالكرة مع أمراء المماليك (٢) . وعندما يزور أحد السلاطين الاسكندرية ، وينزل بالمخيم الشريف المنسوب خارج باب البحر ، كانت شرافات السور تعلق منها القناديل (٣) ، وكان يعلو كل برج من أبراج السور أعلام وطبلخاناه وأبواق وأجراس (٤) . وكان يخرق الثغر خليج ممتد يأتى من النيل ويصب في البحر غربى المدينة (٥) ، وتتفرع من هذا الخليج بداخل المدينة شبكة مائية في باطن الأرض تروى الدور والبساتين .

كذلك كان يحيط بالمدينة من الشرق والجنوب الشرقى بساتين نضرة ، ومزارع خضراء ، كانت تعمر بالضيعات والمنيات في الأوقات التى تجرى

(١) النويرى السكندرى ، مخطوطة الهند ، ص ٢٣ أ

(٢) ابن اياس ، ج ٣ ص ١٢٨ ، ج ٤ ص ٤٢٣

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠ — ابن

اياس ، ج ٤ ص ٤٢٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٠

(٥) نفس المصدر .

فيها مياه النيل في الخليج . ثم تتحول إلى خرائب عندما تتوقف هذه المياه عن الوصول إلى الاسكندرية ، كما حدث في السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى .

واستجدت بالمدينة في عصر المماليك البحرية أحياء أورد النويرى السكندري أسماءها، منها حى الزريبة بغربى الاسكندرية حيث كان يقع قصر السلاح (١) ، وحى قلزى (٢) وكانت تقوم فيه كنيسة . ويعتقد الأستاذ كومب أن لفظة قلزى تحريف من الكلمة اليونانية « اكليزى » بمعنى كنيسة ، وأن هذا الموضع إنما سمي كذلك نسبة إلى الكنيسة المذكورة التى كانت تقوم فيه (٣) . ويشير الرحالة الألمانى فورر Fürer الذى وصف الإسكندرية فى سنة ١٥٦٥ م إلى أن اليهود كانوا يقطنون موضعاً يعرف بكوم العافية ، يقع بشرق الإسكندرية ، ويعتقد الأستاذ كومب أيضاً أن هذه المنطقة كانت تقع فيما يلى جبانة اليهود الحالية ، أى فى المرتفع الذى يقع ما بين منطقة الشاطي الحالية والإبراهيمية (٤) ، ومعنى هذا أن كوم العافية كان ربضاً من أرباض الاسكندرية الشرقية .

وبالاضافة إلى هذه المواضع المذكورة أمدنا النويرى فى سياق حديثه عن وقعة القبارصة بأسماء مواضع وأسواق ، منها موضع يعرف بالكدس ، كان

(١) النويرى السكندري ، مخطوطة الهند ، ص ٨٣ ب

(٢) النويرى السكندري ، ص ١٩٥ ب

(٣) E. Combe, Notes de topographie Alexandrine, dans B.S.R.A.A. No. 34, p. 72.

(٤) Ibid. p. 72

يقع فى جهة الباب الأخضر (١) ، وموضع يعرف بالمعاريج كان يقع فيه سوق يقال له سوق القشاشين ، وبجواره تقوم حيوانيت المرجانيين وقيسارية الأعاجم (٢) ، وأعتقد أن هذه المواضع كانت قريبة من الحى التجارى المعروف بالعطارين . ويشير ابن حجر إلى موضع يقال له المرجانيين من الاسكندرية كانت تقوم فيه مدرسة أسسها أحد شيوخ الاسكندرية ويعرف بتاج الدين عتيق بن محمد بن سليمان الخزومى الدمامينى ، المتوفى فى سنة ٥٧٣١ هـ (٣) . ومن المواضع التجارية التى زودنا النويرى بأسمائها : سوق السلاح (٤) ، وسوق الحوار ، ووكالة الكتان المقابلة لجامع الحيوشى أو جامع العطارين ، وسوق الحشابين الذى كان يقع أيضاً بالقرب من ذلك الموضع (٥) ، والبرازين . والشماعين والصاغة (٦) ، وهى مواضع كانت تقع فيما يظهر إلى الشمال الغربى من الاسكندرية ، فى حى الحمراء بالقرب من منطقة الباب الأخضر

ويرجع السبب فى تعدد هذه الأحياء والمواضع إلى كثرة الأسواق التجارية والمنشآت الدينية التى كانت أسماؤها تغلب على أسماء المناطق التى تقوم فيها . وكان من الطبيعى أن نميز فى طوبوغرافية الاسكندرية ، إلى جانب معالمها الاسلامية القديمة التى ظلت قائمة فى مواضعها فى العصر المملوكى ،

(١) النويرى السكندرى ، ص ٨٤ أ

(٢) النويرى ، ص ٨٢ ب

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٤٨

(٤) النويرى ، ص ٢٦٩ أ

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٢ ب

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٣ أ

معالم أخرى جديدة ، جدت بسبب اتساع العمران السكندري في هذا العصر ،
أشار إليها النويرى في مصنفه الكبير « الإلمام بما قضت به الأحكام » ، ومن
هذه المعالم البارزة في مدينة الاسكندرية في العصر المملوكى ما يلى :

سيالة المنسار : هى منطقة ضحلة المياه ملاصقة لسور منار الاسكندرية
القديم ، تطل على مينة الاسكندرية الشرقية ، ونزل فيها جماعة من القبارصة
فى سنة ٧٧٠ هـ (١) :

باب الزهرى (٢) : أول أبواب البر الجنوبية من الاسكندرية من
الجهة الشرقية ، يقع قريباً من باب رشيد أو الباب الشرقى ، وما زالت بقايا
منه مع جزء من السور القبلى قائمة فى وقتنا الحاضر فى ملعب الاسكندرية
المعروف بالاستاد .

باب الخوخة (٣) : كان مجاوراً لدار السلطان ، فى الشمال الشرقى من
سور الاسكندرية .

باب الغدر (٤) : كان يقابل باب البحر من داخل دهليزه ، ويستخدم
فى أوقات الحصار .

رباط ابن سلام (٥) : أنشأه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام خارج
باب البحر بالجزيرة قبل وقعة القبارصة بأكثر من سنة ، وأنفق عليه ثمانمائة

(١) النويرى ، ص ٢٧٤ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ ب

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١ أ ، ٨٤ أ

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ب

(٥) نفس المصدر ص ٨٠ أ

دينار ، وقد تعرض هذا الرباط لاعتداء القبارصة ، الذين انتزعوا شبابيكه النحاسية وكسروا قناديله ، وأحرقوا سقف إيوانه الخشبية .

تربة الأمير طغية (١) : كانت تقوم بشبه جزيرة المنار في المنطقة المعروفة بمقبرة الميناوين وفيها ضريح الأمير طغية والأمير بلاط .

مصلى الأعياد (٢) : كان يقع بشبه جزيرة المنار ، في منطقة فضاء كانت تؤدي فيه صلاة العيدين ، ويقابله في المغرب الإسلامى الشريعة .

مدرسة الفخر (٣) : كانت تقع بالقرب من باب رشيد .

مقبرة الميناوين (٤) : كانت تقع خارج باب البحر في المنطقة الفضاء الممتدة إلى شبه جزيرة المنار .

* * *

وإلى جانب هذه المعالم الجديدة ، هناك معالم أخرى كثيرة سنشير إليها عند دراستنا المقبلة عن منشآت الاسكندرية في العصر المملوكى ، وهو العصر الذى اكتملت فيه طبوغرافية الاسكندرية الاسلامية واتخذت صورتها النهائية .

وقبل أن ننتهى من حديثنا عن تطور العمران الاسكندرى ، لابد أن نشير إلى جبانات الاسكندرية ، وهى أربع جبانات : الشرقية خارج باب رشيد والغربية اثنتان ، واحدة فى داخل نطاق السور ، وهى جبانة عملة التى دفن فيها

(١) نفس المصدر ، ص ٨٣ ب ١

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٣ ب ٢

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١ ب ٣

(٤) اليونانى ، ج ٢ ص ٣٤٩ ، ٣٥٧

الطرطوشى والسلفى وغيرهما ، والثانية هى مقبرة القرافة الواقعة خارج باب القرافة . أما الحبانة الثالثة فهى مقبرة الميناوين أو ما بين الميناوين (١) . وكانت تقع خارج باب البحر ، ودفن فيها أبو العباس المرسى وتلميذه ياقوت الحبشى (٢) وغيرهما ، وأخيراً مقبرة الديماس (٣) أو كوم الدكة .

(١) اليونينى ، ج ٢ ص ٣٤٩

(٢) النويرى ، ص ٢٣٩ ب

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٩٤

(٢)

العمارة الحربية

(١) أسوار الاسكندرية:

كان سور الاسكندرية الذى أسسه ابن طولون ما يزال سليماً فى العصر الفاطمى ، ولذلك لم يتلق من عناية الخلفاء الفاطميين الا قدراً ضئيلاً ، غير أن بنيان هذا السور تأثر تأثراً شديداً ، كما سبق أن أوضحنا فى حديثنا عن المنشآت الحربية فى العصر الفاطمى ، بالحركات الثورية والفتن التى قامت ابان هذا العصر ، مثل حركة ابن حمدان ، وفتنة الأوحى ، والنوبة النزارية وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تعرض أجزاء منه لقذائف المنجنيقات. وقد حمل هذا والى الاسكندرية فى أيام الأمر بأحكام الله « المؤمن سلطان الملوك أبو تراب حيدرة » على أن يجدد عمارته فى سنة ٥١٧ هـ (١) ، كذلك أقام الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار برجا عند باب البحر عرف ببرج ضرغام وذلك فى سنة ٥٥٧ هـ (٢) ، والظاهر أن هذا البرج كان يقصد به تمكين الدفاع فى هذه المنطقة بالذات ، لاشرافها على شبه جزيرة المنار وقد أسهم هذا البرج فى الدفاع عن الاسكندرية فى العصر الأيوبى سنة ٥٦٩ هـ ، ثم أحرق فى وقعة القبارصة فى سنة ٧٦٧ هـ (٣) . وسنعود لدراسة هذا البرج عند تعرضنا لذكر قلاع الاسكندرية .

(١) المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، المخطوطة ، ص ١٢٨ ب

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ ب

(٣) النويرى ، ص ٨٤ أ

ولما قامت الدولة الأيوبية ، اهتم صلاح الدين مؤسس هذه الدولة بمدينة الاسكندرية اهتماماً خاصاً ، وذلك لما أظهره أهل الاسكندرية من تضامن لقضيته في صراعه ضد شاور والقوى الصليبية ، ولما بذلوه له من عون ، فأمر باصلاح أسوار المدينة عند زيارته للاسكندرية في ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦هـ (١) ثم قدم بنفسه في سنة ٥٧٢ ليشرف على أعمال الترميم .

ويبدو أن أسوار الاسكندرية — وخاصة الأجزاء الشمالية منها — أصيبت ببعض الأضرار في أواخر عصر الدولة الأيوبية ، الأمر الذى دفع بالظاهر بيبرس إلى زيارة الاسكندرية عقب ظفـره بالسلطنة ، لترميم أسوارها ، والعناية بها ، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ (٢) . غير أن جزءاً كبيراً من سور الاسكندرية الشمالى المواجه للبحر تهدم على أثر الزلزال الذى حدث في ٢٣ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ ، وأدى إلى طغيان البحر على الواجهة الأمامية للاسكندرية حتى « دخل الصناعة ووصل إلى الأسوار » (٣) . وذكر المقرئى أن الزلزال هدم

(١) أبوشامة ، ج ٢ ص ٤٨٦

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ٤٤٦

وذكر محبى الدين بن عبد الظاهر فى كتابه الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر أن السلطان بيبرس « حث على عمارة أسوار الاسكندرية وحفر خنادقها واصلاح الواهى منها ، ورتب جملة لذلك تنفق فيه فى كل شهر ، وبني لشجر رشيد سرقباً لكشف سراكب العدو المخدول »

Syedah Fatima Sadeque, Baybars I of Egypt, Pakistan, 1956, Arabic text, p. 30.

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ حوادث ٧٠٢ هـ

ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجاً من السور الأمامي (١) . فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الحاشنكير إصلاح ما تهدم من السور ، وتم ذلك في شهر ربيع سنة ٧٠٣ (٢) . وأعتقد أن سور الاسكندرية الشمالى دعم فى هذا الترميم بستارة أمامية فى القطاع الممتد ما بين بابى البحر والأخضر على الأقل مسافة الست والأربعين بدنة المذكورة ، فأصبح سوراً مزدوجاً يتألف من السور الرئيسى وبدناته وأبراجه ، والسور الأمامى . كما اعتقد أيضاً أن هذا السور فتحت فيه أبواب جديدة إما فى عصر السلطان بيبرس أو فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون عقب الزلزال المذكور ، منها باب الديوان المجاور لباب البحر من الجهة الشرقية ، وباب الغدر وكان باباً داخلياً متصلاً بدهليز باب البحر ، والباب الأخضر فى الركن الشمالى الغربى من السور السكندرى بجوار باب القرافة ، وباب الزهرى فى النقطة التى يتجه فيها السور السكندرى الشرقى إلى الجنوب ، على مسافة قصيرة من باب رشيد ، وباب الخوخة المجاور للباب الأخضر ، وقد لاحظ ابن بطوطة حصانة أسوار الاسكندرية عند زيارته لها فى سنة ٧٢٥ هـ . ويبدو أن الأبواب التى فتحت مؤخراً كانت مجرد أبواب ثانوية بدليل أنه لم يذكر من أبوابها سوى أربعة هى : باب السدرة وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر (٣) .

ونستنتج من وصف النويرى لزيارة الأشرف شعبان لمدينة الاسكندرية ما يؤكد رأينا فى أن سورها الشمالى الممتد ما بين باب البحر والباب الأخضر على الأقل إن لم يكن سور الاسكندرية كله ،

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٩٤٣ - ٩٤٤ - أبو الفدا ، ج ٧ ص ٦٠

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

(٣) ابن بطوطة ، ص ٢٠

كان مزدوجاً أى يتألف من سورين ، على النحو الشائع فى العمارة البيزنطية والعمارة الاسلامية فى الأندلس (١) . غير أن أستاذنا المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال إستنتج فى مقاله عن طوبوغرافية الاسكندرية من نفس نص النويرى أن هذه الأسوار كانت ثلاث يفصل كل منها فصيل أى طريق فاصل ، وذلك لأن الأشرف شعبان وفقاً لرواية النويرى خرج من باب البحر الذى يلى البلد ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ، ثم الثالث (٢) . وقد فندنا هذا الرأى فى طبعتنا الأولى من هذا الكتاب (٣) ، وفى بحثنا عن تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى (٤) ، مستندين فى ذلك إلى الحقائق الآتية :

١ — ذكر النويرى السكندرى فى وصفه لممرور الأشرف شعبان من الباب الأخضر بالاسكندرية أنه « ركب وفتح له الباب الأول والثانى مما يلى البلد وسار به وزيره سيف الدين الأكرز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطــــراز » (٥) . وهذا النص صريح يدل على أن السور الأساسى الذى يلى البلد كان به بابان ، أما السور الأمامى فكان له باب واحد ، فالسلطان يخرج من البابين الأولين فيجد نفسه بين السورين .

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور ، فى الأندلس ، ص ١٣٤ وما يليها .

(٢) جمال الشيال ، الاسكندرية فى العصرين الأيوئى والملوكى ، ص ١٠٣ — الاسكندرية : طوبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٣٩ .

(٣) تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ١١٨ وما يليها

(٤) تخطيط مدينة الاسكندرية ، ص ٩٦

(٥) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٢ أ

٢ - ذكر غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، نائب السلطنة بالاسكندرية في عصر الأشرف برسباي ، في كتابه « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » عن ثغر الاسكندرية العبارة التالية : « وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه ، يشتمل على سورين محكمين ، بها عدة أبراج يحيط بها خندق ، يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة ، وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل الباب منها ثلاثة أبواب من حديد » (١) . وهذا النص أيضاً صريح واضح لا يحتاج إلى تفسير ، فسور الاسكندرية كله سور مزدوج ، والباب الواحد يشمل على ثلاثة أبواب حديدية .

٣ - ذكر النويري السكندري في سياق حديثه عن موكب السلطان الأشرف شعبان بالاسكندرية أنه سار بالمحجة ، ثم عطف عطفة مسجد أبي الأشهب ، وسار إلى أن « خرج من باب البحر الذي يلي البلد ... ثم سار وخرج من الباب الثاني والثالث ، فشاهد البحر الملح والمينيه » (٢) ومعنى هذا أن باب البحر كان يشتمل على ثلاثة مداخل أو أبواب .

٤ - ذكر النويري أثناء تعرضه لما اجترمه القبارصة في الاسكندرية ، أنهم « أحرقوا باب البحر الأول والثاني ... وأبواب الباب الأخضر الثلاثة » (٣) . وفي موضع آخر يذكر أن الباب الأخضر المذكور سد بعد الواقعة بالحسيير والحجر ، « ثم فتح بعد ذلك ، وركب عليه أبوابه الأول والثاني والثالث المتجددة وذلك في يوم الواقعة سنة ٧٦٧ في ولاية الأمير سيف الدين الأكز

(١) ابن شاهين الظاهري ، ص ٣٩

(٢) النويري ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤١ ب

(٣) النويري ، نسخة الهند ، ص ٨٤ أ

الاسكندرية «(١) .

٥ — يمكننا أن نشهد السورين في خريطة للاسكندرية ترجع إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي (في سنة ١٦١٩ م) ، فالسور الشمالى من دون أسوارها جديعاً يبدو في الصورة مؤلفاً من سورين أحدهما أكثر ارتفاعاً من الآخر .

٦ — يمكننا أيضاً أن نميز ازدواج السور الشمالى في خريطة للاسكندرية ترجع إلى سنة ١٦٨٦ م .

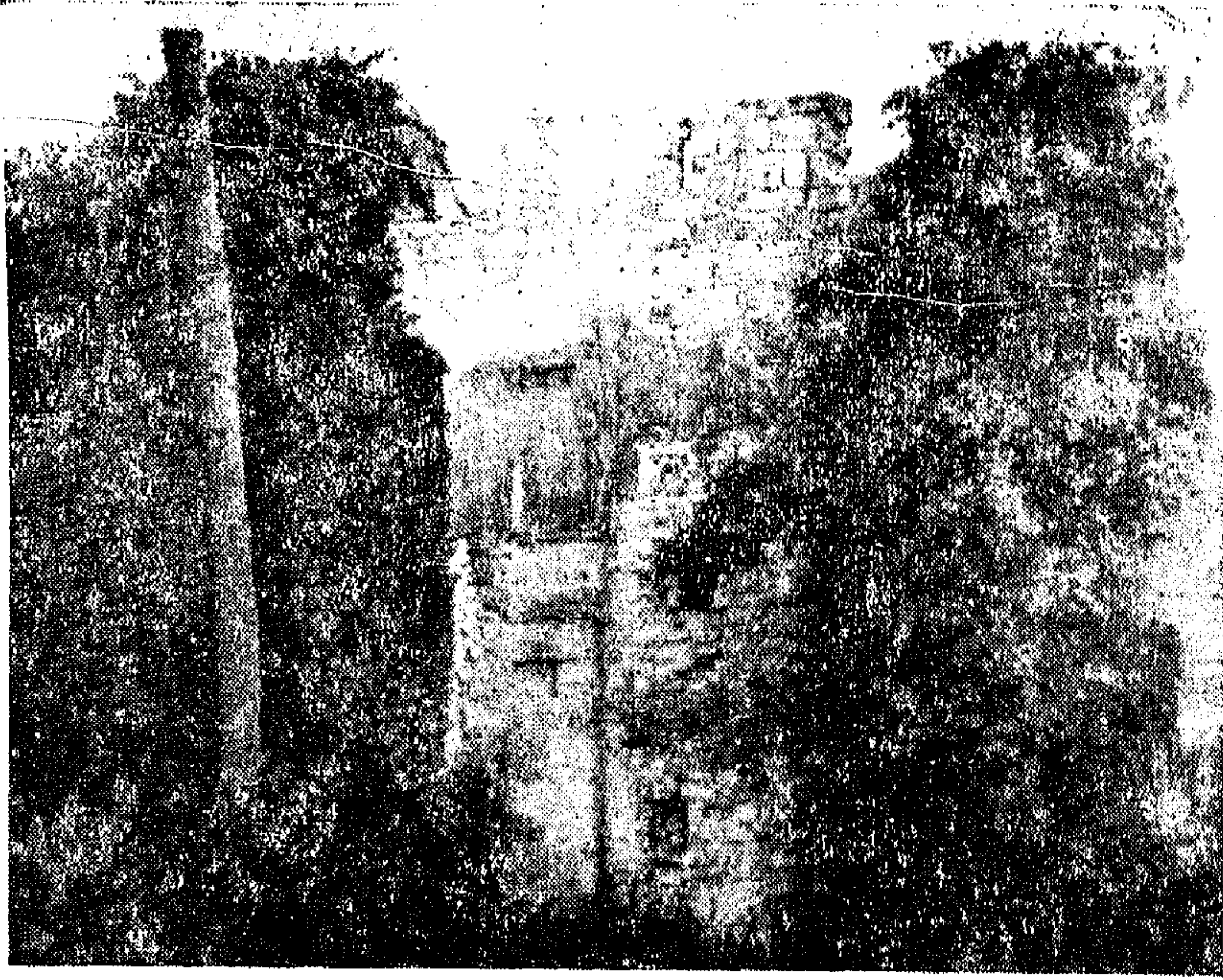
٧ — في إحدى صور الفنان والمهندس الفرنسى لوى فرانسوا كاساس (١٧٥٦ — ١٨٢٧) التى صورها لباب رشيد ، نشاهد للسور المتصل بالباب سورين أحدهما أمامى يتقدم الباب وسور آخر خلفى متصل بالباب (٢) .

وقد أوضحنا فى ذلك الحين أن من السهل تصور الأبواب الثلاثة للباب الواحد (٣) ، فلقد عرفنا من أسوار القاهرة أن للباب الواحد بابين تفصلهما رحبة أو اسطوان ، وتماوه قبوة كبيرة ، كما هو ممثل فى أبواب الفتوح والنصر وزويلة ، فاذا أضفنا للسور الأمامى باباً ثالثاً ، أصبح للباب الواحد ثلاثة مداخل أو أبواب . ومن أمثلة هذه الأبواب الثلاثية ، باب قرطبة بمدينة

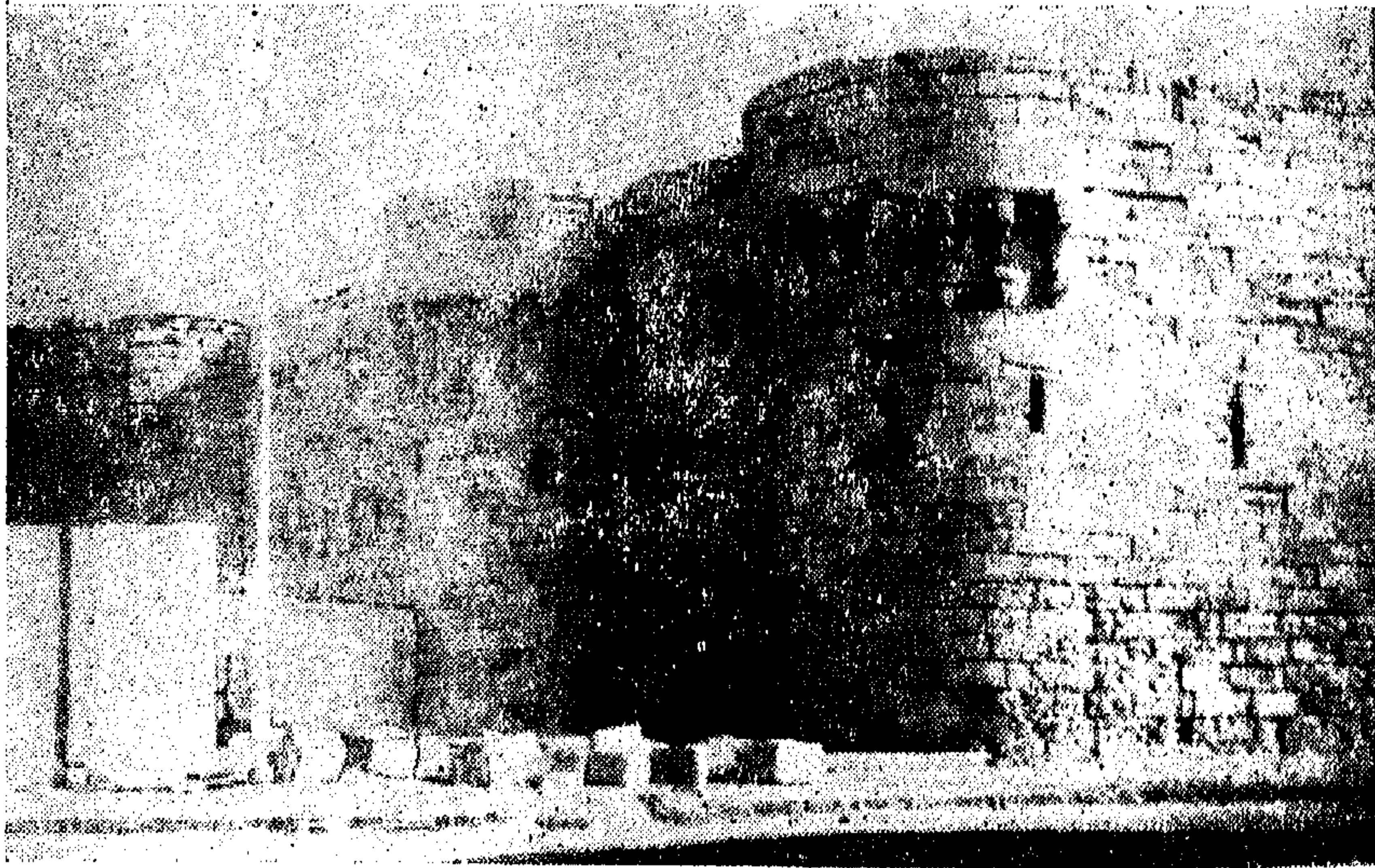
(١) نفس المصدر، ص ٧٨ أ

(٢) Combe, Notes de Topographie et d'histoire Alexandrine, dans, B.S.R.A.A. No. 36, p. 135.

(٣) كانت هذه الأبواب تفك مصاريعها الخشبية وتلقى على الأرض عندما يقوم السلاطين بزيارته الاسكندرية (راجع ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٢٦ — ١٢٨) .



جانب من سور الأسكندرية الشرقى بالقرب من باب شرق



باب من أبواب قلعة قايتباي

اشبهيلية (١) ، فهو يتألف من بابين في السور الأساسى (الملففى) ، وباب واحد في السور الأمامى الذى كان أقل ارتفاعاً من السور الأساسى . ووظيفة السور الأمامى أنه يمنع العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ، ويعوقه ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها إلى داخل المدينة . وأعتقد كذلك أن بناء هذه الأسوار كان متأثراً بالأسوار الإسلامية في المغرب والأندلس ، فلقد تغلغلت التأثيرات المعمارية المغربية في تصميم العمارة المصرية في هذا العصر ، بسبب كثرة وفود الأندلسيين الذين حكم عليهم بمغادرة وطنهم ومسقط رأسهم بعد سقوطه في أيدي الأسبان ، هذا بالإضافة إلى كثرة تردد التجار المغاربة إلى مصر (٢) .

ويبدو أن المرحوم الأستاذ الدكتور الشيال قد عدل عن رأيه الأول واقتنع بما أدليت به في كتابي من الأسانيد ، فقد ذكر أنه يفهم من وصف النويرى أن « الاسكندرية كان يحيط بها سوران أحدهما داخلى مما يلى البلد ، وهو السور الرئيسى ، وثانيهما خارجى يشرف على ما يحيط بالمدينة . وكان لكل باب من أبواب المدينة ثلاثة أبواب متينة مصفحة بالحديد . » (٣) .

وقد ظل سور الاسكندرية على حد قول الأستاذ روفون جيست في مقاله بدائرة المعارف الإسلامية قائماً حتى ١٨١١ ، وكان يتألف من « سور خارجى ارتفاعه عشرون قدماً ، ووراءه في معظم محيط السور سور أكثر

(١) J. Guerrero Lovillo, la Puerta de Cordoba en la cerca de Sevilla, al-Andalus, 1953

(٢) عبد العزيز سالم ، بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية ، المجلة ، العدد ١٢ ص ٨٨

(٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الإسلامى ، ص

ارتفاعاً ، وأشد سميكاً ، يبعد عن السور الأمامي بمسافة تتراوح ما بين عشرين قدماً ، وخمسة وعشرين قدماً» (١) .

(ب) أبواب الاسكندرية :

كان يفتح في سور الاسكندرية الاسلامي أربعة أبواب رئيسية هي : باب البحر ، وباب رشيد ، وباب السدرة ، وباب القرافة ، ثم أضيف إلى هذه الأبواب الأربعة أبواب أخرى يغلب على الظن أنها فتحت في سور الاسكندرية في العصر المملوكي ابتداء من عصر السلطان الظاهر بيبرس . وفيما يلي بيان موجز لهذه الأبواب :

١ — السور الشرقي : وينفتح فيه الباب الشرقي المعروف بباب رشيد ، وكان يقع على وجه الدقة في طريق الحرية قرب التقائه بشارع الشهيد صلاح مصطفى (السلطان حسين سابقاً) من اليمين وشارع بلجيكا من اليسار . وكان هذا الباب هو الباب الرئيسي الذي يدخل منه القادم من القاهرة والفسطاط ولذلك عرف أيضاً بباب القاهرة (٢) ، وكان يعبر منه سلاطين المماليك عند زيارتهم لثغر الاسكندرية . وقد فر أهل الاسكندرية من هذا الباب وغيره من أبواب البر عند اقتحام القبارصة للمدينة ، وأحرق المسلمون (٣) مصاريع مداخله حتى يتيسر للعسكر المملوكي القادم من القاهرة أن يدخل المدينة ويحررها بسهولة ، وحتى لا يتحصن القبارصة داخل المدينة . ولقد وصلتنا صورة هذا الباب قبل أن يهدم بسبع وتسعين سنة ، في جملة ما رسمه لوى

(١) R. Guest, Alexandrie, dans Encyclopédie de l'Islam.

(٢) Combe, Les Levés de Gravier d'Ortières à Alexandrie, (1686) p. 56.

(٣) النويري ، ص ٩٣ أ

فرانسوا كاساس في رحلته لمصر والأراضي المقدسة وسوريا سنة ١٧٨٥م . وفي هذه الصورة (أنظر ص ٣٢٧) نشاهد باب رشيد وأمامه قافلة من الحمال تخرج من المدينة بينما نشاهد السور الأمامي وقد اكتشفت بدناته أبراج نصف أسطوانية ، وعند الطرف الأيمن من الصورة نرى برجاً مستطيل الشكل ، وكلها في حالة سيئة من التخرب ، قد سقطت أعاليها . ونلاحظ في الصورة أن مدخل المدينة لا يعدو أن يكون باباً عادياً ، فتحته تبدو ضيقة إلى حد ما ، ويكتنفه من كل جانبيه برج نصف أسطوانى ذو طابقتين ، وينتصب في المؤخرة بناء ضخيم كالقلعة مزود في الأركان بأبراج ركنية . ويمار المدخل فتحة كبيرة معقودة بعقد قوطى . ويعتقد الأستاذ كومب أن السور الأمامى كان يفتح فيه باب عادى ، ثم يمر الداخل منه في الفصيل الذى يقع بين السورين إلى أن يدخل من البوابة الضخمة . وقد قام برسم باب رشيد غير كاساس عدد من الفنانين الذين زاروا الاسكندرية فى القرنين ١٨ ، ١٩ منهم ما ير الذى صوره بعد كاساس بمعهد قصير ، وتينون Thiénon الذى صوره فى سنة ١٨١٨ (١) .

وظل باب رشيد قائماً حتى بدأت جدرانته تتصدع منذ سنة ١٨٨٢ ، ثم تهدمت جدران جانبى المدخل ، وأخذت الخنادق تنظم تدريجياً ، ثم اختفت معالم الباب فى سنة ١٨٨٥ . إلا أن قسمًا من سور الاسكندرية الشرقى المتصل بباب رشيد قد تبقى حالياً فى حدائق الشلالات ، وهو عبارة عن قطعتين من

(١) Combe, Les Levés de Gravier d'Ortières à Alex., P. 57.

وذكر الأستاذ كومب أن ما ير رسم باب رشيد من الداخل وأظهر منافذ السهام وبقايا أعمدة منسوبة فى البناء بالاضافة إلى أفاريز من الجرانيت تحيط بالعقود والنوافذ

(Combe, Notes de Topographie et d'histoire Alexandrine, de p. 135).

السور ، إحداهما إلى الشمال من باب رشيد (١) وهى لا تعدو أن تكون برجين واحد نصف دائرى والآخر مستطيل الشكل يتصل به ، وحجارتها من النوع المسنم البارز الشائع الاستعمال في العصر الأيوبي ، وتشبه إلى حد كبير نظائرها في سور صلاح الدين بالقاهرة ، وبعض أبراج قلعة صلاح الدين بالقلعة وبرج الظفر ، وسور القسطنطين (٢) ، والقطعة الثانية من سور باب رشيد نشاهدها مختلطة بأبنية مستحدثة في القسم الجنوبي من الشلالات ، قبل أن يتجه السور إلى الغرب .

٢ - السور القبلي : كان يفتح في هذا السور بابان : الأول من

الجهة الشرقية هو باب الزهري ، وقد سمي بذلك نسبة إلى ضريح للشيخ محمد الزهري (٣) كان قائماً خارج هذا الباب (وما يزال قائماً حتى الوقت الحاضر) ، وقد سد هذا الباب في عصر متأخر ، ولم يرد ذكره فيما ذكره بوكوك أو في تخطيط الاسكندرية الذي قام به علماء الحملة

(١) يشغل السور وسرفقاته من الداخل ضريح لأحد الشيوخ المتأخرين .

(٢) Creswell, some researches in the citadel of Cairo, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. 23.

حسن عبد الوهاب ، العمارة في العصر الأيوبي ، مجلة العمارة ، عدد ٧ ، ٨ ، القاهرة . ١٩٤٠ ص ٣٩٦

(٣) ذكر ابن حجر أنه محمد بن يوسف بن عبد الحميد بن علي الزهري الطوسي شرف الدين الاسكندراني ، من أعيان المائة الثامنة (الدرر الكامنة ، ج ٥ ص ٦٥) وهذا يؤكد أن هذا الباب فتح في السور في العصر المملوكي وبالنسبة في بداية القرن الثامن الهجري ، وأعتقد أنه فتح فيه في سنة ٧٠٣ هـ عند قيام الأمير بيبرس الجاشنكير بترميم السور بعد زلزال ٧٠٢ هـ .

الفرنسية (١) . ثم أعيد فتحه في القرن التاسع عشر، فظهر في الرسوم التخطيطية لمدينة الاسكندرية الصادرة من إدارة التنظيم العام في ١٨٨٧ تحت اسم باب الصورى ، تحريفاً عن الاسم الأصلى .

وكان باب الزهرى أحد أبواب البر الثلاثة ، وهى باب السدرة ، وباب الزهرى ، وباب رشيد وهى الأبواب التى فر منها أهالى الاسكندرية إلى القرى الجنوبية عندما اقتحم القبارصة أسوار المدينة من جهة باب الديوان فى المحرم سنة ٧٦٧هـ ، وأحرقت أهل الاسكندرية هو وباب السدرة وباب رشيد حتى لا يتيحوا للقبارصة الفرصة فى التحصن بداخلها واحتلالها فترة طويلة ، وفى نفس الوقت ليسهلوا لحشد مصر وعسكر المماليك مهمة دخول المدينة (٢) . ولما استرجع المماليك الاسكندرية ، أقاموا لهذا الباب مصراعاً من الخشب المكسو بصفائح النحاس ذات المسامير البارزة .

وظل أمر هذا الباب مهملاً ، لا يعرف عنه الباحثون شيئاً حتى العصر الحاضر ، ولكن آثار هذا الباب وآثار قلعته ، وجزءاً من السور المتصل به ما زالت قائمة حتى اليوم داخل ملعب الاسكندرية ، وقد كسّتها النباتات المتسلقة بكسوة نباتية لم تترك من السور أو البرج النصف الدائرى المتصل به سوى مواضع قليلة يمكن أن تراها العين (أنظر ص ٣٤١ ، ٣٧١) ، وما زالت ترى من الخارج منافذ السهام والقبوات المتقاطعة ، ويحتاج الأمر إلى دراسة طويلة لهذا الأثر الهام الحدير بالعناية والحفظ ، باعتباره أحد الآثار الإسلامية النادرة التى تبقت فى الاسكندرية .

(١) Kahle, Die Katastrophe des mittelalterlichen Alexandria, in

Mélanges Maspéro, III, 1935, p. 143.

(٢) النويرى السكندرى ، ص ٨١ ب ، ٩٣ أ

أما الباب الثانى فهو باب السدرة ، ويقع قريباً من الطرف الغربى لهذا السور القبلى . ومن المعروف أن باب السدرة هو نفس باب العمود أو باب السوارى نسبة لعمود السوارى ، أو باب الشجرة نسبة لشجرة السدر التى كانت تقوم بجواره ، أو باب البهار (١) بسبب مرور القوافل التجارية من هذا الباب حاملة البهار والتوابل ، أو الباب القبلى ، بسبب وقوعه فى جنوب الاسكندرية أو فى السور الجنوبى .

ومن هذا الباب كان خروج أهل الاسكندرية عقب اقتحام القبارصة المدينة ، فطاردهم القبارصة ، ثم نصبوا فوق الباب الأعلام القبرصية ذات الصليبان . فلما استرد المسلمون المدينة بادر صلاح الدين بن عرام بترع صليبان القبارصة من أعلى الباب ، ونصب أعلام المسلمين مكانها ، كما أمر بتحسين هذا الباب وذلك باقامة برج هائل مرتفع لصقه (٢) .

وقد ضاعت معالم هذا الباب ، ولم يبق منه سوى اسمه الذى أصبح يطلق على أحد شوارع الاسكندرية فى نفس الموضع الذى كان يقوم فيه الباب المذكور .

٣ — السور الغربى : كان يفتح فيه بابان : القبلى منهما هو باب القرافة وهو نفس الباب الغربى الذى ينتهى إليه الطريق المعروف بالحجة ، وورد ذكره فى الحملة الفرنسية تحت اسم باب المغاور . ويجعله كاله هو وباب

(١) أطلق ماشو هذا الاسم على باب السدرة لأول مرة فى مدونته : "La prise d'Alexandrie ou Chronique de Pierre Ier de Lusignan" ويسميه Porte de Poivre . وكان يؤدى إلى قنطرة تعلو الخليج (Combe, Les levés de Gravier, P. 58.)

(٢) النويرى ، ص ٢٠٨ ب

الخوخة باباً واحداً . واعتقد أن باب الخوخة الوارد ذكره لأول مرة في كتاب الإلمام والذي أحرقه القبارصة في جملة ما أحرقوه من أبواب الاسكندرية باب آخر غير باب القرافة الذي تنسب إليه القاعة المعروفة بقاعة رماة القرافة . وكان هذا الباب يؤدي إلى مقبرة كانت تقع في ظاهر الاسكندرية من جهة الغرب ، ويبدو أن هذا الباب كان مسدوداً بالبناء في الوقت الذي حدثت فيه وقعة القبارصة أو قبل ذلك بنحو ربع قرن ، اكتفاء بالباب الأخضر الذي كان يقع قريباً منه من الجهة الشمالية ، لأن ابن بطوطة لم يشر إليه ، كما أن النويري لم يذكره في جملة أبواب الاسكندرية ، بل إن الباب الأخضر نفسه لم يكن يفتح في زمن ابن بطوطة (أى في سنة ٧٢٥ هـ) إلا في يوم الجمعة ، « فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور » (١) الواقعة خارج الباب الغربي المسدود ، وهي المقبرة المعروفة بالقرافة ، لأن هناك مقبرة أخرى قريبة من الباب الأخضر في داخل نطاق الأسوار كانت تعرف بمقبرة وعلا أو وعلة أو مقبرة الباب الأخضر (٢) .

أما الباب الثاني الذي يسميه النويري الاسكندري باب الخوخة ، فقد كان مجاوراً لدار السلطان القريية أيضاً من الباب الأخضر ، ومنه دخل جنغرا مدينة الاسكندرية أثناء وقعة القبارصة بعد أن سلك طريق المطرق القديم الغربي المحاذي لدار السلطان من ظاهر سورها خائضاً بفرسه في الماء (٣) . واسم باب الخوخة لا يعنى باب المقبرة كما أشار كاله في مقاله ، وإنما يعنى

(١) ابن بطوطة ، ص ٢٠

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٩٣

(٣) النويري ، ص ٨١ ، ٨٤

المتحفة الصغيرة أو الممثل الصغير ، وكان من التسميات الشائعة في أسوار مدن المغرب والأندلس . ففي كثير من أسماء مدن المغرب ، الأندلس والأندلس كانت تفتح أبواب ، بهذا الاسم مثل باب الطور عند مدينة أشبونة (١) ، باب الخوخة بمدينة الجزيرة الخضراء (٢) ، وباب الخوخة بمدينة القطة (٣) ، وباب الخوخة بمدينة فاس (٤) ونامسان (٥) وتانس (٦) . وتسمية الأبواب بهذا الاسم مرتبطة ارتباطاً مباشراً بوظيفتها المميزة لها في حالة الحرب (٧) ، إذ كان باب الخوخة لا يفتح إلا في ظروف الاعتداء العسكري أو الغزو . ويمثل هذا الاسم باب النقبة وباب السر المؤدى إلى السور الأمامي ، أو باب الغدر الذي تسمى به باب من أبواب سور الاسكندرية الشمالي .

ونخرج من ذلك كله بأن السور الغربي كان يفتح فيه بابان لا باب واحد كما يعتقد جمهور الباحثين ، باب القرافة وباب الخوخة .

٤ — السور الشمالي : كان يفتح فيه أربعة أبواب هي كما يلي : من

الشرق إلى الغرب :

(١) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعتلار ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٥

(٣) نفس ، ص ١٧٨

(٤) الجزائري ، زهرة الآس ، ص ٥٢

(٥) البكري ، ص ٦٢

(٦) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٦٩

(٧) نفس المرجع ، ص ٦٩

باب الديوان : هي تسمية شعبية نسبة إلى الديوان أو مبنى الدائرة البحرية أو ديوان الصادر الذي كان يقوم داخل السور فيما بين باب البحر وباب الديوان ، ويسميه بوكوك الباب العتيق (١) . وكان يفتح في السور الشمالي من جهة الشرق بجوار دار الصناعة الشرقية . وكان هذا الباب قد أغلق يوم وقعة القبارصة بأمر شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين بن أبي عذينة ناظر الديوان ، من داخل الاسكندرية خوفاً من أن يستغل التجار فرصة مقاتلة المسلمين للقبارصة فيقومون بنقل بضائعهم المكسدة هناك إلى المدينة ، ولذلك اكتفى الرماة باغلاقه ، وأهملوا حراسة السور من تلك الجهة (٢) . فلما ألفاه القبارصة خالياً من الحراس ، أحرقوا مصراعه ، ودخلوا منه وارتقى بعضهم السلام التي نصبوها على جداره .

باب البحر : يلي باب الديوان غرباً ، وكان يعرف أيضاً بباب أشثوم (٣) وهي لفظة مشتقة من اليونانية ، كما كان يعرف عند بعض الأوربيين بباب السلسلة (٤) بسبب اشرافه على الميناء الشرقية التي يحيطها المنار الصغير في نهاية الصخور الممتدة بطرف رأس لوكياس القديم ، وهو المنار الذي شرع السلطان الناصر محمد في بنائه ، ولم يتم بناؤه في عهده ، وإنما تم في عهد

(١) Kahle. op cit. p. 142

(٢) النويري ، ص ٨١ أ

(٣) الاستبصار ، ص ٩٧

(٤) سماه بلجرينو بروكاردو باب زيزيل Zizzil وهي لفظة محرفة من

السلسلة

(Combe, Notes de Topographie et d'histoire Alexandrine, p. 121)

صلاح الدين بن عرام الذى جعل على أساسه حصينا دائراً على شكل أسطوانى ، وعرف هذا الباب أيضاً عند علماء الحملة الفرنسية بباب الساحة Port de l'Esplanade نسبة إلى الفضاء الممتد فيما وراء هذا الباب فى شبه جزيرة المنار حيث كان ينصب مخيم سلاطين المماليك ، عندما ينزلون الاسكندرية لزيارتها ، وعرف لهذا السبب عند الأوربيين منذ أواخر القرن ١٥ وخاصة فى خريطة كومينيلى ، بالباب الرئيسى «Porta Principalis» (١) ، كما عرف فى الخطط التوفيقية بباب الميدان . ومن الواضح أن تسميته بباب السلسلة ترجع إلى التقاليد الشعبية القائلة بوجود سلسلة تمتد ما بين منار الناصر محمد والمنار القديم ، ولذلك سعى برج الناصر محمد ببرج السلسلة. والواقع أن تسمية هذا الباب بهذا الاسم هى تسمية خاطئة أطلقت عليه فى عصر متأخر ، لأن السلسلة المذكورة أقيمت على الميناء الغربية ، وهى المخصصة لسفن المسلمين ، بعد وقعة القبارصة بأربع سنين ، فقد اهتم الأمير صلاح الدين بن عرام بتحصين هذه الميناء المعروفة ببحر السلسلة (٢) لحماية المسلمين ، فقام بالقاء كتل ضخمة من الحجارة سد بها قسماً من الميناء ، ولم يترك منه إلا فوهة ضيقة أقام بها أبنية محكمة ذات سلسلة ضخمة قوية تغلق بقفل ثقيل ، وجعل بموضع القفل كوى ومنافذ لرمى السهام على من يقصد السلسلة من الفرنج (٣) .

٣ - باب الغدر : ذكر النويرى أن هذا الباب كان يقابل باب البحر

(١) النويرى ، ص ٨٣ ب

Combe, les levés de Gravier d'Ortière à Alexandrie, p 57

(٢) النويرى ص ١٣٥ ، أ ، ٢٠٨ ب ، (مخطوطة الهند) .

(٣) النويرى ص ٢٧٨ ب (مخطوطة دار الكتب المصرية)

من داخل دهليزه ، (١) وكان يستخدم فقط في أوقات الحصار .

٤ - الباب الأخضر : وكان يفتح في السور الشمالى عند المنفاعة ناحية

الجنوب الغربى ، بحيث يطل على الميناء الغربية أو بحر السلسلة شمالا (٢) وعلى
كوم وعلة المعروف بكوم الناصورة جنوبا ، وكان يجاوره أو يفتح بالقرب منه
الباب الغربى المعروف بباب القرافة . وكان يسمى الباب الأخضر من الجهة
الشرقية قلعة ضرغام (٣) التى تقوم بجوارها من داخل السور دار السلطان (٤)
ويفتح بجوارها باب الخوخة الذى سبق أن تحدثنا عنه . وقد تعرض الباب
الأخضر بأبوابه الثلاثة للحرق يوم دخول القبارصة مدينة الاسكندرية (٥) ،
فسد بالبناء بعد الواقعة مباشرة ، ثم ركبت عليه أبوابه في ولاية سيف الدين
الأكر (٦) ، ومن هذا الباب دخل الأشرف شعبان مدينة الاسكندرية من
الجهة الشمالية الغربية ، وزار ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى ، وخرج
من هناك إلى دار السلطان مارا برحبة الجامع الغربى المجاور لهذه الدار (٧) .
وقد اندثر الباب الأخضر ولم يبق من ذكره سوى شارع بهذا الاسم .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ب

(٢) ذكر النويرى السكندرى أن القبارصة لما أفلحوا بسفنتهم يوم الخميس ٢١
من المحرم سنة ٧٦٧ « حطت قلاعها ببحر السلسلة من جهة الباب الأخضر »
(النويرى ، ص ٧٨ أ) .

(٣) النويرى ، ص ١٣٥ أ

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٤ أ

(٦) نفس المصدر ، ص ٧٨ أ

(٧) ارجع إلى الملحق في نهاية هذا الكتاب .

(ج) قسلاخ الاسكندرية :

١ — برج شرقى : ذكر ابن حجر فى الدرر الكامنة أن تقى الدين أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية عندما أرسله المماليك إلى الاسكندرية فى صفر سنة ٧٠٩ هـ نزل فى برج شرقى ، وكان موضعه فسيحاً ، فأصبح الناس يدخلون إليه ويقرأون عليه ، ويبحثون معه دون أن يمنعهم أحد (١) . وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن ابن تيمية أقام بالاسكندرية فى برج واسع فسيح متسع الأكثاف نظيف له شباك كان ، أحدهما يطل ناحية البحر ، والآخر إلى جهة المدينة (٢) . ومن المحتمل أن يكون هذا البرج المذكور قريباً من باب شرقى ولعله أحد البرجين الكبيرين المتبقين حالياً فى الشلالات ، فى المنطقة الواقعة شمالى موضع باب رشيد أو باب شرقى ، وهما برجان يمكن أن يشرف المرء منهما على البحر من جهة وعلى المدينة من جهة ثانية .

٢ — برج ضرغام : ذكرنا من قبل (٣) أن هذا البرج من بناء الأمير أبى الأشبال ضرغام ، أنشأه بالقرب من باب البحر فى سنة ٥٥٧ هـ (٤) ، وذكر النويرى أنه كان يتقدم سور الاسكندرية الشمالى ابتداء من ساحل بحر الساسلة والباب الأخضر غرباً إلى قلعة ضرغام شرقاً . نحمدق قديم (٥) ، ومعنى ذلك أن برج ضرغام كان يقع فى السور الممتد ما بين باب البحر والباب الأخضر .

(١) ابن حجر ، ج ١ ص ١٥٩

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٤٩ — ٥٠

(٣) ارجع قبل ذلك فى ص ٢١٤

(٤) اتعاض الحنفا ، ص ١٥٢ ب

(٥) النويرى ، ص ١٣٥ أ

وكان البحر قديماً يضرب في السور عند قلعة ضرغام ، ولذلك لم يستكمل المسلمون انشاء خندق يحيط ببقية السور ، ثم انحسر البحر عن السور ، فأصبح ما وراء السور ما بين باب البحر وبرج ضرغام لا خندق له .

وقد تعرض برج ضرغام لاعتداء القبارصة في غزوتهم التي حدثت في سنة ٧٦٧ هـ ، فأحرقوه في جملة ما أحرقوه من منشآت . ولكن الأمير ابن عرام أصلحه بعد خروج القبارصة ، وحفر خندقاً غربياً يعرف بالمطرق الشرقي كان يحاذي دار الإمارة .

٣ — برج باب السدرة : ذكر النويري أن الأمير صلاح الدين بن عرام أمر بتحصين باب السدرة بعمارة هائلة مشيدة عالية (١) ، وشق خندقاً جديداً يحيط بالسور البري .

٤ — برج باب الزهري : كان يقوم لصق باب الزهري أول أبواب السور القبلي من جهة الشرق برج ضخيم نصف دائري ما زال قائماً حتى يومنا هذا ، تتخلل جدرانه منافذ للسهم ، وتعلوه من الداخل قبوات متداخلة . ونصل إلى هذا البرج عن طريق باب يؤدي إلى أسطوان ممتد ، سقفه بارزة عن قبوة نصف اسطوانية . والبرج يحتاج للدراسة تفصيلية ، وبحث علمي دقيق ، إذ لا تخفى أهميته بالنسبة لتطور العمارة الإسلامية في الاسكندرية في العصر المملوكي ، وباعتباره ثاني برج حربي بعد برج قايتباي ما زال قائماً حتى يومنا هذا (٢) .

٥ — قلعة السلسلة : هي المنار الذي ذكر ابن بطوطة أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون شرع في بنائه بازاء منار الاسكندرية القديم

(١) النويري ، ص ٢٠٨

(٢) سأقوم قريباً بنشر بحث كامل عن آثار هذا البرج وبدنة السور المتصلة به

المتخرب ، فعاقه الموت عن إتمامه (١)، ثم أتيح لهذا المنار في زمن الأشرف شعبان أن يتخذ شكل برج أسطواني الشكل قام ببنائه الأمير صلاح الدين بن عرام قبل وقعة القبارصة ، على الأساس الذي كان قد أسسه السلطان الناصر محمد ، وأقام له ابن عرام بابا ، وأقام بأعلى جدرانته شرفات ، وكان يتكون من عدة طوابق ذات شرفات ، ولم يلبث هذا البرج أن نهبه القبارصة بابنه في جملة ما نهبوه من الاسكندرية (٢) . وكان هذا البرج يقوم في نهاية خط الصخور التي تحدد نهاية الميناء الشرقية من جهة الشرق (٣) ، وكان يرى من بعيد كأنه مسجد ، ولذلك يحدثنا عنه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا الاسكندرية في القرن الخامس عشر الميلادي وما يليه على أنه مسجد . وكانت لهذا البرج مئذنة ما تزال قائمة في بداية القرن التاسع عشر .

أما تسمية هذا البرج ببرج السلسلة فهي تسمية حديثة شاعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، ونراه مسجلا على الرسم التخطيطي لموائى وأرصفة الاسكندرية الذي قام بعمله سولنبيه دى فوهيلو في سنة ١٨٣٤ . وقد تعرض البرج المذكور في العصر الثماني لأضرار جسيمة ، فطرات عليه تغييرات كثيرة في هذا العصر وعصر محمد علي ، ثم تهدم في الثلث الأول من القرن العشرين (٤) .

٦ - برج كوم وعلة أو كوم النظورة :

كانت الاسكندرية الإسلامية تتميز بوجود كومين في وسطها ، يبدوان

(١) ابن بطوطة ، ص ٢١

(٢) النويري ، ص ٨٣ ب

(٣) عبد الرحمن زكي ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، ص ١٤٧

(٤) Combe, les levés de Gravier d'Ortières, p 61 - 63

من بعيد للداخل إليها من أبواب البر أو القدام عليها من الميناء الغربية ، أحدهما كوم الدكة ، والآخر كوم وعلة . وأول من أشار إلى كوم وعلة الرحالة الأندلسي ابن رشيد السبتي الذي زار الاسكندرية في سنة ٦٨٤هـ ، وطاف بمقبرة كوم وعلة (١) التي دفن فيها عدد من شيوخ الاسكندرية ومنهم الحافظ السلفي (٢) ، وأبو بكر الطرطوشي ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الرازي الملقب بابن الخطاب الشافعي (٣) .

ويشير ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار إلى منارة أو برج كان قائماً بأعلى كوم وعلة ، ويسميه كوم النظورة ، ويذكر أن هذا البرج لم يكن على أسس قوية . ويظهر هذا البرج في الرسم التخطيطي الذي قام به كومينللي في سنة ١٤٧٢ . وقد عرف هذا البرج في أيام الحملة الفرنسية باسم حصن كافاريللي أحد قواد الفرنسيين ، ثم تعرض هذا البرج لأعمال تجديدية في عصر محمد علي لتقويته وتدعيمه ، حتى يصلح لمراقبة البحر من هذه الناحية ، وعرف منذ ذلك الحين بكوم الناضورة (٤) .

٧ — قاعة رماة القرافة : كانت هذه القاعة من الأبنية الحربية الضخمة

وكانت تقع فيما يبدو بالقرب من الجامع الغربي ، بجوار باب القرافة المغلق ، وقد اتخذت هذه القاعة لاجتماع المتطوعة من رماة السهام والخرخ ، كما كان

(١) Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie et des environs, dans

Bulletin de la S.R.A.A. , No. 34, Alexandrie, 1941, p. 96.

(٢) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ص ٤٥ — ابن كثير ، البداية والنهاية

ج ١٢ ص ٣٠٧ — السيوطي ، ج ١ ص ١٦٥

(٣) Combe, Notes sur les forts, p. 96

(٤) Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie, p. 101

يحفظ فيها سلاحهم وعددهم وأعلامهم وبنودهم وسائر معداتهم الحربية . وكان يتولى رئاستها زمن الأشرف شعبان أبو العباس أحمد المنشاوي . وكانت هناك بالإضافة إلى هذه القاعة قاعات أخرى خاصة أنشأها جماعة من كبار تجار الاسكندرية مثل بن رواحة الذي كانت له قاعة للسلاح جُهِز فيها نحو مائة أو مائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة (١) .

٨ — قلعة قايتباي في الاسكندرية :

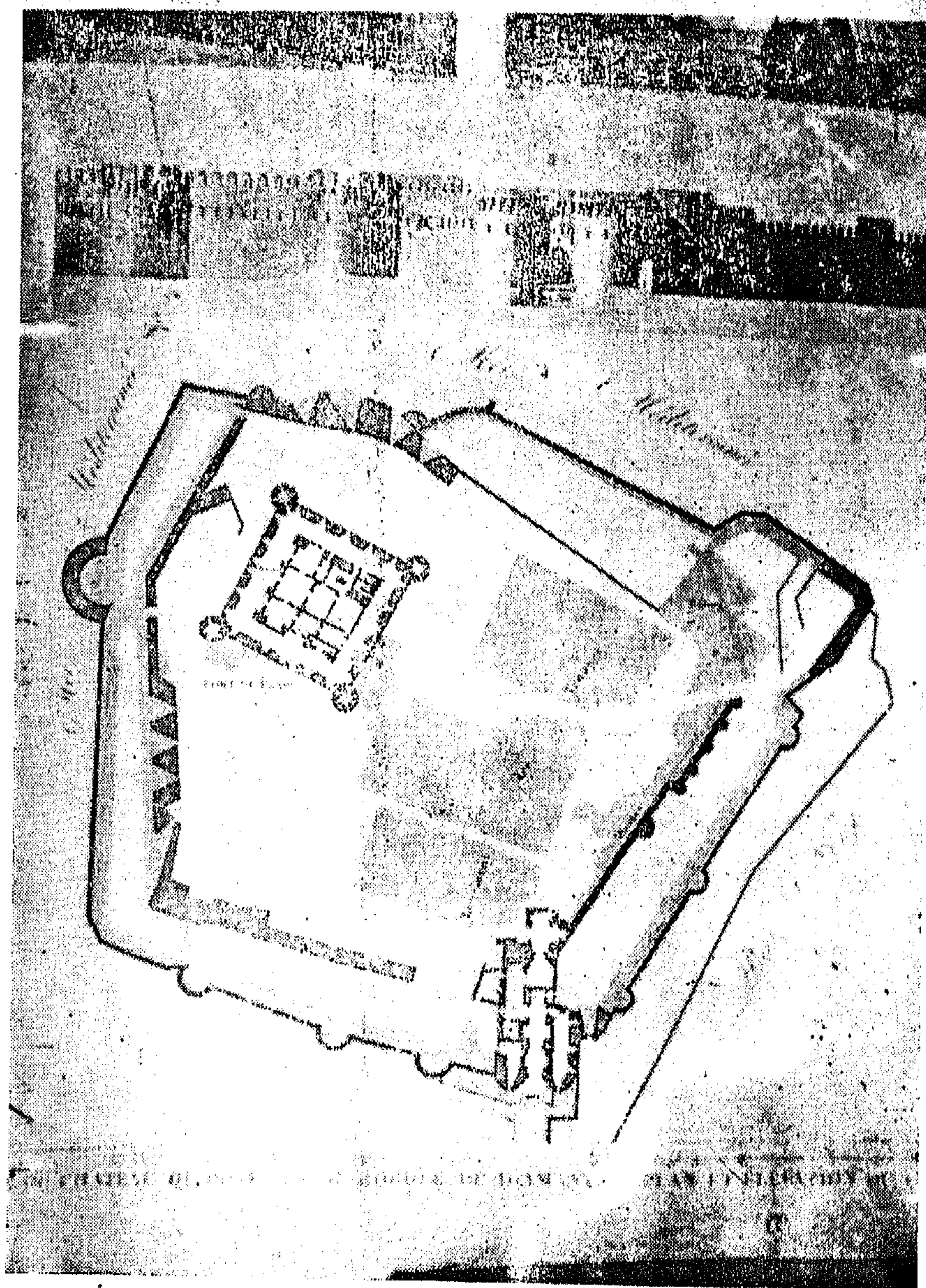
ذكر ابن إياس أن السلطان الملك الأشرف قايتباي أسس في الاسكندرية برجاً أو قلعة على أساس منار الاسكندرية المتخرب ، وذلك فيما بين عامي ٨٨٢ ، ٨٨٤ هـ . وأن هذا البرج كان يشتمل على مسجد جامع وطاحون وفرن وحواصل مشحونة كلها بالسلاح والمكاحل (٢) . ويصف ابن إياس البرج فيقول : « بنى على أساس المنار القديم الذي كان بالاسكندرية ، وأنشأ بهذا البرج مقعداً يطل على البحر ، ينظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهي داخلة إلى المينة ، وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحونا ، وفرنا وحواصل ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلاً معمرة بالمدافع ليلاً ونهاراً ، بسبب أن لا تطرق الفرنج للشجر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائماً ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب في كل شهر ، وجعل عليهم شادا من خواصه يقال له قانصوه المحمدي ، وهو الذي ولي نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجي ، وقيل ان السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الحليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف » (٣) .

والواقع أن برج قايتباي اكتسب أهمية كبرى من تشييده على أساس

(١) ابن بطوطة ، ص ٢٨

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٥١ وما يليها ، ج ٤ ص ٤٢٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١



خطی نقشه قلعه قایتبای

الميناء القديم ، بحيث أصبح امتداداً لميناء الاسكندرية القديمة ، ولذلك عرف
ببناء القلعة ، في أيام الحملة الفرنسية باسم قلعة المنارة أو الميناء الصغير
le Farillon (١) .

وقلعة قايتباي ما زالت ترتفع حتى اليوم شاهقة في نهاية الطرف الشمالى
من شبه جزيرة رأس التين ، بحيث تشرف في هذا الموقع الممتاز على مدخل
الميناء الشرقية . وتتكون القلعة من عنصرين أساسيين :

١ — الأسوار الخارجية التى تحيط بالقلعة كلها .

٢ — البرج الرئيسى المقام على أساس الميناء القديم .

أما الأسوار الخارجية فيمتد محيطها حول مساحة كبيرة تزيد على فدانين (٢) ،
وتنقسم بدورها إلى قسمين منفصلين : الأسوار الداخلية ، والأسوار الخارجية ،
وبينهما أرض فضاء . والأسوار الداخلية مجموعة من الغرف المتلاصقة كانت
مخصصة للعسكر ، تمتد بجناح الأسوار الخارجية ، وتنفذ أبوابها على فناء القلعة
الفسيح . أما الأسوار الخارجية فتؤلف السياج الخارجى للقلعة ، وتتخذ مظهر
أسوار المدن ، لأنها تحيط بالقلعة من الجهات الأربعة ، والقسم الشرقى من
هذه الأسوار لا تتخلله أبراج ولا تعاوه شرفات بارزة عن السور على نقيض
ما نراه في القسم الغربى ، أما القسم الغربى فقد زود بثلاث أبراج اسطوانية

(١) Combe, les levés de Gravier d'Ortières, P. 63 notes

de topographie et d'histoire Alexandrine p. 131 —

Van Berchem, Chateau du Sultan Qayt Bay à Alexandrie, Corpus
Inscriptionum Arabicarum, (L'Egypte, t. 1), t. 79, Paris, 1894, p. 478

(٢) محمد توفيق بلبع ، آثار السلطان قايتباي في الاسكندرية (قلعة قايتباي) :

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير ، في مايو ١٩٥٥ ص ١٠٤

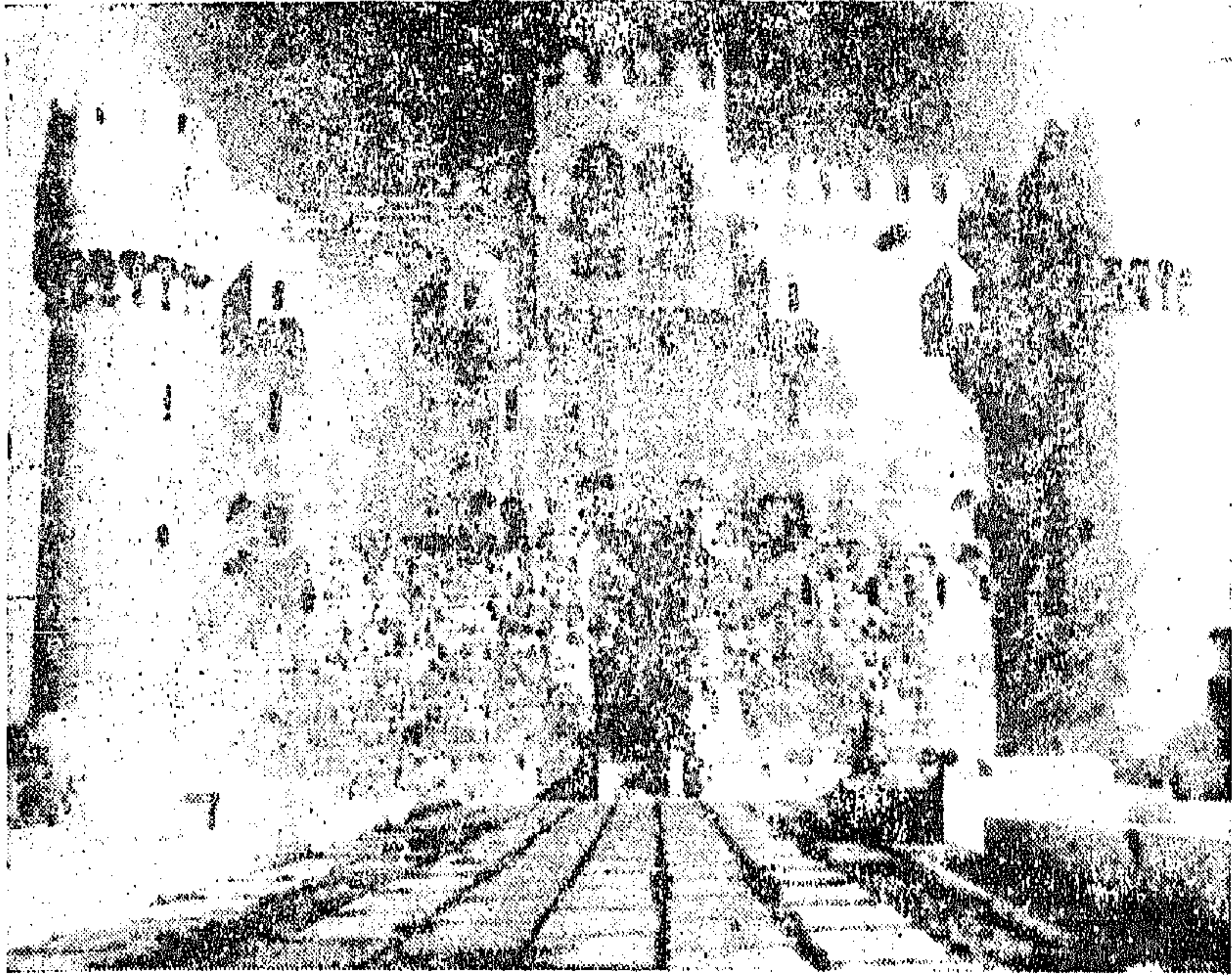
ترتفع إلى مستوى الأسوار، وتنفتح فيه منافذ للسهم على طابقين . ويرتكز القسم الجنوبي من الأسوار على ثلاثة أبراج نصف أسطوانية تتجاوز في بروزه عن السور نصف الدائرة . ويتوسط هذا القسم من الأسوار باب هو المدخل الرئيسى للقلعة . ويواجه هذا الباب في السور الداخلى باب آخر يؤدى إلى أسطوان يتوسط صف الغرف المخصصة للجند . ويعلو هذا الباب لوحة رخامية مازالت تعلو عتبة مسجل عليها المرسوم الذى أصدره السلطان الغورى فى ربيع الأول سنة ٩٠٧هـ، ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم ، رسم بأمر المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله ملكه أن لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالاسكندرية سلاح مكاحل ولا بارود ولا آلة ولا غير ذلك . ومن خالف ذلك من جماعة البرج من ممالك عبيد وزرد كاشية، وخرج منه بشىء ، شنىق على باب هذا البرج ، وعليه لعنة الله ، بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعمائة من الهجرة » (١) .

أما القسم الشمالى من هذه الأسوار الخارجية ، ويطل على البحر ، فقد فتحت فى جزئه الأدنى فتحات مربعة معقودة كانت تنصب فيها المدافع والمجانيق ، بينما فتحت فى جزئه الأعلى منافذ للسهم (٢) .

والبرج الرئيسى بناء مربع الشكل طول كل جانب منه ثلاثون مترا ، ويتجاوز ارتفاعه ١٧ مترا ، وأركان هذا البرج الأربعة مزودة بأبراج صغيرة نصف أسطوانية تنتهى من أعلى بشرفة بارزة عن سمت الجدار الأدنى مستديرة الشكل ، ترتفع إلى مستوى البرج الأسمى نفسه ، يبلغ قطر كل منها

(١) محمد توفيق بليغ ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ — عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين ص ١٥١

(٢) محمد توفيق بليغ ، المرجع السابق ص ١٠٤ — ١٠٨



واجهة البرج الرئيسي بقلعة قايتباي



القبوة التي تعلو أسطوان المدخل ببرج قايتباي

سته أمتار ، وترتكز على مساند حجرية عددها في كل برج ١٣ مسنداً .
وينفتح في جدران كل منها ثلاث نوافذ للسهم موزعة على المحيط الخارجى
لكل برج ، في نفس مستوى نوافذ واجهات البرج الرئيسى وعلى طابقين .
ويشتمل البرج على ثلاثة طوابق ، ارتفاع الأدنى ٧ ١/٢ متراً تقريباً ، ويقوم
في هذا الطابق مسجد القلعة الذى يشغل أكثر من نصف مساحته ، ويتألف
من صحن مركزى مربع الشكل تحيط به أربع إيوانات صغيرة تزدان بواطن
عقودها بزخارف هندسية ونباتية ، وتكسو أرضية الصحن فسيفساء متعددة
الألوان في تكوينات هندسية رائعة . (أنظر ص ٤٦٥) وإيوان الصلابة
يرتفع قليلاً عن أرضية الصحن وينفتح على الصحن بعقد منقوخ ، وينتهى
جدار القبلة في الإيوان بمحراب تقوّم عضاداته على عمودين من
الرخام . وكان يعلو البرج مثذنة من الطراز الشائع في عصر قايتباى ،
القسم الأدنى منها مئمن تتخلله النوافذ المعقودة ، ينتهى بشرفة قائمة
على مقرنصات ، ويعلوه جسم مئمن آخر ينتهى أيضاً بشرفة ثانية ،
ثم يتوج المثذنة طابق ثالث يهدو في الرسوم والصور التي وصلت
الينا في القرنين ١٨ ، ١٩ مستديراً وينتهى من أعلى بجوسق مسحوب
تواجهه الحلالة (١) . أما الإيوانات الثلاثة الأخرى فأقل اتساعاً من إيوان
القبلة ، وهذه الإيوانات جميعاً مسقوفة (٢) .

أما الطابق الثانى من البرج ، فيشتمل على ممرات ، وقاعات ، وحجرات
داخلية ، بينما يضم الطابق الثالث القاعة الكبرى التي تتوسط الواجهة القبالية
ويسمى ابن اياس بالمقعد . ويزودنا الدكتور محمد توفيق بلبع بوصف دقيق

(١) راجع صور المثذنة في رسم جرافيه دورتيير سنة ١٦٨٦ ، ورسم كاساس
سنة ١٧٨٥ ، والرسوم الواردة في كتاب وصف مصر الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى أيام
الحملة الفرنسية .

(٢) عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين ، ص ١٥١

لهذا المقعد ، فيقول : « وهذه القاعة الكبيرة التي تتوسط الواجهة الجنوبية عبارة عن حجرة مستطيلة طولها خمسة أمتار ، وعرضها أربعة أمتار تقريباً ، لها سقف مبني بالآجر على شكل قبوة متدخضة ، يرتكز على أربعة عقود ملتصقة بالجدران ، وقد فتحت في جدار تلك القاعة الجنوبي نافذتان كبيرتان مستطيلتان ، لكل منها عقد حجري صغير ، وتبرز هاتان النافذتان عن مستوى الجدار بنصف متر تقريباً . ويرتكز ذلك الجزء البارز على أربعة أزواج من المساند الحجرية » (١) .

وعماره برج قايتباي تشبه إلى حد كبير عماره برج قايتباي برشيد التي أسست في نفس الفترة ، جنوبي مدينة رشيد بنحو ستة كيلومترات (٢) ، ولا يختلف برج رشيد عن برج الاسكندرية الا في أنه يتخذ شكلاً مستطيلاً وفي أنه بني بالآجر ويشبهه في أنه مزود في الأركان الأربعة بأبراج نصف اسطوانية ، وفي أنه يضم مسجداً بمئذنة .

كذلك تشبه عماره برج قايتباي بالاسكندرية عماره برج رأس النهر بطرابلس الشام ، وهو البرج الذي أقامه الأشرف قايتباي في سنة ٨٨٢ هـ أثناء رحلته إلى الشام ، وهو صورة مصغرة لبرج الاسكندرية ، إذ يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة نحو ١٦ متراً . وهو يشبه برج الاسكندرية في

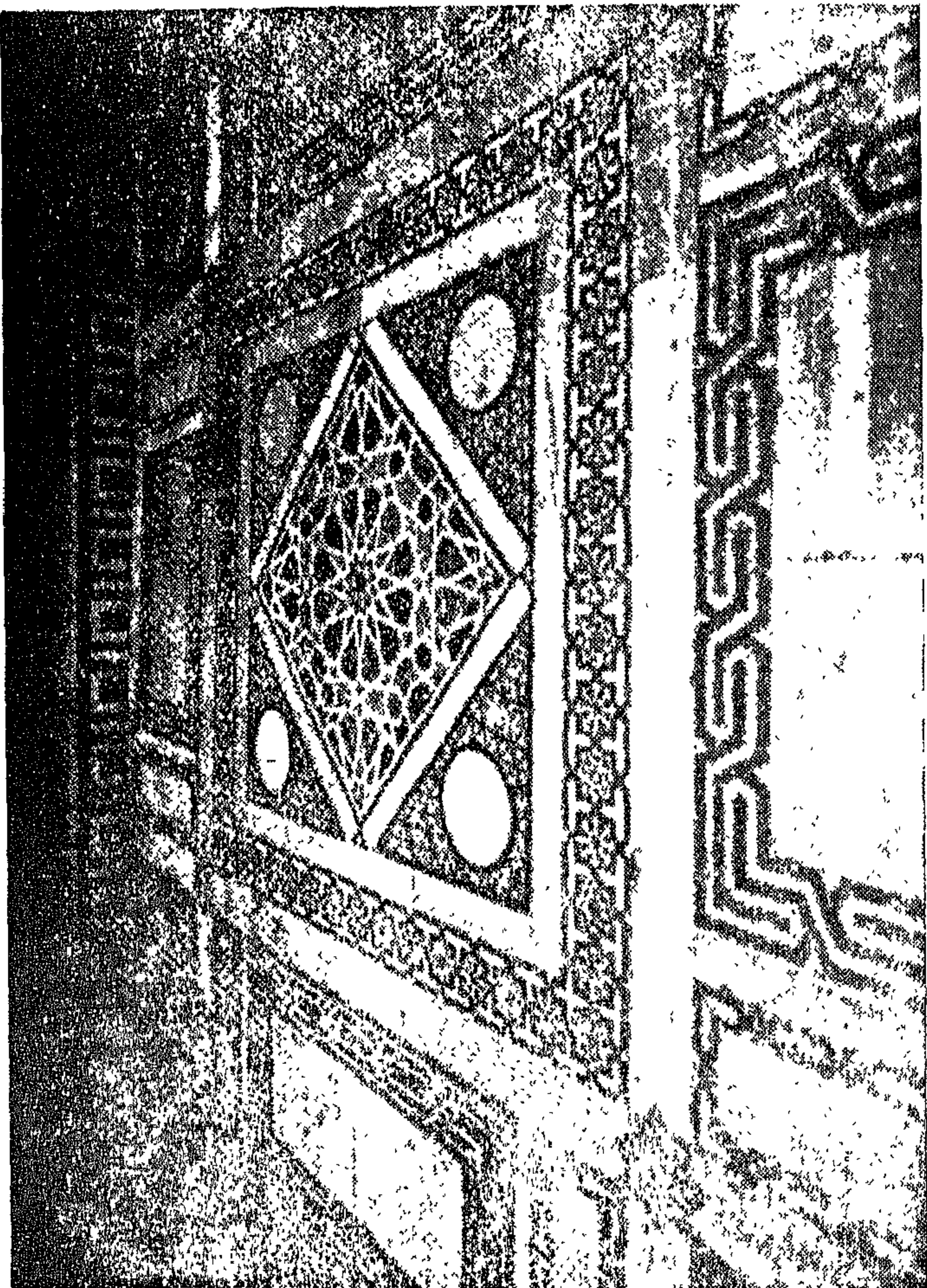
(١) محمد توفيق بلبع ، المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) De Cosson, Notes of the forts of Alexandria and environs, dans B.S.R.A.A., No. 33, Alexandrie, 1939, p. 312.

وراجع تاريخ بناء برج رشيد في مقال الأستاذ كوسب :

Combe, le fort Qayt-Bay à Rosette, B.S.R.A.A., No. 33, p. 320.

فسيقنساء أرضية النصفين بمسجد برج قايقباي



تخطيطه المربع ، وفي ركائزه الأسطوانية بالأركان الأربعة ، وفي أنه يشتمل على مسجد صغير (١) .

(د) بعض التحصينات الأخرى :

اهتم السلطان الأشرف شعبان بتحسين ثغر الاسكندرية بعد وقعة القبارصة ، وقد ذكرنا من قبل المراحل المختلفة لهذه التحصينات ، وأهم ما أجرى في تلك المراحل ، إقامة المطرق الشرقي وربطه بالمطرق القديم وبالمطرق الغربي ، وتحسين الميناء الغربية بإقامة سلسلة تربط بين طرفيها بعد تضيق فوهة الميناء ، وذلك لتدعيم الدفاع البحري في هذه المنطقة وحماية مراكب المسلمين . وقد فصلنا الحديث عن هذه الأعمال عند دراستنا لنتائج وقعة القبارصة .

(١) راجع مقالى : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الإسلامى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد الصادر ، فى أغسطس ١٩٦٣ ، ص ٤٢ - ١٠٣ ، وكتابى « طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى » ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٤٤٩

(٣)

العمارة الدينية

نقصد بالعمارة الدينية ، العماثر التي تغلب عليها الروح الدينية----- مثل المساجد والمدارس والخوانق والأربطة والزوايا والأضرحة ، وفيما يلي دراسة لأهم هذه المنشآت في عصر المماليك ، وهو العصر الذي اتخذت فيه مدينة الاسكندرية ذروة تطورها العمراني :

(١) المساجد :

ظل جامعا الاسكندرية الشرقي والغربي قائمين في العصر المملوكي ، وكانا من المعالم البارزة في مدينة الاسكندرية في هذا العصر ، وقد سبق أن تحدثنا عنهما من قبل ، ويهمننا أن نشير إلى أوصاف الرحالة الأوربيين لهذين الأثرين. أما الجامع الشرقي المعروف بجامع العطارين ، فقد أشار هؤلاء الرحالة إلى شكله المنتظم ، بفنائه الداخلي الذي تدور به الألونة ، ذات البوائك ، ويتوسط صحنه أشجار وميضأة . وذكر ترويلو Troilo في سنة ١٦٦٩ أنه كان يقوم على كل من أركانه الأربعة مثانة مرتفعة . وفي كتاب وصف مصر وصف لازخارف الرائعة المحفورة في الرخام والجرانيت والمرسومة على التفسيرساء (١) أما الجامع الغربي الذي يشير ابن عبد الحكم إلى أنه كان متساعاً على

(١) Gombe, Notes de topographie et d'histoire Alexandrine, p. 133

« الكوم » (١) الذى يقصد به بطبيعة الحال كوم وعلة أو كوم الناضورة، فيبدو لنا فى كتاب وصف مصر مسجداً ضخماً مربع الشكل يشتمل على أربعة ألونة ، يضم إيوان القبلة ٢٩ بلاطاً تقطعها خمسة أساكيب ، وتشبه عقود الجامع نظائرها فى جامع الأزهر ، وبين كل عين من عقود واجهات الصحن سرّة زخرفية . ويتوسط صحن الجامع قبة للوضوء تحيط بها أحواض مقسمة تقسيماً هندسياً ، تكسوها بعض الزهور ، وللجامع مثدنة من ثلاث طوابق؛ الأدنى مئمن ينتهى بشرفة بارزة قائمة على مقرنصات، وتنفتح فى كل كل ضلع من المئمن نافذة معقودة . أما الطابق الثانى فمئمن أيضاً أصغر حجماً وأقل ارتفاعاً من الطابق الأدنى ، وينتهى من أعلى بشرفة ثانية من الحجارة قائمة على مقرنصات ، وتنتهى المئدنة بطابق أسطوانى الشكل تتوجّه قبة مضلعة مسحوبة من أعلى . ويبدو من هذه الصورة أنها أقيمت فى العصر المملوكى . ويعلو جدران المسجد شرفات مسننة الشكل تشبه شرفات الجامع الأزهر ، ويدور بأعلى جدران المسجد نوافذ معقودة .

وفى أيام الحملة الفرنسية اتخذه بونايرت روضة محصنة للمدفعية (٢) ، وبيعت أرض المسجد ومبانيه فى سنة ١٨٨٤ لجماعة الرهبان الفرنسيسكان بالأرض المقدسة (٣).

وإلى هذين المسجدين نضيف مسجداً ثالثاً هو مسجد وضريح الشيخ أبى العباس

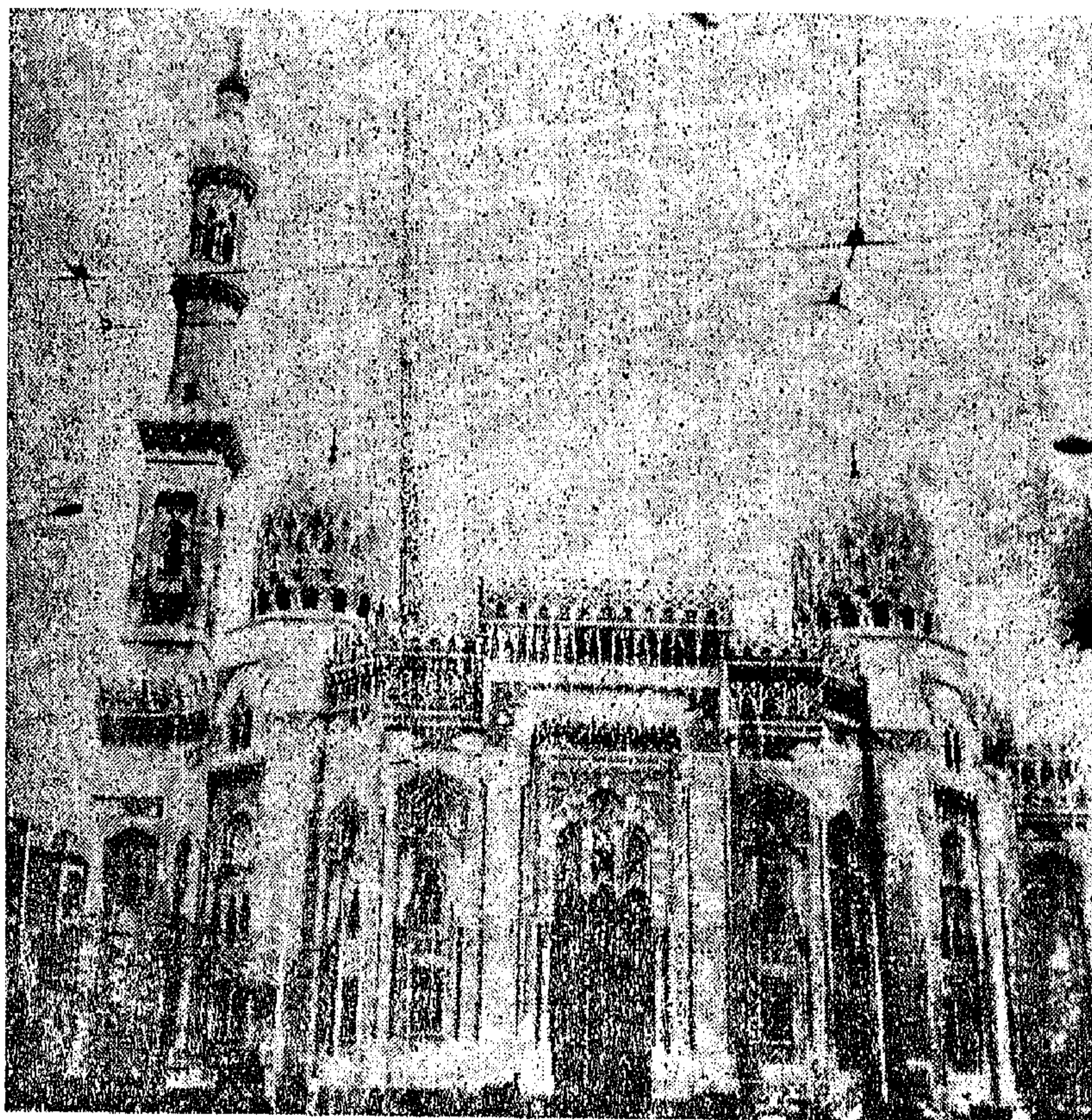
(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٧

(٢) Combe, le texte de Nuwairi sur l'Attaque d'Alexandrie par

Pierre I de Lusignan, dans Bulletin of the Faculty of arts of Alexandria University, vol. III, 1946, P. 110, Note I.

(٣) Combe, Notes sur les forts d'Alexandrie et des environs, p. 99,

Note No. 4.



مسجد الشيخ أبي العباس المرسى

المرسى (١) ، الذى أقيم خارج باب البحر فى سنة ٧٠٦ هـ من مال كبير تجار الاسكندرية فى ذلك التاريخ ، الشيخ زين الدين بن القطن . ويذكر صاحب الحطط التوفيقية أنه كان فى الأصل مسجداً صغيراً ، وأن أحد الحجاج المغاربة جدد فيه جزأه الذى يلى القبلة والقبه فى سنة ١١٨٩ هـ ، ثم أخذ نظاره فى تجديده

(١) هو الشيخ الأكبر العارف الزاهد أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى ، قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلى ، ولد فى مدينة مرسية احدى كبار مدن شرق الأندلس فى سنة ٦١٦ هـ ، وفى هذه المدينة التى كانت تعرف بمصر الأندلس قضى أبو العباس أيام صباه ، ثم قدر له أن يرحل عنها مع أسرته نهائياً فى سنة ٦٤٠ هـ وقد بلغ من العمر ٢٤ سنة ، عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا ، وقبل أن يشهد سقوط مرسية فى أيدي القشتاليين بعد عام واحد من رحيله عنها . وفقد أبو العباس والديه اللذين ماتا غريقين فى البحر أمام شاطئ بونة من إفريقية ، ولما وصل إلى تونس قدر له أن يلتقى بأبى روحى كان له أعظم الأثر فى حياته المستقبلية هو أستاذه القطب الصوفى الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، الذى اصطفاه دون غيره صفياً وتلميذاً ثم خليفة بعد ذلك ، وقد لازمه أبو العباس ورافقه فى رحلته إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ هـ فى عصر الملك الكامل محمد ابن العادل أخى صلاح الدين بن أيوب . ولم يكن غريباً أن يختار الشيخان هذا الشجر الاسكندرى دون غيره من مدن المغرب ومصر منزلاً ، فطالما اجتذبت الاسكندرية رجال العلم من أهل الأندلس والمغرب منذ أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا الاسلامية بعد سقوط طليطلة الاسلامية فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة فى سنة ٤٧٨ هـ . وفى الاسكندرية ورث الشيخ أبو العباس شيخه الشاذلى تصوفاً ، وتوفى بالاسكندرية فى سنة ٦٨٦ هـ ودفن بالجبانة القديمة ازاء رباط الشاطبى خارج باب البحر من ظاهر الاسكندرية (راجع : جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٩٢ - ٢١٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية موطن القطب الأعظم أبي العباس المرسى ، محاضرة القيت بجمعية الآثار بالاسكندرية بمناسبة احتفال الاسكندرية بمرور ٧٠٠ عام على وفاته) .

وتوسعته شيئاً فشيئاً بأخذ قطعة من المقابر وبعض الدور التابعة لوقفه ، وجعلت ميضأته فيما هدم من تلك الدور ، حتى أصبح على ما عليه من السعة فى زمن على مبارك (١) . ثم جدد هذا المسجد للمرة الثانية فى سنة ١٢٨٠ هـ ، وأعيد بناؤه من جديد فى عهد الملك السابق فؤاد ، وأنشئ أمامه ميدان فسيح يسمى ميدان المساجد، ليشر ف عليه مسجد أبى العباس ، ومسجد ياقوت العرش تلميذ أبى العباس المرسى (ت ٧٣٢) ، ومسجد البوصيرى صاحب البردة المتوفى سنة ٦٩٥ ، ورباط الواسطى ، ومسجد ابن عطا الله السكندرى (ت ٧٠٧) . ونضيف إلى هذه المساجد مسجداً بخطبة أقامه الأمير قجماس الأسحاقى خارج باب رشيد، وأنشأ بجواره تربه له وخانا ينزل فيه القادمون من هذا الباب (٢) ، ومسجداً يعرف بجامع الصوارى وكان قائماً خارج باب السدرة ، جدد قجماس الأسحاقى .

(ب) المدارس ودور الحديث والخوانق :

كثرت عدد المدارس فى الاسكندرية فى العصر المملوكى ، ذكر النويرى السكندرى منها :

١ — المدرسة الخلاصية : أنشأها نور الدين على بن خلاص ، وكان لها باب ذو حلقتين ، من النحاس المحرم ، وكرسى للربعة وبيت لها من النحاس الأندلسى المنزل فيهما بالفضة ، ولم ير لثلهما حسن صنعة ودقة تخريم . وقد تعرضت هذه المدرسة لاعتداء القبارصة فى سنة ٧٦٧ هـ ، فخلعوا الحلقتين ، واستولوا على كرسى الربعة وبيتها (٣) :

(١) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ص ٦٩

(٢) السخاوى ، الضوء اللاسع ، ج ٦ ص ٢١٣

(٣) النويرى ، ص ٨٣ ب

٢ — المدرسة النابلسية : ذكر النويرى أن لهذه المدرسة صومعة ، اختبأ بأعلاها الشيخ جمال الدين بن النابلسى مؤسسها ، فصعد إليها جماعة من القبارصة ، وقذفوه من أعلاها (١) .

٣ — مدرسة الفخر : ذكر النويرى أنهم كانت تقع بالقرب من باب رشيد (٢) .

٤ — مدرسة البليسي : ورد ذكرها فى سياق حديث النويرى عن دخول القبارصة الاسكندرية (٣) ، وكانت تقع فى شارع رماة قاعة القرافة بغربى الاسكندرية .

٥ — مدرسة ابن حباسة : ذكر النويرى أن القبارصة أحرقوا هذه المدرسة مع سقف الايوان (٤) .

ونضيف إلى هذه المدارس أسماء مدارس استقيناها من مصادر أخرى منها :

٦ — مدرسة التكريتى : انشأها التاجر الكارمى عبد اللطيف بن احمد ابن محمود بن أبى الفتح بن محمود بن أبى القاسم التكريتى الأصل بن الكويك التاجر الاسكندراني ، وكان من رؤساء الكارم (٥) .

(١) النويرى ، ص ٨٣ ب .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ ب . لعلها تنسب إلى الفخر بن عساكر أحد شيوخ الاسكندرية (السيوطى ، ج ١ ص ١٩٣) .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٠ ا . ولعل منشأها هو عماد الدين مجد بن اسحق بن مجد المرتضى البلييسى الحافظ الذى ولى قضاء الاسكندرية ، وتوفى بالطاعون فى شعبان سنة ٧٤٩ (السيوطى ، ج ١ ص ٢٠٠)

(٤) نفسه ص ٨٢ ب .

(٥) ابن حجر ، ج ٢ ص ٣ . وذكر ابن العماد الحنبلى أن أسرة التكريتى =

٧ — دار الحديث التكريتية : أنشأها عبد اللطيف بن رشيد بن محمد

ابن رشيد الربيعي التكريتي ، نزيل الاسكندرية ، وجعلها لدراسة الحديث الشريف والفقهاء على المذهب الشافعي . وقد تجدد بناء هذه المدرسة ، وحولت في القرن الثاني عشر الهجري إلى زاوية صغيرة ، وتقع في شارع الباتطرية بقسم الحمراء ، وتحتفظ هذه الزاوية اليوم باللوحة التأسيسية للمدرسة ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم إن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً . أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتي لتلاوة الكتاب العزيز ، وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمة الله عليه في شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه) (١) .

٨ — دار الحديث النبهية : ذكر ابن حجر أنه تولى مشيخة هذه

المدرسة الفقيه ابراهيم بن أحمد بن عبد المحسن بن أحمد العلوي الحسيني الغراني الاسكندراني بعد أخيه تاج الدين علي بن أحمد ، محدث الاسكندرية المتوفى

= المعروفين بآل الكويك كانوا يشتغلون بالتجارة في الاسكندرية (شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٦ ص ٣١٤) ، ومن الملاحظ أن هذه المدرسة هي نفس المدرسة التي أشار إليها غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري وذكر أن بانيها ابن الكويك من أعظم تجار الثغر (راجع زبدة كشف الممالك ، ص ٤١) . ولا يعقل أن يكون ابن الكويك قد بناها من متحصل فائدة يوم واحد ، والأرجح أنه جدها .

(١) Repertoire chronologique d'Epigraphie arabe, t. ١٢, p. 248

حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ٣٩٢ — جمال الدين الشيال ، الاسكندرية : تاريخ مدينة الاسكندرية ، ص ١٠٨

في سنة ٧٠٤ هـ (١) .

٩ - مدرسة الدماميني : بناها تاج الدين عتيق بن محمد بن سليمان المخزومي نزيل الاسكندرية (ت ٧٣١) في منطقة الرحابيين بالاسكندرية (٢) ، وصحتها المرجانيين ، أحد شوارع الاسكندرية في حيها التجاري المعروف بالعطارين . وأسرة الدماميني من الأسرات المعروفة في الثغر السكندري في عصر المماليك بحب العلم ، ومن أشهر رجالها بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر الاسكندراني الأديب الفقيه (ت ٨٢٧) (٣) .

١٠ - المدرسة الخضراء أو مسجد الخضر : أنشأها الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوي على أنقاض كنيسة للروم في الاسكندرية وسماها المدرسة الخضراء ، وأنفق على بنائها مالا كثيراً من بيت المال (٤) . وتعرف اليوم بزاوية سيدى خضر ، وتقع بالقرب من جامع تربانة بالاسكندرية

١١ - خانقاه بيليك المحسنى : ذكر ابن حجر في الدرر أن هذه الخانقاه من انشاء بيليك المحسنى الذى كان نائباً على الاسكندرية في القرن السابع ، وكان من شيوخها موسى بن أحمد بن محمود الأقصرى (٥) .

١٢ - المدرسة الحافظية : ظلت المدرسة الحافظية التي أسسها أبي الطاهر

(١) السيوطي ، ج ١ ص ١٨١ - ابن حجر ، ج ١ ص ١٠ - حسن عبد الوهاب ، المرجع السابق ص ٣٩٢

(٢) ابن حجر ، ج ٣ ص ٤٨

(٣) السيوطي ، ج ١ ص ٢٥٨

(٤) النجوم الراهرة ، ج ٧ ص ١٦٢ - ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٣

(٥) ابن حجر ، ج ٥ ص ١٤٣

ابن عوف في سنة ٥٣٣ هـ (١) قائمة في العصر المملوكي ، وكان يتولى التدريس فيها أحمد بن محمد بن قيس (٢) .

١٣ - مدرسة قايتباي : أنشأها قايتباي في الاسكندرية (٣) .

١٤ - المدرسة والمارستان الصلاحي : كانت مدرسة المغاربة التي أسسها صلاح الدين للمغاربة في الاسكندرية ما تزال قائمة في عصر المماليك ، وقد قام الأمير سيف الدين الأكرز بتعميرها وتزويدها بما يحتاج إليه بمارستانها من أدوية وآلات للجراحة ، وجعل على رجليها سلسلة مانعة للدواب (٤) .

(ج) السربط :

١ - رباط الواسطي (٥) : كان هذا الرباط من الأبنية التي يجتمع فيها الأتقياء والصالحين للتعبد ، ويقع شرقي مسجد أبي العباس المرسى ، وقد تجددت عمارته في عصر متأخر ، وهو اليوم لا يبدو أن يكون زاوية صغيرة تقوم في جهتها القبليّة قبة صغيرة ، يتوسطها قبران ، الشرقي منهما

(١) القلقشندي ، ج ١٠ ص ٤٥٨

(٢) ابن حجر ، ج ١ ص ٣١٦

(٣) ابن إياس ، ج ٣ ص ٣٢٩

(٤) النويري ، ص ٢٠٤ ب

(٥) وفد الشيخ الواسطي إلى مصر في سبيل القرن السابع الهجري ، واستوطن الاسكندرية ، وبشر بها الطريقة الرفاعية . ونلاحظ أن هذا العصر يتميز بازدهار الحركة الصوفية ، كالطريقة الرفاعية ، والطريقة الأحمدية المنسوبة للسيد أحمد البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ ، والطريقة البرهاسية المنسوبة للشيخ إبراهيم الدسوقي القرشي المتوفى في ٦٧٦ (الشعراني ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ١٤٣ ، ١٥٨ ، القاهرة ١٣٤٣ هـ) ، والطريقة الشاذلية المنسوبة للشيخ أبي الحسن الشاذلي

هو قبر منشىء الرباط ، وبازائه لوح من الرخام نطالع فيه النص التالى :
« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي . كل نفس ذائقة الموت ، وإنما
توفون أجوركم يوم القيامة - الآية - توفي الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضى
أطكين شهاب الدين أبو على منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفتوح
نصر بن الشيخ أبي الفضل الواسطي القاضي العدل . ليلة الجمعة رابع شهر
شعبان الشريف سنة اثنتين وسبعين وستمائة رحمه الله تعالى ونور ضريحه » (١).

٢ - رباط سوار : كان يقع بظاهر الاسكندرية من الجهة الشمالية
الشرقية حيث منطقة الشاطبي حالياً ، أقام به نزيل الاسكندرية أبو عبد الله
محمد بن سليمان العافري الشاطبي ، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، أحد أولياء الله ،
وصاحب الكرامات المشهورة (٢) .

٣ - رباط الهكاري : أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبي المفاخر
باخل بن عبد الله الهكاري ، متولى ثغر الاسكندرية زمن المنصور قلاوون ، وكان
أديباً عالماً ، توفي في سنة ٦٨٣ هـ ، ودفن عند رباطه بخارج باب رشيد . وتولى

(١) حسين عبد الوهاب ، ص ٣٩٣ - جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة
الاسكندرية ، ص ١٠٧

(٢) ولد بشاطبة في سنة ٥٨٥ هـ ، وقرأ القرآن ببلدة القراءات السبع على
أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره ، وقرأ بدمشق على الواسطي ، وسمع عليه
الحدیث ، ثم سمع بدمشق على أبي الناسم بن صصرى ، وأبي المعالي خضر ، وأبي الوفاء
ابن عبد الحق وغيرهم . ثم نزل الاسكندرية وانقطع للعبادة في رباط سوار بن
الاسكندرية بترربة أبي العباس الراسي ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٧٢ هـ ودفن بترربة
شيخه المجاورة لزاويته (نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٤١)

(٣١)

ابنه حسام الدين ولاية الاسكندرية في سلطنة الأشرف خليل (١) .

٤ — رباط ابن سلام : أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بشبه جزيرة المنار قبل وقعة القبارصة بأكثر من سنة ، وأنفق عليه نحو ٨٠٠ دينار ، ليبني فيه طائفة رماة قاعة القرافة . ابن ويؤدون الصلاة . وقد تعرض هذا الرباط لاعتداء القبارصة ، فكسروا شبابيكه النحاسية وصعدوا إلى أعلى الرباط حيث يقف الرماة وراء شرفات الرباط ، وكسروا قناديل الرباط وأحرقوا أسقف إيوانه الخشبي ، ثم ذبحوا جميع من كان موجوداً في أعلاه من الرماة المسلمين ، ويذكر النويري أن دماء هؤلاء الرماة المنذرين وعددهم يزيد على الثلاثين كانت تجري من ميازيب الرباط جري الأمطار (٢) . وقد تولى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام سد شبابيكه بعد وقعة القبارصة بالحجارة ، ثم عمره في سنة ٧٧١هـ ، وأقام لإيوانه سقفاً من الحجارة بدلا من السقف الخشبي الذي أنخرقه القبارصة .

٥ — رباط وتربة الأمير طغية : كان يقع في شبه جزيرة المنار بالقرب

من رباط ابن سلام ، وكان يقوم من حوله عدد من الأضرحة . وكان يعاوي بابها غرفة لها طيقان كان يجلس فيها الأمير جنغرا نائب صلاح الدين بن عرام متولى الاسكندرية ليستعرض إطلاق النفط المشتعل . وكان يقوم حول التربة المذكورة عدد من الربط ، أحرقها القبارصة وكسروا قناديلها وقناديل المزارات . وقد هدم نائب الاسكندرية هذه الربط بعد الوقفة بسنتين حتى لا يتخذها

(١) النويري ، ص ١٧٢ ب

(٢) النويري ، ص ١٨٠

القبارة في المستقبل مأوى لهم (١) .

٦ - رباط قجاس الاسحاق : وهو رباط عمره قجاس الاسحاق نائب
سلطنة الاسكندرية في أيام الأشرف قايتباي، خارج باب البحر على شاطئ
بحر السلسلة ، وأودع به أسبلة ونحوها (٢) .

(١) القصص...ور :

عمرت الاسكندرية بالتصوير البديعة التي شيدها أعيان المدينة وأمرؤها
في العصر الاسلامي ، والتي نوه الكتاب والمؤرخون بها . وقد أشرنا إلى أن
معظم هذه التصوير كانت كانت مقامة في ظاهر الاسكندرية من جهة الشرق
مثل قصر بني خليف الذي ذكرنا أنه كان متزاماً في منظره... الرمل (٣) .
وقصر مكن الدولة ابن حديد الذي كان يتميز ببستانه المزود بحوض من
الرخام لا نظير له (٤) . وذكر النويري في سياق حديثه عن وقعة القبارصة
أن منطقة شبه جزيرة المنار كانت تقوم بها بعض القصور التي أمر الأشرف
شعبان بهدمها هي والربط بعد وقعة القبارصة (٥) . وفي العصر المملوكي
أقيم في الاسكندرية عدد كبير من التصورات أقامها جماعة التجار الأثرياء
الذين كانوا يجنون ثروات ضخمة من تجارتهم بها أمثال آل الكويك التجار
وآل الحياي ، وبنو علي بن راشد ، مدبر رقع التجار على الدواوين ، ويحدد

(١) نفسه ، ص ١٧٩

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ٢١٣

(٣) راجع ما سبق ، ص ٢١٥

(٤) راجع ما سبق ، ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٥) النويري ، ص ١٧٩

النويرى السكندري دار أحد هؤلاء التجار وهو ابن الحياى فى الشارع المؤدى إلى باب البحر بالقرب من جفار القصارين (١). وكانت الدور والقصور الواقعة بالمحجة من الحصانة بحيث امتنعت على القبارص عندما عاثوا فى المدينة فسلبت من أعمال النهب والسلب (٢) وفى أيام الأشرف قايتباى كان يقيم فى الإسكندرية عدد كبير من أبناء السلاطين والأمراء المبرزين أمثال الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال، والسلطان السابق الظاهر يلباى، والملك المنصور ابن الظاهر بقمق، والسلطان السابق الظاهر ترمبغا، وكان هؤلاء السلاطين السابقين وأبنائهم يقيمون فى قصورهم وينتقلون باذن من السلطان إلى حيث شاؤوا من أماكن الاسكندرية .

وإلى جانب هذه القصور السكنية أقيمت بالاسكندرية قصور للإمارة ولنواب السلطنة وللإمارة فتمد أسسه عتبة بن أبى سفيان فى سنة ٤٤٤هـ، فى الحصن القديم الذى يقصد به فيما يظهر حصنا يطل على المينة الشرقية بالقرب من السور الشمالى الشرقى، ولعله هو نفس دار النيابة الذى كان يقيم فيه نائب الاسكندرية، ويوكب منها عند طلوع الشمس حتى يخرج من باب البحر، ويمضى خارج باب البحر ساعة ثم يعود إلى دار النيابة. وكانت هذه الدار تشتمل على ايوان له نافذه بارزة عن سمت الجدار تطل على ميناء البلد، وكان النائب يجلس بجانبه من الايوان بحيث يستطيع أن يشرف على الميناء (٣).

(١) النويرى، نسخة دار الكتب، ص ١٤١ ب

(٢) النويرى، ص ٨١ ب

(٣) القلةشندى، ج ٤ ص ٦٤. وذكر النويرى أن المطرق الشرقى الذى أقامه =

وبالإضافة إلى هذا القصر كان بالاسكندرية قصر آخر يعرف بدار السلطان لا يسكنها إلا الأتطين . وكان هذا القصر يقع قريباً من الجامع الغربي والباب الأخضر الذي يفتح في الطرف الغربي من سور الاسكندرية الشمالي ، بجدار الممارق الغربي الذي كان يبدأ من قلعة الباب الأخضر وينتهي بالقلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخة . الذي يفتح في السور لصق دار السلطان . ويصف غرس الدين خليل بن شادين الظاهري قصر السلطان بـ : « وبها دور متسقة وهي عجيبة من عجائب الدنيا ، وبها دار عظيمة ، وبها تحت الملك ، قيل إنه لم تدر دار وسعها ، أنشأها في الأصل المشرقي (١) ، ثم بعده جواهر الموتكى ، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب ، ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق ، وبها من الأعمدة الرخام المائنة ، والقياع المنروشة بالرخام الملون ، والأساكن المنحرفة ، والبساتين الحسنة ، ما يطول شرح وصفه . وهي مشرفة على البحر المحيط ، لا يسكنها إلا الأتطين الخاصة ، ولم تزل إلى الآن مقفولة . وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف (برسمه) على السكنة فيها ، حين كنت نائب السلطنة الشريفة بالشعر ، فأمر لي بذلك ، وزوجني بأخت زوجته ، خوند الخوندات بجلبان ، تغلبهم الله برحمته ، ولم يكن سبق لأحد ذلك من نواب الشعر . ونصب بالقائمة المظن من الخلال

= ابن عرام بعد الوافد أن ماذياً لدار الامارة (النودري ، ١٣٥٠) . ومن المعروف أن المطرق المشرق كان يـ حتى باب الديوان المجاور لباب البحر من الجهة الشرقية . وبؤكد القلقشندي أن البحر يصل بالاسكندرية بظاهرها « من الجانب الغربي مما يلي الشمال إلى المشرق حتى دار النيابة » (القلقشندي ، ج ٣ ص ٤٠٣)

(١) وذكر السيوطي أن حاطب بن أبي بلتعة ، رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ، دخل على المقوقس في مبلس يشرف على البحر (السيوطي ، ج ١ ص ٤٧) .

ملا يوصف ، ومن جملة ذلك سبعة بشاخين مختلفة الألوان ، وأشياء
عجيبة مما يطول شرحه « (١) .

أما قصر السلاح فكان يقع في منطقة من الاسكندرية تعرف بالزربية ،
بالقرب من الباب الأخضر والجامع الغربي وضريح الطرطوش (٢) ، وكان
قصرًا ضخمًا يشتمل على سبع قاعات ، في كل قاعة عدة غرف ، وفي كل
غرفة ألوف مؤلفة من السهام والسيوف والرماح والمازاريق والأتراس والخوذ
والعنايز والزرد والزرديات والأطواق والقرقلات والسواعد والركب
والساقات والأقدام الحديد والقسي الملولة والجــرخ والركاب والأعلام
وحجارة العلوج والمدافع والنفط والبارود وحيل الحرب ومكائدها (٣) .
وذكر ابن شاهين الظاهري أنه كان يضم مسجدًا (٤) . وعندما اقتحم القبارصة
ثغر الاسكندرية ، ووصلت عساكرهم إلى هذا الموضع ، وأتوا إلى باب
قصر السلاح ، وكان بناء ضخمًا ، ظنوا أنه أحد أبواب المدينة لمجاورته
للسور من جهة البر ، فخافوا أن يكسروا بابه خشية أن يكون خلفه كهينًا
يطبق عليهم ، ووقف بعض خيالتهم على زلاقة بابه ، فشاهدتهم حارس هذا
القصر واسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن قراجا من خلال منافذ ضيقة ،
وهم يترددون في حرق بابه ، ولكن الله لطف بالمسلمين ، فعدلوا عن احراقه .
ويعلق النويري على ذلك بقوله : « ولطف الله بعباده المسلمين في عدم معرفة

(١) غرس الدين خليل ، المصدر السابق ، ص ٤٠

(٢) راجع الملحق

(٣) النويري ، ص ٨٤

(٤) زبدة كشف المالك ، ص ٤٠

الفرنج لقصر السلاح ... لو فهموه أحرقوا جميع ما فيه من السلاح المدخر من عهد الملوك السالفة ، فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ما ليس لعدددها حصر » (١) . وفي موضع آخر يعمل عدوهم عن مهاجمته لاعتقادهم بأنه جامداً للمسلمين يصلون فيه ويتعبدون به ، ويقول : « فكفوا عن كسر بابيه ودخولهم إياه ، ولو فهموه أحرقوه بعد أن كانوا يحماوا منه العدد الكثيرة والأسلحة المتينة ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أعمى أبصارهم وبصايرهم عنه بزعمهم أنه مسجداً لصلاة المسلمين ، ومنعهم الله له أيضاً لأنهم لم يتعرضوا لخراب شيء من جوامع الاسكندرية ومساجدها وصوامعها خشية إخراج المسلمين لكنائسهم التي هي بالديار المصرية والشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم في أيام دولته بهدم كنائس النصارى ... » (٢) .

وقد انتهز السلطان الأشرف شعبان فرصة زيارته لثغر الاسكندرية بعد مضي ثلاث سنوات على الوقعة وسار إلى قصر السلاح فدخله ، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السابقين ، وأمر ببناء قاعة سلاح جديدة تسمى باسمه أسوة بالملوك السابقين ، ملأها أسلحة جديدة كثيرة العدد ، « فصارت تلك القاعة كأحد قاعات الملوك السالفة بالقصر المذكور ليذكر بذلك ما ذكرنا » (٣) . وقد وصلت إلينا من خزانة السلاح بثغر الاسكندرية أعداد كبيرة من السيوف موزعة حالياً في خزائن السلاح بدار صناعة اسطنبول ، وخزائن السلاح الملكية بتورين ، وفي متحف المتروبوليتان

(١) النويرى ، ص ٨٣ ب

(٢) نفس المصدر ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٤ ب

(٣) النويرى ، ص ١٨٢ أ

وفي مجموعات خاصة، وكلها تحمل نقوشاً باسم خزانة قاعة الأكرالتي أنشأها بالاسكندرية، أو باسم خزائن السلاح. وأقدم هذه السيوف يحمل نقشا نصه: (حبس المتمر السيفي الأكرال) الأشراف في سنة تسع وستين وسبعمائة بالتمامة المعروفة بانشائه بغير الاسكندرية المحروس ومن أخذه ولم يرد، كان عليه ذنبه). وهناك سيف من برسبای يحمل النقش إلى: (حبس الملك الأشرف برسبای عز نصره بخزائن السلاح بغير الاسكندرية المحروس من متحصنه في شهر المحرم سنة ستة وثلاثين وثمانمائة) (١).

(ب) الدور الخاصة والعامّة:

كانت الاسكندرية في العصر الإسلامي تزخر بالدور (المساكن التي أخذها العرب وسميت لذلك بالأخاند، وذكروا أن عمرو بن العاص حين افتتحها أحصى دورها، فوجد أنها أربعة آلاف دار، محكمة البنساء، مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها حمام تختص به. ومضت موجه الفتح، وأقام العرب في هذه الأخاند، وما لبثت المدينة أن تعربت، وأقيمت فيها بجانب الدور العامة مثل دار الإمارة ودار الطراز، والأهراء وبيت المال ودار العدل، دور أخرى خاصة، مثل الدار التي أقامها الزبير ابن العوام عند الفتح، والدار التي نزلها خمارويه عند مريوط من ضواحي الاسكندرية (٢). وبمرور الزمن أخذت الدور القديمة تختفي تدريجياً من

(١) Combe et de Cosson, European swords with arabic inscriptions, from the armoury of Alexandria, B.S.R.A.A. vol. IX, pp. 225 - 246-Combe, Nouveaux sabres européens à Inscriptions arabes de l'arsenal d'Alex. B.S.R.A.A. vol. X, p. 158.

(٢) محمد عبد الهادي شعيرة، الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي،



واجهة إحدى الدور القديمة بالاسكندرية بجانب ضريح ومسجد أبي العباس المرسى

طوبوغرافية المدينة لتحل محلها دور أخرى مستحدثة ، راعى المسلمون في بنائها أن تتفق مع التقاليد الإسلامية ، فكانت الدار يتوسطها صحن مكشوف مغروس بأطياب الأشجار ، وفي وسطها نافورة أو بئر للسقاية . وكان المظهر الخارجي للدار السكندرية ، شأنها في ذلك شأن بقية الدور الإسلامية ، بسيطا كل البساطة فهي جدران عارية من الزخرفة ، لا تفتتح فيها الا نوافذ قليلة بالغرف العليا . أما في الداخل فكانت جدران القاعات تكتظ بالزخارف الحصية والرخامية (١) . وقد نوه القلقشندي بدور الاسكندرية فذكر أن لأهل الاسكندرية القصور والجواسق الدقيقة البناء المحكمة الجدران والأبواب (٢) ونستدل مما رواه النويري عن وقعة القبارصة أن الدار كانت مرتفعة الجدران ، وكان يفتتح في أعلى بابها طاقات يمكن أن تتخذ للدفاع عنها وقت الاعتداءات (٣) . وفي موضع آخر نستدل من أقوال النويري على أن بناء ديار الاسكندرية كان « بمجلس مطوى الأبواب ببادهنج في صدره ، ياتى الهواء فيه ، وأكمام بجانب المجلس ، وقاعة و صفتين متقابلتين ، وببيت عرضي في صدره شبابيلك مشرفة » (٤) . ونخرج من قول النويري السالف الذكر بأن المجلس الرئيسى في الدار وهو الإيوان كان يتقدمه بادهنج — وهو المنفذ الذى يتوسط الدار للتهوية ويقابله في الوقت الحاضر المنور (٥) ، وينفتح على يمينه وعلى يساره

(١) السيد عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران الإسلامى فى العصور الوسطى ، ص ٦٠

(٢) القلقشندي ، ج ٣ ص ٤٠٤

(٣) النويري ، ص ١٩٧ ب

(٤) نفسه ، ص ١٦٥ ب

(٥) عاشور ، العصر المالىكى ، ص ٣٩٥

كمان وهما أشبه بغرفتين صغيرتين ، وبجواره قاعة مركزية ، يقال لها درقاعة يحف بها إلى اليمين واليسار صنفه ملحمة تقابل في الجهة المقابلة صنفه أخرى . ثم مقعد له نوافذ تطل على الطريق .

وقد اهتم نائب السلطنة بالاسكندرية بعد وقعة القبارصة بتأمين الدور الخاصة فأمر بأن يقام في مدخل كل درب باب قوى يغلق ، ورتب خلف كل باب حارس لحماية (١) .

ولم يتبق للأسف شيء من آثار الدور المملوكية ، وكل ما تحتفل به الاسكندرية اليوم بعض الدور التي أقيمت في العصر التركي المتأخر بين الحمراء وحي المنشية .

أما الدور العامة ، فهي مؤسسات اقتصادية أو إدارية لها أهميتها في دراسة العمران السكندري ، منها دار الضرب ، وبيت المال ، ودار العدل ، ودار الصناعة ، ودار الطراز .

دار الضرب :

يذكر ابن م... أنى أنه كانت بثغر الاسكندرية دار للضرب ، وظيفتها سبك ما يحمل إليها من الذهب المختلف ، كما كانت تقوم بسبك الفضة وعمل الدراهم (٢) . ويؤكد المقرئ أن الاسكندرية كانت إحدى مراكز ثلاث في مصر لضرب النقود ، أحدها في قوص والثاني

(١) النويرى ، ص ٢٠٧ ب

(٢) ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة

فى القاهرة والثالث فى الاسكندرية (١). وكان لا يتولى عيار دار الضرب إلا قاضى القضاة أو من يستخلفه ، ثم أصبح يليها فى زمن المقريزى مسالمة « فسقة اليهود » .

وكان أهل الاسكندرية لا يتعاملون إلا بالمسودة التى يسمونها الورق ، وهى دراهم الفضة التى يدخل فيها النحاس ، وظلوا يستخدمونها حتى زمان المقريزى (٢) . وفى أيام الظاهر برقوق أنشئت بالاسكندرية دار ضرب للفلوس ، واستوردت مصر كميات من النحاس الأحمر من بلاد إفريقيا ، فكثرت استخدام الفلوس منذ ذلك الحين وراجت ، وأصبحت النقد الغالب فى البلاد (٣) .

بيت المال ودار العدل :

ذكر النويرى أن دار العدل بالاسكندرية كانت مجاورة لدار الطراز (٤) ، وأنها أقيمت فى عهد سيف الدين أبى بكر بكتمر الوشاقى (٥) ، وكان بيت المال مجاورا لدار السلطان ، ويذكر النويرى أن جنغرا قصدها عند اعتداء القبارصة على الاسكندرية وحمل ما كان فيها من الذهب والفضة ، وأخرجها من باب البر (٦) .

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٥

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٦٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٧١

(٤) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤١ ب

(٥) النويرى ، ص ١٢ أ

(٦) النويرى ، ص ٨٠ ب

دار الصناعة :

كانت بالاسكندرية في العصر الأيوبي دار صناعة واحدة تقوم بإنشاء السفن اللازمة للأسطول المصري (١) . ولعلها نفس الدار التي كانت قائمة عند الفتح العربي ، وجددها عبد الله بن سعد بن أبي السرح (٢) ، ويظهر أن هذه الدار كانت تقع قريباً من باب الديوان . ونستدل من وصف النويري لزيارة الأشرف شعبان للاسكندرية وما ذكره في سياق حديثه عن غزوة القبارصة أن الاسكندرية في عصر المماليك كانت تعمل بها داران للصناعة أو صناعتان ، إحداهما شرقية والأخرى غربية . أما الصناعة الشرقية فكانت تقع بين السورين قريباً من ديوان الخدم ومجاري الأقنية (٣) ، وكانت تشرف على الميناء الشرقية . وعندما دخل القبارصة الاسكندرية أخرجوا المجانيق التي كانت تحمي هذه الصناعة الشرقية ، ومجانيق الصناعة الغربية . ويذكر النويري أن أهل الاسكندرية أخرجوا أغربة كانت قد صنعت بالصناعة الشرقية حتى لا يستولى عليها القبارصة ، فلما رآها هؤلاء مخروقة ، أخرجوها بالنار (٤) .

أما دار الصناعة الغربية ، وهي الصناعة المستحدثة في العصر المملوكي فكانت تقع عند نهاية المطرق الغربي الذي أنشأه ابن عرام في سنة ٧٦٩ هـ داخل سور الاسكندرية بلمصق السور ، وقد حصنها ابن عرام في سنة ٧٧٧ هـ

(١) ابن مماتي ، كتاب قوانين الدواوين ، ص ٣٤ .

(٢) سيده الكاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ٥٦ .

(٣) النويري ، ص ١٣٥ أ

(٤) النويري ، ص ٨٤ أ

بأن أنشأ على بابها مشطاً ضخماً من الحديد تبلغ زنته عدة قناطير ، كى يخرج منه الرهاة إلى شبه جزيرة المنار . ويدخلون منه وقت الحرب ، عندما تكون أبواب الاسكندرية مغلقة ، وكان المشط يرمى أو يسدل بعد دخول العسكر إلى المدينة ، فاذا أرادوا الخروج رُفع المشط عن طريق سرياقات تدور حول لوالب الأتراس بأعلى السور (١) .

وقد زار الأشرف شعبان دار الصناعة الشرقية في سنة ٧٧٠ هـ ، وشاهد ما فيها من الشوانى الغزوانية والمجانيق الشيطانية (٢) . وكانت دارا صناعة الاسكندرية ، تقومون بإنشاء عدد كبير من السفن والطرايد المعدة للغزو فى عصر المماليك الشراكسة ، وكانت تتوفر لصناعتها المواد الخام المحلية والمستوردة ، كالأنخشاب المجلوبة من صعيد مصر والمستوردة من الخارج والكتان المعروف باسم النقش الذى كانت تصنع منه جبال السفن (٣) .

وكان يتولى رئاسة دار صناعة الاسكندرية فى عصر الأشرف شعبان الرايس ابراهيم التازى (٤) ، الذى لم يكن رئيساً للصناعة فحسب بل قائداً بحرياً من الدرجة الأولى ، أبدى كثيراً من ضروب البطولة ، وغزا عدداً من بلاد القبارصة فى البحر . ومن رؤساء البحر بالاسكندرية زمن الظاهر بيبرس شهاب الدين محمد بن ابراهيم بن عبد السلام الهوارى (٥) . وذكر النويرى

(١) النويرى ، ص ١٣٥ أ

(٢) نفس المصدر ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٤ و

(٣) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٦٦

(٤) النويرى ، ص ٢٤٢ ب

(٥) اليونينى ، ج ٢ ص ٤٥٤

اسم أحد رؤساء دار الصناعة بالاسكندرية ، وهو على ابن معلا كان قد أسره
القبارصة في الاسكندرية في سنة ٧٦٩ هـ (١) .
دار الطراز :

يرجح الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أن يكون أصل
دور الطراز الجنسيم Gynaccum التي وجدها العرب في الاسكندرية
عند الفتح (٢) ، لأن الاسكندرية كانت قد اشتهرت في العصرين البطلمي
والروماني بنسج الحرير ، وكانت الجنسيم مباحة بقصر الوالى (٣) . وذاعت
شهرة الاسكندرية في العصر الإسلامي في صناعة المنسوجات ، إذ كانت
أقمشتها تصل إلى الآفاق ومختلف أقطار العالم في الشرق والغرب ، وكان
أكثر هذه المنسوجات شهرة الثياب الكتانية المعروفة بالشرب (٤) ، والوشى ،
والسقلاطون ، والمنمر (٥) ، والمعرج (ذى الدلات) ، والطارد وحش .
وسنتحدث عن هذه المنسوجات عندما نقوم بدراسة صناعة النسيج .

وظلت دار الطراز بالاسكندرية تواصل إنتاجها بنشاط في العصر الإسلامي

(١) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٠٠ ب

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق ، الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، القاهرة
١٩٤٢ ص ٢٢ — Marzouk, Alexandria as a textile centre, B. I. A. C. —
tome XII

محمد عبد العزيز مرزوق ، تاريخ صناعة النسيج في الاسكندرية في عصر البطلمة ،
مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨٦

(٥) يرى الأستاذ الدكتور مرزوق أنه سمي كذلك بسبب الرسوم التي تصور
النمر ، ونعتقد أن سبب تسميته بالنمر أنه كان يزدان بالزخارف المخططة .

وخاصة في العصر الفاطمي ، أغنى العصور الإسلامية في مصر في إنتاج المنسوجات ، وكانت تقع خارج باب البحر ، فلما أحيط سور الاسكندرية الرئيسي بسور أممي ، سواء أكان ذلك في عصر صلاح الدين أو في عصر الظاهر بيبرس أو في عصر الناصر محمد بن قلاوون ، أصبحت دار الطراز تقع بين السورين . وتعرضت دار الطراز في الغزوة القبرصية للحريق (١) ، فقد أحرقها القبارصة بعد أن نهبوا ما كان فيها من الاستعمالات . ولكنها عمرت بعد الواقعة ، واستأنفت نشاطها ، ثم تعطلت بعد ذلك في سنة ٧٤٩ على أثر الوباء الكبير (٢) .

(ج) الحمامات :

تعتبر الحمامات من أهم المنشآت المدنية الإسلامية ، وكانت كثرة الحمامات وتعددتها هي الظاهرة البارزة في مدينة الاسكندرية منذ العصر الروماني ، فقد وجد العرب عندما افتتحوا الاسكندرية نحو ١٢ ديماسا ، أصغرها كان يسع ألف مجلس ، وكل مجلس منها كان يسع جماعة نفر (٣) .

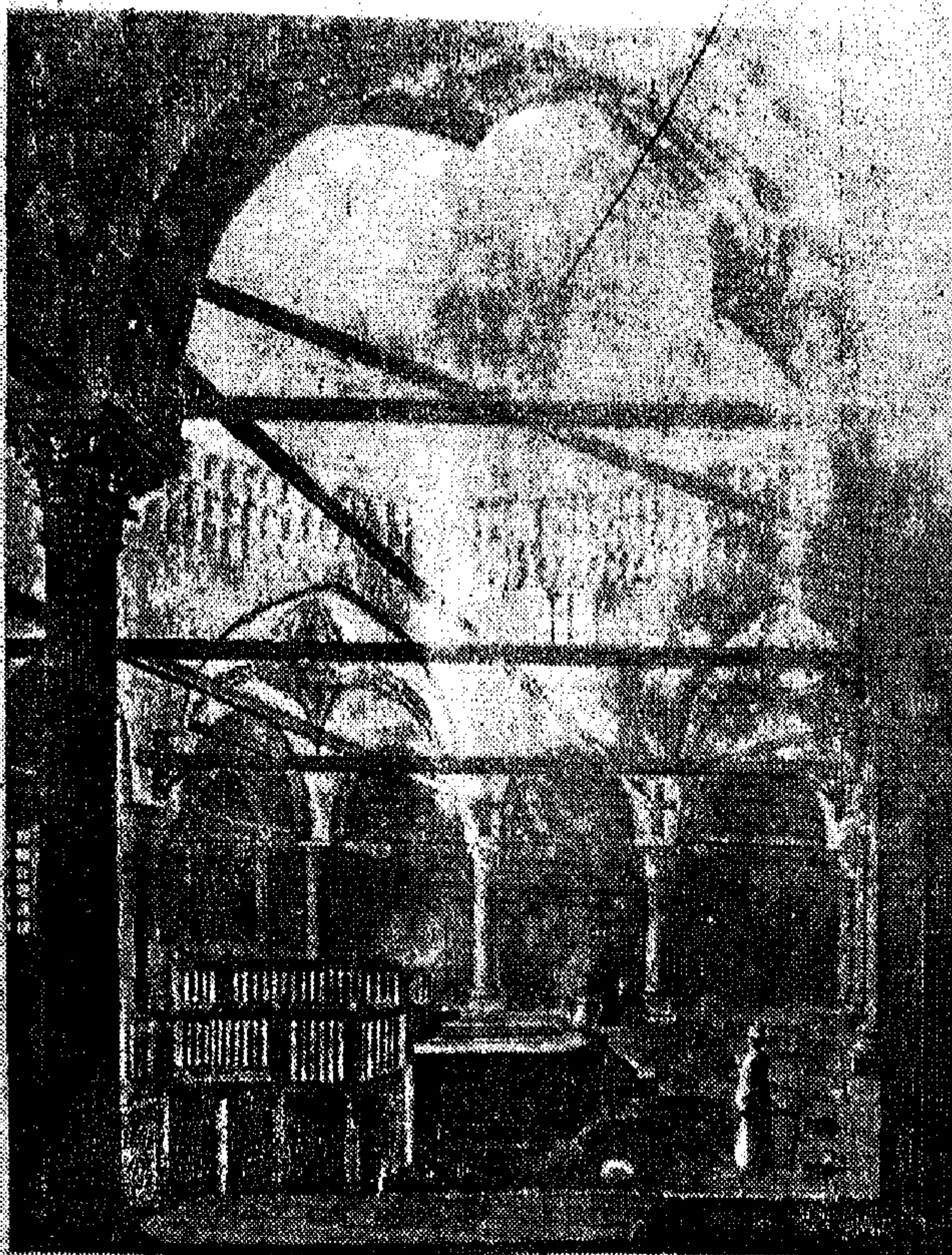
(١) النويري ، ص ٨٤ أ

(٢) المقریزی ، السلوك ، ص ٧٧٧

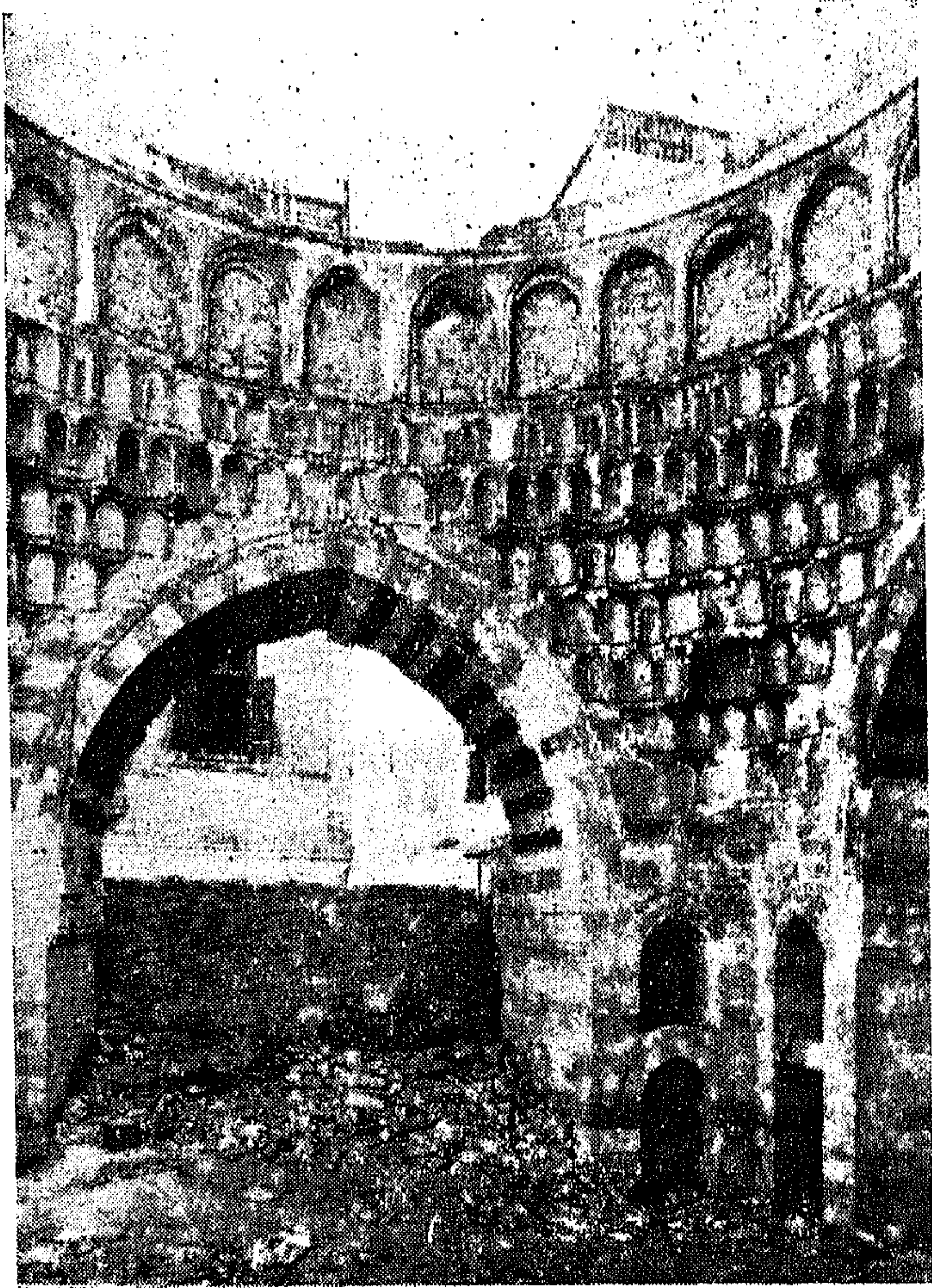
(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٢١ — ويبدو من الواضح أن هذا القول مبالغ فيه فقد ثبت من الكشوف التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية للبعثة البولندية في منطقة كوم الدكة أو كوم الديماس أن الحمام الروماني المكتشف كان صغير المساحة ، فطوله لم يكن يتجاوز ١٥ متراً وعرضه ستة أمتار فهو إذن من الحجم الصغير ، ولا يشتمل على الملعب وحوض السباحة وحجرة خلع الملابس وحجرات الإداريين وغير ذلك من المرافق التي تتوفر في الحمامات الرومانية ببونبي (فوزي الفخراي ، حمامات الاسكندرية الرومانية ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، عدد ١٦

سنة ١٩٩٣) .

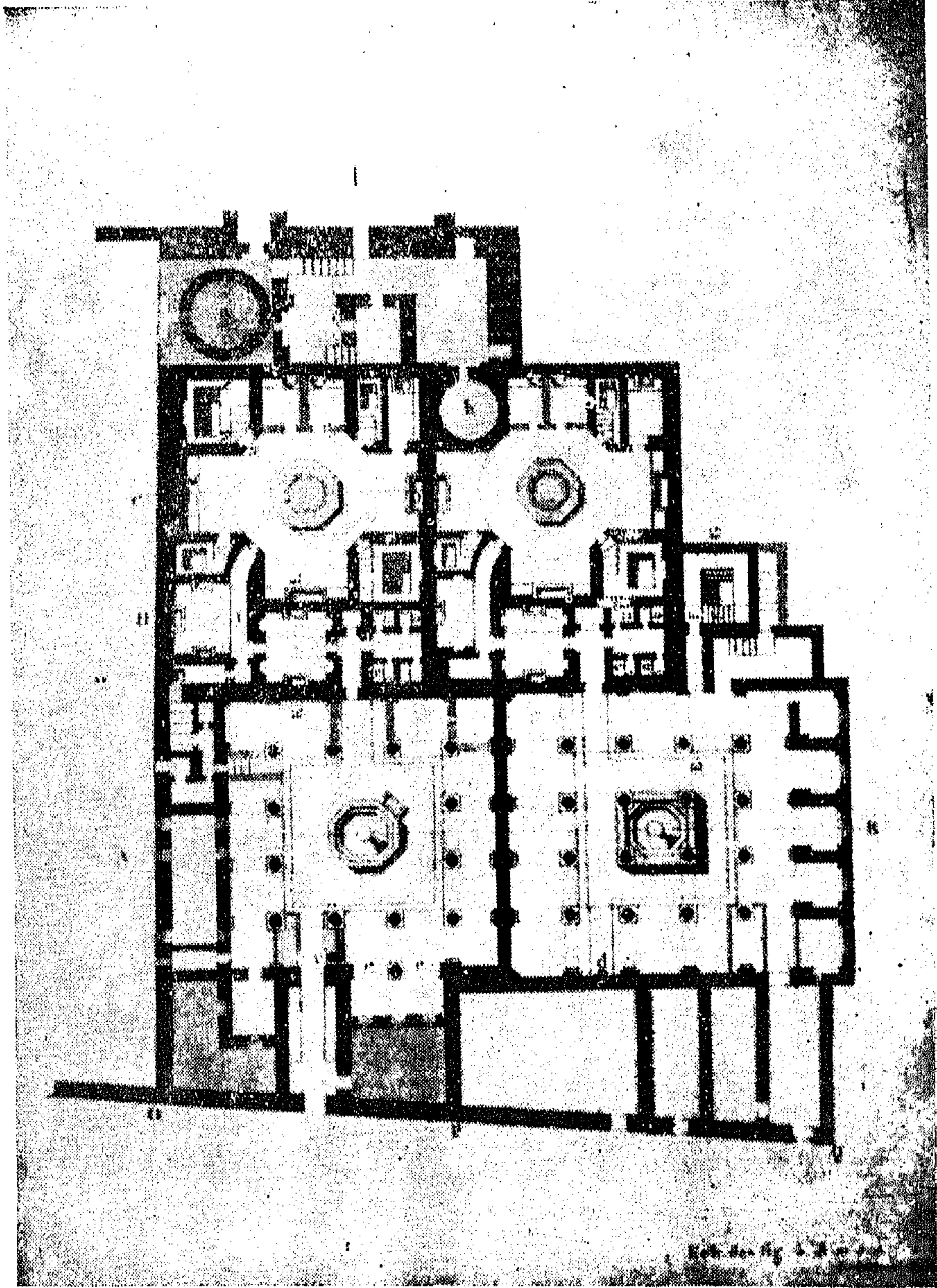
وكثر بناء الحمامات في الاسكندرية الإسلامية على نحو ما حدث في
الفسطاط ، فقد ذكر المقرئى أن الفسطاط كانت تضم ١١٧٠ حماماً ،
وفي هذا الرقم مبالغة ظاهرة ، ومع ذلك فهو يدلنا على كثرة الحمامات في
الفسطاط وحدها . والواقع أن مكانة الحمام في العمارة الإسلامية تتبع مباشرة
مكانة الدار ، فإن عادة الاستحمام كانت من العادات المتأصلة في الاسلام
وذلك للطهارة والنظافة . ولا نشك في أن الاسكندرية ، ثغر مصر الأول ،
ومركزها الاقتصادى الهام ، كانت تضم بين أسوارها عدداً كبيراً من الحمامات ،
غير أن هذه الكثرة لم تمنع من تعرض هذه الحمامات للضياع . ويذكر الأستاذ
ادمون بوتي Edmond Pauty أنه عثر في الاسكندرية على ستة حمامات
قديمة من العصر الإسلامى . (ولعلها من أواخر عصر المماليك وبداية العصر
العثمانى) هى : حمام حسن بك عبد الله بكوم الشقافة حمام جامع الشيخ
بشارع جامع الشيخ — حمام الذهب بشارع صلاح الدين — حمام الناصورى
بشارع الضبطية — حمام المصرى بشارع ساحل الغلال — حمام الشيخ بشارع
أبى الدرداء . وكان حمام الذهب أجمل هذه الحمامات جميعاً ، وكان يتردد
عليه الرجال والنساء على السواء . ويصفه الأستاذ بوتي بأنه كان يشتمل على
أربعة مغاطس ، ونظام قاعة خلع الثياب فيه وعناصره المعمارية تدل دلالة
قاطعة على قدمه ، وكان يتوسط هذه القاعة قبة (لم يبق منها سوى مقرنصات
في الأركان) تقوم على أربعة أعمدة من الرخام رؤوسها كورنثية ، اتخذت
من بعض الأبنية البيزنطية (١) .



صورة تمثل قاعة من قاعات الاستحمام بجمام اسكندري (من كتاب وصف مصر)



منظر يمثل إحدى قاعات حمام المؤيد بالقاهرة (أثر رقم ٤١٠)



تخطيط لأحد حمامات الاسكندرية

وفي كتاب وصف مصر لوحة تصور حماماً للنساء والرجال مكتمل العناصر كما نجد تصميمياً لهذا الحمام السكندري نعيد نشره في هذا الكتاب (أنظر ص ٤٩٩ ، ٥٠٣) . ونلاحظ أن قاعة خلع الثياب في هذا الحمام تتبع النظام المعماري الشائع في عصر المماليك بقبته المرتفعة، القائمة على ثلاثة طوابق من صفوف المقرنصات كما أن جوفاته المقوسة بالأركان وعقوده تذكرنا بالقاعة الكبرى في حمام المؤيد بالقاهرة (١) (أنظر ص ٥٠١) .

(د) الفساد والوكالات والقياساريات :

الفندق أو الخان بناء على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للحياة الاقتصادية بوجه عام ، وكان الفندق الاسلامي في العصور الوسطى يقوم بوظيفتين في آن واحد: تخزين كميات كبيرة من السلع أو البضائع قبل توزيعها على تجار التجزئة ، وايواء التجار الغرباء (٢) . وكانت الاسكندرية تزخر بعدد كبير من هذه الفنادق بسبب نشاطها التجاري الكبير ، وكثير من هذه الفنادق كان خاصاً بتجار الفرنج ، فلقد حرصت الدول التجارية التي كان يتعامل معها المماليك على إقامة فنادق لها في الاسكندرية منذ العصر الأيوبي، وقد ذكر بنيامين التطيلي ١٨ دولة كانت تتعامل مع الاسكندرية، لكل منها فندق في الثغر (٣) ، ولكن هايد لا يوافق على هذا العدد الكبير من الدول ، ولا يصدق

(١) Ibid. p. 38, 39 . ويظهر في التخطيط الذي أصدره التنظيم في سنة ١٨٨٧ في الحى المجاور لباب البحر عدة حمامات منها حمام أبو الشهاب وحمام الذهب وحمام عطية (راجع Combe, les levés de Gravier p. 61) .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية

الوسطى ، ص ٥٧

(٣) Viaje de Benjamin de Tudela, p. 115

الإحصاء الذى أورده بنيامين (١) . وكان للبندقية جالية كبيرة فى الثغر يتولى شؤونها قنصل ، وكان فى الحى البندقى فندقان وحمام ومخبز وكنيسة (٢) ، كذلك حرصت الدول التجارية التى تتعامل مع مصر المملوكية على أن يمثلها فى الاسكندرية قناصل يرعون شؤون تجارها ، كما أقامت لها فى الثغر فنادق خاصة بهؤلاء التجار كان معظمها يقع قريباً من باب البحر . ويذكر النويرى فى معرض حديثه عن غزوة القبارصة أن القبارصة عندما اقتحموا سور الاسكندرية ودخلوا المدينة أحرقوا فندق الكتيلانيين وفندق الحنويين وفندق المرسيلين (٣) . وبالإضافة إلى هذه الفنادق الأجنبية كانت هناك فنادق محلية نذكر منها فندق الموز الذى كان يقع بشارع المرجانيين ، وقد أحرقه القبارصة أيضاً (٤) ، وفندق الطيبة (٥) ، وفندق الجوكندار (٦) وفندق الدمامينى بسوق الحوار (٧) . وذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن نائب السلطنة قجماس الاسحاقى أقام خاناً خارج باب رشيد لزول المسافرين .

أما عن الوكالات ، فيزودنا النويرى باسم وكالة فى الاسكندرية هى وكالة الكتان التى كانت تقع قبالة جامع العطارين (٨) ، ولا نشك فى وجود

(١) Heyd, op. cit p. 389

(٢) شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت

عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٩

(٣) النويرى ، ص ٨٣ أ

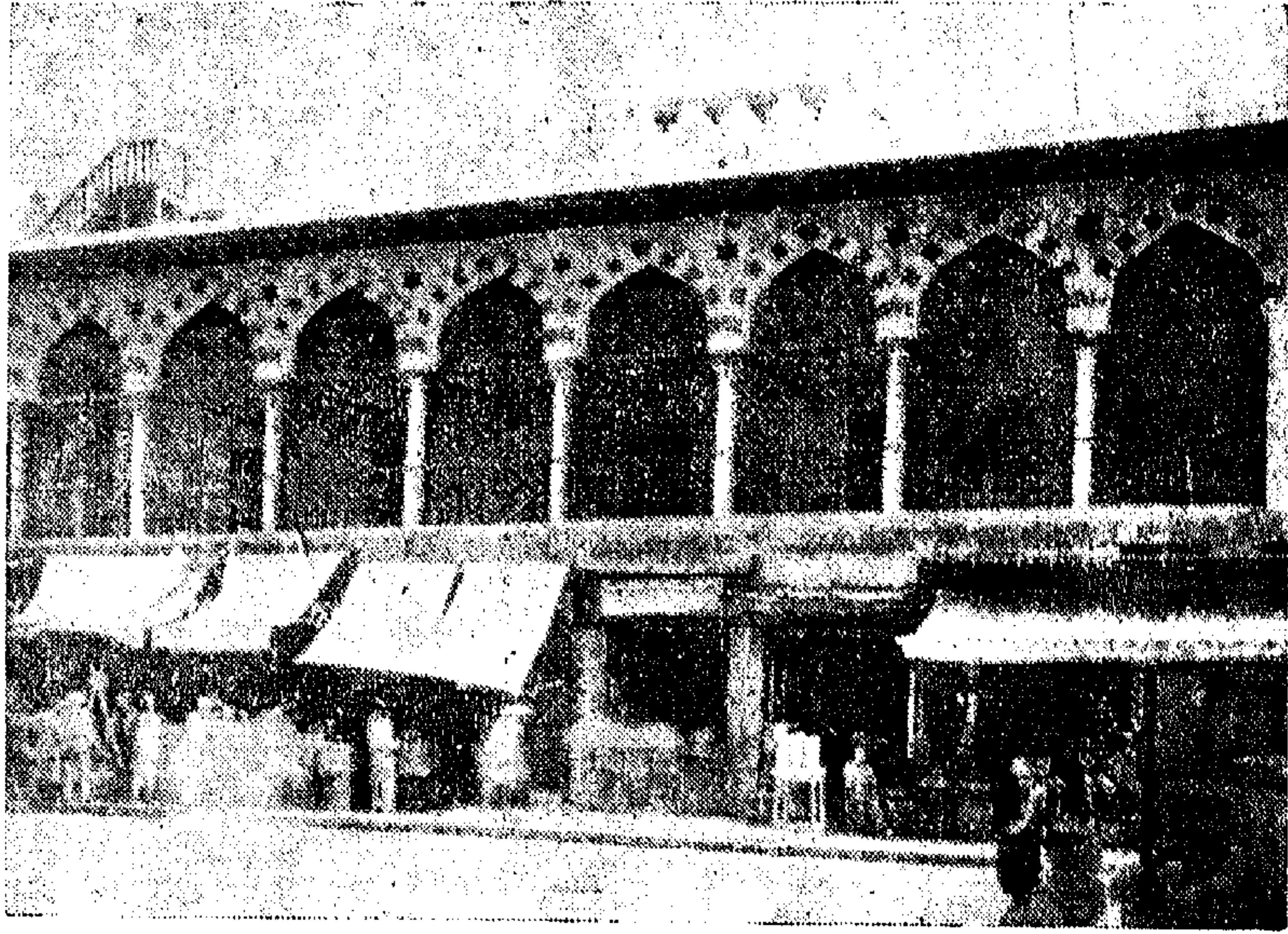
(٤) النويرى ، ص ١٦٣ أ

(٥) النويرى ، ص ٨٢ أ

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٢ ب

(٧) نفس المصدر

(٨) نفس المصدر ، ص ٨٢ ب



صورة لواجهة الوكالة المعروفة بوكالة الشوريجي بالاسكندرية
(من العصر التركي)

وكالة بالاسكندرية للبحار والتوابل ، مثل خزانة التوابل التي أنشأها الخلفاء الفاطميون في القاهرة (١) ، فقد أشار النويرى السكندرى إلى أن شمس الدين ابن غراب كاتب الديوان وشمس الدين بن أبى عذيبة الناظر أمرا بغلق باب الديوان حتى لا يتمكن أحد من التجار من نهب البضائع المكدسة في مخزائن الديوان (٢) ، ومن المعروف أن معظم البضائع الموجودة في الديوان كانت من التوابل والبحار ، فنهبا القبارصة وشحنوا سفنهم بما قدروا عليه ، وتركوا على الساحل فضلات البهار التي لم يجدوا لها موضعاً على سفنهم ، فعادت إلى أصحابها بعد خروج القبارصة (٣) :

وفيما يختص بالقيساريات والأسواق ، فقد كانت معظمها تتركز حول منطقة العطارين التي تؤلف قلب المدينة التجارية ، والمنطقة المحاورة لباب البحر حيث يقع العدد الأعظم من الفنادق ، ومن هذه القيساريات والأسواق الذى ورد ذكرها في كتاب الإمام ، سوق الحوار ، وسوق الخشابين ، وسوق القشاشين ، وقيسارية الأعاجم ، وقياسر البرازين ، وحوانيت شارع المرجانيين ، وحوانيت الصرفة (٤) ، وسوق السلاح (٥) .

(٥) الصهاريج والخزانات :

كانت ترعة الخليج تخترق مدينة الاسكندرية ، وتتشعب إلى فروع وأقنية

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٢

(٢) النويرى ، ص ٨١ أ

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٤ ب

(٤) نفس المصدر ، ص ٨٢ أ — ٨٣ أ

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٦٩ أ

تصب في البحر ، ومن هذه الفروع كانت تتفرع شبكة من القنوات المائية تمتد في جوف الأرض ، وتصل إلى الدور والبساتين ، وقد شاهد ابن جبير هذه الظاهرة ، فعبر عنها بقوله : « ومن العجب في وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتمق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، وتمتد بعضها بعضها » (١)

(و) القنطرة والمقياس :

ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص فتح الاسكندرية من ناحية القنطرة التي يقال لها قنطرة سليمان التي كانت تقع عند نهاية الطريق المؤدية إلى باب السدرة (٢) . وواضح من اسم هذه القنطرة الوارد في المصادر العربية أن العرب كانوا يربطون بين آثار معبد السيرابيوم وبين سليمان ، فكما سمي ابن رسته وغيره سوارى هذه المعبد بسوارى سليمان ، ونسبوا آثار المعبد إلى قصره (٣) ، فانهم نسبوا هذه القنطرة إليه أيضاً . ويؤكد الأستاذ كوسب أن هذه القنطرة ظلت قائمة حتى عصر محمد علي ، وأنها هدمت عند قيامه بحفر قناة المحمودية . وقد ورد ذكر هذه القنطرة عندما أشار على بن ظافر الشاعر إلى البساتين والمتنزهات التي كانت تمتد على ضفتي خليج الاسكندرية ، ويسمىها قنطرة السوارى (٤) .

وبالاضافة إلى هذه القنطرة القديمة ، يشير أبو المحاسن إلى أن الظاهر

(١) ابن جبير ، ص ٤٠ ، ٤١

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١١٨

(٣) ابن رسته ، ص ١١٧ — ابن الفقيه الهمداني ، ص ٧٣

(٤) أحمد النجار ، الانبج الأدبي في مدينة الاسكندرية ، ص ١٨٨

بيبرس أقام أثناء زيارته الثانية للاسكندرية في سنة ٦٦٤ هـ قنطرة عظيمة بالقرب منها يعتقد واحد (١) ، ويذكر الأستاذ كومب أنه قرأ في وقفية قديمة اسم « قنطرة السباع » ، ويستنتج من ذلك أن بيبرس نقش على القنطرة المذكورة رنكه الذى يتمثل فى صورة أسد على النحو الذى يبدو فيه افريز السباع الذى نحت على أعلى الواجهة الشمالية لقنطرة ترعة أبى المنجا المنسوبة إلى الظاهر بيبرس (٢) ، ونفس الرنك منقوش فى قنطرة اللد بفلسطين (٣).

وفى الرسم الذى أورده كومنلى سنة ١٤٧٢ ، تظهر القنطرة القديمة التى ذكرناها باسم قنطرة سليمان أو السوارى مكونة من ثلاثة عتود تقوم أرجائها فى القنطرة ، وذكر أمان Amman فى سنة ١٦١٣ أنها قنطرة محكمة من الحجر ، بينما ذكر فانساب Vansleb أنها قنطرة صغيرة (٤) .

أما مقياس النيل فى الاسكندرية ، فلم تزودنا المصادر العربية بشئ عنه ، وكل ما نعرفه عن وجود مقياس بالاسكندرية ينسب إلى الرحالة الحاج لودولف دى سوشم ، الذى ذكر فى معرض حديثه عن النيل وفيضانه إلى وجود مقياس للنيل بالقرب من الاسكندرية ، نقش عليه علامات . ويعتقد الأستاذ كومب أن المقياس المذكور هو نفس العتود الذى عثر عليه

(١) أبو الحسن ، النجوم ، ج ٨ ص ١٩٣

(٢) عبد الرحمن عبد التواب ، منشآتنا المائية عبر التاريخ ، المكتبة الثقافية عدد ٩٦ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٥١

(٣) Creswell, Works of Sultan Bibars, in Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire, vol. XXVI, 1926, p. 143 - 150
Combe, Notes de Alexandrine. p. 70

(٤) Combe, op. cit. p. 71.

في سنة ١٨٩٨ بكوم الجيرة والذي يحتفظ به متحف الفن الاسلامي (١).
وكان هذا العمود الرخامي يتوسط بئراً مربع الشكل مدفونا في كوم قريب
من الكريون ، والسبب في ذلك يرجع إلى تغير مجرى الخليج .

(١) Combe, op. cit. p. 65.

الفصل الثالث عشر

الحياة الاقتصادية والعلمية

(١) التجارة والزراعة وصيد الأسماك .

(٢) الصناعات :

١ - صناعة النسيج

٢ - صناعة الخزف

٣ - صناعة الزجاج

(٣) الحياة العلمية .

الفصل الثالث عشر

الحياة الاقتصادية والعلمية

(١)

التجارة والصناعة وصيد الأسماك

١ — التجارة — مارة :

استمر ضمنا في القسم التاريخي من هذا الكتاب مركز الاسكندرية التجاري في العالم القديم، كما تحدثنا عن أهميتها التجارية في العصور الاسلامية باعتبارها أهم ثغور مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، وحلقة الاتصال بين طرق التجارة العالمية في العصور الوسطى. فقد ظلت الاسكندرية بعد الفتح العربي طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب، ولم تفقد مكانتها التجارية في العصر العباسي على الرغم من سيطرة بغداد لتجارة العالم الاسلامي، والسبب في ذلك يرجع إلى موقع الاسكندرية الرائع على البحر المتوسط من جهة، واتصالها بالنيل عن طريق خليجها من جهة ثانية، فإليها كانت تهوى ركائب التجار في البر والبحر، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض (١)، لذلك انتعش الاقتصاد السكندري انتعاشاً ملحوظاً، بسبب الرسوم الباهظة التي كانت تفرضها حكومات مصر على السلع والمتاجر التي يأتي بها

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٠٤ =

التجار الفرنج ، وتعرف هذه الرسوم بضريبة الثغور (١) .

وكان لتشجيع دولة المماليك للتجار الأجانب على القدوم إلى الاسكندرية والإتجار في الفنادق الأفرنجية التي أعدتها الخاليات الأوربية (من بنادقة وجنويين وبيزنين وفرنسيين وكتيلان وقبارصة وأرغونيين إلى آخر ذلك) أثر كبير في الازدهار التجاري الذي أصابته الاسكندرية في هذا العصر ، وقد حاولت البابوية أن تتدخل دينيا لدى الدول الأوربية عقب سقوط عكا في أيدي المماليك لقطع كل علاقاتها التجارية مع مصر ، وفرض حصار اقتصادي على السواحل المصرية ، وتحريم التجارة بين مصر^١ والغرب ، والسعي إلى إقامة علاقات أوربية مع المغول (٢) ، لاحتلال طريق الخليج الفارسي وطريق التجارة وسط آسيا المفتوحة أمام الغرب محل طريق البحر الأحمر المغلق في وجه تجارهم ، ولكن هذه المحاولات أخفقت وباءت بالفشل ، لأن الجمهوريات الإيطالية والأوربية الأخرى التي كانت تتعامل مع مصر المملوكية فطنت بعد فشل الصليبيين المتكرر إلى قدرة مصر على الصمود ، زد على ذلك أنها أدركت أنها لا يمكن أن تستغنى عن الطريق المصري عبر الاسكندرية ، وظلت هذه الدول تعمل

= ويمتدح ابن بطوطة سري الاسكندرية بقوله : « ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر في مراسي الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كولم (كيلون) ، وقاليقوط (كلكتا) ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك (في شبه جزيرة القرم) ، ومرسى الزيتون (تسنج تشيوفو) ببلاد الصين » (ابن بطوطة ص ١٠) .

(١) الطاهر أحمد المكي ، معاهدة تجارية من القرن الثامن عشر ، ص ٩١

(٢) صبحي لبيب ، التجارة الكارسية وتجارة مصر في العصور الوسطى ، المجلة

التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثاني ، مايو ١٩٥٢ ، ص ٢٤

على كسب مودة سلاطين مصر بكافة السبل ، وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة ، وأبعدها أثراً . وتشهد تقارير قناصل أوروبا في الاسكندرية على كثرة التجار الأجانب في الاسكندرية وتعدد فنادقهم في هذا الثغر السكندري ، وتتابع السفارات الأوروبية إلى سلاطين المماليك بقصد عقد معاهدات تجارية مع مصر ، فكانت هناك سفارات بعضها ملوك أرغون وقشتالة وفرنسا ، ودوجا البندقية وجنوة ، وامبراطور بيزنطة ، وملك البلغار ووادي الفجر لحا ، والبلاط العثماني ، والبلاط الإيراني ، وكان التجار الكتيلان والحنوية والبنادقة يجلبون إلى مصر ، ما كانت تحتاج إليه من الرقيق ومن الخشب ومن المنسوجات ومن الفراء المعروف بالسمور أو الصمور ، والحديد والقصدير والزئبق والنحاس والزيت والصابون والقطران والجسوز وجلود الحيوان والمرجان والشمع والزعفران ، وبعض أصناف معينة من المنسوجات ، بينما كانوا يستوردون من مصر توابل الهند كال بهار والفلفل والزنجبيل والقرنفل ، التي كان يستوردها الكارمية المسلمون (١) من الهند واليمن والصومال ، وخزف الصين ولآلء الخليج الفارسي (٢) . بالإضافة إلى مواد الدباغة والصباغة والسكر

(١) صبحي لبيب ، المرجع السابق .

(٢) فييت ، المواصلات في مصر في العصور الوسطى ، ص ٣٨ - ٣٩ . ومن أمثلة المعاهدات والسفارات التجارية بين مصر ودول أوروبا المعاهدة التي عقدها الأشرف خليل مع خايمي الثاني ملك أرغون في ١٩ صفر سنة ٦٩٢ (٢٨ يناير سنة ١٢٩٢) والسفارة التي أرسلها ملك قشتالة إلى الناصر محمد بن قلاوون ورد عليها الناصر بسفارة أخرى في ٥ رجب سنة ٦٩٩ هـ (٢٨ مارس سنة ١٣٠٠ م) راجع :

Maximiliano Alarcon, Los Documentos Arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940, pp. 335 - 346-Heyd, Histoire du Commerce du Levant, t. II, p. 125

والدهون والصمغ والقطن والمنسوجات الكتانية والحريرية والشب المصرى
والنظرون والعطور والعقاقير (١) .

وكانت الاسكندرية على هذا النحو أهم مركز في مصر لتصدير التوابل ،
وهي تجارة مصر الأولى مع أوروبا المسيحية ، وعلى هذه التجارة اعتمد سلاطين
المماليك في تنمية موارد الدولة (٢) . وزاد من هذه الموارد احتكار سلاطين
المماليك لتجارها وتجارة بعض الحاصلات مثل السكر والأخشاب والمصنوعات
المعدنية (٣) ، وبلغت هذه الاحتكارات ذروتها في أيام الأشرف برسبای
الذى أصدر في سنة ١٤٢٨ م مرسوماً حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن
السلطان ، وفرض السلطان رسوماً باهظة على الواردات والصادرات ، وجعل
الاسكندرية الميناء الوحيد لتجارة التوابل (٤) ، فارتفعت أسعار بعض السلع
الشرقية ارتفاعاً هائلاً ، كالتوابل والحرير والسلك وكانت هذه الاحتكارات
مثارا لسخط الأجانب واستصرخهم للسلطان ، فاجتمع البنادقة على الأشرف
برسبای في سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢ م) عن طريق ممثلهم في الاسكندرية ، ولما لم
يجبهم السلطان إلى مطالبهم ، قطعوا علاقاتهم بمصر ، وأرسلوا أسطولهم إلى
الاسكندرية لاعادة التجارة البنادقة إلى بلادهم . ولما شاهد برسبای ذلك عاد إلى
صوابه ، ومنحهم شروطاً أفضل فيما عدا احتكاره للفلل (٥) . كذلك احتج
الكتيلان على موقف برسبای منهم ، ورفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان

(١) الطاهر أحمد مكي ، معاهدة تجارية سن القرن الخامس عشر ، ص ٨٨

(٢) فييت ، المرجع السابق ، ص ٣٩ - صبحي لبيب ، التجارة الكارسية ،

ص ١٥

(٣) ابراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩

(٤) صبحي لبيب ، ص ٤٣

(٥) Lane-Poole, history of Egypt in the middle ages, London, (٥)

1936 p. 340

ولكنه لم يجبه---م إلى مطالبهم لأنه لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم (١) . أما أرغون وقشتالة فقد احتجتا بشدة ، وعمدتا إلى رفع أثمان السلع الأوروبية التي ترد إلى مصر ، ولم تكنفيا بذلك بل هاجمت سفنهما السفن المصرية على سواحل الشام ، وأسرت بعضها ، واضطر برسباى أخيراً إلى عقد معاهدة صباح مع ممثليهما في ٧ رمضان سنة ٨٣٣ (٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ م) (٢) . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح من حق التجار الأرغونيين التجول داخل البلاد المصرية وحرية التنقل والاتجار بعد أداء الرسوم المقررة ، وحق الأسبقية في الشحن والتفريغ لبضائعهم وبعض امتيازات أخرى (٣) .

ثم أخذ مركز الاسكندرية كثغر تجارى يتضاعل تدريجياً بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، ولم تلبث المدينة أن هجرها التجار من سائر الأقطار ، فاضمه محلت وسادها الخراب حتى دخلها العثمانيون ، فانتكست نكسة طويلة لم تفتق منها الا بعد حركة الاستقلال .

* * *

وقد لعب تجار الكارم دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية والعلمية في مصر ، فاليهم ترجع كثير من أعمال الانشاء والبناء من فنادق ومدارس ووكالات ، فقد ذكر غرس الدين خليل أن تاجراً بثغر الاسكندرية « يقال له الكويك عمر به مدرسة مشهورة الآن صرف عليه جعالة من متحصل فائدة يوم

(١) ابراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٨٩

(٢) طالع الملحق في نهاية الكتاب .

(٣) الطاهر أحمد سكي ، معاهدة تجارية ، ص ٩١

واحد فقط «(١)، وقد أشرنا إلى هذه المدرسة عند دراستنا لمدارس الاسكندرية في العصر المملوكي، ونسبنا هذه المدرسة إلى عبد اللطيف بن أحمد بن محمود ابن أبي الفتح بن الكويك التكريتي. وكانت أسرة الكويك من أشهر الأسرات التجارية بشعر الاسكندرية (٢).

ومن أسر الكارمية المشهورة في الاسكندرية أسرة الدماميني، وقد قام أحد أفراد هذه الأسرة وهو عتيق بن محمد بن سليمان الدماميني بإنشاء مدرسة بالمرجانيين بالاسكندرية (٣) ومن تجار الاسكندرية المعروفين في عصر المماليك البحرية عبد العزيز بن منصور الكريمي (ت ٧١٣هـ) التاجر الكارمي، وكان كثير النفقة في أعمال البر والاحسان، وكان غنياً كثير المال حتى صار يضرب به المثل في كثرة المال وعجزه عن حصر ماله، ولما مات أخذ كريم الدين الكبير من ماله صندوقاً مملوءاً بالجوهر الثمينة التي لا يقدر ثمنها (٤). ومنهم ابن رواحة التاجر الذي كانت له قاعة معدة للسلاح (٥).

وذكر النويري السكندري أسماء جماعة من تجار الاسكندرية منهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن صلاح، والشيخ أبو عبد الله محمد المؤدب، والشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد التاجر السفار، وعلي بن راشد الحجازي الذي كان مقبلاً بالاسكندرية ويدبر رقع التجار على الدواوين (٦). ومن أعظم تجار

(١) زبدة كشف الممالك، ص ٤١

(٢) ابن بطوطة، ص ٢٨

(٣) الدرر الكامنة، ج ٣ ص ٤٨

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ص ٤٩٣، ٤٩٤

(٥) ابن بطوطة، ص ٢٨

(٦) النويري، ص ١١ أ

الاسكندرية زمن السلطان قايتباي ، الخواجه محيي الدين عبد القادر بن ابراهيم بن حسن المعروف بابن عرابية السكندري ، تاجر السلطان (١) .

(ب) الزراعة :

كانت الاسكندرية إلى جانب شهرتها التجارية العظيمة مدينة تحيط بها المزارع والحقول ، وكانت أرضها تنبت بوجه خاص النخيل والكروم والزيتون والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه والبقل والرياحين (٢) . وقد شاهد ابن جبير عند رحيله من الاسكندرية إلى دمنهور بسيطا من الأرض « كله محترث يعمه النيل بفيضه ، والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة » (٣) وذكر ابن مماتي أنه كان يزرع على نخايج الاسكندرية القصب والقلماس والنيلة وأنواع بزراعة الصيفي والسمسم (٤) ، وفي كورة مريوط الواقعة غربي

(١) ابن إياس ، ج ٣ ص ٢٢١

(٢) محمد عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، ص ٩٠ . ويصف ابن رسته الطريق النهرى إلى الاسكندرية من القسطنطين فيقول « تخرج منها في سفينة متحدراً فتسبح مقدار ثلاثين فرسخاً ، عن يمينك ويسارك النخيل والبساتين والضياء حتى تنتهى إلى سور الاسكندرية » (الأعلاق النفيسة ، ص ١١٨) . وفي موضع آخر يقول : « ... فتدخل من باب الشرق من الاسكندرية فهناك قبة خضراء عليها ستة عشر عموداً من رخام وهي وسط المدينة بناها الاسكندر ، يميناً من هذه القبة البحر ، ويسرة منها أشجار الجميز والكروم » (ص ١١٨) .

(٣) ابن جبير ، ص ٤٤

(٤) ابن مماتي ، ص ٢٢١

الاسكندرية ، كانت تزرع الفواكه ، وتحمل إلى الاسكندرية (١). وذكر القلقشندي أن الاسكندرية كان بها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حسناً مع رخص الثمن (٢) .

وكان العنب يكثر برمل الاسكندرية كما كان يزرع في منطقة تروجة ، وفي ذلك يقول النويري : « وبتروجة عنب مستطيل يسمى العنيز له حلاوة وقشر رقيق ، ومنه عنب مستدير يسمى المدور ، وعنب أسود » . كما ذكر أيضاً أن « برمل الاسكندرية من ظاهرها غنب أحمر قاني الحبرة يقال له شنقاري ، وعنب أحمر يقال له القهشيش » (٣)

ولما حفر الناصر محمد بن قلاوون خليج الاسكندرية ، استغنى أهل الاسكندرية عن الصهاريج ، وقام الناس بالزراعة على طول الطريق إلى الاسكندرية . ويذكر المقرئ أنه « استجد من الأراضي ما يربو على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباخاً ، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسهم ، وفوق الأربعين ضيعة ، وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية » (٤). غير أن هذه التربة لم تلبث أن سدت وطمرتها الرمال ، فتلف الجزء الأكبر من الحقول والبساتين المحيطة بالاسكندرية ، وتلاشت القرى . ولما أعاد برسباي حفر الخليج (ترعة الأشرفية) لم تعد البساتين كما كانت من قبل إذ أخذت الاسكندرية تسير سيراً حثيثاً نحو الاضمحلال .

(١) القلقشندي ، ج ٣ ص ٣٨٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٤

(٣) النويري ، ص ٢٤٧ أ

(٤) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠١

٣ — صيد الأسماك :

إلى جانب حرفتي التجارة والزراعة ، اختص جماعة من أهل الاسكندرية بصيد الأسماك ، بحكم وقوع الاسكندرية على البحر الأبيض المتوسط من جهة ، وقربها من بحيرتي إدكو ومريوط من جهة ثانية ، ووصول خليج الاسكندرية إلى المدينة متفرعاً من النيل من جهة ثالثة . وأول من أدخل نظام المصايد في الديوان أحمد بن مدبر وإلى خراج مصر زمن ابن طولون ، وجعل لصيد الأسماك ديواناً ، « فأمر أن يكتب في الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك ، فاستسر ذلك ، وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب إلى عدة جهات مثل خليج الاسكندرية وبحيرة الاسكندرية .. » (١) وكان يصاد من بحيرة الاسكندرية أسماك البورى ، نسبة إلى قرية بورة من أعمال تنيس ولكن عملية الصيد في بحيرة مريوط بطالت وتوقفت زمن المقرئى الحفاف البحيرة (٢) . أما الصيد من بحر الاسكندرية فكان يتم وقتاً ما ذكره المقرئى بالقرب من تمثال ضخيم من نحاس يقال له شراحيه... كان قائماً على حشفة من حشاف البحر ، كانت تكثر حوله الحيتان وتصاد عنده . ثم انقطعت عن هذا الموضع بعد أن أخذ أسامة بن زيد التنوخى عامل الوليد بن عبد الملك على مصر هذا التمثال وضربه فلو سا (٣) .

وكان صيد السمك في الخليج السكندري مطلقاً ومباحاً للرعية ، وكان السمك يطفو فوق الماء بكثرة حتى كان يتصيد الأطفال بالخرق ،

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٩١ :

(٢) نفسه ، ص ١٩٢

(٣) نفس المصدر

ولكن والى الاسكندرية فى العصر الفاطمى (زمن الطرطوشى) منع الناس من صيده (١) .

كذلك كان السمك يصاد من بحيرة إدكو المعروفة ببخيرة بوقير ، وكان لها خليج صغير مشتق من خليج الاسكندرية ، « وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المال الكثير » (٢). غير أن هذه البحيرة لم تلبث أن جفت وأصبحت سبخة طويلة عريضة بعد أن تغلب الرمل على أشтонها الموصل إليها الماء من البحر (المعدية) ، وانقطع ما كان يصاد منها من السمك البورى ، وعاد على الاسكندرية بسبب ذلك ضرر كبير ، لأن الغالب على أهلها كان أكل السمك (٣) وفى خليج بوقير كان صيادو الأسماك من أهل هذه الضاحية يقومون بصيدها أثناء الليل بحراريقهم فى قواربهم (٤) .

وترتب على هذه الحرفة صناعة تجفيف السمك وتمليحه ، فكان السمك إذا تم صيده « يوضع على أنحاخ ويملح ويوضع فى الأمطار ، فاذا استوى بيع وقيل له الماوحة والصبر ، ولا يكون ذلك إلا فيما كان من السمك فى قدر الأصبع فما دونه ، ويسمون هذا الصنف إذا كان طريا بسارية ، فتؤكل مشوية ومقلية » (٥).

(١) نفس المصدر، ص ٣٠٠

(٢) القلقشندى ، ج ٣ ص ٣٠٣

(٣) نفس المصدر

(٤) النويرى السكندرى ، ص ٧٣ ب

(٥) المقرئى ، الخطاط ، ج ١ ص ١٩١

(٢)

الصناعات

اشتهرت الاسكندرية في العصر الاسلامى بكثرة صناعاتها ، وأهم هذه الصناعات صناعة النسيج وصناعة الخبز وصناعة الزجاج ، وصناعات أخرى متعلقة بالكروم .

١ ... صناعة النسيج :

يكاد يجمع المؤرخون العرب الذين كتبوا عن الاسكندرية على تفوق صناعة النسيج في الاسكندرية في العصر الإسلامى ، فالمقرئى يذكر أن « الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها وتحمل إلى أقطار الأرض ، وفي ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة ، وما يدخل في الطرز فيبيع بنظير وزنه مرات عديدة » (١) ، وذكر القلقشندي أن بالاسكندرية « ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير في الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر ، وتميز من قماشها جميع أقطار الأرض » (٢) . كذلك أشار غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري إلى ازدهار صناعة النسيج في الاسكندرية في عصره ، فقال : « ويعمل بهذا الشجر من الأقمشة العجيبة التي لا توجد في غيره » (٣) . وذكر الزويرى أنه

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٦

(٢) القلقشندي ، ج ٣ ص ٤٠٤

(٣) ابن شاهين الظاهري ، ص ٤١

ينسج من الحرير بالاسكندرية أقمشة مختلفة تحمل إلى العراق وإلى غيره من البلاد (١) .

ويرجع سبب تفوق الاسكندرية في هذه الصناعة على غيرها من مدن مصر والشام إلى أنها ظلت تحتفظ بعد الفتح الإسلامى بمركزها القديم، فلم تتأثر بهذا التغيير السياسى والدينى ، لأن العرب الفاتحين لم يقوموا بأى تغيير جوهري في هذه الصناعة ، وقنعوا بادخال الكتابة العربية في منتجاتهم (٢) ، وقامت دور الطراز في الاسكندرية وغيرها بانتاج كسوة الكعبة والخيام والأعلام والحاج التي كان يخلعها الولاة على من شاؤوا من الناس لتشير فيهم . وقد اقتصت الاسكندرية في العصر المملوكى بانتاج أنواع جديدة من المنسوجات نخص بالذكر منها الوشى والسقلاطون والشرب والمنمر والمفرج السكندري ، والشاش الحرير السكندري المدبوج بالذهب والطرده وحش ، والبشايخ (٣) . أما الوشى السكندري الذى كان على حد قول السيوطى يقوم مقام وشى الكوفة (٤) ، والذى كان يطلق على ثيابه اسم الحلل (٥) ، فنسيج من الحرير محلى بخيوط الذهب ، ولذلك عرف هذا النوع من النسيج باسم الحلل الموشية . أما السقلاطون فنوع من النسيج المصنوع من الحرير مطرز بالذهب ، وكان

(١) النويرى السكندري ، ص ١٢١ أ

(٢) M.A. Marzouk, Alexandria as a textile centre, p. 126

(٣) القلقشندي ، ج ٤ ص ٥٢ ، ٥٣

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٩٣

(٥) عبد العزيز الأهوانى ، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن

العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث ، ١٩٥٧ ص ٣٠

معروفا في بلاد اليونان ، ثم انتقلت صناعته إلى البلاد العربية ، وحذقه الصناع العرب . ويذكر ماركيز دى لوثويا أن السقلاطون لنظفه مشتقة من Cichlaton اليونانية الأصل ، وهو اسم كان يطلق في أوربا على نسيج من الحرير مطرز بالذهب ، اختصت بغداد بصناعته ، ويرجح أن هذا الاسم طبق على هذا النوع من النسيج بسبب رسومات الدوائر التي تحملها المنسوجات البيزنطية والساسانية والعربية (١) . أما الشرب فنوع من النسيج الكتاني الرقيق كانت تعمل منه القصصان الداخلية ، وتلف به العمام ، تصنع الخمر لغطاء رؤوس النساء ، كما كان يستعمل برسم الطرح أو القوارات التي توضع على العرواني وتشد على الموائد (٢) . وأما المنسج فنسيج حريري يدخل فيه خيوط الذهب يزدان برسوم مخططة تشبه جلد النمر ، ويعرف أيضاً بالشاش (٣) ، في حين أن المنسج السكندري نوع من النسيج الرقيق المذهب تصنع منه الطرح والكاوتات المزركشة بالكلايب (٤) . والشاش السكندري هو نسيج حريري مموج بالذهب ، وهو نفس النوع المعروف بالمنمر . والطررد وحش

(١) Marqués de Lozoya, Historia del arte hispanico, t. I, Barcelona, (١٩٣١)،

1931, p. 268

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المينة الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٥٨ . وكان هذا النوع من النسيج يعرف في اللغة الفرنسية القديمة باسم Siglaton

(راجع : Blachère, Extraits de principaux géographes arabes

(١٩٣٢، Paris - Beyrouth, pp. 197 - 198) du Moyen - âge,

(٢) المقریزی ، ج ٢ ص ٣٦٠

(٣) المقریزی ، الخطط ، ج ٣ ص ١٥٩ — القلقشندي ، ج ٤ ص ٥٣

(٤) نفس المصدر .

نسيج كان يعمل بدار الطراز بالإسكندرية وهو « مجوخ جاختات » كتابة باللقاب
السلطان وجاختات طردوحش ، وجاختات ألوان ممتزجة بقصب مذهب ،
يفصل بين هذه الجاختات نقوش ، وطراز هذا يكون من القصب ، وربما
كبر بعضهم فركب عليه طرازاً مزركشا بالذهب « (١) . والظاهر أن هذا
النسيج كان يزدان بدوائر أو رسوم بداخلها صور تمثل مناظر لصيد الوحوش .
أما البشائخ ، فنوع من المخمل (٢) (القطيفة) .

وكان يصنع بدار الطراز بالإسكندرية أيضاً نوع من الشقق الحريرية
والكاوتات برسم النواتية والملاحين (٣) ، والبندقى الرقيق والجوخ الأحمر (٤)
والاسكرلاط (٥) والأطلس (٦) وهو أرقى أنواع المنسوجات « وكانت
الشقق تعمل برسم كسوة الكعبة .

غير أن صناعة المنسوجات في الإسكندرية أخذت تضمحل منذ بداية
القرن التاسع الهجرى (٧) ، ثم لم تلبث دار الطراز أن تعطلت زمن برسباي ، ولم
تعد الإسكندرية تنتج من النسيج إلا ما كان يتولى بعض الأفراد صنعه ، فنى

(١) نفس المصدر . ويقصد بالجاجة دائرة بداخلها الرسم المذكور

(٢) ابن اياس ، ج ٤ ص ٣٣٤

(٣) المقرئى ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٣٦٠

(٤) ابن واصل ، تاريخ الواصلين ، ص ٢٤٤ أ — المقرئى ، السلوك ،

ج ١ ص ٤٩٩

(٥) ابن عبد الظاهر ، ص ١١٧

(٦) السلوك ، ج ٢ ص ١٩٥

(٧) Darrağ, L'Egypte sous le règne de Barsbay, p. 69.

سنة ٨٣٧ هـ أحصى عدد الأنوال بالاسكندرية ، فظهر أن هذا العدد لم يتجاوز ثمانمائة نول ، في حين بلغ عدد أنوال الاسكندرية في نهاية القرن الثامن الهجرى ١٤٠٠٠ نولا (١) .

ويزودنا النويرى السكندرى بوصف رائع لدار الطراز بالاسكندرية ، إذ يصور لنا مشاهدات السلطان الأشرف شعبان في هذه الدار فيقول : « وجعل يطوف على الأنوال يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناعات كيف ينسجون ، وإلى مكائهم كيف يرمونها ولها يبرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد في أعلى الأنوال الشياطين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المأدى ولها يحملون ، وكيف تصنع الطيور المندوجة والبدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر وغيره ... ثم إن السلطان شاهد ما في دار الطراز بالاسكندرية من عمل زراکش ورقوم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختر منها ثياباً يستصحبها معه وترك الباقي إلى حين تكملة نسجه » (٢) .

ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بعدد من قطع النسيج التى تحمل كتابة كوفية تشير صراحة إلى أنها من إنتاج دار الطراز بالاسكندرية .

٢ - صناعة الخزف :

عرفت الاسكندرية قبل الاسلام صناعة الخزف ، وكانت تؤلف مركزاً هاماً لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كالكؤوس

(١) ابن العباد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢١٨

(٢) النويرى ، نسخة دار الكتب ، ص ١٤٢ ، أ ، ب

ذات الرسوم البارزة . وكانت تغطي كلها باللون الأخضر ، أما جزؤها الداخلي فكان لونه يميل إلى الإصفرار (١). ولا شك أن هذه الشهرة استمرت بعد الإسلام وعلى الأخص في العصرين الفاطمي والمملوكي ، فلقد أسفرت الحفائر الأثرية التي قامت بها كلية الآداب في كوم السدكة سنة ١٩٤٨ عن كشف قطع هائلة من الخزف الفاطمي والخزف الشائع في عصر المماليك ، كما كشف عن بقايا النباتات البحرية ومخلفات الحريق وكتل زجاجية تشير كلها إلى أنه كان يقوم في هذه البقعة مصنع للخزف ، هذا إلى جانب قطع كثيرة من خزف أجنبي (صيني وأندلسي وإيراني وسوري) (٢) مما يدل قطعاً على أن الصناع الإسكندرانيين كانوا يقومون بتقليد هذه المنتجات المستوردة في صناعتهم المحلية . وأغلب ما عثر عليه قطع من النوع المعروف بالخرافياتو ونعني به الخزف المصنوع من طينة حمراء اللون ومغطى بطبقة من طينة بيضاء تسمى البطانة ، وتتسم زخارف هذا النوع بأنها ترسم فوق البطانة ثم تزال الأجزاء المحيطة بالزخرفة حتى تبدو الطينة الحمراء ويظهر الرسم بذلك بارزاً ، ثم تزجج الآنية بعد ذلك . وتتميز القطع التي عثر عليها بحمل كتابات نسخية منها « الأميرى » و « المولوى » و « الملكى » و « المقرى » وكلها ألقاب كان يحملها المماليك ، كما عثر على قطعة تحمل توقيع أحد الصناع المشهورين في عصر المماليك وهو شرف

(١) Arthur Lane, Early Islamic Pottery, London, p. 9

(٢) حفائر جامعة الاسكندرية في كتاب « الاسكندرية » الذى وضعته غرفة

الأبواني (١).

كذلك كشفت البعثة البولندية التي تقوم بحفائرها في موضع آخر من منطقة كوم الدكة عن كميات كبيرة من الخزف ، منها النوع الفاطمي المعروف بطريقة الذهبى ، ومنها النوع الأيوبي الذي تشتمع منه الزخارف ، ومنها النوع المماوكي المعروف بالخرافياتو . كذلك عثرت البعثة المذكورة على قطع من الخزف الأندلسي والایرانی مما يدل على أنه كان يرد إلى الاسكندرية بعض الأواني الخزفية من الشرق والغرب . ولقد كان الخزف الأندلسي من الأنواع الممتازة التي يقتنيها الناس ، وليس أدل على ذلك مما قدمه سفير السلطان الغالب بالله أبي عبد الله محمد بن نصر ملك غرناطة إلى السلطان الظاهر بقمق من هدايا من الخزف والشياب . ويذكر السفير الأندلسي أنه قدم إلى السلطان المصري « شيئاً مما اصطحبناه من متاع الأندلس كالفيخار المالحى والانبجبار الغرناطى وشيء من ثياب الخزانة السوجة بها » (٢) .

٣ - صناعة الزجاج :

كانت الاسكندرية معروفة منذ عصورها القديمة بصناعة التحف الزجاجية (٣) ، وظلت هذا الصناعة مزدهرة في العصر الإسلامى ، فكانت تصنع من الزجاج الأواني والقارورات والأختسام (٤) . وكانت

(١) Marzouk, 'Three signed specimens of Mamluk Pottery from

Alexandria, in Ars Orientalis, II, 1957, pp. 497 - 501.

(٢) عبد العزيز الأهواني ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، مجلة كلية

الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٤ ، ص ١٠٥

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٧٩

(٤) زكى محمد حسن ، الفن الإسلامى فى مصر ، ج ١ ص ١١٧ ، القاهرة ، ١٩٣٥

الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الزجاج في مصر في العصر الفاطمي (١)،
ويذكر المقرئى اسم مدينة الاسكندرية بين المدن التي اشتهرت بصناعة
الزجاج (٢). وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات من القطع
الزجاجية والبلورية وقطع من الزجاج المزين بزخارف مذهبة ومموهة بالمينا
من النوع الشائع في المشكاوات .

(١) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص ٥٨٦ ، القاهرة ، ١٩٤٨

(٢) المقرئى ، الخطاط ، ج ١ ص ٣٤٢

(٣)

الحياة العلمية

كانت الاسكندرية عندما فتحها عمرو بن العاص أعظم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية ، غير أن مدرسة الاسكندرية لم تلبث أن اضمحلت بعد الفتح العربى ، لانصراف أهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية ، وإقبالهم على الثقافات العربية ، بعد أن نزلها عدد كبير من العرب المينة ، ومع ذلك فقد ظلت الاسكندرية تحتل مركزها العلمى والثقافى القديم فى الشرق على الرغم من تعربها ، ونبع من رجالها كثيرون فى الطب والكيمياء ، وعلى يد علمائها أخذ خالد بن يزيد علم الكيمياء ، بعد أن أمرهم بنقل كتب الكيمياء إلى العربية (١) .

وفى الطب نبغ عدد من أهل الاسكندرية منهم طبيب يدعى ابن أبجر كان يتولى التدريس فيها ، ومنهم بليطان السكندرى (٢) (ت ١٨٦) الذى بعث الخليفة هارون الرشيد فى طلبه لتطبيب إحدى جارياته ، وسعيد بن نوفل الذى كان فى خدمة ابن طولون ، وسعيد بن البطريق (ت ٣٢٨) . وفى العصر الأيوبي شاركت مجموعة المدرسة والبيمارستان التى أسسها صلاح الدين بثغر الاسكندرية على ازدهار العلوم ، والظاهر أن البيمارستان المذكور كان يضم عدداً من الأطباء الذين كانوا يتولون التدريس فيه وفى نفس الوقت

(١) سيدة كاشف ، مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٩

(٢) السيوطى ، ج ١ ص ٢٥٨

يشرفون على علاج المرضى . وظهر في العصر المملوكى طبيب مغربى يدعى عبد الواحد بن الاوز المغربى (نزىل الاسكندرية) ، وكان بارعاً فى علم الطب والفلك والتاريخ (ت : ٧٨٠) (١) .

وفى الهندسة والفلسفة والعلوم العقلية نبغ من أهل الاسكندرية الرشيد ابن الزبير الأسوانى ، وكان عالماً بالهندسة والمنطق وعلوم الأوائل (ت ٥٦٣) (٢) . وفى الأصول فخر الدين أحمد بن سلامة بن أحمد الاسكندرانى العلامة الأصولى البارع (ت ٧١٨ هـ) (٣) ، وفى الهندسة وفنونها أبو المكارم هدية بن عامر ابن فتوح الحضرمى المهندس (٤) . وكانت علوم الهندسة والفلك مزدهرة ، فى الاسكندرية فى العصر المملوكى إلى حد أن ابن الشاطر الفلكى (ت ٧٧٧) عالم الفلك المعروف والهندسة والحساب رحل من دمشق إلى الاسكندرية ليتعلم بها المزيد من هذه العلوم (٥) .

أما العلوم الدينية فلم تزدهر فى الاسكندرية ، الا منذ أن تأسست بها مدرستا الحافظية والسلفية السنييتان ، لتدريس الحديث ، وكان لهاتين المدرستين أعظم الأثر فى النهضة العلمية التى اتسمت بها الاسكندرية فى العصر الفاطمى . وساعد على ازدهار هذه العلوم شيوخ مغاربة وأندلسيون ، نزلوا الاسكندرية ، وأسهموا فى الحركة العلمية بها . ويذكر الضبى أن الحافظ السلفى كان يحضر

(١) ابن الفرات ، ج ٩ ص ٤٤

(٢) السيوطى ، ج ١ ص ٢٥٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٦١

(٤) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٦

(٥) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٦ ص ٢٥٢

فى محفل عظيم بالاسكندرية عند بعض أهلها وكان المجلس يغص بالحاضرين (١). وكانت الاسكندرية منذ العصر الفاطمى ملتقى علماء المغرب والأندلس والمشرق على السواء . وكانت تتزوج بهؤلاء العلماء الذين نذكر منهم : العالم أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر الميورى ، وأبا عبد الله محمد بن مسلم ابن محمد القرشى المازرى الصقلى (٢) ، وأبا بكر الطرطوشى ، وعبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن الفحام ، وكان من شيوخ القراء بالاسكندرية (٣) . وأبا القاسم بن مخلوف المغربى ثم الاسكندرى ، أحد كبار أئمة المالكية (٤) (ت ٥٣٣) ، وأبا العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الأنصارى القرطبى الفقيه المحدث (ت ٥٥٦) (٥) ، وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن الجرح التلمسانى نزىل الاسكندرية ، وكان من صالحاء العلماء فى الحديث (ت ٦٥٦ هـ) (٦) ، والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة القيروانى نزىل الاسكندرية ، وكان عالماً فى القراءات (ت ٥١٤ هـ) (٧) ، واليسع بن حزم الغافقى الأندلسى الحيانى نزىل الاسكندرية فى عصر صلاح الدين (ت ٥٧٥) (٨) ، والقاسم

(١) الضبى ، ص ٢٠٧

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٢ ، ١٣٤

(٣) السيوطى ، ج ١ ص ٢٣٥

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١٤

(٥) نفس المصدر ، ص ٢١٥

(٦) نفس المصدر ، ص ٢١٦

(٧) نفس المصدر ، ص ٢٣٥

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٦

ابن خيرة بن خاف بن أحمد الشاطبي المقرئ (ت ٥٥٥) (١)، وأبا علي منصور ابن لب الأنصاري (٢).

وعلى هؤلاء العلماء الأجلاء أخذ كثير من أهل الاسكندرية علوم الحديث والقراءات والفقه، ونبغ منهم العلامة ابن أبي مطر (ت ٣١٩)، ومحمد بن ميسر فقيه الاسكندرية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وعبد الرحمن ابن عوف بن عمرو العلاف، وجعفر بن علي بن هبة الله أبو الفضل الهمداني الاسكندراني المقرئ والمحدث (ت ٦٣٦)، وابن الصفر اوى الاسكندراني (ت ٦٣٦)، وعبد الكريم بن عطاء الله الاسكندراني (ت ٦١٢) (٣).

ومن أشهر علماء الاسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي العلامة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الحنفي الاسكندراني أحد الأئمة المتبحرين في العلوم من التفسير والفقه والأصول والنظر بالاضافة إلى نبوغه في العربية والبلاغة والأنساب، وتوفي بالاسكندرية في ٦٨٣ هـ (٤) وابن أخيه عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير شيخ الاسكندرية (ت ٧٣٦) (٥) والحافظ ابن العماد أبو المظفر منصور بن سليمان الهمداني الاسكندراني الشافعي، الذي ألف في الحديث وفي الفقه وفي تاريخ الاسكندرية (ت ٦٧٣) (٦).

(١) السيوطي، ص ٢٣٦

(٢) المقرئ، ج ٣ ص ٣٠٢

(٣) السيوطي، ج ١ ص ٢١٥

(٤) نفس المصدر، ج ١ ص ١٤٢

(٥) نفس المصدر، ص ٢١٦

(٦) نفس المصدر، ص ١٦٦

ومنصور بن سندی الدباغ الاسكندراني (ت ٦٤٦) ، والمكين الأسمر
عبد الله بن منصور الاسكندراني شيخ قراء الاسكندرية (ت ٦٩٢) (١) ،
ويحيى بن أحمد بن الصواف الجذامي الاسكندراني (ت ٧٥٠) (٢) ، وأبو
القاسم بن يحيى المالكي الاسكندري المعروف بالقباري (٣) ، وتاج الدين
ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الاسكندراني المتصوف
أحد تلامذة الشيخ أبي العباس المرسى والشيخ أبي الحسن الشاذلي .

وفي علوم النحو واللغة نبغ محمد بن عبد الله عبد العزيز الاسكندراني
شيخ الاسكندرية في النحو (ت ٦٩٣) ، وبدر الدين محمد بن أبي بكر بن
الدماميني الاسكندراني (ت ٨٢٧) . وفي الشعر والأدب برز عدد كبير من
شعراء الاسكندرية ، نذكر منهم علي بن عباد الاسكندري في عصر الحافظ
الفاطمي ، وظافر بن القاسم الحداد الجذامي الاسكندري (ت ٥٢٩) ، ونصير
الدين عبد الله بن مخلوف بن علي اللخني المعروف بابن قلافس الاسكندري
(٦٠٧) ، والشرف النساج بن غنوم الاسكندري نزيل مصر (ت ٦٨٠) .
ومنذ أواخر القرن السادس الهجري ازدهرت الحياة العلمية بالثغر ، وأقيمت
المدارس ودور الحديث والأربطة ، وشارك في هذه الحركة العلمية المباركة
عدد كبير من التجار والصناع وأرباب الحرف ، نذكر منهم على سبيل المثال :
أ - من التجار :

منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن مكي بن حمزة بن موقا الأنصاري التاجر ،
مسند الاسكندرية (ت ٥٧٩) (٤) ، وأبو محمد عبد الرحمن بن عبد الجبار

(١) السيوطي ، ص ٢٤٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٨

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٦

العثماني الاسكندراني التاجر الكارمي المحدث (ت ٦١٤) (١)، وعبد العزيز بن منصور الكرمي التاجر الكارمي (ت ٧١٣) (٢)، وعبد اللطيف بن أحمد بن محمود التكريتي، أحد رؤساء الكارمية الذي بنى مدرسة بالاسكندرية علم فيها الحديث (٣)، وعبد اللطيف بن رشيد بن محمد التكريتي (ت ٧١٣) (٤).

ب— من الوراقين والمجلدين:

منهم أبو الرضا زيد بن محمد بن عبد الحميد بن الطرابلسي المجلد بالثغر، وكان يشتغل بتجارة الكتب وتجليدها، وكان يحفظ كثيراً من الشعر، وأبو الحسن علي بن يوسف بن عبيد الكندي الشاعر، وكان مطرزاً، وأبو محمد عبد الوهاب بن اسماعيل بن برياك بن توهيب الوراق، وأبو الحسن علي بن محمد ابن علي بن الحسين بن يحيى الجيزي الكتبي، وكان من أعراف الناس بالخطوط وأثمان الكتب (٥).

ج— من أرباب الحرف والصناعات:

منصور بن سندی الدباغ (٦)، المحدث، وأحمد بن عبد الله بن محمد الأنصاري الاسكندراني النحاس (٧)، وظافر بن القاسم الحداد

(١) السيوطي ص ١٧٦

(٢) ابن حجر، ج ٢ ص ٤٩٣

(٣) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٨

(٤) نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٠

(٥) حسن عبد الوهاب، ص ٣٨٤ وما يليها

(٦) السيوطي، ج ١ ص ١٧٧

(٧) نفسه، ص ١٧٩

الشاعر (١)، والشرف النساج الشاعر (٢)، وأبو الفضل قاسم البجائي
القصار (٣)، والعباس بن طريف الخراط الاسكندري الشاعر (٤).

(١) السيوطي، ص ٢٦٩

(٢) نفسه، ص ٢٧٢

(٣) النويري السكندري، ص ١٨٠ ب

(٤) حسن عبد الوهاب، ص ٣٨٨

ملاحق الكتاب

ملاحق الكتاب

- ١ — ذكر ما اتفق للمسلمين مع البنادقة والجنوية بمينة الاسكندرية الشرقية .
(من كتاب الإمام بما قضت به الأحكام ، نسخة دار الكتب المصرية) .
- ٢ — ذكر العناية بالاسكندرية وتولية ملك أمراء بها يصير مقبلا كالمشرق
وحلب (من كتاب الإمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .
- ٣ — ذكر تاريخ ولاية ملك الأمراء طيدير البالى ثغر الاسكندرية
المحروس ، وما اتفق في ذلك من ولايته للمسلمين مع طائفة الأفرنج
الكافرين . (من كتاب الإمام ، للنويرى السكندرى ، نسخة دار
الكتب المصرية) .
- ٤ — ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الملك الأشرف شعبان من القاهرة
إلى الاسكندرية ، ونصب كرسى الملك بها سنة ٧٦٩ هـ .
(من كتاب الإمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .
- ٥ — ذكر زيارة السلطان الملك الأشرف شعبان للاسكندرية فى سنة ٧٧٠ هـ .
(من كتاب الإمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .
- ٦ — ذكر خبر ابراهيم التازى رايى دار الصناعة بالاسكندرية ، وما فعله
بالفرنج من المخازى وغير ذلك .
(من كتاب الامام ، نسخة دار الكتب المصرية) .
- ٧ — منتخبات من معاهدة الصلح المعقودة بين الأشرف برسباى والفونسو
الخامس ملك أرغون فى سنة ٨٣٣ هـ .

- (من كتاب الوثائق الدبلوماسية العربية المحفوظة بأرشيف مملكة أرغون).
- ٨ - زيارة السلطان الملك الأشرف قايتباي الأولى للاسكندرية في سنة ٨٨٢ هـ
(من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ، ج ٣ ، ص ١٢٦ - ١٢٨).
- ٩ - زيارة السلطان الملك الأشرف قايتباي الثانية للاسكندرية في سنة ٨٨٤ هـ
(من كتاب بدائع الزهور ، ج ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١).
- ١٠ - زيارة السلطان قانصوه الغوري للاسكندرية في سنة ٩٢٠ هـ .
(من كتاب بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٤٢٣ - ٤٢٥).
- ١١ - وصف سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر بجمهق للاسكندرية في سنة ٨٤٤ (نص نشره الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني ، في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ ، ص ٩٨ - ١٠٥).

(١)

ذكر ما اتفق للمسلمين مع البنادقة والجنوية

بمدينة الاسكندرية الشرقية

(سن مخطوطة الالمام بما قضت به الأحكام ، للنويرى السكندرى ،
نسخة دار الكتب المصرية)

« (٦٧ أ) وفي يوم الجمعة ثالث ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبعمائة
ذكر أن بمراكب الجنوية أسيراً مسلماً من بلاد التركية ، فطلبته المسلمون
منهم ، فامتنعوا أن يدفعوه لهم ، وذلك بعد أن أوقرت الجنوية والبنادقة
مراكبهم السبعة بمناجر البهار ، وهم عازمين على السفر إلى بلادهم . وكان
بالاسكندرية حينئذ من الفرنج نحو مائتى نفر ما بين تجار وغللمان يتسوقون
للسفر فنعهم المسلمون الخروج من باب البحر ، فسأل من بالمراكب من
أصحابهم أنهم يطلقوا لهم الأسير المذكور على أن يطلقوا لهم الفرنج المتعوقين ،
فرضيت المسلمون بذلك ، فنكثوا ومنعوه ، وطلبوا أصحابهم يخرجون إليهم ،
فامتنعت المسلمون ... لهم إلا به . فنزلت الجنوية إلى سيالة المنار أخذوا من
الصيادين رجلين ، وأتى قارب كبير من مراكبهم إلى الساحل بالسلاح ليقبضوا
على رايى دار الصناعة وهو ابراهيم التازى ، لوقوفه ذلك الوقت بالساحل ،
معه بعض رجاله . ففهم ابراهيم بما أتوا به ، فخاض إلى القارب ، وطبق
على عالج منهم رماه البحر ، فتسلمه بعض أصحابه ، وعطفوا ابراهيم سريعاً
على القارب أخذوه بمن فيه من تلك الأعلاج وقبضوهم كالقبض على الدجاج ،
فأنت الترك الخيالة الذين كانوا حينئذ بالجزيرة يرموا النشاب على جارى
عادتهم بسبب الإدمان . فقبض كل واحد منهم على شوشة إفرنجى ، وصار
سابقاً فرسه ، والعالج يجرى إلى جانبها بجريها ، والدماء قد سال منهم بما فعلته
(٣٥)

قياد الرايس بهم حين القبض عليهم من قاربهم ، فسيجنوا . ورسم على جميع الفرنج المتأخرين في البلد عن المراكب ، فلما عاينت الفرنج التي بالمراكب (٦٧ب) ما حل بأصحاب القارب من المصايب ، ومنع أصحابهم من الخروج إليهم ، زحف إلى الساحل غراباً من غربان البنادقة رموا بالنشاب على من لبس سراويل حربه من الجند وقفوا على الساحل بسبب حرب إن وقع ، فرمى الجند أيضاً بالسهم ، فجرح من الإفرنج جماعة ، وقالت لهم المسلمون : إن لم تعطونا الأسير والصيادين والا أهلكناكم عند خروجكم من ضيق فم المينة أجمعين . فحينئذ أطلقوا الأسارى الثلاثة ، فلما حصلت تلك الثلاثة على البر ، ادعى نايب السلطان بتجار الأفرنج والقناصلة المقيمين بالاسكندرية ، فأخرجوا إلى الساحل ، فرسم أن يقرأ عليهم كتاب السلطان الوارد عليه الآن ، فقرى عليهم وهو يتضمن تعويق البنادقة والجنوية وجميع أجناس الفرنج عن السفر ، وأن الفرنج جميعهم لا يعودوا يدخلوا سواحل المسلمين بمتجر أبداً إلا إن أتوا بأموال الاسكندرية وجميع أسراها ، فلما سمعت القناصلة والتجار ذلك كتبوا كتاباً بالخط الرومى ، ودخل به رجل من المسلمين البحر ، وجعله بعقب رمح ، وغرز سنانه بقاع البحر ، ورجع به إلى المراكب ، فلما قرعوه تيقنوا أن أصحابهم مأسورين ، فبينما هم كذلك وإذا بمركب تشق البحر آتية ، فحين رست أخبروا أهلها بالخبر ، فرفع ما كان فيها من متجر فرقت في تلك المراكب ، وأخذوا قلعتها وصاريها وسكانها وتركوها فضية بسبب عيبها التي انعابت به ، وسافروا في الليل وتركوها . فطولع السلطان بما اتفق من الفرنج ، فورد مرسومه إلى الاسكندرية بحملهم إلى القاهرة ، فحملوا إليها ، وسجنوا بسجنها .

(٢)

ذكر العناية بالاسكندرية وتولية امير امراء

بها يصير مقبلاً كدمشق وحلب

(سن مخطوطة الامام ، نسخة دار الكتب المصرية)

« ٦٨١ » وفي يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبعمائة ورد إلى الاسكندرية ملك الأمراء سيف الدين أسنبغا بن البوبكرى فى موكب جليل وحال جميل ، وصحبته من الأمراء عشرين أميراً منهم طبلخانات وعشراوات ، أما الطبلخانات ، فهم الأمير ناصر الدين بن قشتمر ، والأمير أقبغا مصطفى ، والأمير دقماق بن طغنجق ، والأمير ناصر الدين بن شرف الدين ، والأمير قطلبغا جركس ، والأمير طنبغا ماووق والأمير ناصر الدين بن بكتمر ، والأمير ناصر الدين بن سار ، والأمير سيف الدين بن قبليه ، والأمير أروس . وأما العشراوات فهم الأمير أحمد ابن صرغتمش ، والأمير ابن دلنجى ، والأمير الطنبغا العلى ، والأمير ابن قطليغا الحموى والأمير على بن قمارى ، والأمير سودون ، والأمير قمارى ، والأمير ناصر الدين بن كتبغا ، والأمير قشتمر التقردمرى ، وصارت حجاب ملك الأمراء اسنبغا ثلاثة ، فحاجب الحجاب الأمير صلاح الدين خليل بن عرام ، ويليه الأمير بهاء الدين أصلان الحاجب ، والأمير سيف الدين بكتمر العلمى الحاجب أيضاً . فصارت الاسكندرية تضرب بها فى كل ليلة أربعة عشر طبلخانة ، الواحدة لملك الأمراء ، والعشرة لعشرة أمراء ، وواحدة لحاجب الحجاب ، وواحدة لأصلان

الحاجب ، وواحدة بأعلى باب الصناعة . وصار ملك الأمراء يركب يوم الاثنين ويوم الخميس في موكب جليل وحال جميل ، فيه الأمراء المذكورين بأتباعها ، وتركب لركوبه أجناد الحلقة المنصورة المجردين بها والأجناد المركزين بها وهم أرباب الحوامك . ويجلس ملك الأمراء (٦٨ ب) بعد الموكب بدار العدل يفصل القضايا بين الناس . فبينما هو جالس بدار العدل وإذا بمركب قدم من بلاد الإفرنج إلى مينة الاسكندرية ، فلم يخرج منها أحد يأخذ واصليها كيجارى العادة ، فلما لم يأتهم أحد أتى من المركب قارب إلى الساحل فيه سبعة من الفرنج ، منهم ثلاثة تجار وأربعة بحرية ، فثلثوا بين يدي ملك الأمراء وهو جالس بدار العدل ، فقال لهم : أما بلغكم مرسوم السلطان بأن من سائر أجناس النصارى لا يدخلوا للمسلمين برا ولا بحرا يطوؤوا لهم أرضاً إلا أن تأتى بقية أسارى الاسكندرية ، ورسل السلطان المعوقين بقبرس . فقالوا : إن لنا فى البحر ما يزيد على شهر ولم نسمع بشيء فاقضى رأى ملك الأمراء أن السبعة ... بالاسكندرية حسب مرسوم السلطان المتقدم ذكره والمتضمن بأن كل من وطىء بر المسلمين من الفرنج يقبض عليهم وعلى أموالهم ومراكبهم ، وإن تعذر القبض على مراكبهم فليطردوا من المين . فرسم ملك الأمراء أن يخرج إليهم إبراهيم التتازى ريس دار صناعة الاسكندرية فى رجاله ورماته ، يأخذ المركب بما فيه من المتاجر والرجال ، فخرج إليهم فى زورقين . ووقع القتال بينهم ، فلما رأت الفرنج الجند من المسلمين فى القتال قطعوا سرياقات مراسى مركبهم وهربوا ، فأخذت المسلمون مراسيها من قاع البحر ، وطولع السلطان ، فورد المرسوم بحمل السبعة إلى القاهرة ، ومن بقى بالاسكندرية مسجوناً من الفرنج ، فحملوا إلى القاهرة فى السلاسل والأغلال مخشبين بالأيدى ، مشاة حفاة ، وذلك فى جمادى

الأولى سنة تسع وستين وسبعمائة ، وحبسوا عند الإفرنج المتقدم (٦٩ أ) ذكرهم ، فحساروا مثقفين في السجون . يعملون بالنهار في العماير السلطانية ، وبالليل في السجون يبيتون ، قد أكات سوقهم القيود ، ورتع في أجسامهم بق خزانة البنود ، والمسلمون يصيحون عليهم ، ويقولون يا كلاب النصارى لا تخفف الله عنكم العذاب ، ما تسمعون الا قول الكافر بولص ، ولا تجتمعون أبداً على محبة مسلم مخلص ، بل الكفر شعاركم ، والفجور دثاركم ، فلعنة الله عليكم في الليل والنهار ، والعشى والأبكار ، فستلقون في الدنيا الوبال ، وفي الآخرة بجهنم النكال .

(٣)

ذكر تاريخ ولاية ملك الأمراء طيدمر البالىسى ثغر الاسكندرية المحروس وما اتفق فى ذلك من ولايته للمسلمين مع طائفة الافرنج الكافرين

(من مخطوطة الامام ، نسخة دار الكتب المصرية)

« (١٢٥ ب) وهو أنه فى شهر ذى القعدة الحرام سنة تسع وستين وسبعمائة
ولى السلطان الملك الأشرف شعبان الأمير سيف الدين طيدمر البالىسى ثغر
الاسكندرية المحروس ملك أمراء ، فدخل الثغر المذكور يوم الأحد ثانى
عشرين ذى القعدة من السنة المذكورة أعلاه عوضاً عن ملك الأمراء
أسنبغا بن البوبكرى ، وانفاذه ملك أمراء بحلب ، وكان قبل دخول ملك
الأمراء طيدمر البالىسى الاسكندرية ورد إلى مينتها ثلاث أغربة فيها رسل
الإفرنج بسبب الصلح ، فلم ينزلوا من غربانهم إلا بعد أن أرسل لهم قنصلين
من الافرنج المسجونين بالقاهرة حسب ما تقدم ذكره بسبب سجنهم بها ، فلما
رأت الرسل القنصلين نزلوا هم وغلمانهم ، فدخلوا الاسكندرية ثالث يوم
قدوم ملك الأمراء طيدمر ، وكان أحد الرسل جنوى يسمى قازان والثانى
بندقى ، قيل إن قازان المذكور هو الذى ظفر بمدينة القرم ، نهبا وأسر منها
من الترك المسلمين كثيراً . ثم ان تلك الرسل حملوا إلى القاهرة ، فأتى بعد
سفرهم إليها أربعة قراقر أرسوا بالقرب من أغربة الرسل زعموا أن معهم
البضائع (١٢٦ أ) التى انشقت مرايرهم بسبب كسادها مدة طردهم من سواحل
المسلمين كما تقدم ذكر ذلك ، وزعموا أنهم أتوا خاضعين ذليلين ، فصارت

المسلمون يقولون : إنما أتوا مكرًا ونخداعاً ليخلصوا الإفرنج المسجونين بالقاهرة . وبعضهم يقول إنما معهم بعض البضائع وبقية وسقها أسلمة يقتاتون بها المسلمون إذا نخلصوا أصحابهم ، وخصوا بتراقيرهم ، ويرسلوا إلى المراكب الكبيرة المجتمعة تأتيمهم وتعينهم القراقر الأربعة على قتال المسلمين . فلما كان في العشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وسبع مائة قدم بعد رسل الإفرنج من القاهرة إلى الاسكندرية ، فنودى بها : من كان له أسيراً ببلاد الإفرنج فليكتب اسمه ونسبه ليتخلص من الأسر ، فكتبت أسماء أسارى كثيرة ، وكان السبب في ذلك أنه قيل للرسل المذكورين بالقاهرة فيم أتيتهم ، قالوا : في الصلح . فقيل لهم ، وأين رسل المسلمين الذين بجزيرة قبرس : ناصر الدين محمد بن قراجا الشريفي والحبوبان وأصحابهم وأسارى الاسكندرية . قالوا : يحضروا بسعادة مولانا السلطان . فقيل لهم : لا يبيع أحداً منكم عندنا بضعة ساعة ، ولا ينزل بها من المراكب حتى تأتى رسل السلطان وأسارى الاسكندرية فإنكم ما جيتهم إلا لمصالحكم . فلا سبيل لكم إلا بذلك . فوقع الاتفاق على أن القراقر المذكورين تقيم بمينة الاسكندرية ، وتسافر الغربان تأتى برسل المسلمين والأسارى وزورق المغاربة الذى أخذه ابراهيم القبرسى المعروف بابن الحبازة في العشر الأول من ذى الحجة بما فيه من كتان وغيره حسب ما تقدم ذكر أخذه له . فسافرت الغربان مردود عليهم هداياهم بعد أن أخذوا معهم ما كتبه المسلمون لهم من أسماء أسارى الاسكندرية وأنسابهم ، وصارت رسل الإفرنج بالقاهرة مقيمين عند الإفرنج المسجونين (١٢٦ ب) فيهم قازان الجنوى ورفيقه البندقي . وكانت أصحاب الغربان أتوا يخلصوا الإفرنج بمكرهم ، فازدادوا برسل الفرنج وغلمانهم معهم في السجن ، فرجع من الغربان خائبين ، وإلى قومهم مندرين بقولهم : إلهدر جوع رسل المسلمين وأسارى الاسكندرية والزورق المأخوذ ، ولما الحرب والظعن والضرب . وكان إذ ذاك بالاسكندرية من الأمراء المحردين لحراستها الأمير

أيامر الشمسي مقدم ميمنة العساكر المنصورة ، وملك الأمراء طيدير البالسي
والأمير صلاح الدين بن عرام حاجب الحجاب . والأمير محمد بن دنكز بغا
والأمير أبو بكر بن طاز . والأمير أسندمر حروفوش . والأمير طغيتمر
العثماني ، والأمير أرسغا الخليلي . والأمير عبد الله ابن الحاجب ، والأمير
ابن بكتمر الساقى ، والأمير أرغون الخزندار ، والأمير جركس بن سولى ،
والأمير ابن أرنان ، والأمير أحمد بن دنكز بغا . والأمير ابن الذهبي ،
والأمير ابن المحدثي ، والأمير ابن دلنجي ، ابن لاجين ، والأمير بهاء الدين
أصلان الحاجب ، والأمير بكتمر العلمى الحاجب أيضاً ، وغيرهم ؛ منهم
مقدمين وطبلخانات وعشراوات غير بعض أجناد الحلقة المنصورة المقطعين ،
وأجناد الجوامك ، وقياد الصناعة ، والعربان المركزة ، وغلمان الفرسان
غير أهل الثغر الذين صارت قلوبهم على الفرنج أحر من الجمر : فبينما
الناس على أهبة القتال واذ بغرابين قدما إلى مينة الاسكندرية فيهما رسل
المسلمين وثمانين أسيراً وأسيرة ، منهم دون العشرين نسوة ، والباقي رجالا .
فلما أurst الغرابين المينة لم يتركوا رسل المسلمين والأسارى ينزأوا السبر
حتى يأخذوا رسلهم وتجارهم وغلمانهم الذين بالقاهرة ، ولم ينزل منهم
(١٢٧ أ) سوى أربعة من المسلمين غرباً من غير أسارى الاسكندرية ، واثنين
من الفرنج حملاً إلى القاهرة يردون الخبر . فقليل إن الأمراء قالوا لهم : فيم
أتيتم . قالوا : نريد الصالح . فقالوا لها : من أى الملوك أتيتم . قالوا : من عند
صاحب جنوة وصاحب البندقية ، وقد حملنا صاحب قبرس رسالة نذكرها
للسلطان . فقالت الأمراء لها : أذكروها لنا وما جئتم به من صاحب قبرس ،
فإن رأينا فيه صلاحاً تركنا كما تذكراه للسلطان ، وإن لم يكن فيه صلاحاً
خفنا عليكم سطوته وغضبه ، فقالوا : يقول صاحب قبرس إن السلطان

لا يأخذ منه على متاجره الا العشر لا الخمس ، وأن يصير قنصله مقبياً
بالاسكندرية يحكم بين تجار المسلمين وتجار الفرنج في بيعهم وشرايتهم ،
وأن كل من حج كنيسة قمامة من أهل جزيرة قبرس لا يؤخذ منه شيء ،
وأن يعطى له أرضاً في بر الشام محاذية للقديس يعمرها تصير له ولأصحابه ،
وأن يكتب اسمه على كنيسة قمامة . هذا والأمراء يسمعون كلامهما ذلك .
فلما انقضى كلامهما قال أحد الأمراء لهما : صاحب قبرس سلطاناً عاقلاً أو
مجنوناً مطبقاً ؟ قال : ليس به جنون . قال : أما ما ذكر من العشر فليس
ذلك لنا لأن الله تعالى قال في كتابه العزيز الخمس ، وليس لنا تغيير ما أمر
الله به . وأما قوله أن قنصله يحكم بين تجار المسلمين وتجار النصارى في
بيعهم وشرايتهم مقبياً دائماً بالاسكندرية ، فليس في إقامته بها ضرراً ، وأما
حكمه على تجار المسلمين فلا يجوز في ديننا ، لأن الاسلام يعلمو ولا يعلم عليه .
وأما قوله إن كل من حج من القبارسة إلى كنيسة قمامة ، لا يؤخذ منه شيء ،
فالذى يؤخذ منهم بسبب زيارتهم لها ينفق على أصحاب الأديان الذين يخفرونهم
في ورودهم وصدورهم من العرب التي تنهبهم في طريقهم (١٢٧ ب) ، وان
كان مراده أن لا يؤخذ من أصحابه شيئاً فليخفر الافرنج أنفسهم على طريق
بلاد المسلمين ، وذلك لا يتصور أبداً اقامة الفرنج الزائرين وكثرة العرب التي
تركهم من ملبوسهم ، فضلاً عن أخذهم لأموالهم ، منها عارين ، وأما
قوله يكتب اسمه على قمامة فيصير بذلك مضحكة لأنه يضع اسمه على غير
ملك له ، وذلك إنى إذا أمرت أن يكتب اسمى على كنيسة قبرس مكاناً لا أملكه
لا يفعل ذلك لى ، وإن فعل صرت مضحكة لأهل قبرس ولغيرهم من
النصارى الواردين عليهم . وأما قوله يعمر في أرض المسلمين بلداً ، فكيف
يتصور له الحكم على بلد يجاوره فيها آلاف من المسلمين كانوا يهدمون

البلد على رأسه ويخمدون لأنفاسه ثم قال لهما : هذا الكلام الذى تكلمتما به لا يتصور وقوعه من مجنون أبداً، فكيف من عاقل، والحذر الحذر من ذكره للسلطان، فإن عليكما فيه من الأمر المخوف ما تمضون به على حروف السيوف. وكان السلطان قبل ورود الغرابين إلى مينة الاسكندرية طلب الأمير صلاح الدين بن عرام من الاسكندرية وهو إذ ذاك حاجب بها لمصالحه ، فحضر بحضرة السلطان ، فأمره بما اقتضته مصالحه ، فامثل أمره ، ولما بلغ السلطان أن أصحاب الغربان منعوا رسل المسلمين والأسارى أن ينزلوا منها حتى يأخذوا رسل الإفرنج وتجارهم وغلماهم ، قال لابن عرام المذكور : انحدر إلى الاسكندرية ، وتحمل على نزول الرسل والأسارى من مراكب الإفرنج فقال : ينزلوا إن شاء الله تعالى بسعادة مولانا السلطان خلد الله ملكه ، وعجل بوار عدوه وهلكه من غير أن يدفع لهم عاج واحد من أصحابهم ، ولكن يريد المملوك مرسوم شريف بأن استصحب معى أربعة من الإفرنج المسجونين أستعين بهم على خلاص المسلمين (١٢٨ أ) من غربانهم ، فرسم له بهم ، واستصحب معه من أكابرهم ، فلما وصل بهم إلى الاسكندرية ، أركبهم الخيول العربية بالسروج المذهبة والكنابيش المقرقة ، وأتى بهم إلى ساحل البحر الملح ، فسلموا على من بالغربان ، وسلم من بالغربان عليهم ، وكلموهم فى نزول الرسل والأسارى ، فقالوا حتى تأتونا بأجمعكم وتحصوا عندنا كلكم فقالوا لهم : إن السلطان رسم للأمير صلاح الدين هذا بأنكم إن منعم نزولهم من غربانكم أن يقتلنا الأربعة قدامكم . قالوا ذلك بحضرة تراجمة المسلمين يكلمونهم بكلام فيه ضرراً على المسلمين ، فيذكره التراجمة للأمير صلاح الدين ، فيحصل لهم ما لا خير فيه ، وأيضاً قصدت الأربعة نزولهم ليكون ذلك سبباً لخلاصهم من أيدي المسلمين. ثم قال الأمير صلاح الدين لمن بالغربان: انزلوا

أن أقاموا في غربان الفرنج على مدينة الاسكندرية خمسة عشر يوماً ينظرون المدينة ولا يستطيعون النزول إليها ، خائفين من رجوع الفرنج بهم إلى بلادهم . فلما تخلصت المسلمون من أيدي الفرنج بسياسة الأمير صلاح الدين ، ذلت الفرنج بعد ذلك ، ونزأوا بهداياهم من مراكبهم ، وظهر بعد ذلك خبثهم ومكرهم للمسلمين بمحاqqة رسل المسلمين لهم ، لأن رسل الفرنج ذكروا أنه لم يبق أحداً من أسارى المسلمين بقبرس ، فكذبهم رسل المسلمين وأسراهم وقالوا بقي بها وبرودس الأسارى ، وذكرت الأسارى أسماء من هم عندهم . فلما قالت الأسارى القادمين ذلك ، صيرت رسل الفرنج والست تجار أيضاً محبوسين مع الفرنج المسجونين ، ثم صارت مراكب الفرنج تأتي إلى ميناء الاسكندرية شيئاً بعد شيء إلى أن تكمل إلى يوم الأحد الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة سبعين وسبعائة (١٢٩ أ) الزيادة على ثلاثين قرقورة وعدة غربان أيضاً . فصارت المسلمون في قلق بسببهم يزيدون وينقصون ويقولون إن القبرسى يأتي في الأربعين غربا التي عنده يطلب الصلح بما يشترط على اختياره ، فان وقع الصلح على مراده والا أوقع الحرب . فتهيأت المسلمون للقتال وصاروا يبببوا كل ليلة بقلاع السور وأبراجه ، والفوانيس موقدة ، بشراريفه ، والزفة دايرة في كل ليلة بأعلى السور تضىء فوانيسها بالنور ، والأمير صلاح الدين بن عرام حاجب الحجاب طائف من داخل السور بجنده ومشاعله وفوانيسه ، وقد تهيأت قبائل العرب للحرب والقتال . فبينما هم كذلك وإذا بقازان الجنوى ورفيقه البندقى أتيا من القاهرة إلى الاسكندرية معهما اخدا تهما بما وقع الاتفاق عليه بسفرهما إلى قبرس يأتیان ببقية الأسارى الاسكندرانيين بعد أن ضمنهما تجار الفرنج التي بالقاهرة مسجونين ، فسافرا من الاسكندرية ، فحينئذ نزلت تجار الفرنج بضايعها من القراقرباعوها بالاسكندرية ، ونفضوا عنها بضايع الكارم ، وسافروا شيئاً بعد شيء ، فاطمأنت المسلمون بسفرهم ، بخلاف ما كانوا يظنون بهم ... »

(٤)

ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الملك الأشرف

شعبان من القاهرة الى الاسكندرية ونصب كرسى

الملك بها سنة ٧٦٩ هـ

(سن مخطوطة الامام ، نسخة دار الكتب)

« (١٨٩) ... وفى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين وسبع مائة ، ورد سيف السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون من القاهرة الى الاسكندرية فكان لدخوله الاسكندرية يوماً مشهوداً ، فتلقاه ملك الأمراء سيف الدين أسنبغا بن البوبكرى والأمراء الجردين بها ، والحجاب الثلاثة المتقدم ذكر أسمائهم وهم : صلاح الدين بن عرام ، وبهاء الدين أصلان ، وبكتمر العمرى ، ثم قضاة القضاة ، وهم قاضى القضاة كمال الدين الريعى المالكى ، وقاضى القضاة شهاب الدين الحابى الحنفى ونوابهما ، واصطفى الناس بالمحجة العظمى لدخول سيف السلطان المذكور ، فكان خزن دار ملك الأمراء لابس الخاكة والسيف السلطانى على عاتقه الأيمن ، قابضاً على قبضته بيده اليمنى ، وملك الأمراء يحجب السيف ، وقضاة القضاة الواحد عن يمينه والآخر عن يساره ، والأمراء تحجب الأمراء ، والشاوشية تصرخ ، والشبابه تزعق ، والحلق (٨٩ ب) يمجون من كثرتهم ، وذلك بعد أن وضع كرسى الملك بايوان دار الإمارة الحديد العمارة . وهذا الإيوان المذكور ، عمره ملك الأمراء أسنبغا المذكور ، وقد فرش الكرسى بفرش الحرير ، ووشح أيضاً بشقاق الحرير الملوثة ، وعلق السيف السلطانى بصدر الكرسى ،

وجلس ملك الأمراء تحت الكرسي ، وجلست القضاة عن يمينه ويساره ،
وجلست الأمراء بمجالسهم اللائقة بهم ، وانتصب الحجاب والجند قياماً
على أقدامهم ، وزعقت الشباية بصوتها ، وصرخت الشاويشية بانغمها .
ومد السماط ، فأكلت الأمراء من تلك الموائد المنصوبة بقدر أكل الطائر ،
ورفع السماط لأرباب الوظائف المعتادين لأخذه ، إذ ليس الحظ من موائد
الملوك كثرة الأكل عليها بل للمرتبة التي يرفع إليها وينحصر بها ، كما قيل
موائد الملوك للشرف لا للعلف ، فقد كانت ملوك الفرس إذا رأَت رجلاً
شرها في هذا الحال على الطعام أخرجوه من طبقة الجند إلى باب الهزل ،
ومن باب الإعظام إلى باب الاستخفاف .

(٥)

زيارة الملك الأشرف شعبان لالاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ

(من مخطوطة الامام بالاعلام فيما جرث به الأحكام والأمور المقضية
في وقعة الاسكندرية) ، نسخة دارالكتب المصرية)

(١٢٩ ب) وفي يوم الجمعة الرابع من جمادى الأول سنة سبعين وسبعمائة
دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد بن
الملك المنصور قلاوون ثغر الاسكندرية المحروس ، وكان دخوله من باب
رشيد في ضحى نهار اليوم المذكور ، بعد أن تقدمته البزادة (١) بالبزاة
والصقور والشواهين والعقبان ، يقدمها باز أشهب يساوى بدره ذهب ،
يعقبها كلاب الصيد عابها أجلة الحرير المطرزة بطرز الذهب ، يتبعها الفهود
التي أعينها كنار الوقود . والفهود جمع فهد ويقال للفهد سبع الأيل ، وهو
فوق الغلظ من الكلب ، مزوق بسواد وبياض وحمرة ، وذنبه كذلك ...
(١٤١ أ) نعود إلى ذكر صفة دخول السلطان الملك الأشرف شعبان ثغر
الاسكندرية المحروس ، وذلك أنه دخله من باب رشيد ، فسار بالمحجة العظمى
وقد اجتمعت الرجال والنساء ، والعبيد والإماء لرؤيته ، فصاروا يدعون له
والنساء صرن يزرن فترحا به ، لشبابه وحسنه وجماله ، وهو راكب فرساً
أشهباً تدوس سنابكه شقق الحرير المفروشة على الأرض ، وأمرأؤه يمشون

(١) جمع بازدار وهو ساسك الباز ، وكان يشرف على طائفة البازدارية أو
البزادة أسير يعرف باسم أسير شكار .

بين يديه ، والشاوشية تزعق ، والمغنيين بدفوفها تضرب ، والشعراء على ضرب الرباب تشعر ، والشبابة (١) تشبب ، لها صوت مطرب ، فطربت الأسماع على حسن الإيقاع ، وتميلت الأبدان كتمايل الأغصان والأفنان ، لحسن سماع تلك الألحان ، وقرت العيون بمشاهدة جمال السلطان ، وصارت الشبابة تشبب بغير جارحة لسان ، بل كل ما نفخ فيها الإنسان أزيلت الأحزان ، كما قال بعضهم (١٤١ ب) في شبابة كالعبادة حيث قال :

ومقطوعة موصولة شقها النوى . . . تخبر أخباراً بغير تكلم
تراها إذا هاج الهوى في فؤاده . . . تذيب من الأسرار كل مكتم

وكانت الحفلات (٢) تحجب السلطان وهما مملوكان ، بيض الألوان ، راكبان فرسان أشقران ، عليهما أقبية الحرير الأصفر بطراز الذهب وعلى رؤوسهما كوافي الذهب المزركشة ، متساويان في سيرها ، لا يتعدى الواحد الآخر ببعض خطوة ، والغاشية (٣) المتوجة بالطائر الذهب المشبه بالحمامة بيدى رجل ماش يديرها بأعلى رأسه يميناً ويساراً (٤) يقدمه غاشية ثانية مرصعة بالذهب بيد رجل آخر ، وعلى عنق فرس السلطان رقبة من ذهب

(١) الدف : طبلة صغيرة ، والرباب آلة موسيقية وترية ، والشبابة آلة موسيقية تشبه المزمار

(٢) لعلهما الأوجاقية اللذان يصحبان السلطان في المراكب ، وكان كل منهما يركب فرساً أشهباً برقبة من الأطلس الأصفر ويلبسان أقبية صفراء من حرير سطرز ومزركش

(٣) هي : « سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب » وكانت توضع على ظهر الفرس فوق البرذعة (أنظر القلقشندي : صبيح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨٠ ، ج ٤ ص ٧) .

(٤) (١٤٥) من الغاشية يعرف باسم الركاب دار

مرصعة بأنواع الذهب والجواهر ، والسلطان عليه قباء أخضر بفرو قاقون أبيض ، والحنائب (١) ذوات الرقاب والكنابيش (٢) الذهب المزركشة المكحلة بأحجار الجواهر ، تساق خلف مركوبه نحو خمسين جنياً ، وكان السلطان إذ ذاك سنه دون الستة عشر ، ووجهه من حسنه كالقمر ، فلم يزل سائراً بالمحجة إلى مسجد أبي الأشهب فعطف عطفته ، ومر على دار ابن الحباب إلى جفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذي يلي البلد ، فنثر عليه مقابل دار العدل ودار الطراز دنائير كثيرة التقطها الناس ، ثم سار وخرج من باب البحر الثاني ثم الثالث ، فشاهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج . وفي ذلك اليوم لم يبق بالاسكندرية افرنجياً تاجراً ولا عليماً غلاماً إلا وتحصن بالمراكب خوفاً من السلطان ، ثم أن السلطان شاهد قلاع السور وأبراجه التي تلي البحر مزينة بالعدد من الأساحة والأتراس والشطقات الحرير الملونة ، والأعلام التي تخفق بالرياح ، تبهج لرويتها الأبصار وترتاح الأرواح . ثم إن السلطان شاهد المكان الذي صعدت منه (١٤٢) العلوج السور والخنديق الحديد الذي أنشأه الأمير صلاح الدين ابن عرام مكان صعودهم ، ولم يكن قبل في ذلك المكان خندقاً ، بل كان الانسان يأتي ماشياً إلى أن يلتصق بالسور . ثم شاهد السلطان أيضاً الخندق الغربي المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق ، ثم أنه دخل الاسكندرية من الباب الأخضر وسار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم

(١) الأفراس التي كانت رقباتها مكسوة بقماش الأدامس الأصفر المزركش بالذهب . وكانت الرقاب توضع على أعناق الأفراس من أذنيها حتى نهاية أعرافها (صبح الأعشى، ج ٤ ص ٨) .

(٢) هي سواض الركوب منها .

العلامة أبي بكر الطرطوشي ، ثم منه إلى رحبة الجامع الغربي إلى دار السلطان وقد امتلأت الطرقات بالناس يدعون له كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب وفتح له الباب الأول والثاني مما يلي البلد (١) ، وسار به وزيره سيف الدين الأكرز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطراز ، فترجل ودخلها صاعداً سلمها إلى أن أتى موضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبذللات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان . قال بعضهم حدثني أحد مماليك السلطان الخاسكية وكان بيني وبينه معرفة من القلعة بالقاهرة ، أن السلطان لما طلع دار الطراز قلع كلوته (٢) وأقبيته وتخفف حتى صار في ملوطه (٣) ، وتبع نوفمبره ، وجعل يطوف على الأنوال ، يبصرها ، ويدخل رأس تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناعات كيف ينسجون ، وإلى مكائهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد في أعلا الأنوال الشياطين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى وطا يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر وغيره . فلم يزل طائف يتفرج على نوع حتى اجتاز بشيخ كبير السن (١٤٢ ب) ينسج بمنواله ، يمجج تارة على يمينه وتارة عن شماله ، برميته لمكوكه في باطن مسديته ، فيظهر

(١) هذا نص صريح يدل على أن السور الأساسى الذى يلي البلد كان به بابان ، أما السور الأمامى فكان له باب واحد ، فالسلطان يخرج من الباب الأول والثانى ويسير بين السورين .

(٢) من كلمة Calotte أى الطاقية الصوفية التى يضعها السلطان على رأسه والأقبية جمع قباء أى الثوب الذى يلبس فوق ثيابه الأخرى ويشبه المعدلف .

(٣) الملوطه قباء واسع الكمين يلبس فوق الفرجية ، وكان يصنع من الحرير أو الكتان الرقيق (سنة عاشور ، العصر المملوكى ، ص ٤٥٤)

بذلك نسج بديع كزهر الربيع ، فقال السلطان له : العافية يا أبا ، فلم يرفع الشيخ رأسه إليه ولا نظر له بعينه ، ولا دعا له بالرد عليه ، بل صار مقبلاً على نسجه ، ناظراً إلى سير مكوكه ورجعه ، فتعجب السلطان من مكابדתه على شيخوخته ، وبديع تفرسه في صناعته مع سكتته ، وكان ينبغي للشيخ حين كلمة السلطان أن يدعو له ويسأله معروفه ليرتفق به ، فما كان يجيب سوءه ، لأنه لولا رق له لكبر سنه وجهده في العمل ما كلمه ، ولا كلمه إلا لخير يصله منه إليه لشفقته عليه ... (١٤٤ أ) ثم ان السلطان المذكور شاهد ما في دار الطراز بالاسكندرية من عمل زرا كش ورقوم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختر منها ثياباً يستصحبها معه ، وترك الباقي إلى حين تكملة نسجه ، ثم إن السلطان رأى زير ماء عليه قادوس فخار أحمر تشرب به صناع دار الطراز من الزير المذكور ، ملأ بيده وشرب منه . حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف البغدادى معلم دار الطراز لما سأله وقلت : بلغني أن السلطان ملأ بنفسه بقادوس فخار على زير بدار الطراز تشرب به منه صناع القزازة وشرب منه ، فقال نعم ، عاينته تشرب من الزير المذكور وان الصناع احتفلوا بذلك القادوس وسموه (١٤٤ ب) قادوس السلطان ، وصاروا يقولوا اسقونا بقادوس السلطان . وصار له بينهم مزية ورفعة قدر وعظم شأن ، فقلت في ذلك القادوس بيتين مقصورين وهما هذين :

صار للقادوس ذكرا عندنا . . . شرب السلطان منه وارتوى
فحوى فخرا دائما بجميل . . . الذكر مسا بين النورى

ثم إن السلطان خرج من دار الطراز وأتى دار الصناعة فرأى ما فيها من الشوائب الغزوانية والمجانيق الشيطانية ، فرموا بها قدومه فاستحسن رميها ، ورجع من بين السورين ، إلى أن دخل الاسكندرية من الباب الأخضر .

وسار إلى قصر السلاح فدخله ، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السالفة ، بقاعات القصر المذكور ، فرسم بأن يعمل له به أيضاً قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم ، فبنيت ، وجعل له فيها من السلاح الحديد شىء كثير ، فكان عمله لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة . وقد قيل فى هذا :

لست أرى للزمان سيئة ... وهذه من فعالة الحسنة
بل وجهه أبيض يضىء سنا ... وهذه فوق خلد حسنة

وهذا القصر المذكور الحاوى للسلاح المذكور ، حرسه الله تعالى من الفرنج حين ظفرهم بالاسكندرية ، بعد أن أتوا إلى بابه مشاة وخيالة ، ألهمهم الله تعالى بمنه وكرمه أنه جامعاً للمسلمين يصلون به ، ويتعبدون فيه ، فكفوا عن كسر بابه ، ودخلهم إياه ، ولو فهموه أحرقوه بعد أن كانوا يحملوا منه العدد الكثيرة والأسلحة المتينة ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أعمى أبصارهم وبصايرهم عنه بزعمهم أنه مسجداً جامعاً لصلاة المسلمين (١٤٥) ومنعهم الله له أيضاً لأنهم لم يتعرضوا لخراب شىء من جوامع الاسكندرية ومساجدها وصوامعها خشية إخراج المسلمين لكنائسهم التى هى بالديار المصرية والشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم فى أيام دولته بهدم كنائس النصارى ، فهدم منها بمصر والاسكندرية والصعيد والبحيرة والشام كثيراً ، لذلك لما ظفروا بالاسكندرية امتنعوا من خراب مساجدها خوفاً مما تقدم من خراب جل كنائس النصارى فامتنعوا من ذلك خوفاً من خراب بقيتها ... (١٤٧ أ) نعود إلى بقية خبر السلطان الملك الأشرف شعبان دخوله الاسكندرية ، وذلك أنه صلى العصر من يوم الجمعة بمسجد القصر المتقدم ذكره وركب وخرج من باب السدرة

وقصــــــــــــد وطاقه (١) المضروب بالموضع المعروف بالسرية شرقى ظاهر الاسكندرية، بات به، وأصبح يوم السبت مقبلاً نهاره، فكانت الرجال والنساء والعبيد والإماء يتفرجون بوطاقه، وبإيوانه الخيام المنصوب، والايوان المذكور من أحسن ما يكون من الخيام الزاصع البياض وهو شاهق فى الهواء مزخرف بأنواع التقاصيص الملونة، وأرضه مفروشة بالبسط، والسلطان حينئذ فى خيمة متبذة عنه كبيرة تسمى بالمدورة... (١٤٧ ب) وكان رحيله من السرية بظاهر الاسكندرية ليلة الأحد المسفر صباحها عن السادس من جمادى الأول سنة سبعين وسبعمائة، وأقامت الاسكندرية بعد رحيله يومين مزيّنة، فالله تعالى ينصره على الدوام...» .

(١) المعسكر الذى ضربت فيه الخيام .

(٦)

ذكر خير ابراهيم التازى رايى دار الصناعة بالاسكندرية ، وما فعله بالفرنج من المخازى وغير ذلك

(من مخطوطة الإلمام ، نسخة دار الكتب المصرية) .

«(٩٧ب) ولما عزل الأمير الأكز من الاسكندرية فى التاريخ المتقدم ذكره ،
وارتقت منزلته عند السلطان الملك الأشرف شعبان إلى أن صيره وزيره ،
صار يعرض عنده بذكر الرايس ابراهيم التازى ، ويشكره لحسن رياسته
وشجاعته ومعرفته بقتال الافرنج حين قاتل بمينة الإسكندرية قراقر البنادقة
والحنوية المتقدم ذكرهم ، فوقع من قلب السلطان موقعا . وتشوق لرؤيته ،
فأمر باحضاره ، فطلب على خيل البريد فحضر ، فقيل والله أعلم أنه لما أذن
له بالدخول قال : أدخل فى حلية لباس المسلمين أو حلية محاربة الإفرنج ،
فقيل له : ادخل فى الحلية التى تحارب بها الإفرنج . فدخل فى قميص وشبرون
وكباس وبيدرون ، وشابه وحياسة جلد ، وسيفاً وخنجرأ ، وصار بقوة
الحنان السليم يفرع منه الشيطان الرجيم ، فلما دخل على السلطان (١٩٨) فى
تلك الحالة العجيبة تعجب من صفته ، وقال له : من أنت ومن تكون ؟
قال أنا مملوك مولانا السلطان وعبد ابراهيم التازى رايى دار صناعة
الاسكندرية . قال : ما الملبوس الذى أراه عليك ؟ قال : به أقاتل الفرنج أنا
وقيادى (فتيانى) نقاتلهم به ، وشرع يشرح له غزواته فيهم ، وغنايمه التى
غنمها منهم ، وتنكيسه لأعلامهم ، وأسرهم لحريمهم ، فقـال له السلطان :
تقدر تفتح جزيرة قبرس ؟ قال : نعم بسعادة مولانا السلطان . فقال :

تفتحها بكم غراب ؟ قال : بمساية غراب . قال : هي حاضرة ، خذها
وسافر بها . وكانت هذه الغربان التي عمرها يلبغا الخاسكى بعد وقعة
الإسكندرية قصد يسافر فيها بالحيوش الاسلامية من الديار المصرية والشامية ،
فأدر كته المنية ، وتأخر سفرها ، وصارت ببحر النيل واقفة . ثم إنه قال :
يا مولانا السلطان بل أسافر بغرايين ، لأكشف بهما جزرهم ، ولأعرف
خبرهم . فقال له السلطان : تمن على . قال : وما الذى عملته حتى بلغت
درجة التمنى ؟ لست بمتمن حتى يرى مولانا السلطان فعل المملوك وعمله .
فازداد السلطان فيه رغبة ، فرسم له بالسفر من الإسكندرية فى غرايين ،
والنفقة فيه وفى رجاله شهرين مستقبليين . ثم إنه خلع عليه ، ورسم له بفرس
من خواص خيله ، وانحدر إلى الإسكندرية ، فجهز الغرايين وسافر بها
مستصحباً معه فيها خمس مائة قائد بأسلحتها ورماتها ، وكان سفره من
الإسكندرية يوم الاثنين التاسع والعشرين من رجب سنة تسع وستين وسبع
مائة . فلما كان يوم الأربعاء التاسع من شعبان من السنة المذكورة ، ورد إلى
مدينة الإسكندرية زورق كبير بقلعين ، فيه رجال مسلمون ، فقيل لهم : من
أين أتيتم بهذا الزورق ؟ قالوا : من عند الرايس ابراهيم (٩٨ ب)
التازى ، أتينا به غنيمة غنمها وأرسلها معنا بعد أن أخذ معه ما كان فيه من
الإفرنج جعلهم فى الغرايين أسارى ، وأرسل معنا كتاباً . فقرأ الكتاب ،
وإذا فيه : لا تفرغ الغنيمة التى بالزورق إلا بحضرة القضاة والعدول . ففعل
له ما ذكر فى الكتاب المذكور . وكانت الغنيمة سكر وقطناً وخشب بقس
وغير ذلك ، فحصر وتخزن ، وطولع للسلطان به . ففرح وفرحت المسلمون
بسرعة إرساله هذه الغنيمة بعد سفره بأيام قلائل . ثم أخبرت القادمين فى
الزورق عنه أنه قال لتاجر الزورق ولرايسه : إنكما قد صرتما أسارى ومن

معكما أيضاً من البحرية وغيرهم ، فأخبراني بالخبر الصحيح عن صاحب قبرس حتى استوهبكما من السلطان وأطلق سبيلكما . فقال : إن البابا استدعاه لحكمة الخنوية بين يديه لما ضيعه من أموالهم ، وقتل رجالهم وتعويق صاحب مصر لتجارهم بسبب ما فعل بالاسكندرية ، وإن مراكبه التي غزا بها طرابلس الشام جالسة فوق البر وليس بمينتها الآن غير ثلاث شياطين تحرسها ، وأن ابراهيم بن الحبازة خرج من قبرس في غرابين وشيطن يتلصص في البحر . وقيل بل إن هذا المتلصص بنيتور أخو ابراهيم المذكور . فبينما أهل الإسكندرية منتظرين قدوم الرايس ابراهيم التازي ، وإذ قد ظهر في يوم السبت ثاني عشر شعبان من السنة المذكورة ثلاث قلاع أرسوا خارج المينة . فتشوشت المسلمون لعدم دخولهم المينة ، وقالوا : لو كانت مراكب الرايس ابراهيم التازي كان دخل المينة ، ولم يبرز في البحر . فباتت الناس على الساحل في تشویش بسببهم ، وكان للمغاربة زورق قد تكمل وسقه (٩٩ أ) وهو مرسى بأقصى المينة قاصداً السفر إلى طرابلس الغرب ، فيه ما يساوي على ما قيل بضعة عشر ألف ديناراً ، فخافت المسلمون على الزورق من تلك المراكب المبرزة ، فصعد إليه بعض رماة الاسكندرية والخرخية يحرسونه منهم . فقالت أرباب الأمور لرايس الزورق : ادخل به المينة ، وقربه من الساحل ليمتنع منهم إن كانوا حرامية بحجارة المجانيق ، فامتنع وقال : إذا كانوا حرامية قاتلتهم القتال الشديد ، وأفعل فيهم ما أريد . وقد كان حصل بالزورق المزبور جماعة من المغاربة مع بعض رماة الاسكندرية متأهبين للقتال من يأتيهم فبينما هم متأهبين في تلك الليلة المقمرة ، وإذا بشيطن دخل على الزورق كشفه ، فرمى من بالزورق عليه بالسهم ، فطار كطيران الحمام ، فأخبر من بالغرابين خبره ، فجدفوا قاصدين الزورق ، فاندفعت عليهم المسلمون

بالسهام والحجار ، فتباعدوا عنه ، ثم عادوا كره أخرى ، فرمى بهم المسلمون أيضاً منه ، فخرجوا عنه أيضاً ، غابوا . وعادوا إليه مرة ثالثة . فرمى بهم المسلمون بالسهم والحجار إلى أن نفذت سهامهم وحجارهم . فكسروا ما معهم من أواني الفخار رموهم بها حتى أنهم رموهم بشقاف الأزار التي حملوا فيها الماء للسفر ، فعلمت الفرنج أنهم ما رموا بالشقاف إلا لتنفيذ سهامهم وحجارهم ، فجمعوا عليهم حصوا منهم بالزورق . فقتلت المسلمون منهم بسيوفهم وخناجرهم جماعة ، وقويت الفرنج عليهم ، ماكت منهم الزورق ، فن المسلمون من قتل ، ومنهم من أسر ، ولا وجد من بالساحل من المسلمين سبيلاً إليهم ينصرون من بالزورق لغيبة التازي بالغرابين اللذين فيها سافر ، وما حمل الإفرنج على الدخول على الزورق وأخذه من المسلمين إلا لعلمهم (٩٩ ب) عند كشفهم المينة بالشيطن . أنها لم يكن بها أغربة حرب ، تخرج إليهم . ولو كان في تلك الليلة غربان مجهزة للقتال أو كان الرئيس ابراهيم التازي حاضراً بغربانه التي سافر بها ، غازیاً وقنع بالزورق الذي أرسله بغنيمة إلى الاسكندرية ، وكان رجع معه ، أخذ الغرابين والشيطن من تلك الامية بسرعة . ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً . ولو كان ريس زورق المغاربة دخل به إلى الساحل . وسمع من أرباب الأمور ما ذكروه له كان قد سلم . ولكنه غرر فوق الضرر . قيل في منشور الحكم : احذر الغرور فما يعرف الإنسان يحصل له السرور أو يحصل له الشرور . قال الشاعر : ليس المعز بمحمود ولو ساء .

فلما ملكت الإفرنج الزورق خرجوا به إلى واسع البحر . وأصبح الصباح غطت الغمامة يرفعون مراسي الزورق التي قطعت الإفرنج سرباً لها بالحجارة . ووضوا به ، فبدأت تحت الماء يرفعونها إلى برجل ميت . فرفعوه

إلى القارب ، وأتوا به إلى الساحل ، وإذا به حسن العسال بالعين المهمة
وصدره ووجهه مرشوقان بالسهم ويده اليسرى قابضة على آذان قفه فيها
جرخته . والقفة مرشوق فيها ثلاثة أسهم كان يلقى بها عن نفسه ، وبيده اليمنى
خنجر قابض على نصابه ، قد دبست يده على الخنجر ، واليد اليسرى قد
دبست على آذان القفه وهو ميت ، وملك الأمراء أسنبغا وجيشه وقوف على
الساحل ، وناظر الاسكندرية فخر الدين بن الحازن إلى جانبه ، فنزل حينئذ
الناظر المذكور عن فرسه أتى إليه قبل ما بين عينيه هو وغيره من الأكابر ،
وقلع بيده الأسهم التي بوجهه وصدره ، وقلع من يده اليسرى القفه ومن
يمينه الخنجر ، وقال هذا هو الشهيد الذي قتل مقبلا لامدبرا ، أما ترون
إلى ظهره (١٠٠ أ) ليس به جرح ولا خدش ووجدت عورته مستورة بقباله ،
فدفن بالمقبرة المجاورة (١) لتربة الشيخ أبي العباس المرسى ، وسمى قبره بقبر الشهيد
قال المؤلف : غفر الله له ولوالديه ولأقربين إليه ولجميع المسلمين ،
حدثني الشيخ الصالح عبد الله بن نجم الصر فندى بشعر الاسكندرية المحروس بعد
أخذ الفرنج لازورق المزبور بمدة ، قال : ان هذا الملعون ابراهيم بن الحجازة
القبرسى الذى قاتل المسلمين وأخذ زورقهم ما أتى إلى الاسكندرية إلا بعد أن
أتانا بلد الصر فند بساحل الشام وذلك أن رجلين من أهل الصر فند تخصما ،
فمضى أحدهما يشتكى الآخر من عند والى صيدا ، فلما كان فى الليل ضرب
البوق والزمر ، فظنت أهل البلد أن الرجل أتى بالوالى بكبس الصر فند ،
فخرجت أهل البلد منه هاربين ، فبينما هم خارجين من البلد وإذا بالناس
يصيحوا : ارجعوا إلى بلدكم ، وقاتلوا عدوكم ، فانما هم افرنج ، فرجعت
الناس ، فهربت الفرنج بعد أن قتلوا من المسلمين ثلاثين ذكراً ممن أدركوه
فى أزقة البـلـد وأسروا ثلاثة عشر ، منهم ثلاث نسوة وأربع صبيـان

(١) يقصد بمقبرة كوم وعلة

وأربع بنات وطفلين على أكتاف أمهاتهما . ولم ينالوا من البلد شيئاً غير
المأسورين المذكورين . ثم إنه أخبر عن بعض أسارى المسلمين الذى قدموا
من جزيرة قبرس إلى الشام أن ابراهيم بن الحبازة القبرسى قال لنايب صاحب
قبرس فى غيبة صاحب قبرس عند البابا كبير النصارى : اعطنى غرابين
وشيطى مكملين العمارة برجالهم وأزوادهم أهجم بها على الصرند ، فانى لما
كنت أدخلها تاجراً أرى فيها الأموال الكثيرة والنساء الحسان ، أنهبها وأرجع
إليك بأموالها وحریمها . فلما لم يحصل له فى غزوته تلك غير الأسارى المذكورين
قال : كيف أدخل قبرس بغير مال ، وقد نفق نايبها النفقات الكثيرة على
الغرابين والشيطة ؟ فقصد الاسكندرية ، صادف زورق المغاربة ، فظفر به
ودخل به جزيرة قبرس (١٠٠ ب) بالطبول والأبواق والزمور ، فانقلبت
جزيرة قبرس بالفرح لدخوله إلى مینتها به ، لكنهم لما تبين لهم قتل جماعة
كبيرة من أصحابهم الفرنج بسهام المسلمين وسيوفهم انقلب فرحهم ترحاً ، لما
عاینوا من كثرة الجرحى ، فأطلقت النساء والعجائز على المقتولين الحنايز .
وفى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شعبان من السنة المتقدم ذكرها وهى
سنة تسع وستين وسبع مائة قذف البحر على ابن معلا أحد ريساء دار الصناعة
بالاسكندرية ، وكان المذكور هو وغيره من المسلمين فى الزورق المزبور ،
ففضيت مع الناس لأنظره ، فرأته على الساحل ملقى على ظهره متوجهاً
للقبلة ، قد سمر بالمسامير فى يديه ورجليه وقلعها منها ، فصارت طاقات
المسامير بأقدامه بينه ظاهرة ، وفخذه الأيسر مهشم من وسطه ، ويديه
معورة بضرب السيوف ، ويده اليمنى مرتفعة إلى جبهة رأسه ، ويده اليسرى
بجانبه الأيسر ، ووجهه بضرب السيوف معور غير عينه اليسرى فانها مفتوحة
وبياضها ظاهر ، وقد انتفخ . ولم أر له لحية ، فقل إن الفرنج سلختها

بجلدتها ، ورأيت عورته مستورة بديس البحر ، فذكر لى بعض الحاضرين أنه مقطوع الذكر والأنيتين والأذنين أيضاً ، وهذا القش الذى على عورته سترته المسلمون به . ثم كفن وصلى عليه ودفن بالقرب من الباب الأخضر . ولم تمثل الفرنج به هذه المثلة إلا لعلمهم أنه أحد ريساء الصناعة ، ثم ألقوه فى البحر من غير تثقيب بحجر ليقذفه البحر بعد ثلاث إلى ساحل الاسكندرية ليغيب المسلمون تمثيلهم له ، ولم تعلم الملاعين الفجرة الكافرين أن الله تعالى قد أنعم عليه بالشهادة ، ورزقه فى الآخرة السعادة ، فإنه من قاتل من المسلمين الكفار وقتل بسيوفهم أمن من النار ، وصار فى الجنة حيا يرزق ، كما جاء فى القرآن وصحيح الأخبار . وأما من تسبب فى قتل نفسه بزعمه أنه يرحم بذلك فالرحمة عنه بعيدة ، والشقاوة به موجودة . حدث بعضهم قال : (١٠١ أ) رأيت قوماً على نهر من أنهار الأغباب التى تجرى إلى البحر المالح ولها جرى عظيم تمد تجزر ، وإذا بعجوزة قاعدة فى وسط النهر على رمل ، وقد هرب الماء بجزره ، فقلت لها : ما أقعدك ها هنا ؟ قالت : انتظر الماء حتى يجىء بمده فيحملنى إلى البحر . فقلت لها : ولم تفعلى بنفسك ذلك ؟ فذكرت أنها عاشت مدة طويلة وأكلت وشربت ، فأرادت أن تقرب نفسها لخالقها ، كما زعمت . فهذه الرحمة عنها بعيدة بتسببها لقتل نفسها ، فما زالت قاعدة فى موضعها حتى جاء الماء حملها وسار بها . وحدث بعض المسافرين أنه رأى بمدينة كنيابت من أرض الهند الواحد يجىء إلى الخور فيغرق نفسه ومن خاف منهم أعطى أجرة لمن يغرقه ، فيقبض عليه ويضع يده فى قفاه ويغطس رأسه فى الطين والماء حتى يتلف ، فإن صاح واستعفا وسأله أن لا يفعل ويتركه حيا فلا يقبل منه ذلك ، ولم يزل به حتى يهلكه لأن ذلك عندهم فى إحيسائه بعد إذنه فى إمارته .

انتهى فلنرجع إلى خبر ابراهيم التازى من اتيانه إلى الاسكندرية بأسارى النصرانية من الجزاير الرومانية . وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شعبان ستة تسع وستين وسبع مائة قدم الرايس ابراهيم التازى من جزر الفرنج إلى الاسكندرية بأسارى النصرانية مخشبين ، وغربانه الاثني بالغنائم موسوقين ، فكانت مدة غيبته فى غزوته من حين سفره من الاسكندرية إلى حين عودته إليها ثلاثة وعشرين يوماً ، فارتجت الاسكندرية لقدمه ، وماجت بأهلها ساعة وروده ، فخرجت أهلها منها إلى موضع منارتها التى لم يبق من أساسها فى ستة خمس وسبعين وسبع مائة إلا البقعة لا غيرها ، وقد تقدم ذكرها وذكر انتفاضها بمر السنين عليها ، فأغنى عن إعادته . وأما الترك المجردة بالاسكندرية لحراستها فانهم اصطفوا بطول الساحل على ظهر خيولهم ناظرين للغرابين القادمين (١٠١ ب) مرتفعة بهما أعلام السلطان وأعلام النصرانية منكسه فى البحر عائمة . يحزف بروسها فيه يمينا ويسارا ، والمسلمون بالساحل يضجون بالتكبير للعلى الكبير ويصلون على البشير النذير ، ولم تبق مخدرة إلا خرجت من خدرها ، ولا مصونة الا برزت من كنها ، لينظرون إلى النصرانية الأسارى وكان وصول التازى إلى المدينة ضحى نهار ، فدعوا له الصغار والكبار ، وزرغت له الأحرار والحوار ، فدخل الاسكندرية على فرس عربية ، على طرطور يقال له بلغة الإفرنج كستبر (١) ، وبلغة الره م كباس (٢) ، وبلغة المصريين رأس الغول ، من بر شبه الصوف المرعز ، وعلى بدنه فشطون (٣) مخترم عليه بحياصة جلد معلق بها خنجر مجوهر ، وهو مهياً

(١) لعلها مشتقة من كستورا Castora الأسبانية بمعنى قبة ذات رأس مرتفع

(٢) يبدو أنها معربة من الكلمة الفرنسية Cabàs بمعنى قفة أو سلة

(٣) مشتقة من كلمة Veston الفرنسية بمعنى معطف قصير .

معه لذبج العلوج وقت المعمعة في الدخول والخروج . وكان من خلف
فرس الرايس المذكور أسارى الفرنج مقدمهم راهب مكرمش الوجه ، شنع
القبال ، مزنر بزناره ، متوشح بصلبانه ، رأسه مكشوف ، ولحيته شبه
القطن المندوف ، كبير السن ، جلده ناشف كالشئ بعيد عن ديره . من
خبره قيل لما قبضت المسلمون عليه بال على ساقيه وقدميه ، وضرب على
صدره بيديه ، وصار يضرب الأرض برجليه ، حتى كلمه من يعرف لغته
فقال له : ما اسمك ؟ قال حنين . فقال له : كم سنك يا حنين ؟ قال مائة
وستين . فقال له : يا خبيث قطعت عمرك في الكفر والتلثيث ، فلما صار
ساير خاف فرس ابراهيم التازى بثغر الاسكندرية صار في كربة وبليّة ،
يتقدم قومه العلوج الأسرى الملاحيس ، وهو راكب على حمار وجهه لذنبه
بالتجريس ، وهو يقدمهم على ذلك الحمار ، كما يقدم فرعون قومه إلى النار
ولسان الحال يقول يا حمار ما نفعلك صليبك والزناز ، بل في قبضة المسلمين
الأخيار ، والرهجية تضرب على رأسك بالطبل والطار (١٠٢ أ) ويزمرون
عند أذنك بالزمار ، يا رأس الكافرين الفجار . وكان يمشى خلف الراهب
المذكور الفرنج العلوج ، في أعناقهم الحبال ، وهم حفاة بلا نعال ، وهم في
أسوأ حال ، وشر وبال ، شعورهم منشورة كشعور الخنزيرة ، وبأيديهم
الحشب . منهم التجار والفلاحين ، وهم من سوء حالتهم كالحجّانين ، وعدتهم
خمسة وثلاثين ، وصحبهم صبي مراهق ، وبنت بالغ مخطوبة بعض الأسارى
المذكورين ، فصار ينظر إليهما من نار بقلبه عليها . فقيل ، كان أسرهم
من جزيرة الغيران وجزيرة الروج وجزيرة الرهبان ، ومن الزورق المغنوم
أولا ، ثم ان جماعة الرايس ابراهيم التازى الغزاة المسلمون أراقوا خمرهم
بجزايرهم . وشبهوا دورهم ، وقتلوا خنازيرهم ، التي لحومها حرام بالاجماع
(٣٧)

(١٠٢ب). وفي اليوم الذي أتى فيه التازى إلى الاسكندرية بالأعلاج الرومية
خلع ملك الأمراء أسنبغا على الرايس ابراهيم التازى خلعة سنية ، وأمره
بالسفر إلى حضرة السلطان، الملك الأشرف شعبان، على حالته التي أتى بها ،
فسافر في يومه ذلك ، وسافرت الأسارى عقيبه ...»

(٧)

منتخبات من معاهدة الصلح المعقودة بين الأشرف برسباى والفرنسو الخامس ملك أرغون فى سنة ٨٣٣هـ

(من كتاب الوثائق الدبلوماسية العربية المحفوظة بأرشيف مملكة أرغون ،
ص ٣٧٣ - ٣٧٦)

« الفصل الرابع :

أن جميع النظارين للمراكب على اختلاف أجناسها من رعية ملك أركون
إذا حضروا إلى ميناء ثغر الإسكندرية أو جميع المئن بالسواحل والسياحل
لا يلزموا باعطاء ولو شيئاً بسبب من الأسباب ، ولا يغصبوا على ذلك ،
ويكونوا متصرفين على أنفسهم وأموالهم ، ولا يلزموهم بالتفرق على العوائد
القديمة .

الفصل الخامس :

ان النظارين والتجار فى جميع مراكب رعية ملك أركون إذا حضروا
إلى ميناء ثغر الإسكندرية وإلى جميع المئن بالسواحل من بلاد مولانا الساطان
لا يلزموا بتفريغ بضاعة ولا متجر إلا الذين يختارون التجار لتفريغه ،
ولا يلزموا إلا بموجب ما فرغوه وباعوه ، وأن جميع ما يفرغوه يلزموا
بموجب ، وان أرادوا شيئاً من البضاعة يمكنوا من ذلك بعد وزن الموجب
ولا يلزموا بشىء زائد غير ذلك .

الفصل السادس :

إذا حضر أحد من النظارين أو التجار من رعية ملك أركون إلى ميناء
ثغر الاسكندرية وسائر المثن من بلاد مولانا السلطان قبل تحدّثهم في بضائعهم
ومتاجرهم وبعد تحدّثهم أنه لا يلزموا شيئاً من الموجب السلطاني ولا أحد من
المباشرين والرعية بسبب ساير المتاجر والمراكب على اختلاف أجناسها إلا
بموجب مولانا السلطان غير ما يباع من البضائع على العوايد القائمة .

الفصل الثامن :

إن لا مولانا السلطان ولا أحد من الأمراء ولا أحد من المباشرين
ولا من الرعية لا يأخذوا شيئاً من بضاعة رعية ملك أركون ببصر
الاسكندرية أو عشر دمشق ولا بيروت ولا في جميع بلاد مولانا السلطان
من بضائعهم بضمن ولا بغيره إلا برضى صاحب البضاعة ومن كل بد إذا
أراد مولانا السلطان أو أحد من مباشريه أن يأخذوا شيئاً من البضائع والمتاجر
الموجودة يكون ذلك باتفاق التاجر ورضاه إعطاء له الثمن مخلص بغير
تعويق ولا تسويق ، ولا يلزمونهم ببيع ولا بشراء لا يجبروا بشراء شيء
ولا بوفاء على تجار رعية ملك أركون شيئاً من البهار ولا زاد ولا جوهر
ولا شيء من المتاجر والبضائع بغير رضاهم بسبب من الأسباب ولو كان أحد
من غير جنسهم يلزموا بشيء أجناس من جنوسه ولا يلزموا رعية ملك
أركون بذلك .

الفصل الرابع عشر :

لا يعوق لأحد من رعية ملك أركون ولا من التجار ما يركب بثغر
الاسكندرية من الذهب لأحد من رعية مولانا السلطان ولا من التجار ولا من
سائر الطوائف إلا أن يكون بأمر مولانا السلطان أو مولانا ملك الأمراء
أو أحد من مبادئ الديوان .

الفصل الرابع والعشرين :

إن مولانا السلطان يرسم بعمارة فندق الكتيلان وبنائه من غير أن يكلفوا
التجار ولا القنصل بشيء من ذلك .

الفصل الخامس والعشرين :

إن أحد من التجار رعية ملك أركون إذا هلك في بلاد مولانا السلطان
فيكون جميع موجوده تحت يد من يكون أوصى إليه ذلك ، وإن مات من
غير وصيته يكون ماله تحت يد القنصل أو تحت يد أحد من تجار الكتيلان
الذين يكونون موجودين في المكان الذي هلك فيه ، وإذا لم يكون ثم قنصل
ولا مولانا السلطان . فالأحد المباشرين الوصية إليهم في ذلك ... » .

(٨)

زيارة السلطان الأشرف قايتباي الأولى للاسكندرية

في ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ

(من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٣ ص ١٢٦ - ١٢٨)

« ... وفي ربيع الأول سنة ٨٨٢ نزل من القلعة في يوم السبت رابع عشرة، وعدى إلى بر الحيزة ولم يشعر به أحد من الناس وقصد التوجه إلى ثغر الاسكندرية ، فسافر من البر وجهاز سنيحة من البحر في مراكب ، وسافر صحبته من الأمراء الأتابكي أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادر ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء الطبليخانات والعشرات والجم الخفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ، وسافر معه سائر المباشرين فلما وصل السلطان مدينة الإسكندرية زينت له زينة حافلة وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وهو بالشاش والقماش ، وكذلك قجماس الأسحاقى نايب ثغر الاسكندرية، واصطف الناس في شوارع المدينة بسبب الفرجة ، فدخل السلطان في موكب حافل وجميع من معه من العسكر ملبسين آلة السلاح بالعدد الكاملة والأتابكي أزبك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء وقدامه أعيان المباشرين وأرباب الدولة ، وطلب طلباً حافلاً وجرفيه مائتان وخمسون فرساً، منها خمسون فرساً بالسروج الذهب والكنابيش، والبقية ملبسة بأنواع البركستوانات والجواغين المكففة بالذهب والفضة والبقية من

المحمل الملون، وفي الطاب كجاورتين زركش وهى التى تعرف الآن بالحوش، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب والأوزان عماله والشبابه السلطانية . ومشى قدامه الأمراء الرؤوس النوب بالعصى ، فشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل وكان له يوم مشهود . ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما شق من مدينة الاسكندرية سقط الطائر الذهب من على القبة فنزل الأمير يشبك الدوادر عن فرسه وثبت الطائر على القبة . ثم ركب على فرسه ، ومشى . ثم ان بعض تجار الفرنج نثر على رأسه لما شق المدينة ألف بندق ذهب ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر الفرس من شدة ازدحام الناس عليه حتى أدركه الأمير تمتاز رأس نوبة النوب وفى يده عصاة فضرب بها الناس حتى نخاص السلطان ، ومشى . واستمر فى ذلك الموكب حتى خرج إلى باب البحر الذى هناك فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان العادة القديمة أن السلطان إذا دخل مدينة الاسكندرية تفك أبواب المدينة وتلقى على الأرض إلى حين يرحل السلطان على المدينة . فلم يوافق السلطان قايتباى على فك أبواب المدينة وأبقى كل شئ على حاله . وهذا من عهد الأشرف شعبان بن حسين ابن محمد بن قلاوون لم يدخل الاسكندرية سلطانا . وقد دخلها مرتين المرة الأولى فى سنة سبع وستين وسبعمائة لما طرق الفرنج ثغر الاسكندرية ، فدخلها على جرائد الخيل . وأما فى المرة الثانية فكان سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، فأوكب بها فى هذه المرة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له خليل بن عرام نايب الاسكندرية الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ومشى بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان فى تروجة وتوجه من هناك إلى الاسكندرية

فأقام بها ثلاثة أيام وعاد إلى القلعة . ثم توجه بعده للاسكندرية الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق في سنة أربعة عشر وثمان مائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم من التلث إلى العشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وعد ذلك من محاسن الناصر فرج (١) . انتهى ذلك . ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف قايتباي . فلما نزل بالخيم مداه هناك قجاس نايب الإسكندرية مدة حافلة ، ثم أخلع على الملك المؤيد ونايب الإسكندرية ، ورجعا إلى دورهما وصحبتهما الأمراء قاطبة فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب بالكرة في الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه ، ودخل عايه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة ، ثم أنه توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذي كان بثغر الإسكندرية ، ورسم بأن يبني على أساسه القديم برجاً فبنى به برجاً معظماً ، وهو الموجود الآن كما سيأتى الكلام على ذلك في موضعه . ثم إن السلطان رحل عن الاسكندرية وتوجه إلى نحو إدكو ودمهور ...» .

(١) كرر ابن إياس وصفه لزيارة الناصر فرج بن الظاهر برقوق لشغر

الاسكندرية في ٤٢٦ ج ٤ .

(٩)

زيارة السلطان قايتباي الثانية للاسكندرية

في جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ

(من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور الجزء الثالث ص ١٥٠ ، ١٥١)

« ... وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ سافر السلطان إلى ثغر الاسكندرية وهي السفرة الثانية ، فتوجه من البحر في عدة مراكب كثيرة ، وكان سبب توجه السلطان من البحر لعدم الطريق من كثرة ماء النيل على اقتراش الأراضي ، وكان معه من الأمراء الأتابكي أزبك ، ويشبك الدوادر ، وخاير بك من حديد ، والأمير أزبك اليوسفي الحازندار ، أحد الأمراء المقدمين ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبائخانات والعشرات والجم الغفير من الخاصكية ومن المماليك السلطانية ، وكان معه من المباشرين القاضي كاتب السر ابن مزهر وغيره من أعيان المباشرين ، وكان معه الشهاب أحمد بن العيني ، وسيلدي منصور بن الظاهر خشة دم ، وغير ذلك من الأعيان ... وكان سبب سفر السلطان إلى الإسكندرية في هذه المرة لأجل البرج الذي أنشأه هناك ، وقد انتهى العمل منه ، فتوجه إليه ليرى هيئته ، فلما دخل مدينة الإسكندرية لم يوكب بها مثل أول مرة ، ولا حملت القبة والطير على رأسه . فاما نزل بالخم ، مد نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم توجه إلى رشيد ، وكشف على البرج الذي أنشأه بها ثم كشف عن البرج الذي أنشأه بشعر الاسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبدية وأجل الآثار الحسنة .

وقيل في صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر في البحر المالح من الساحل حتى ينتهي إلى البرج ، وقد بنى على أساس المنار القديمة الذي كان بالاسكندرية وأنشأ بهذا البرج مقعداً مطلاً على البحر ، ينظر منه من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهي داخلة إلى المينة ، وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحونا ، وفرنا ، وحواصلا ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلا معمرة بالمدافع ليلا ونهاراً بسبب أن لا تطرق الفرنج للشجر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائماً ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب في كل شهر ، وجعل عليهم شاداً من خواصه يقال له قانصوه المسمى ، وهو الذي ولي نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجي ، وقيل إن السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الحليمة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف ، ثم أن السلطان أقام بشجر الاسكندرية أياما ورحل عنها .

(١٠)

زيارة السلطان قانصوه الغورى الاولى للاسكندرية

فى ذى القعدة سنة ٩٢٠هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الرابع ص ٤٢٣-٤٢٥)

« ... وأما ما كان من ما يخص أخباره عند توجهه إلى ثغر الاسكندرية فإنه نزل من القلعة وسافر فى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا فى المكان المسمى بالسبكىة فى بولاق ، فتغدى هناك ، ثم عادى إلى برانبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية فأقام به خمسة أيام ، قيل إنه كان منتظراً لكتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند . فلما ورد عليه كتب العقبة ، اطمأن ، ورحل من المينة وقد قاسى العسكر فى التعدية مالا خير فيه ، وجرح شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة عن المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر ، ثم ان السلطان توجه من المنية إلى المنصورة ، وأقام بها يوم وليلة ، ثم توجه من هناك إلى البحيرة ، فأقام بها يوم وليلة ، واستمر يرحل من مكان إلى مكان إلى أن نزل بالنجيلة فأقام بها يومان وليلتان ، وأحضروا له الصيادون هناك تمساح ، فأمر بتوسيطه بين يديه ، فلما كان يوم السبت ثالث عشرة دخل السلطان ثغر رشيد فأقام به إلى يوم الأحد ، ثم أوكب من هناك ، ودخل إلى مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين خامس عشرة ، فدخل العسكر وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل وانسحب الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك . ثم دخلت الأمراء وهم بالشاش

والقماش ، ولم يلبس السلطان الكلفته بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة وعليه
كامليته مخمـل أحمر بصمـور وحمل الأتابكي سودون العجمي القبيصة
والجلالة (١) على رأسه ، وكان السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب
عوضاً عن الطير الذي كان يعمل على القبة ، فشق من المدينة في موكب
حافل ، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة .
فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ
في غاية الترحل والخراب ، ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم
الأتابكي سودون بالجلالة على القبة بعض السقائف التي هناك ، فانكسرت
تلك الجلالة نصفين وسقطت على الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك
انكسرت الرصافية التي كانت عليها ، ثم إن السلطان خرج من باب البحر
الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل إليه مملوكه خدا بردي نائب الاسكندرية
تقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير
ذلك ، ثم قدم إليه الخواجا ابن أبو بكر تاجر السلطان تقدمه حافلة ، ولم يكن
بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ،
وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجود القباض ، فانهم
صاروا يأخذوا من التجار العشر عشر أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من
الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى
قليل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة
والبقية خراب لم تفتح . وكانت الاسكندرية من أجمل مدائن الدنيا حتى
قليل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه أربعة آلاف دار محكمة

(١) الجلالة هي هلال كان يتوج قبة السلطان وجعل مكان الطير .

البناء ، مفروشة بالرخام الملون وفي كل دار منها حمام تختص بها . وكان بها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقوليات من بعد العصر إلى العشاء ، وكان بها أربعين ألف يهودي ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف إنسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب السروم الكبار وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار الذي هي بهذا الآن . ثم ان السلطان ألبس الأتابكي سودون العجمي الكاملة المخمل الأحمر التي كانت عليه ، وأخلع على نائب الاسكندرية والحواجا ابن ابى بكر .

وفي ذلك اليوم ثارت ممالك السلطان الخاصة على خداه بردى نائب الاسكندرية وقالوا له أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفي ، كما فعل قجاس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباي إلى الاسكندرية ، فلم يعطيهم شيئاً فكادوا أن يخرقوا به ، وما سلم من القتل إلا بعد جهد كبير . ثم حضرت التتادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهي ما بين ذهب عين وحيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الحيول والأبقار والأغنام . فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدموا له موادن (١) المدينة وعادوا على شراريف الصور (٢) كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب (٣) الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ثم توجه إلى البرج الذي أنشأه الأشرف قايتباي ،

(١) جمع سذنة

(٢) يقصد شرفات السور التي بأعلاه

(٣) كانت العادة تجرى وقتئذ على أن يخرج السلطان في سوكب لعب الكرة

ويخرج معه الجوكندار أى حامل عصا الكرة .

فطلع في البرج هو والأمراء ، وأرموا قدامه في ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق .
ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج الذي بثغر الاسكندرية وعرض ما
فيها من السلاح والمكاحل . وفي ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف
الزردكاش الثاني بإمرة الطبائخاناه ، ثم في ليلة الأربعاء سابع عشرة أحرق
السلطان في الوطاق إحراقه نפט حافلة على شاطئ البحر الملح . ثم في يوم
الأربعاء سابع عشرة رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية فكان مدة إقامته
بها يومان وليلتان » .

(١١)

رحلة سفير غرناطة الى السلطان الظاهر جقمق

سنة ٨٤٤ هـ (١)

(نص نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة :
المجلد السادس عشر ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٨ - ١٠٥)

(نص نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة كلية الآداب جامعة
القاهرة : المجلد السادس عشر ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٨ - ١٠٥)

« ... ورودرس هذه ، جزيرة كبيرة تقابل بر التركية ، وهى منه
على نحو ستة عشر ميلا ، وبها مدينة كبيرة على ساحلها ، وهى موضع
رباط للنصارى يتناوبون سكناها ، ويأتون إليها من أقاصى بلادهم . ولها
ببلاد النصارى على ما حدثنى من أصدقه أوقاف كثيرة يجتمع من فائدها
فى كل عام مائة ألف ونيّف وأربعون ألفاً من الذهب ، فهى بذلك كثيرة
الذخائر والعمدة ... وهى فى هذا العهد شديدة الإذاية على المسلمين .
وذلك أن نحو ستة عشر جفنًا غزوانيا كانها معدة للقرصنة . لا يفرون عن
الإغارة فى غالب أمرهم شتاء ولا صيفاً . وجميع قراصين النصارى - دمرهم الله -
من يوالها بتلك الجزور والبلاد إنما تزودهم ، وجهاز أمرهم منها . وبها

(١) هذا وصف لما شاهدته سفير سملكتة غرناطة فى طريقه بحرا إلى الاسكندرية ،
سجله السفير بقامه ، والمؤلف يصف جزيرة رودس ويذكر الموقعة البحرية التى حدثت
بين الأسطول المصرى والأسطول رودس . ثم يصف لنا اقامته بالاسكندرية فى ضيافة
نائبها استبغا الطيارى ويصف انتقاله منها إلى القاهرة براً إلى رشيد وعن طريق النهر
من رشيد إلى ثمر بولاق ، ونختم هذا النص بوصف السفير لمقابلته للسلطان وذكر
ما قدمه إليه من هدايا أندلسية .

يبيعون أسراهم وما يجلبون من أموال المسلمين من بر الشام وغيره .
وكان فيها إذ كنا بها أزيد من مائتي أسير من المسلمين رمنا أن نفدى منهم
شيئاً فلم نقدر ، لأن صاحب البلد لما سمع بذلك أمر بمنع الأسارى من الطاوع
إلينا لما كان في غرضه من أن يقدمهم إلى صاحب القاهرة في هدية لعاه يهاده
على ما بلغنا ، فانه منه في خوف شديد .

« ... وهذه المدينة من أحصن المدن وأمنعها . وعلى شرفات سورها
عدة دواليب من خشب تديرها الريح وتحت كل دولاب منها أرحى تدور
بدورانها لطحنهم ، وهى على أحكم صنعه وحسن هندام »

« . . . فوصلنا مدينة الاسكندرية -- حرسها الله -- عشية يوم الخميس
من شهر رجب المذكور والحمد لله على الوصول في كنسف السلامة .
ثم في صبيحة يوم الجمعة ثانی يوم دخولنا وجهنا من يعرف بنا والى الاسكندرية
وكان اسمه صنبغا الطيارى أحد أمراء الترك أنجدهم الله . فوجه إلينا جملة
من ستاق الخيل التى لم يعهد مثلها قدودا وحسن هيئة وكمال زى . وذلك أنهم
يصنعون بتلك البلاد قرابيس سروجهم من خالص الفضة ويموهونها بالذهب
على إحكام صنعه وحسن وشى ، ويضعون مواضع الركوب منها مجالس من
الديباج الملون ، ويجلون اكفال الخيل بستائر من الحرير المذهب مما يروق
الطرف . فقدموا لنا من تلك الخيل ما ركبنا حين نزولنا من البحر ، ودخلنا
فسلم على الأمير بالاسكندرية المذكورة ، وهم يدعونه بملك الأمراء ، وكذلك
كل من يلى المعامل الكبار منهم . فلما دخلنا عليه مرحب بقدومنا حين سلمنا
عليه ، وأمر باحضار مشروب على عاداتهم يرد مع من يرد عليهم من الضيفان
ر نصاد ومن يكرم عندهم . فجىء بأواني زجاج رائق ، فيها من مذايب السكر
المزوج بالورد مما يحبى النفس وينعش القلوب ، فشربوا وشربنا . ثم

أمر بانزالنا واجراء الضيافة عاينا ، فانصرفنا وقد حانت صلاة الجمعة . ثم
فى يوم السبت أنزلنا جميع ما كان لنا بالطرائد من الحوائج والوسق ، وأراحنا
الله تعالى من البحر وأهواله والحمد لله . فأقمنا تحت اياته ثمانية أيام فى أهناً
عيش وأحسن حال . وكانوا يختلفون إلينا فى الغذاء والعشاء بأنواع من المطاعم
التي لم نعهد مثلها وبصنوف من الحلواء والمشروبات ، إلى أن تهيأ السفر إلى
القاهرة حرسها الله فاكترينا جمالا حملناها لجميع ما كان عندنا من الحوائج
والأثاث ، وأصحابنا الأمير المذكور أحد خدامه ليقوم بمؤنثنا فى الطريق
وليعرف بنا . فارتحلنا منها ضحوة يوم الخميس الثالث عشر من رجب
المذكور إلى رشيد ، وصلناها عصر يوم الجمعة ثانى يوم ارتحلنا ...»

مراجع الكتاب

أولاً – المصادر العربية المخطوطة

ثانياً – المصادر العربية المطبوعة

ثالثاً – المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

رابعاً – رسائل غير مطبوعة

خامساً – المراجع الأوربية

مراجع الكتاب

أولا - المصادر العربية المخطوطة

- ١ - ابن الصباغ (أبو علي الحسن بن عمر بن أبي إسحاق) :
« فضائل الاسكندرية » ، نسخة مصورة من نسخة
المكتبة الظاهرية بدمشق ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب ،
بجامعة الاسكندرية ، برقم ٧٧٩ م .
- ٢ - العيني (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد) :
« عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، نسخة مصورة
من مخطوطة أسطنبول ، محفوظة بدار الكتب المصرية
برقم ١٥٨٤ تاريخ .
- ٣ - مجهول : « تاريخ الملك الأشرف قايتباي » ، مخطوطة محفوظة
بدار الكتب المصرية برقم ٨٥٥٤ خ .
- ٤ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) :
« اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » ، نسخة
مصورة من مخطوطة مكتبة سراي أحمد الثالث بإسطنبول
محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ،
برقم ٢٠ م .
- ٥ - : « السلوك المعرفة دول الملوك » ، مخطوطة

مصورة محمد---وظة بدار الكتب المصرية . برقم ٤٥٥
تاريخ

٦ — النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) :

«الإمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية»
نسخة مصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية المقيدة
برقم ١٤٤٩ تاريخ . محفوظة بمكتبة كلية الآداب ،
بجامعة الاسكندرية برقم ٧٣٧ م . ونسخة أخرى مصورة
من مخطوطة الهند . محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة
الاسكندرية برقم ٧٣٨ م . ونسخة ثالثة مصورة من
مخطوطة برلين . محفوظة أيضاً بمكتبة كلية آداب
الاسكندرية ، برقم ٦٦٧ م .

٧ — النويرى (شهاب الدين أحمد) :

«نهاية الأرب فى فنون الأدب» . نسخة مصورة محفوظة
بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

٨ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

«تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين»
نسخة مصورة من مخطوطة باريس ، محفوظة بالمكتبة
العامة لجامعة الاسكندرية برقم ٦٤ مخطوط .

٩ — ————— : «التاريخ الصالحى» ميكرو فيلم مستخرج من النسخة

المصورة المحفوظة بمكتبة كلية الآداب . جامعة-----
الاسكندرية . برقم ٣٢ م .

ثانيا - المصادر العربية المطبوعة

- ١٠ - ابن الأثير (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) :
« كتاب الحلة السيرة » ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس
في جزأين ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١١ - ابن الأثير (على بن أحمد بن أبي الكرم) :
« الكامل في التاريخ » ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ
- ١٢ - الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن العزيز) :
« صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس
مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ،
نشره دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٦٦
- ١٣ - الأصفهاني (عماد الدين أبو عبد الله محمد) :
« كتاب الفتح القسى في الفتح القدسى » ، تحقيق الأستاذ
محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥
- ١٤ - ابن إيساس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) :
« بدائع الزهور في وقائع الدهور » الأجزاء الثلاثة :
الثالث والرابع والخامس ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ،
القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٣ ، وصفحات لم تنشر من
بدائع الزهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ،
القاهرة ، ١٩٥١

- ١٥ — ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتريني) :
« الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، الجزء الأول من
القسم الأول ، القاهرة ١٩٣٩ — الجزء الأول من
القسم الثاني ، القاهرة ١٩٤٢ — الجزء الرابع من القسم
الأول ، القاهرة ١٩٤٥
- ١٦ — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :
« كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، نشره كوديره
Clodera ، مدريد ، ١٨٨٣
- ١٧ — ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) :
« رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظر في غرائب
الأمصار ، وعجائب الأسفار » ، طبعة دار صادر —
دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠
- ١٨ — البغدادى (موفق الدين عبد اللطيف) :
« كتاب الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث
المعينة بأرض مصر » ، القاهرة ١٨٧٠
- ١٩ — البسكرى (أبو حميد الله بن عبد العزيز) :
« كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ،
نشره البارون دي سلان ، الجزائر ١٩١١
- ٢٠ — البسلادى (أحمد بن يحيى بن جابر) :
« كتاب فتوح البلدان » ، تحقيق الدكتور صلاح الدين
المنجد ، في ثلاثة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٧

۲۱ — البیـــــاوی (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني) :
« سيرة أحمد بن طولون » ، تحقيق الأستاذ محمد كرد
علي ، دمشق ، ۱۳۵۸ هـ

٢٢ — التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد) :
« رحلة التجاني » ، تحقيق الأستاذ حسن حسني -
الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨

٢٣ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف الأتابكى) :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، ١٢ جزءاً
طبعة دار الكتب المصرية ، والجزء الثالث من طبعة
وليم بوبر ، كاليفورنيا ، ١٩٣٢

٢٤ - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البليسي) :
« رحلة ابن جبير » ، تحقيق الأستاذ وليم رايت William Wright
العدد الخامس من مجموعات جب التذكارية ،
ليدن ، ١٩٠٧

٢٥ - الجزنساعى (أبو الحسن على) :
« كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » ، نشره
الأستاذ الفريد بيل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٢٦ - ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد) :
« الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، تحقيق
الأستاذ محمد سيد جاد الحق ، في خمسة أجزاء ، القاهرة

٢٧ — ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد) :
« جمهرة أنساب العرب » ، تحقيق الأستاذ ليفي
بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢٨ — الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي) :
« جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ، تحقيق
الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥٢

٢٩ — الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد المنعم) :
« صفة جزيرة الأندلس » ، منتخبة من كتاب الروض
المعطار في خبر الأقطار » ، تحقيق الأستاذ ليفي
بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٣٠ — ابن حوقل النصيبى :
« كتاب صورة الأرض » ، تحقيق كرامرز ، ليدن
سنة ١٩٣٨ ، وطبعة بيروت (مكتبة الحياة) ، بيروت
سنة ١٩٦٢

٣١ — ابن الخطيب (لسان الدين محمد) :
« كتاب أعمال الأعلام » ، فيمن بويج قبل الاحتلام ،
من ملوك الإسلام » ، القسم الأندلسي ، حققه الأستاذ
ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ؛ والقسم المغربي ،
حققه الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ إبراهيم
الكتاني ، بعنوان « تاريخ المغرب العربي من كتاب أعمال
الأعلام » ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

- ٣٢ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر « ، الجزء الأول
(المقدمة) . طبعة مصر (مطبعة التقدم) ، وتحقيق الدكتور
على عبد الواحد وافي ، في أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٧
- ٣٣ - ——— : « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ،
تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١
- ٣٤ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم) :
« وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان » ، طبعة القاهرة
١٢٧٥ هـ
- ٣٥ - ابن دقماق (إبراهيم بن محمد) :
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، الجزء الخامس ،
طبعة بولاق ، ١٣٠٩ هـ
- ٣٦ - ابن أبي دينار القيرواني (محمد بن أبي القاسم الرعيني) :
« المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس » ، تونس ، ١٢٨٦
- ٣٧ - السدهي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان) :
« العبر في خبر من غبر » ، تحقيق الدكتور صلاح الدين
المنجد ، ثلاثة أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠
- ٣٨ - ——— : تاريخ الإسلام ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ
- ٣٩ - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) :
« كتاب الأعلام النفيسة » ، الجزء السابع من المكتبة
الجغرافية العربية ، تحقيق دى غويه ، لندن ، ١٨٨١ -
١٨٨٢ .

٤٠ — ابن الزبير (القاضي الرشيد) :
« كتاب الذخائر والتحف » ، تحقيق الدكتور محمد
حميد الله ، ، الكويت ، ١٩٥٩

٤١ — ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) :
« كتاب روض القرطاس » ، ج ١ ، نشره تورنبيرج ،
Carlos Johannes Tornberg ، أبسال ، ١٨٣٩-١٨٤٣

٤٢ — السبكي (تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب) :
« طبقات الشافعية » ، ج ٤ ، مطبعة النيل ، مصر ، ١٣٢٤

٤٣ — السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) :
« كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك » ، بولاق ، ١٨٩٦

٤٤ — — : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، نشره
الدكتور صالح أحمد العلي في ترجمته لكتاب « عالم
التاريخ عند المسلمين » ، تأليف الأستاذ فرانز روزنثال
بغداد ، ١٩٦٣

٤٥ — — : « الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع » ، القاهرة ،
سنة ١٣٥٤

٤٦ — ابن سعيّد (أبو الحسن علي الأندلسي) :
« المغرب في حلى المغرب » ، الجزء الأول من القسم
الخاص بمصر ، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن
والدكتور شوقي ضيف والدكتورة سيدة كاشف ،
القاهرة ، ١٩٥٣

- ٤٧ - السيلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) :
«الاستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى» ، القاهرة ، ١٩١٠
- ٤٨ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) :
« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، جزآن ،
طبعة مصر ، ١٣٢١ هـ
- ٤٩ - أبوشاهـة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى) :
« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » ، جزآن ،
تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٥٠ - ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) :
« زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ، نشره
بول رافيس Paul Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ .
- ٥١ - ابن شداد (أبو المحاسن يوسف بن رافع) :
« النوادر الساطانية والمحاسن اليوسفية » ، تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٥٢ - الشعـرانى : « الطبقات الكبرى » ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٤٣
- ٥٣ - صالح بن يحيى : « تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بنى
الغرب » ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت
سنة ١٨٩٨ .
- ٥٤ - الضـحى (أبو جعفر أحمد) :
« بغية الملتبس فى تاريخ رجال الأندلس » ، تحقيق
كوديره ، مدريد ، ١٨٨٥

- ٥٥ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :
« تاريخ الأمم والملوك » ، مطبعة ليدن ، ١٨٨٣
- ٥٦ - ابن ظافر الأزدي (جمال الدين علي) :
« بدائع البدائيه » ، القاهرة ، ١٢٧٨ هـ .
- ٥٧ - ابن عبدالحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي) :
« فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، تحقيق الأستاذ
عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ (وطبعة ليدن ،
سنة ١٩٢٠) .
- ٥٨ - ابن عذاري المراكشي : « البيان المغرب في أخبار المغرب » ،
جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- ٥٩ - العسدي (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائل) :
« ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ؛ والبستان في غرائب
البلدان ؛ والمسالك إلى الممالك » ، نشره الدكتور
عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .
- ٦٠ - عريب بن سعد : « صلة تاريخ الطبري » ، تحقيق دي غويه ،
ليدن ، ١٨٩٧
- ٦١ - ابن العماد الحنبلي (عبد الحمي) :
« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » ، القاهرة ،
١٣٥١ هـ
- ٦٢ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) :
« المختصر في أخبار البشر » ، صيدا ، ١٩٥٩ .

٦٣ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :
« تاريخ ابن الفرات » ، تحقيق الدكتور قسطنطين
زريق ، مجلد ٧ ، ٨ ، ٩ ، بيروت ، ١٩٣٨ .

٦٤ — ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد) :
« مختصر كتاب البلدان » ، الجزء الخامس من المكتبة
الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٨٥

٦٥ — ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :
« كتاب الإمامة والسياسة » ، جزآن ، القاهرة ،
١٩٣٧

٦٦ — ابن القطان (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الفاسي) :
« جزء من كتاب نظم الجمان » ، تحقيق الدكتور محمود
علي مكى ، منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد
الخامس بالرباط ، تطوان .

٦٧ — القلقشندي (أبو العباس أحمد) :
« مآثر الإنافة في معالم الخلافة » ، تحقيق الأستاذ عبد
الستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤

٦٨ — — : « صبيح الأعشى في صناعة الإنشا » ، المطبعة الأميرية
القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٥

٦٩ — ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد) :
« تاريخ افتتاح الأندلس » ، تحقيق دون خليان ريبيرا
مدريد ، ١٩٢٦ .

٧٠ — ابن كثير الدمشقي (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) :
« البداية والنهاية في التاريخ » ، ج ١٢ ، طبعة مصر ،
سنة ١٩٣٢

٧١ — الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) :
« كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، تحقيق الأستاذ رفن
جست ، بيروت ، ١٩٠٨ .

٧٢ — المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) :
« كتاب رياض النفوس » ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس
ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١

٧٣ — مجهول : « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » ، لكاتب
مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، تحقيق
الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ،
سنة ١٩٥٨ .

٧٤ — — : « حوليات دمشقية » تحقيق الدكتور حسن حبشي ،
القاهرة ، ١٩٦٨

٧٥ — المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) :
« مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ » ، طبعة
الأستاذ محي الدين عبد الحميد ، ٤ أجزاء ، القاهرة ،
سنة ١٩٥٨

٧٦ — — : « التنبيه والإشراف » ، طبعة بيروت (مكتبة
نخياط) ، ١٩٦٥

- ٧٧ - المقـــــــــــــرى (أحمد بن محمد التلمسانى) :
« نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب » ، طبعة
الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ، عشرة أجزاء ،
القاهرة ، ١٩٤٩
- ٧٨ - المقـــــــــــــريزى (تقى الدين أحمد بن على) :
« كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ،
٣ أجزاء ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ .
- ٧٩ - ————— : « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، جزآن فى ستة
أقسام ، حققهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الجزء
الأول ، قسم ١ ، ٢ (طبعة ثانية) القاهرة ١٩٥٦ ؛
الجزء الأول قسم ٣ ، القاهرة ١٩٣٩ ؛ الجزء الثانى ،
القاهرة ١٩٤١ ؛ وبقية الكتاب مخطوط .
- ٨٠ - ————— : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، تحقيق الدكتور
محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ،
القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٨١ - ————— : « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ،
الجزء الأول نشره الدكتور جمال الدين الشيال عن
المخطوطة الكاملة بمكتبة سراى أحمد الثالث باسطنبول ،
القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٨٢ - ————— : « البيـــــــــــــان والإعراب عما نزل بأرض مصر من
الأعراب » ، القاهرة ، ١٣٣٤ هـ .

- ٨٣ - ابن مساتي (الأسعدي) :
« كتاب قوانين الدواوين » ، جمعه وحققه الدكتور
عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ .
- ٨٤ - ابن منجب الصيرفي (أمين الدين أبو القاسم علي) :
« الإشارة إلى من نال الوزارة » ، القاهرة ، ١٩٢٤
- ٨٥ - النسابلي (عثمان بن ابراهيم) :
« كتاب لمع القوانين » ، تحقيق بيكر وكلود كاهن ،
مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسي بدمشق ، ج ١٦
دمشق ، ١٩٦١
- ٨٦ - ناصر خسرو علوي : «سفرنامه» ، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب ،
القاهرة ، ١٩٤٥
- ٨٧ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، ثلاثة أجزاء
نشرها الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ،
١٩٥٧ ، ١٩٦١ .
- ٨٨ - النعمان (القاضي أبو حنيفة بن محمد) :
« قضية اقريطش في عهد المعز لدين الله » ، تحقيق
الأستاذ فرحات الدشراوي ، حوليات الجامعة التونسية
العدد الثاني ، تونس ، ١٩٦٥ .
- ٨٩ - الهروي (أبو الحسين علي بن أبي بكر) :
« كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات » ، تحقيق جانين
سورديل طومين ، دمشق ، ١٩٥٣ .

- ٩٠ — ابن الوردي (زين الدين عمر) :
« تنمة المختصر في أخبار البشر » ، ج ٢ ، القاهرة ،
١٢٨٥ هـ
- ٩١ — ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الرومي) :
« معجم البلدان » ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥
- ٩٢ — اليعقوبي (أحمد أبي يعقوب بن جعفر) :
« كتاب البلدان » ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية
العربية ، لندن ، ١٨٩١ .
- ٩٣ — ————— : « تاريخ اليعقوبي » ، ٣ أجزاء ، طبعة النجف ،
١٣٥٨ هـ
- ٩٤ — اليعقوبي (قطب الدين موسى بن محمد) :
« الدليل على مرآة الزمان » ، ج ٢ ، حيدر آباد ، ١٩٥٥

ثانياً - المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

- ٩٥ ... أحمد (الأستاذ محمود) : تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ، مقال
في كتاب « في مصر الإسلامية » ، القاهرة ، ١٩٣١
- ٩٦ - أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب في فرنسا
وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، القاهرة ،
١٣٥٢ هـ
- ٩٧ - الأهــ والى (الدكتور عبد العزيز) : سفارة سياسية من غرناطة إلى
القاهرة في القرن التاسع الهجري ، بمجلة كلية الآداب
جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤
- ٩٨ - » : ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن
العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث
١٩٥٧ .
- ٩٩ - بــــــــــــلر (الفريد) : فتح العرب لمصر ، ترجمة الأستاذ محمد
فريد أبو حديد ، القاهرة ، ١٩٥٨
- ١٠٠ - بروفسال (ليفى) : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة
الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح
الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٠١ - بــــــــــــل (آيدرس) : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح
العربي ، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين ، والدكتور
عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٠٢ — توفيــــــــــــــــق (الدكتور عمر كمال) : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ،
الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٠٣ — جمــــــــــــــــعه (الدكتور ابراهيم) : جامعة الاسكندرية ، القاهرة ،
١٩٤٤

١٠٤ — جوانفــــــــــــــــيل : مذكرات جوانفيل ، ترجمة الدكتور حسن حبشى
القاهرة ، ١٩٦٨

١٠٥ — حــــــــــــــــسن (الدكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الدولة الفاطمية في
في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، القاهرة ،
١٩٦٤ .

١٠٦ — حــــــــــــــــسن (الدكتور زكى محمد) : الفن الإسلامى فى مصر ، الجزء
الأول ، القاهرة ، ١٩٣٥

١٠٧ — » : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ،
١٩٤٥ .

١٠٨ — » : فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨

١٠٩ — حــــــــــــــــسن (الدكتور على ابراهيم) : دراسات فى تاريخ الممالك
البحرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

١١٠ — حــــــــــــــــسين (الدكتور محمد عواد) : مقدمة لتاريخ الاسكندرية من
أقدم العصور ، كتاب محافظة الاسكندرية ، الاسكندرية
١٩٦٣ ، ص ٩ — ١٢ .

١١١ — » : تخطيط مدينة الاسكندرية ، مقال فى الكتاب السابق
ص ١٣ — ٢١ .

- ١١٢- حــــــــــــــــين (دكتور محمد عواد) ، ودكتور داود عبده : الاسكندرية
في العصر البيزنطي ، مقــــــــــــــــال في الكتاب السابق ،
ص ٢٠٠ - ٢١٤ .
- ١١٣- دراج (الدكتور أحمد السيد) : جيم سلطان والدبلوماسية الدولية
مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ .
- ١١٤- » : الممالك ، الفرنج ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ١١٥- ديــــــــــــــــسل (شارل) : البندقية جمهورية ارسقراطية ، ترجمة
الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٤٨
- ١١٦- ريــــــــــــــــاض (الدكتور هنري) وآخرون : دليل آثار الاسكندرية ،
الاسكندرية ، ١٩٦٥
- ١١٧- الــــــــــــــــزاوي (الأستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربي ، في ليبيا ،
القاهرة ، ١٩٦٣
- ١١٨- زكــــــــــــــــى (الدكتور عبد الرحمن) : عواصم مصر الإسلامية ،
فصل من كتاب « في مصر الإسلامية » القاهرة ،
١٩٤٧ .
- ١١٩- » : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة
١٩٦٠ .
- ١٢٠- ســــــــــــــــالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : المساجد والقصور في
الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٢١- » : الأندلس ، بحث طويل بدائرة معارف الشعب ،
العدد ٦١ ، ٦٤ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

- ١٢٢- سالم : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى ، مقال بمجلة المحلة ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ .
- ١٢٣- » : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية مقال بمجلة المحلة ، العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ .
- ١٢٤- » : الاسكندرية ، مقال في دائرة معارف الشعب ، العدد ٨٥ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ١٢٥- » : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، أغسطس ١٩٦٣ .
- ١٢٦- » : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ .
- ١٢٧- » : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢
- ١٢٨- » : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامى بيروت ، ١٩٦٣ .
- ١٢٩- » : المغرب الكبير ، الجزء الثانى : العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .
- ١٣٠- » : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
- ١٣١- » : دراسات فى تاريخ العرب ، الجزء الأول : عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- ١٣٢— سالم : المآذن المصرية : نظرة عامة عن أصلها وتطورها
القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٣٣— » : تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس
بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٣٤— » : الحكم ، بحث بدائرة معارف الشعب ، العدد ، ٦٧
القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٣٥— ســــــــــــــــامح (الدكتور كمال الدين) : العمارة الإسلامية في مصر ،
القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ١٣٦— ســــــــــــــــرور (الدكتور محمد جمال الدين) : دولة بني قلاوون في
مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧
- ١٣٧— » : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ،
١٩٥٧ .
- ١٣٨— » : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ١٣٩— ســــــــــــــــلام (الدكتور محمد زغلول) : الأدب في عصر صلاح
الدين الأيوبي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩
- ١٤٠— شــــــــــــــــيرة (الدكتور محمد عبد الهادي) : الاسكندرية من الفتح
العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، مقال في الكتاب
الذي أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩
- ١٤١— الشــــــــــــــــيال (الدكتور جمال الدين) : الإسكندرية في العصرين
الأيوبي والمملوكي ، مقال في الكتاب الذي أصدرته
غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ .

١٤٢- الشيبسال : الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٤٩ .

١٤٣- » : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٤٤- » : الفسطاط ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد ١٢ ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

١٤٥- » : مصر في العصر الفاطمي ، مقال في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء السادس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٤٦- » : أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٤٧- » : تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٤٨- » : أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر ، سلسلة أعلام العرب ، عدد ٧٤ ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٤٩- شيبسالوب (الأستاذ صديق) : جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مقال بمجلة الكتاب ، فبراير ، ١٩٤٩ .

١٥٠- طرخسان (الدكتور على) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٥١- طوسون (الأمير عمر) : تاريخ خليج الاسكندرية القديم الاسكندرية ، ١٩٤٢ .

١٥٢ — عابدين (الأستاذ عبد الحميد) : دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل ، ملحقة بكتاب « البيان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب » ، للمقرىزى ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٥٣ — عاشــــــــور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) : قبرس والحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ .

١٥٤ — » : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩

١٥٥ — » : الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٥٦ — » : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٥٧ — العــــــــادى (الدكتور أحمد مختار) : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

١٥٨ — العــــــــادى (دكتور مصطفى) : الاسكندرية فى العصر الرومانى ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٥٨ — ٩٩ .

١٥٩ — عبد التواب (الأستاذ عبد الرحمن) : منشآتنا المائية عبر التاريخ ، المكتبة الثقافية ، عدد ٩٦ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٦٠ — عبد الحكيم (الدكتور محمد صبحى) : مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٦١ — عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) : ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، مجلد ٨ ، ديسمبر ١٩٥٤ .

- ١٦٢ — عبد الحميد: (دكتور سعد زغلول) الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، مقال بالكتاب الذى أصدرته محافظة الاسكندرية ، ص ٢١٧ - ٢٨٩ .
- ١٦٣ — عبد الوهاب (الأستاذ حسن) : تاريخ المساجد الأثرية ، الجزء الأول القاهرة ، ١٩٤٦ .
- ١٦٤ — » : الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، مجلة الكتاب ، عدد عدد يناير ١٩٤٧ .
- ١٦٥ — » : قلعة قايتباى أثر إسلامى عظيم فى وسط البحر ، جريدة الأهرام ، الصادرة فى ٢٥ يونيو ١٩٤٩ .
- ١٦٦ — » : العمارة فى العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ، عدد ٧ ، ٨ القاهرة ، ١٩٤٠
- ١٦٧ — عثمان (الأستاذ فتحى) : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى ، والاتصال الحضارى ، ثلاثة أجزاء القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ١٦٨ — العبدوى (الدكتور ابراهيم أحمد) : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٥٠ .
- ١٦٩ — » : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ١٧٠ — » : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

- ١٧١ — العــــــلى : قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط ،
القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١٧٢ — العــــرىنى (الدكتور السيد الباز) : مصر فى عصر الأيوبيين ،
القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٧٣ — عطية (الدكتور عزيز سورىال) : الاسكندرية المسيحية ،
مقال فى كتاب الغرفة التجارية ، الصادر فى ١٩٤٩ .
- ١٧٤ — عكــــوش (الأستاذ محمود) : مصر فى عهد الأسلام ، دار الكتب
القاهرة ، ١٩٤١ .
- ١٧٥ — عــــلى (الدكتور زكى) : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر
الحضارة فيها فى عصر البطالمة ، مقال بمجلة كلية الآداب
جامعة الاسكندرية ، المجلد الثانى ، ١٩٤٤ .
- ١٧٦ — » : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، مقال فى
فى الكتاب الذى أصدرته الغرفة التجارية بالاسكندرية ،
١٩٤٩ .
- ١٧٧ — عنــــان (الأستاذ محمد عبد الله) : مصر الإسلامية وتاريخ
الخطط المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١ .
- ١٧٨ — الفخــــرانى (الدكتور فوزى) : حمامات الاسكندرية الرومانية ،
مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، عدد ١٦ ،
١٩٦٣ .
- ١٧٩ — فــــرج (الأستاذ فؤاد) : الاسكندرية ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

١٨٠- الفيلكى (محمود باشا) : الاسكندرية القديمة ، ترجمة الأستاذ محمود صالح الفيلكى ، ومراجعة الدكتور محمد عواد حسين ، الاسكندرية ، ١٨٦٧ .

١٨١- فييت (الأستاذ جاستون) : المواصفات في مصر في العصور الوسطى ، مقال ترجمة الأستاذ محمد وهبى ، في كتاب « في مصر الاسلامية » ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

١٨٢- القبانى (الأستاذ عبد العليم) : شعراء الاسكندرية في العصور الاسلامية ، مجموعة كتب « مذاهب وشخصيات » ، عدد ١٠١ .

١٨٣- كاشف (دكتورة سيده اسماعيل) : مصر في عصر الولاة منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٨٣- » : والدكتور حسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٨٥- لبيب (دكتور صبحى) : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢ .

١٨٦- لـويس (أرشيد-الد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٨٧- ماجيد (الدكتور عبد المنعم) : الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ، ١٩٦١

١٨٨ — ماجد : نظم الممالك ورسومهم في مصر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٨٩ — ماركيلانيوس (أميانوس) : مصر في القرن الرابع ، ترجمة الدكتور وهيب كامل .

١٩٠ — مؤنس (الدكتور حسين) : أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

١٩١ — ميسارك (على باشا) : الخطط الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها ، بولاق ، ج ٧ ، ١٣٠٥ هـ .

١٩٢ — مرزوق (الدكتور محمد عبد العزيز) : الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ .

١٩٣ — » : صناعة النسيج في الاسكندرية في عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٢ .

١٩٤ — مرفس (الأستاذ سليم أنطون) : الكشف الأثرية تحت مياه البحر الأبيض المتوسط ، مقال في كتاب دراسات أثرية ودراسات تاريخية من مطبوعات العيد الماسي للجمعية الآثار بالاسكندرية ، الإسكندرية ، ١٩٦٨ .

١٩٥ — مكي (الدكتور محمود نلى) : التشيع في الأندلس ، مقال بصحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤ .

١٩٦- مــــكى (الأستاذ الطاهر أحمد) : معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، مجلة الحلة ، عدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١ .

١٩٧- مــــويـــــر ((وليم) : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة الأستاذ محمود عابدين وسليم حسن ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

١٩٨- النجــــسار (الأستاذ أحمد) : الإنتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٩٩- نسيم (الدكتور جوزيف) : لويس التاسع فى الشرق الأوسط القاهرة ، ١٩٥٩ .

٢٠٠- نصـــــحى (الدكتور ابراهيم) : تاريخ مصر فى عصر البطلمة ، ج ١ القاهرة ، ١٩٤٦ .

٢٠١- » : مصر فى عصر البطلمة والرومان ، مقال فى المجمل فى التاريخ المصرى .

٢٠٢- يــــحـــــي (الدكتور لطفى عبد الوهاب) : مقدمة لحضارة الاسكندرية ، دراسة فى حضارة البحر الأبيض ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٢٠٣- » : دراسات فى تاريخ مصر ، الجزء الأول : عصر البطلمة ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٢٠٤- يــــنـــــى (جورجى) : تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨٦ .

رابعاً - رسائل غير مطبوعة

٢٠٥ - ا.ب. - راهيم (الأستاذ أحمد طه) : « تونس من سقوط الدولة الصنهاجية حتى قيام الدولة الحفصية » رسالة مقدمة للدرجة الماجستير بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية نوقشت في ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٨ .

٢٠٦ - بايع (الدكتور محمد توفيق) : « آثار السلطان قايتباي في الاسكندرية (قلعة قايتباي) : رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير بكلية الآداب جامعة الاسكندرية في مايو سنة ١٩٥٥ .

خامسا - المراجع الاوربية

- 207 — Abbadi (Moustapha) : Alexandria citizenship, The Journal of Egyptian Archaeology, vol. 48, 1962, (pp. 106 - 123).
- 208 — Alarcon (Max.) & Linares (R. Garcia de) : Los Documentos arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940.
- 209 — » » : Lampara de los Principes, Madrid, 1930.
- 210 — Atiya (Aziz Surial) : The Crusade in the later Middle ages, London, 1938.
- 211 — Blachère : Extraits de principaux geographes arabes du Moyen âge, Paris-Beyrouth, 1932.
- 212 — Breccia : Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1922.
- 213 — de las Cagigas (Isidro) : Andaluces en Africa, Boletín de la Real Academia de Ciencias, Bellas Letras y Nobles artes de Cordoba, ano VIII, 1929, No. 25.
- 214 — Cahen (Claude) : La Chronique abregée d'Al-Azimi, dans Journal Asiathique, Juillet-Septembre, 1938.
- 215 — » » : La Chronique des Ayyubides d'Al-Makin b. al-Amid, 1957.

- 216 — Cheira (M.A.H.) : La Lutte entre Arabes et Byzantins,
Alexandrie, 1947.
- 217 — Cheira (Etien) : Alexandrie musulmane, Notes de topogra-
phie et d'histoire de la ville, depuis la conquête
arabe jusqu'à nos jours, dans : Bulletin de la
Société Royale de Géographie d'Egypte, t.
XV, 1933.
- 218 — » : Le fort Quat-Bay à Rosette, dans Bulletin de
la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie,
(S.R.A.A.) No. 33, 1939.
- 219 — » : Notes sur les forts d'Alexandrie, et de ses
environs, dans B.S.R.A.A., No 34, 1940 - 1941.
- 220 — » : Notes de Topographie Alexandrine, B.S.R.A.A.
No. 34, 1944.
- 221 — » : Les Sultans mamloûks Ashraf Sha'bân et
Ghuri à Alexandrie, B.S.R.A.A. No. 30 -
31, 1937.
- 222 — » : Notes de topographie et d'histoire Alexandrine.
B.S.R.A.A., No. 36.
- 223 — » : Nouveaux sabres européens à inscriptions
arabes de l'Arsenal d'Alexandrie, B.S.R.A.A.
vol. X

- 224 — Combe : & de Cosson : European swords with arabic inscriptions from the Armoury of Alexandria, B.S.R.A.A. vol. IX
- 225 — » : Le texte d'Al-Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Alexandria, vol. III, 1946.
- 226 — » : Les Levés de Gravier d'Ortières à Alexandrie, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Alexandria, vol. I, May, 1943.
- 227 — » : Pierre Martyr d'Anghiera et le drogman du Sultan Ghami, Bulletin of the Faculty of Arts of Alexandria, vol. II, 1944.
- 228 — de Cosson : Notes of the Forts of Alexandria and environs, in B.S.R.A.A. No. 33, 1939
- 229 — Creswell : Some rescarches in the citadel of Cairo, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, t. 23.
- 230 — » : Works of Sultan Bibars, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. XXVI, 1946
- 231 — Diehl (Ch.) : Histoire du Moyen âge, t. III, le Monde Oriental, Paris, 1936.

- 232 — Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols.
ed. Lévi-Provençal, Leyde, 1932.
- 233 — Fahmy (Aly Mah.) : Muslim sea - power in the eastern
Mediterranean, Cairo 1966.
- 234 — Guest (R.) : Encyclopédie de l'Islam, article "Alexandrie"
- 235 — Heyd : Histoire du Commerce du Levant, au moyen-
âge, t. I, Leipzig, 1923.
- 236 — Jondet (G.) : Les ports submergés de l'ancienne île de
Pharos, Mémoire de l'Institut d'Egypte, vol.
IX, le Caire, 1916.
- 237 — » : Les ports antiques de Pharos, B.S.R.A.A.
No. 14, 1912.
- 238 — Kahle (Paul) : Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alex.
dans Mélanges Maspéro, t. III, L'Orient
Islamique, le Caire, 1940.
- 239 — Lane (Arthur) : Early Islamic Pottery , London.
- 240 — Lane-Poole (S.) : A history of Egypt in the middle ages,
London, 1936.
- 241 — Lévi-Provençal (E.) : Une description arabe inédite du Phare
d'Alexandrie, Mélanges Maspero, III, le
Caire, 1940.
- 242 — Lovillo (J. Guerrero) : La Puerta de Cordoba en la cerca de
Sevilla, al-Andalus, Madrid, 1953.

- 243 — Makhairas (Léontios) : Recital concerning the sweet Land of Cyprus entitled « Chronicle », ed. by Dawkins, vol. I, Oxford, 1932.
- 244 — Marques de Lozoya : Historia del arte Hispánico, t. I, Barcelona, 1913.
- 245 — Marzouk(M.A.) : Alexandria as a textile centre, B.I.S.A.C., t. XIII.
- 246 — » » : Three signed specimens of Mamluk pottery from Alexandria, Ars Orientalis, t. II, 1957.
- 247 — Oman : The dark ages, London, 1958.
- 248 — Pauty (Edmond) : Les Hammams du Caire, Le Caire, 1933.
- 249 — Pedro Martir : Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, traducción española por Luis Garcia, Valladolid, 1917.
- 250 — Pons Boigues (F.) : Ensayo Bio - bibliográfico sobre los historiadores y Geografos arabigo espanoles, Madrid, 1898.
- 251 — Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t.7 - 12, le Caire, 1936.
- 252 — Sadique (Syedah Fatima) : Baybars I of Egypt, Pakistan, 1956
- 253 — Tousoun (Omar) : Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe au XIIe siècle, B.S.R.A.A. fasc. 30, 1930.

- 254 — Vasiliev : Byzance et les Arabes, t. 1, La dynastie
d'Amorium, Bruxelles, 1935.
- 255 — Viajes de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918.
- 256 — Ziada (M. Mustafa) : The mamluk conquest of Cyprus,
Bulletin of the Faculty of arts, University of
Egypt, vol. I, part. 1, May, 1933.

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

مقدمة الطبعة الأولى والثانية ٣

القسم الأول

التاريخ

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي

- الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي ١١
- منشآت البطالة في الاسكندرية ٢٨
- (١) مسار الاسكندرية... .. ٢٨
- (٢) دار الحكمة والمكتبة ٣٤
- (٣) المعابد ٣٦
- (٤) السوما أو ضريح الاسكندر ٣٨

الفصل الثاني

الاسكندرية بعد الفتح العربي

- (١) فتح العرب للاسكندرية ٥١
- (٢) أسباب عدول العرب عن اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر
- الإسلامية ٥٧

صفحة

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية في التمرون الثلاثة الأولى للهجرة

- (١) نذر الاضمحلال قبيل الفتح العربى. ٧٥
(٢) اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربى وأسبابه ٧٩

الفصل الرابع

الاسكندرية في العصر الأموى.

- (١) الاسكندرية دار رباط ٩١
(٢) مظاهر اهتمام الولاة بالاسكندرية ٩٩
(٣) الإسكندرية أهم قاعدة بحرية عربية في البحر المتوسط ... ١٠٧

الفصل الخامس

أحداث الاسكندرية في العصر العباسى

- (١) الاسكندرية قاعدة هامة للأسطول العباسى ومركز رئيسى
للحملات إلى المغرب. ١١٩
(٢) غزاة البحر الأندلسيون يستولون على الاسكندرية .. ١٢٥
أ — ثورات أهل الخوف الشرقى وامتدادها إلى الاسكندرية ١٢٥
ب — مشكلة الأندلسيين الوافدين : هل هم ربضيون أم غزاة
بحر ؟ ... ١٢٨
ج -- استيلاء الأندلسيين على الاسكندرية ... ١٣٨
د -- جلاء الأندلسيين عن الاسكندرية واستيلائهم على اقريطش ١٤٢

صفحة

(٣) ثورات بني مدلج في الاسكندرية ١٤٧

الفصل السادس

الاسكندرية في ظل الطولونيين والعباسيين

(١) في العصر الطولوني ١٥٥

(٢) في ظل العباسيين (بعد سقوط الدولة الطولونية) ١٦٧

الفصل السابع

الاسكندرية في العصر الفاطمي

(١) دور الاسكندرية في الأحداث السياسية في هذا العصر ١٨١

أ — حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٩ — ٤٦٥) ١٨٥

ب — حركة الأوحاد بن بادر الجمالي (٤٧٧) ١٨٩

ج — نوبة الاسكندرية في ٤٨٨ ١٩١

د — اشتراك الاسكندرية في الصراع بين الوزراء ١٩٥

(٢) أهمية الاسكندرية كمقاعدة بحرية للفاطميين ٢٠١

(٣) منشآت الفاطميين في الاسكندرية ٢١١

— المنشآت الحربية ٢١٢

ب — المنشآت المدنية ٢١٤

ج — المنشآت الدينية ٢٢٠

١ — جامع العطارين ٢٢٠

٢ — مسجد الطرطوشي ٢٢٢

٣ — مسجد المؤمن ٢٢٤

صفحة

٤ - ضريح الطرطوشي ٢٩٢

الفصل الثامن

الاسكندرية في العصر الأيوبي

- (١) أسباب اهتمام صلاح الدين وخلفائه بالاسكندرية ٢٣٣
- (٢) مظاهر اهتمام صلاح الدين بالاسكندرية ٢٤٣
- أ - تدعيم الدفاع البرى والبحرى. ٢٤٣
- ب - انشاء المدرسة والبيمارستان ودار المغاربة وعمارة الخليج .. ٢٤٦
- (٣) عمران الاسكندرية في العصر الأيوبي ٢٥٠
- (٤) تجارة الاسكندرية ٢٥٧
- (٥) أهم أحداث الاسكندرية في عصر الأيوبيين ٢٦٥
- أ - حملة صاحب صقلية على الاسكندرية في ٥٦٩ ٢٦٥
- ب - أحداث الاسكندرية الداخلية. ٢٦٩

الفصل التاسع

الاسكندرية في أزهى عصورها الاسلامية

(عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون)

- (١) مظاهر عناية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالاسكندرية (٦٥٨ - ٦٧٦) ٢٧٥
- ١ - الزيارة الأولى في سنة ٦٦١ ٢٧٧
- ٢ - ما أجرى في الاسكندرية من أعمال إصلاحية فيما بين زيارتي السلطان الأولى والثانية. ٢٨٢

صفحة

٣	-- الزيارة الثانية في سنة ٦٦٤	٢٨٢
٤	- الزيارة الثالثة في سنة ٦٦٨	٢٨٣
٥	-- حركة الأسطول في سنة ٦٦٩	٢٨٥
٦	-- الزيارة الرابعة في سنة ٦٧٣	٢٨٧
(٢) الاسكندرية في عصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون		
	وخلفائه حتى الأشرف شعبان	٢٨٩
	أ -- أعمال الناصر محمد بالاسكندرية	٢٨٩
١	-- ترميم منسار الاسكندرية	٢٨٩
٢	-- حفر خليج الاسكندرية الحديد أو الخليج الناصري	٢٩٢
ب	-- ازدهار الاسكندرية في عصر الناصر محمد	٢٩٥
ج	-- أحداث الاسكندرية الهامة في عصر الناصر محمد و خلفائه	٢٩٧
١	-- وقعة أهل الذمة في رجب سنة ٧٠٠ و ربيع	
	الآخر سنة ٧٢١	٢٩٧
٢	-- حركة تجار الفرنج بالاسكندرية في سنة ٧٢٧ .	٢٩٩
٣	-- سنة الفناء أو الوباء الأعظم في سنة ٧٤٩	٣٠١
٤	-- الاحتفال بزيارة الأمير شيخو العمري للاسكندرية	
	في سنة ٧٥٠	٣٠٤

الفصل العاشر

غزوة القبارصة للاسكندرية وآثارها

(١)	أسباب قيام بطرس لوزنيان بالحملة	٣١٠
	(٤١)	

صفحة

- (٢) حملة بطرس القبرصى على الاسكندرية ٣٢١
- أ - أحوال الاسكندرية عند وصول الحملة ٣٢١
- ب - موقعة الجزيرة خارج باب البحر وهزيمة المسلمين ٣٢٩
- ج - موقف جنغرا بعد الهزيمة ٣٣٢
- د - اقتحام القبارصة أسوار الاسكندرية وغيثهم في المدينة ٣٣٤
- هـ - استرجاع المماليك للاسكندرية ٣٤٤
- و - صدى غزوة القبارصة في العالم الاسلامى والعالم الأوروبى
المسيحى ٣٤٦
- (٣) الأحداث السياسية التى أعقبت وقعة القبارصة بالاسكندرية... ٣٥١
- أ - تحويل الاسكندرية من ولاية إلى نيابة... ٣٥١
- ب - سياسة الضغط على مصر لعقد الصلح مع قبرص .. ٣٥٤
- ج - غزوة القبارصة للاسكندرية فى سنة ٧٧٠ هـ ... ٣٦٣
- (٤) تحصين الاسكندرية وتعمير منشآتها العامة بعد الوقعة ... ٣٧٠
- ١ - فى نيابة سيف الدين الأكز... ٣٧٠
- ٢ - فى نيابة صلاح الدين خليل بن عرام ... ٣٧٣
- المرحلة الأولى (سنة ٧٦٩ هـ). ٣٧٤
- المرحلة الثانية (سنة ٧٧١ هـ). ٣٧٦
- المرحلة الثالثة (سنة ٧٧٧ هـ). ٣٧٧

الفصل الحادى عشر

الازدهار الأخير وبداية عصر الاضمحلال
(الاسكندرية فى عصر دولة المماليك الشراكسة)

- (١) الاسكندرية منذ قيام دولة المماليك الشراكسة حتى بداية عصر
الأشرف قايتباى ٣٨٣
أ. -- فى عصر الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ - ٨٠١) وولده
الناصر فرج (٨٠١ - ٨١٥) ٣٨٣
ب. -- فى عصر السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤) والسلطان
الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١) ٣٨٦
١. -- اعتداءات القبارصة والكتيلان على سواحل مصر
والشام ٣٨٦
٢. -- فتح قبرص ٣٨٨
٣. -- تدهور الحياة الاقتصادية ٣٩٠
٤. -- إعادة حفر خليج الاسكندرية ٣٩٢
(٢) الاسكندرية فى عصر السلطان الملك الأشرف قايتباى (٨٧٢ -
٩٠١) ٣٩٥
أ. -- انتشار الطاعون ٣٩٥
ب. -- عيث الروادسة فى مياه الاسكندرية ٣٩٦
ج. -- زيارة الأشرف قايتباى للاسكندرية (فى ربيع الأول سنة
٨٨٢ وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٨ هـ) ٣٩٨

صفحة

- (٣) الاسكندرية في عصر السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ — ٩٢٢) ٤٠٣
- أ — اضمحلال الاسكندرية ٤٠٣
- ب — زيارة السلطان الغورى الأولى للاسكندرية (فى ذى القعدة ٩٢٠) ... ٤٠٦
- ج — زيارة السلطان الغورى الثانية للاسكندرية (فى رمضان ٩٢١) ... ٤١١
- (٤) الاسكندرية فى العصر العثمانى ... ٤١٥

القسم الثانى

الحضارة

الفصل الثانى عشر

التوسع العمرانى والمنشآت

صفحة

- (١) تطور العمران الاسكندري فى العصر الاسلامى ٤٢٥
- (٢) العمارة الحربىة ٤٣٥
- ا . أسوار الاسكندرية ٤٣٥
- ب . أبواب الاسكندرية ٤٤٤
- ج . قلاع الاسكندرية ٤٥٤
- برج شرقى -- برج ضرغام ... ٤٥٤
- برج باب سدره -- برج باب الزهرى -- قلعة السلسلة .. ٤٥٥
- برج كوم وعلة أو كوم النظورة ... ٤٥٦
- قاعة رماة القرافة ٤٥٧
- قلعة قايتباى ... ٤٥٨
- د . بعض التحصينات الأخرى ... ٤٦٩
- (٣) العمارة الدينيـة ٤٧١
- ا . المساجد ٤٧١
- ب . المدارس ودور الحديث والخوانق ٤٧٦
- المدرسة الخلاصية ٤٧٦
- المدرسة النابلسية ... مدرسة الفخر -- مدرسة البليسي --
- مدرسة ابن حباسة -- مدرسة التكريتى ٤٧٧

ص. فـتـحـة

- ٤٧٨ دار الحديث التكريتية — دار الحديث النبهية ...
مدرسة الدمامي — المدرسة الخضراء — خانقاه بيليك
- ٤٧٩ المدرسة الحافظية ...
مدرسة قايتباي — المدرسة والمارستان الصلاحى ...
- ٤٨٠ الربط ج —
١ — رباط الوسطى ...
٢ — رباط سوار
٣ — رباط الهكارى ...
٤ — رباط ابن سلام
٥ — رباط وتربة الأمير طغية
٦ — رباط قجماس الاسحاقى
- ٤٨٣ (٤) العمارة المدنية ..
١ — القصص — ور ...
ب — الدور الخاصة والعامة ...
٤٨٨ دار الضرب ...
٤٩٢ بيت المال ودار العدل
٤٩٣ دار الصناعة ...
٤٩٤ ج — الحمامات ...
٤٩٧ د — الفنادق والوكالات والقيساريات ...
٥٠٥ هـ — الصهاريج والخزانات ...
٥٠٩ و — القنطرة والمقياس
٥١٠

صفحة

الفصل الثالث عشر

الحياة الاقتصادية والعلمية

٥١٥	(١) التجارة والصناعة وصيد الأسماك
٥١٥	أ - التجارة
٥٢١	ب - الزراعة
٥٢٣	ج - صيد الأسماك
٥٢٥	(٢) الصناعات
٥٢٥	١ - صناعة النسيج
٥٢٩	٢ - صناعة الخزف
٥٣١	٣ - صناعة الزجاج
٥٣٣	(٣) الحياة العلمية

فهرس «لاحق الكتاب

- ١ - ذكر ما اتفق للمسلمين مع البنادقة والجنوية بمينة الاسكندرية الشرقية... ٥٤٥
- ٢ - ذكر العناية بالإسكندرية وتولية أمير أمراء بها يصير مقما كدمشق وحلب... ٥٤٧
- ٣ - ذكر تاريخ ولاية ملك الأمراء طيدير الباسي ثغر الاسكندرية المحروس وما اتفق في ذلك من ولايته للمسلمين مع طائفة الإفرنج الكافرين... ٥٥١
- ٤ - ذكر قدوم سيف الساطان الملك الأشرف شعبان من القاهرة إلى الاسكندرية ونصب كرسي الملك بها سنة ٧٦٩ هـ... ٥٥٩
- ٥ - زيارة الملك الأشرف شعبان للاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ... ٥٦١
- ٦ - ذكر خبر ابراهيم التازي راييس دار الصناعة بالاسكندرية وما فعله بالفرنج من الخايز وغير ذلك... ٥٦٩
- ٧ - منتخبات من معاهدة الصلح المعقودة بين الأشرف برسباي والفونسو الخامس ملك أرغون في سنة ٨٣٣ هـ... ٥٧٩
- ٨ - زيارة الساطان الأشرف قايتباي الأولى للاسكندرية في ربيع الأول سنة ٨٨٢... ٥٨٣
- ٩ - زيارة الساطان قايتباي الثانية للاسكندرية في جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ... ٥٨٧
- ١٠ - زيارة الساطان قانصوه الغوري الأولى للاسكندرية في ذي القعدة سنة ٩٢٠ هـ... ٥٨٩
- ١١ - رحلة سفير غرناطة إلى الساطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٤... ٥٩٣

فهرس الصور والخرائط


- ١ - جانب من البرج الاسلامى بالشلالات ٢٣
- ٢ - منار الاسكندرية وفقاً لوصف المؤرخين ٢٩
- ٣ - خريطة توضح أسوار الاسكندرية وبعض معالمها فى عصر
أحمد بن طولون: ١٦١
- ٤ - ضريح الشيخ الطرطوشى من الخارج ٢٢٥
- ٥ - ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى من الداخل ٢٢٥
- ٦ - اللوحة التأسيسية لجامع العطارين بالاسكندرية ٢٧٧
- ٧ - قلعة قايتباى كما كانت فى سنة ١٧٨٥ ٢٤٧
- ٨ - صور من قلعة قايتباى مأخوذة من كتاب وصف مصر ٢٥٣
- ٩ - منظر يمثل مسجد قلعة قايتباى مأخوذ من كتاب وصف مصر ٢٥٩
- ١٠ - خريطة الاسكندرية فى عصر السلطان الأشرف شعبان ٣٢٠
- ١١ - باب رشيد كما رسمه الفنان كاساس فى سنة ١٧٨٥ ٣٣٧
- ١٢ - برج من أبراج السور الاسلامى بالشلالات ٣٤١
- ١٣ - جانب من باب الزهرى. ٣٤١
- ١٤ - البرج الاسلامى بالشلالات ٣٧١
- ١٥ - باب الزهرى (جانب خلفى من السور) ٣٧١
- ١٦ - قلعة قايتباى : صورة تمثل أحد الممرات بداخل الجدار
الخارجى للقلعة المطل على البحر ٣٧٩
- ١٧ - خريطة تمثل الاسكندرية فى عصر الحملة الفرنسية ٤١٧

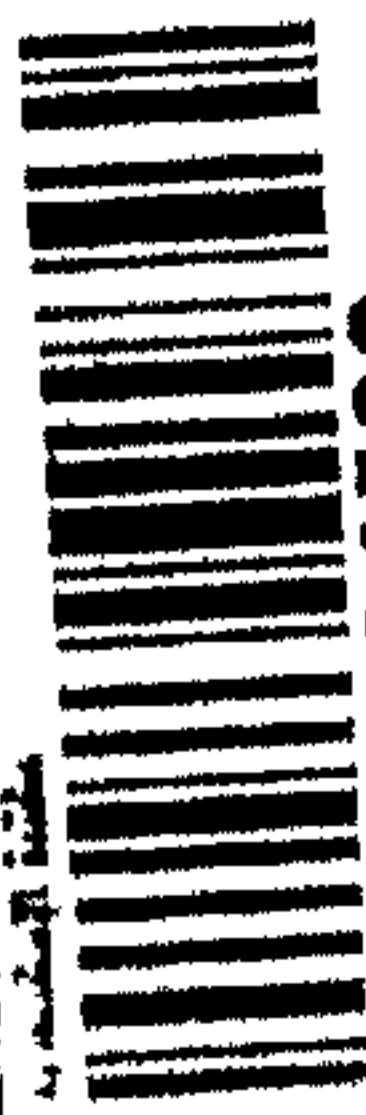
- ١٨ - جانب من سور الاسكندرية الشرقى بالقرب من باب شرقى . ٤٤١
- ١٩ - باب بقلعة قايتباى ٤٤١
- ٢٠ - تخطيط لقلعة قايتباى ٤٤١
- ٢١ - واجهة البرج الرئيسى بقلعة قايتباى ٤٦٣
- ٢٢ - القبوة التى تعلو أسطوان المدخل ببرج قايتباى ٤٦٣
- ٢٣ - فسيفساء أرضية الصحن بمسجد برج قايتباى ٤٦٧
- ٢٤ - مسجد الشيخ أبى العباس المرسى ٤٧٣
- ٢٥ - واجهة احدى الدور القديمة بالاسكندرية ٤٨٩

استدراك

أولاً - ذكرت في صفحة ٢٢ ، ٢٦ من هذا الكتاب أنه تبقى من أسوار الاسكندرية القديمة آثار برج نصف دائري بحداثق الشلالات ، والحقيقة أن هذا البرج وما يليه من آثار السور والبرج المستطيل الشكل هي جميعاً من بقايا السور الاسلامى ، وقد أوضحت ذلك فى الفصل الذى خصصته لأسوار الاسكندرية (ص ٤٣٥ - ٤٦٩) ، أما البرج الرومانى الذى أشرت إليه فكنت أعنى به البرج الذى كان قائماً فى أيام الحملة الفرنسية وما بعد ذلك بقليل بالقرب من مسلى معبد كليوباترة .

ثانياً - عندما تحدثت فى ص ٤٨٣ عن القصور فأتى أن أضع موضوع القصور والدور وغيرها من المؤسسات المدنية تحت عنوان « العمارة المدنية » ، وقد تداركت ذلك فى فهرس موضوعات الكتاب .

 Bibliotheca Alexandrina



0224506